مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء

من كوبنهاجن الى صنعاء



تأليف

ثوركيل هانسن

***

ترجمة

محمد أحمد الرعدي

دار العودة . بيروت

مركز الدراسات والبحُوث اليمني - صنعاء

توركيل هانسن

من كوبنهاجن إلى صنعاء

قصة البعثة العلمية التي قام بها العلامة الشهير نيبور مع أربعة علماء
أوربيين شهيرين إلى بلاد اليمن بين عامي (١٧٦٧ – ١٧٦١)

ترجمة
محمد أحمد الرعدي

دار العودة – بيروت

إسكنر للرسم والخرائط
أنس إسماعيل الحفصي

مراجعة الأخطاء المطبعية
إدارة وأعضاء مجموعة اليمن تقرأ

صف وتنسيق وتجهيز النسخة الإلكترونية
عبد الرحمن عمر علان

الإهداء

إلى روح الشهيد الخالد

محمد محمود الزبيري



مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : الدكتور عبد العزيز المقالح

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذي ترجمه وقدم له صديقي وزميلي الأستاذ محمد أحمد الرعدي استقبله القارئ المتخصص باهتمام كبير وكان ظهوره باللغة العربية بمثابة الكشف عن مخطوط نفيس أو نقش نادر يؤرخ لأول حملة علمية أوربية وصلت إلى اليمن وزارت مصر قبل دخول الحملة الفرنسية الشهيرة بنصف قرن تقريباً.

وحين وقع هذا الكتاب في يدي قرته بشغف عظيم وسارعت إلى كتابة عرض عنه نشرته يومئذ في العدد الأول والأخير من مجلة (الآثار) وقد أوضحت في ذلك العرض السريع إعجابي بالكتاب وبالترجمة وبالمترجم، كما دونت بعض الملاحظات التي عنت لي أثناء القراءة وتصورت أن بعضها قد تكون عونا للقارئ ودعوت له تدوين ملاحظاته أيضاً.

واليوم وقد رأى مركز الدراسات والبحوث اليمني أن يعيد طبع الكتاب فقد طلب إليَّ صديقي وزميلي الأستاذ محمد الرعدي أن أمهد له بتصدير شرح أهميته ويؤكد على ضرورة معرفة بداية الاحتكاك العملي بين الغرب والشرق، ومعرفة ما أسماه الغرب بـ (حوار الحضارات) وما أسميناه نحن العرب ببداية عصر الاستعمار، وهو العصر الذي يعترف الغرب نفسه أنه لم يأت ارتجالاً وإنما سبقته حملات مختلفة (لجمع المعلومات العلمية التي تفيد التجار وتفيد الساسة في بداية عصور الاستعمار الحديث) وسبقته كذلك دراسات متنوعة تمهد له الطريق نحو الشرق عامة والشرق العربي والإسلامي بخاصة.

وقد رأيت استجابة لرغبة الصديق والزميل الأستاذ محمد الرعدي أن أعيد نشر ما كتبته عن الكتاب بعد ظهوره ليكون تمهيداً أو تعريفاً أو نموذجاً لما تركته طبعته الأولى من أصداء، وفي ما يلي النص الكامل لذلك التعريف الذي نشرته مجلة «الآثار» ١٩٧٦ :

وفي العشر السنوات الأخيرة نشطت الكتابات عن اليمن. وظهر في المكتبة العربية أكثر من كتاب جاد، وبعض هذه الكتب يتحدث عن ماضي هذه البلاد التي ظلت منسية طيلة نصف قرن من الزمان. وبعضها الآخر يعرض الحياة السياسية والثقافية للإنسان الحديث في اليمن المعاصر. ومنها ما هو مؤلف ومنها ما هو مترجم ومن بين الكتب المترجمة التي استأثرت باهتمامي وأمتعتني فكرياً ووجدانياً كتاب (من كوبنهاجن إلى صنعاء) لمؤلفه الدنماركي (توركيل هانسن) والذي قام بنقله عن الإنجليزية إلى العربية الأخ الأستاذ محمد بن أحمد الرعدي في لغة قوية مشرقة.

والكتاب – من كوبنهاجن إلى صنعاء – بموضوعه البالغ الأهمية وبأسلوبه الروائي الجذاب، يروي تفاصيل رحلة علمية وسياسية ، كانت قد قامت بها بعثة أوربية مؤلفة من ستة أفراد من الدانمرك إلى اليمن، ولم يعد إلى وطنه من أفراد البعثة هذه البعثة سوى واحد، ولقي الباقون مصرعهم في البر أو البحر، شأنهم شأن عشرات الآلاف من الرواد وطلائع الكشوف العلمية والاستعمارية في مطلع عصور الارتياد والاكتشافات الحديثة.

شيء عن المقدمة:

وقبل أن تطويني صفحات الكتاب في غمار الأحداث الشيقة والمؤسية، تستوقفني عند مدخله المقدمة الممتازة التي كتبها الأخ محمد أحمد الرعدي، وعرض فيها جانب من الشجون والشئون المحلية في الظروف التي سبقت ورافقت مرحلة ترجمته للكتاب (١٩٦٦ – ١٩٦٨) وإذا كنت اعترف بأنني ألتقي مع الأخ محمد في النتائج التي توصل

إليها في مقدمته وبخاصة تلك الدعوة المخلصة إلى تضافر جهود القوى الجديدة ورص الصفوف الشابة والوطنية وإخضاع الأفكار والنظريات لصالح الشعب، ومن أجل حماية الوحدة الوطنية، إذا كنت ألتقي مع الأخ الرعدي من حول هذه النتائج، فأني أختلف معه اختلافاً غير يسير حول بعض النقاط التي طرحها ليصل من فوقها إلى تلك النتائج الحاسمة ومن الواضح أن المقدمة قد كتبت في ظروف كانت ردود الفعل إزاء ما كان قائماً من أوضاع ما تزال حادة.

ولو كان الأخ محمد قد ترك لحسه الوطني ولرؤيته الناقدة فرصة تحليل الأمور بعيداً عن ردود الأفعال الآنية، لأدرك منذ البداية أن السلبيات لن تنتهي بل ربما ستزيد، وأنه قد يأتي عليه يوم يقف فيه مع الشاعر العربي القديم مردداً في حزن:

رب يوم بكيت منه فلم   صرت في غيره بكيت عليه

لقد أدان الأخ الرعدي بعنف الأوضاع التي كانت قائمة قبل تشرين – نوفمبر ١٩٦٧، واستنكر بعض التصرفات غير المسئولة لطائفة من الشباب الوطني السابقة، لذلك فقد جاءت أحكامه في كثير من الأحيان متسرعة ومدينة للرافضين – مع وجود أسباب للرفض – ولم يكن يدري – كما أسلفنا القول – أن الوضع الذي يدين الآخرين سيصبح هو الآخر مداناً، وأن السلطة في بلادنا – مع غياب الوعي الوطني الصادق والقدوة الحسنة – ستظل الجحيم الذي كلما دخلته أمة لعنت أختها – على حد التعبير القرآني الرائع – وهذه الملاحظات الهينة لا تقلل من أهمية المقدمة الممتازة وبخاصة تلك النظرات التي تتوجه إلى المستقبل بقصد الإثارة والكشف:

(على الطليعة اليمنية في هذه المرحلة أن تعمل جهدها لتقديم الدراسات العلمية عن واقع بلادها. ومن هذا الواقع عليها أن تحدد أهدافا وخططاً علمية لبناء نهضة اليمن المستقبلية، لتكون أساساً لتجميع القوى لجمهورية متحدة في إطار واحد لتحقيق هدف

واحد) (وبدراسة الواقع اليمني دراسة علمية وواقعية ستتمكن من معرفة الشروط الموضوعية للواقع ومن معرفة المرحلة التي تمر بها اليمن يكون في الإمكان معرفة ما تحتاج إليه في هذه المرحلة، لأن ما تحتاج إليه في هذه المرحلة هو دون شك غير ما تحتاج إليه في مراحل أخرى من حياتها، وآمالها ومطامحها الآن هي دون شك ليست آمالها ومطامحها بعد مائة سنة مثلاً، فهي الآن تسعى لبناء مدرسة وفتح طريق، وبناء أجهزتها الحكومية، وإشباع جائع ومعالجة مريض بينا قد يكون هدفها في المستقبل إرسال رجل يمني إلى القمر في آلة من صنع يمني، وغير ذلك من الإنجازات التي لا تخطر الآن على بال أحد)

إنها نظرات حكيمة وفي غاية الصواب تلك التي طرحتها المقدمة بعد أن تخلصت من تأثير ردود الفعل الآنية، ولا يمكن أن يختلف حول هذه الحقائق اثنان من اليمن، يحبان بلادهما ويعملان من أجلها. وقد اجتزأت الفقرات السابقة لتكون محل اعتبار وعناية من الشباب الذي لا يدري في معظم الأحيان إلى أين يسير.

هذا وقد أنهى الأخ محمد الرعدي مقدمته الممتازة والتي كتبها منذ سبع سنوات تقريباً بجملة من التساؤلات هي: (كيف نخرج أنفسنا من دوامة المخلفات؟ وكيف نصمد في وجهها ونوقفها عند حدها؟ وكيف نضع أهدافا لنا واضحة محددة تستغرق مجهوداتنا وتقضي على مخلفاتنا، وتكون إطاراً لالتفاف كل القوى الجمهورية؟) وهي تساؤلات – كما نرى – ما تزال قائمة حتى الآن تطرح نفسها بإلحاح على كل الشرفاء في اليمن.

الهدف الحقيقي من الرحلة:

والآن إلى الكتاب.. إلى القسم الأول منه، وهو القسم الذي يتحدث فيه المؤلف عن نشوء فكرة البعثة العلمية في عاصمة (الدنمرك) وإرسالها إلى اليمن السعيد. ثم عن تكون أفراد هذه البعثة والعقبات التي كادت تحول دون تنفيذ الرحلة، وهي عقبات معظمها يعود إلى ظروف المبعوثين ومستوياتهم الخلقية والنفسية.. وأخيراً عن التسهيلات التي وجدتها البعثة والاهتمام الذي قوبلت به على الصعيدين الرسمي

والشعبي. وسأسمح لنفسي بالقفز إلى نهاية هذا القسم حيث يردد المؤلف مع (فورسكال) رئيس البعثة: لماذا يجب أن تدعى (العربية السعيدة) بالسعيدة ونبحث عنها عبر البحار الواسعة؟ وقد ظل هذا السؤال يتردد في أكثر من مكان من الكتاب، وهو في حين يطرح كترجمة لحالة الملل التي تعتري أفراد البعثة، وفي أحايين أخرى يطرح تعبيراً عن حسن نية الجماعة القليلة من المغامرين الدانمركيين الذين هجروا بلادهم وراحتهم في خدمة البشرية، كما يقول المؤلف وهو هنا يحاول أن يتجاهل الدوافع غير العلمية من وراء تلك الرحلة، مع أن أوربا بأجمعها في ذلك العصر – وليس الدنمارك وحدها – كانت بعثاتها موزعة في كل مكان تحت الشمس بحثاً عن مناطق النفوذ والثروة. وكانت أحاديث هذه الرحلات شغل أوربا الشاغل، ولو لم يكن للبعثة – موضوع الكتاب – هدف سياسي يعبر عن طموحات سياسية لما قوبلت بكل ذلك القدر من الاحتفاء الرسمي والشعبي. فقد ذكر الكاتب (أن الناس في مدينة (كوبنهاجن) قابلوا سفر البعثة بزهو وطني كبير، وأحسوا بأنهم قد ملكوا الدنيا وهو يقومون بهذا العمل العظيم)

كما أشار الكاتب كذلك إلى (أن وزير الخارجية قد أظهر استسلاماً لا حد له أمام كل الطلبات الحارة للبعثة) كما أن ملك الدنمارك نفسه كان مهتماً بتجهيز البعثة ومتابعة أعمالها، وقبل السفر زود جلالته أفرادها بثلاث وأربعين نصيحة في مقدمتها: (أن يتعاملوا مع (المحمديين) بحذر شديد، واحترام دينهم، وعدم التصرف مع نسائهم كما يتصرفون مع النساء الأوربيات)

لقد حاول مؤلف الكتاب نفسه أن يساعدنا على تحديد الهدف الحقيقي للبعثة حينما تساءل هل كان هدف البعثة هو فقط مجرد فتح آفاق جديدة للمعرفة في سبيل ترجمة أكثر صحة للكتاب المقدس؟ ثم يجيب: (إنهم مهما أولوا الناحية الدينية من اهتمام فإننا نستطيع أن نضعها جانباً ذلك أن الدين قد استغل عبر التاريخ بحجج تخفي وراءها مهام غير مستهجنة)



ويقول أيضاً: (وهناك أمر آخر يؤكد هذا ذلك أن جميع الرسائل المتعلقة بالبعثة لم تشر إلى الناحية الدينية مطلقاً، إذاً هل قاموا برحلتهم كي يعرفوا لماذا سميت البلاد (اليمن السعيدة بهذا الاسم؟ وهذا الأمر بالطبع لم تشر إليه أية رسالة، ولم يكن بالأمر الجدي) هذا ما يقوله المؤلف الذي يعود فيؤكد من جديد (أن البعثة إلى اليمن السعيدة كانت تجسم ذلك الشوق المستحكم لدى سكان شمال أوروبا نحو أرض سعيدة، في أي مكان في الجنوب، الشوق الذي ينبعث ويتحرك، لكنه حينما يصل إلى الغرض المقصود يصبح حباً للاستطلاع)

لقد كادت الفقرة الأخيرة تفصح عن الهدف الحقيقي.. عن أشواق كوبنهاجن الواقعة في سطح الدنيا إلى صنعاء النائمة في القاع.

لقد كان للبعثة إذاً هدفان أحدهما علمي لا غبار عليه، والآخر سياسي عليه كل الغبار ومن هنا فقد كانت تلك الرحلة المؤسية الشجية عملة ذات وجهين الأول له جمال العلم والشرف والتضحية والآخر في قبح الاستعمار والعبودية والابتزاز.

الذهاب.. والإياب:

تألفت البعثة من ستة أفراد هم: فورسكال عالم نباتات، فون هافن عالم لغويات، ونيبور مهندس أو (مساح أرض)، وبورنفانيد رسام، وكرامر طبيب، وبرجرن خادم. وكان خط سير البعثة كما رسمه المسئولون عنها بالاتفاق مع وزارة الخارجية الدنماركية يبدأ (بالرحيل على مركب وجهته القسطنطينية ومن هناك إلى الإسكندرية، ثم السويس ونزولاً في البحر الأحمر إلى جدة القريبة من مكة ثم إلى ميناء المخاء في اليمن السعيدة) وقد تمت الرحلة كما رسم لها باستثناءات طفيفة كزيارة سيناء والنزول في اللحية بدلاً من المخاء (وبعد انتظار طويل.. ها هم الرجال الستة جميعهم في طريقهم إلى ذلك البلد الذي يحمل أحد الأسماء السحرية التي تسمى بها الأماكن التي تعرفها أشواقنا فقط. إلى

الأرض التي سماها الإسكندر (EUDAIMONO ARABIA) لأنه فشل في غزوها، وكان الرومان يسمونها (العربية السعيدة) (ARABIA FELIX) وسماها المستر فون هافن في رسائله الشيقة اللغة الفرنسية (I'ARABIE HEUREUSE) أي العربية السعيدة..).

وبعد سبع سنوات كأنها الدهر انتهت الرحلة الحزينة، وعاد آخر فرسانها إلى (كوبنهاجن) (لقد توجهوا جميعاً إلى العربية السعيدة، ولكن لم يعد من هؤلاء الرجال الستة إلى الدنمارك إلا واحد فقط) لقد بدأت الرحلة بهم جميعاً في يناير عام ١٧٦١، وانتهت بعودة (نيبور) في نوفمبر ١٧٦٧.

النتائج الإيجابية للرحلة:

من الطبيعي أن تختلف نظرتنا – نحن في اليمن – إلى إيجابيات هذه الرحلة عن نظرتهم هم – في الدنمارك – وإلى ما حققه أفراد البعثة السيئة الحظ. وفي ما يتعلق بي كقارئ عربي من اليمن فقد أجابت الرحلة أو على الأصح الكتاب الذي تحدث عنها على سؤال هام شغلني طويلاً منذ بدأت أقرأ في تاريخ اليمن القديم. ولست أبالغ إذا قلت إن هذا الكتاب قد أعاد لي الثقة في جانب كبير من تاريخنا القديم فقد كنت كلما انتهيت من قراءة أي من الكتب التاريخية التي تتحدث عن الحقبة التاريخ التي كانت فيها اليمن سيدة البحار القديمة وهمزة الوصل بين الشرق والغرب كنت أخرج من هذه الكتب بما يشبه الإدانة الخفية لتلك الفترة باعتبارها مرحلة تزييف وخداع دولي. أليس كل المؤرخين القدامى وحتى المحدثين يؤكدون أن خصوبة اليمن «الخضراء» أمر مشكوك فيه تماماً وأن معظم صادرات اليمن قديماً كانت منقولة من الهند ومن سواحل أفريقيا الشرقية، وأن أجدادنا – سامحهم الله – قد كانوا يحتفظون لأنفسهم بهذا السر حتى لا ينافسهم في تجارتهم أحد، وعندما اكتشف الآخرون هذا السر انهارت تجارة اليمن وانهار مركزها الحضاري والدولي وواصلت الانهيار حتى صارت إلى ما هي عليه الآن في القاع.



هذا ما تقوله كل الكتب التاريخية أو معظمها، وقد جاء هذا الكتاب، أو على الأصح جاءت البعثة الدنماركية لتثبت أن اليمن – ليس غيرها – قد كانت مصدر البخور والمر واللبان ومصدر كثير من المنتجات التي كان الغرب ما يزال يهتم بها، وقد أثبتت البعثة بالدليل المادي القاطع أن اليمن حتى إلى ما قبل قرنين من الزمن، أي في الفترة التي زارتها أثناءها كانت ما تزال عامرة بالخصوبة محتفظة بأنواع عديدة من الأشجار والآقاويه الصالحة للتصدير، وقد حققت البعثة في اليمن – كما يقول أحد أفرادها (فورسكال) العالم النباتي – أعظم اكتشاف نباتي بالعثور على شجرة البلسم المكاوي (ولعله المخاوي نسبة إلى المخاء). يقول (فورسكال) في رسالة بعث بها من بيت الفقيه إلى البروفسور (لينوس) في (كوبنهاجن): (إني أعرف الآن نوع شجرة البلسم فهي تنمو في اليمن، لكن السكان هنا لا يعرفون كيف يجمعون البلسم منها، إني لا أستطيع أن أسجل اكتشافي في رسائل خاصة، غير أن ما يمكن قوله، هو أن هذه الشجرة ليست الـ (Pistas) وليست الـ (Lentilus) ولكنها من نوع البراون (BROWN'S GENERA) وقد جمعت أيضاً عدداً لا يصدق من النباتات الأمريكية والهندية ونباتات أخرى جديدة، لكن ليس من المسموح أن أسجلها في قوائم مفصولة عن بعضها البعض، وعلى أي حال سوف تظهر هذه الاكتشافات إلى الوجود إذا وهبني الله العمر والصحة. وفي الحقيقة يستحق حقاً هذا البلد أن ترسل إليه بعثة زراعية خاصة ويجب التمسك بأن يكون إرسال هذه البعثة على شرف البروفسور (ميشاليس) في كوبنهاجن. وإذا لم يطل بي العمر حتى أناقش معك ما جمعته من نباتات فسوف أخسر ويخسر العلم معي عندئذ أكثر مما تتصور)

في هذه الرسالة وحدها ما يكفي لدحض المزاعم التي روج لها بعض المؤرخين المتعجلين من العرب وغير العرب. وفي هذه الرسالة أيضاً ما يثبت أن اليمن كانت حقاً سعيدة وتتمتع – فضلاً عن الموقع الاستراتيجي البالغ الأهمية – بخصوبة نادرة وأرض كريمة العطاء.



وكما أعادت بعض أجزاء الكتاب الثقة إلى نفسي في جانب كبير من تاريخنا القديم فقد كشفت أجزاء أخرى منه من الخصائص الإنسانية والأخلاقية والحضارية للإنسان اليمني في عصر الرحلة. وبالمقارنة بين إنسان اليمني ذي الحس الحضاري بالإنسان في بقية الأقطار التي زارتها البعثة في تلك الفترة نجد أنفسنا أمام ظاهرة تستحق التسجيل والإشارة يقول الكتاب: (لم يكن أحد من أعضاء يخامره أدنى شك في سبب تسمية هذه البلاد بذلك الاسم المشهور «العربية السعيدة» فكل شيء حتى ذلك الوقت كان يدل على أن هذه الأرض التي يتهيأون لاكتشافها لأول مرة في تاريخها هي حقاً أرض السعادة على وجه الأرض...) لماذا هي أرض السعادة على وجه الأرض؟ يواصل الكتاب في مكان آخر من صفحاته: (وسار فورسكال في هذه المناطق دون أن يحاول أحد تهديده أو تكدير صفوه، وقد كتب في رسالة إلى البروفسور لينوس يقول: (قبل الآن كنت مضطراً أن أواجه الأبحاث النباتية واللصوص في وقت واحد) لقد شعر براحة كبيرة في اليمن حيث علم أن باستطاعته مواصلة أبحاثه النباتية في سلام وأمان، مواجها أقل العوائق كما لو كان في بلده) وفي ماعدا الأمراض والمضايقات الشخصية من داخل أفراد البعثة أنفسهم وكيد بعضهم لبعض فإن بقاءهم في اليمن كان فترة ضيافة طويلة يقول المؤلف: (وهاهم الآن بعد أن واجهوا في رحلتهم الصعاب الكثيرة يصلون البلد الذي قصدوه فيستقبلون فيه استقبال الضيوف الذي طال انتظارهم، ويرحب بهم كما يرحب بالأصدقاء القدماء العائدين إلى وطنهم...).

وأخيراً فقد شد اهتمامي إلى ذلك الكتاب الجانب الذي يتحدث فيه عن أوضاع المدن اليمنية في القرن الثامن عشر وبخاصة مدينة (صنعاء) هذه المدينة البائسة التي كانت في ذلك القرن خيراً منها في الأربعينات والخمسينات بعد أن فقدت طابعها الاقتصادي واكتفاءها الذاتي وأصبحت عالة زراعيا وصناعياً على اليابان، وهونج كونج، وو.. إلخ. يرى الكاتب

نقلاً عن مذكرات نيبور عن مدينة (صنعاء) ما يلي: (زار السوق الكبير ووصف أزقته المتخصصة في بيع الوقود والفحم والحديد والعنب والذرة والزبدة والملح، والخبز الذي تقتصر التجارة فيه على النساء كما هو غالباً في كل مكان في جزيرة بالعرب. كما يوجد سوق خاص لإبدال الملابس القديمة بأخرى جديدة. ويوجد أكشاك للبضائع الهندية والتركية والإيرانية، ويوجد بالمدينة أعشاب وعلاجات وفواكه مجففه وطازجة كالكمثرى والمشمش والخوخ والتين. وتوجد شوارع خاصة للأعمال المهنية المختلفة للحدادين وللاسكافيين وصانعي السروج والخياطين وصانعي القبعات والبنائين والصباغة ومجلدي الكتب والكتبة، وفي كل مكان توجد الخضروات الطازجة بكميات كثيرة، واستطاع (نيبور) أن يحصي أكثر من عشرين نوعاص من العنب. لقد تجاوزت عاصمة اليمن السعيدة كل توقعاتهم فصنعاء كانت حقا جنة الله على الأرض..).

هكذا انبهر أولئك الأوربيون القادمون من شمال الكرة الأرضية بصنعاء القرون الوسطى فهل سيأتي يوم ينبهر فيه آخرون بصنعاء الجديدة؟ ذلك ما نتمنى. ولن يتحقق ذلك الحلم إلا بمزيد من الكتابات والكتب المؤلفة والمترجمة.



مقدمة الطبعة الأولى

يروي لنا هذا الكتاب قصة خمسة علماء أوروبيين بعثهم ملك الدنمارك في بعثة علمية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إلى البلد الذي كانوا يسمونه في مذكراتهم: «العربية السعيدة».

كانت تلك البعثة هي أول بعثة ترسلها دولة إلى اليمن، وأهم بعثة ترسلها أوروبا حتى ذلك الوقت، الذي فيه شغلت العلوم والاكتشافات عقول الأوروبيين إلى درجة جعلت ذلك الملك يولي البعثة اهتماماً كبيراً، رغم مشاغله الكثيرة، بسبب الحروب العديدة التي كانت تخوضها شعوب أوروبا في ذلك الوقت، ورغم أوضاع الدنمارك المالية المنهارة من جراء المصروفات الباهظة للجيوش المحاربة، لأنه كان يرى في هذه البعثة فرصته الفريدة لتحقيق انتصارات علمية عظيمة، تكسبه شعبية كبيرة في حياته، وتخلد اسمه بعد مماته، فقد كانوا في ذلك الوقت – حسب رأي مؤلف الكتاب – من السذاجة ما جعلهم يهتمون كثيراً بسمعتهم وشهرتهم بعد الموت.

ومنذ البداية لم تسر أمور البعثة سيراً حسناً، فقد بدأت – للأسف – الخصومات والمنافسات تمزّقها وتشمل الحقد في صدور أعضائها حتى تحوّلت رحلتهم إلى (دراما) عنيفة مليئة بالدسائس والشكوك ومحاولات القتل بالسم.

ويبدو لنا، وهم على ظهر تلك السفينة التي حملتهم معها من الدنمارك إلى تركيا، كأن أحقادهم قد أثارت ضدهم الطبيعة، فزادتهم هذه حقداً على حقد وبؤساً على بؤس وجعلتهم يعيشون بين الحياة والموت وهم يصارعون البحر الهائج، والعواصف الثائرة والبرد القارس، ويرون بأعينهم البحر وهو يبتلع من وقت لآخر، أحد بحارة سفينتهم.

وما أن هدأت الطبيعة الغاضبة، حتى ظهر خطر جديد، لم يكن في حسبانهم، فقد اعترضت طريقهم، في عرض البحر السفن الحربية الإنكليزية لعدة مرات، وعاشوا أحلك ساعات حياتهم وهو يستعدون أكثر من مرة لمقاتلتها، كما واجهوا في بعض البلدان التي زاروها تهديدات بعض اللصوص الذين كانوا يعترضون طريقهم أثناء سفرهم وأثناء قيامهم بالأبحاث والدراسات خارج المدن.

أما في العربية السعيدة، فلم يواجهوا خطر اللصوص، لكنهم واجهوا بدلاً من ذلك، الأمراض وجشع الحكام وأخيراً، واجهوا الموت الذي كان في انتظارهم، فأخذهم إليه واحداً تلو الآخر، إلّا نيبور فقد وقف الموت أمامه جامداً، رغبة منه في أن لا تبلغ قساوته القضاء على كل أثر للبعثة وعاد نيبور إلى أوروبا وحيداً بعد أن خلّف وراءه كل رفاقه.

وحين وقع النص الانكليزي لهذه القصة في يدي، وبدأت في قراءته، شعرت أنني أعيش بمشاعري كل لحظة من لحظات هذه البعثة، كما كنت كيمني، أعيش في الوقت نفسه واقع بلادي المؤلم، فأصبحت لهذا أعيش في وقت واحد مأساتين: مأساة البعثة الدنماركية، ومأساة بلادي. وكنت كلما زاد ألمي من واقعي وواقع بلادي أهرب إلى الكتاب.

كان ذلك في عام ١٩٦٦، وفي عام ١٩٦٧ حين كانت اليمن تعيش في ظل ذلك الحكم الظالم الذي سلب الثورة من كل معانيها، وحارب المؤتمرات الوطنية في عمران وخمر وغيرها، الثورة التي حُوِّلت إلى مجرد شعارات جوفاء تخفي وراءها الدجل والزيف وأبشع الجرائم.

وبعد قيام حركة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، وبعد أن أبعدت قيادة أولئك الجمهوريين المخربين، الذي ضربوا بمدافعهم، دون رحمة، المدينة الآمنة صنعاء في شهر



آب (أغسطس) من عام ١٩٦٨، بعد هذا كله تجد اليمن نفسها متحررة من كثير من الأغلال التي أخَّرتها وأفقدتها مكانتها التاريخية الحضارية، كما تجد أن عليها الآن أن تتلمس ملامح نهضتها المرجوَّة لتصنع تخطيط، فتحمل معها الارتباكات والمضاعفات وإضاعة الجهود والآمال.

ومن أجل ذلك لا بد لنا أن نعرف أنفسنا معرفة جيدة وأن نعرف ما نريد معرفة جيدة أيضاً لنصنع مستقبلنا عن علم لا عن جهل، بعد أن عشنا عشرات السنين جاهلين أنفسنا.

ولسوف تساعدنا كثيراً قراءة ما كتبه الأوربيون عنا في محاولتنا دراسة أنفسنا، ووضعنا وتاريخنا، لأن البداية الحقيقية لنهضة اليمن لا تكون إلا بدراسة تاريخ البلاد، وعلم بجغرافيتها، ودينها، ونفسيتها، وعاداتها، واقتصادياتها وكل شيء فيها. ثم يأتي العمل المستمر لتطويرها على ضوء ما سبق من دراسات شاملة، وأهداف محددة واضحة.

والنهضة ما هي إلا تنمية لإمكانيات البلاد وإصلاح لظروفها ومحاربة لأوجه السوء في هذه الظروف وتقوية لأوجه القوة والخير فيها. وليس في استطاعتنا، كما ليس في استطاعة غيرنا من الشعوب، أن نستورد نهضتنا من الخارج، كما نستورد البضائع، وإلا لكان الأمر سهلاً. والنهضة التي نطلبها ليست مجرد نقل لبعض وسائل المعيشة المادية الحديثة. إنها بناء كامل للإنسان اليمني من كل الوجوه.

إن مهمة الطليعة اليمنية في هذه المرحلة هي أن تعمل بكل جهدها، لتقديم الدراسات العلمية عن واقع بلادها. ومن هذا الواقع عليها أن تحدد أهدافاً وخططاً علمية لبناء نهضة اليمن المستقبلة، لتكون أساساً لتجمع القوى الجمهورية متحدة في إطار واحد لتحقيق هدف واحد.

إن للبلاد في هذه المرحلة من حياتها مصلحة، ربما اختلفت عن مصلحة بعض الأفراد وبعض التجمعات، وعلينا أن نكشف بالعلم والدراسة هذه المصلحة حتى نميِّزها عن غيرها من المصالح الخاصة، التي يعرقل وجودها – في هذه المرحلة – مسيرة الشعب نحن تحقيق آماله. والعمل على تحديد مصالح الشعب وتوضيحها يوفر جهود أبناء اليمن جميعاً، كما أنه يخفف من عوامل الفرقة والتباغض في المجتمع اليمني، التي خلَّفتها لنا مرحلتا ما قبل الثورة وما بعدها حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧.

أما إذا تركنا الأمور تسير على علاتها، فإن مصلحة اليمن الحقيقية لا بدَّ أن تضيع في خضم الفوضى الفكرية، أو ما يمكن أن نسميه بـ «دوامة الأفكار» التي يعمل غير الواعين على خلقها بالعمل لآراء وحلول قرؤوها في الكتب لبلدان ظروفها غير ظروفنا، وستكون النتيجة الوحيدة لعملهم هذا هي تفرقة شمل الطليعة المتعلمة من اليمنيين – وهم قلة – وإتاحة الفرصة لتعصف باليمن الانتهازية والتعصبات المذهبية والحزبية والدعوات الانفصالية، وتكون النتيجة أيضاً سيطرة المغامرين على شؤون البلاد، وإبعاد رجال الرأي الخيرين، ومجيء انقلاب عسكري بعد آخر، وضياع البلاد في ظلام التآمر والحقد والفوضى.

ولسنا ضد الأفكار والنظريات البنّاءة مهما كانت، فنحن يجب أن تكون دائماً مع الفكر، لكننا فقط ضدَ من لا يُخضع فكره ونظرياته لخدمة مصالح بلاده العاجلة في هذه المرحلة من تاريخها، ويكون سبباً لعرقلة جهودها وإثارة الصراعات المخرِّبة بين أبنائها.

إن الحرية التي قامت الثورة من أجل تحقيقها، ليست مطلقاً حرية الفوضى. إنها حرية مسؤولة، حرية مقيَّدة بمصالح البلاد، حرية من أجل بنائها لا من أجل إضاعتها في تيارات الأفكار، خاصة وهي لازالت جاهلة بسيطة ليس لديها القدرة على التمييز بين الغث والسمين وما يفيدها وما لا يفيدها.



نحن نريد أن نستخدم الحرية من أجل الشعب لا ضده، من أجل تحريره من الجهل والمرض والفقر لا من أجل أن نتوه به. وعلى الحكومة ألا تتردد لحظة واحدة أن توقف – التحقيق والدراسة – كل من يخرِّب مصالح الشعب باسم الحرية، عند حدِّه.

إن قراءتنا لهذا الكتاب ستفتح أمامنا مجالاً لمقارنة واقع بلادنا اليوم بواقع الدنمارك في منتصف القرن الثامن عشر، وواقع وطننا اليوم بواقعة في ذلك الوقت.

وبالطبع سوف لا تكون هذه المقارنة إلا بداية لمقارنات أخرى وافية، لأن ما أورده المؤلف في هذا الكتاب من ملاحظات ودراسات لم تكن إلا النزر اليسير من ملاحظات البعثة الدنماركية ودراساتها لشئون اليمن في ذلك الوقت. كما أن قراءة الكتاب ستتيح الفرصة لعمل مقارنة لأحوال الدنمارك في ذلك الوقت بأحوالها الآن، وأحوال الدنمارك ومشاكلها وآمالها في ذلك الوقت بأحداث اليمن ومشاكلها اليوم.

ومن أجل هذا، فلنا أن نتساءل: هل أصبحت اليمن اليوم في وضع شبيه بوضع الدنمارك في مائتي عام؟ وهل مشاكلها اليوم وتطلعاتها قريبة الشبه بمشاكل وتطلعات الدنمارك في ذلك الوقت؟

إن جواب هذين السؤالين يزيدنا معرفة أكثر بنفوسنا وواقعنا والمرحلة التي تعيشها بلادنا اليوم، والفرق الزمني الحضاري بيننا وبين أوروبا، كما أن الجواب سيوضح لنا فيما إذا كان هذا الفرق الزمني الحضاري بيننا وبين أوروبا يزد أو ينقص؟ وهل ينقص نتيجة لمحاولات اليمن الفعالة للحاق بالقرن العشرين، أو أنه يزيد نتيجة، إما أننا لا نتقدم، أو أننا نتأخر، أو أن تقدمنا ليس في سرعة تقدُّم أوروبا؟

إن هذه الدراسة المقارنة مفيدة، لأن المطلوب من اليمن ليس فقط أن تتقدم، بل المطلوب منها أن تتقدم بسرعة معيَّنة مدروسة، بحيث يكون في استطاعتها يوماً ما اللحاق بالقرن العشرين، وإلا ستظل متخلفة عنه مهما تقدمت.

وبمعرفة المرحلة التي تمرُّ بها اليمن، يكون في الإمكان معرفة ما تحتاج إليه في هذه المرحلة، لأن ما تحتاج إليه في هذه المرحلة، هو دون شك غير ما تحتاج إليه في مراحل أخرى من حياتها. وآمالها ومطامحها الآن هي دون شك ليست آمالها ومطامحها بعد مائة سنة مثلاً، فهي الآن تسعى لبناء مدرسة وفتح طريق وبناء أجهزتها الحكومية وإشباع جائع ومعالجة مريض، بينما قد يكون هدفها في المستقبل إرسال رجل يمني إلى القمر في آلة من صنع يمني، أو غير ذلك من الإنجازات التي لا تخطر الآن على بال أحد.

فإن قُدِّم للشعب ما يحتاج إليه في تسلسل علمي مدروس جاءت حاجياته مكملة لبعضها البعض، وإذا حديث وقدِّمت إليه حاجة قبل أخرى، فإن استفادته من هذه الحاجة المقدمة إليه قد لا تكون كاملة، وقد تضطرب حياته اضطراباً كبيراً نتيجة لذلك.

إننا لا نريد أن نقع في الخطأ ونترك أمورنا تسير ارتجالاً، على أساس أنها لابدَّ أن تسير في الطريق الصحيح، فقد أصبح التخطيط اليوم أحد المظاهر البارزة لحياة القرن العشرين، وهو وحدة القادر على إعطائنا نتائج كبيرة بإمكانيات محددة في أقصر وقت ممكن.

وإذا ألقينا نظرة متفحصة على واقعنا بعد الثورة، فإننا نجد أن من أسباب القلق فيه، وجود الفوضى والارتجالية واختلاف وجهات النظر في كيفية البدء في حل مشاكلنا. ومن مظاهر الفوضى محاولات البعض نقل نظريات وأساليب خارجية، ورفع شعارات طنَّانة ليس لها مدلول حقيقي في الواقع اليمني.

ونحن حين نقرأ هذا الكتاب علينا أن نمعن النظر في نوع المرحلة التي كانت تعيشها الدنمارك حين أرسلت بعثتها إلى بلادنا قبل مائتين سنة تقريباً، وهي المرحلة التي كانت فيها تتباهى باستقدام العلماء والشعراء إلى بلادها وفتح المجالات أمامهم للإنتاج والإبداع، والتي فيها تباهت أيضاً على كل أوروبا بإرسال بعثتها إلا بلادنا

ونحن الآن، بعد مائتين سنة، بماذا نتباهى؟ إننا لن نجد شيئاً حقيقياً نتباهى به، لأننا لن نجد إلا الأنانية مستحكمة بالنفوس، والدجل والتضليل، والتصرفات العاطفية تجلسنا وترفعنا، وعلاقات مخربة بين الهيئات وبعضها جوفاء تملأ بها الدنيا عويلاً وضجيجاً، وفلسطين الضائعة بين أيدينا.

لقد استطاع فورسكال، أحد أعضاء البعثة الدنماركية، أن يناضل من أجل الحريات المدنية في بلاده السويد، دون أن يتعرض لا للقتل ولا للسجن ولا للتشرد من بلاده. وكان ملك بروسيا في ذلك الوقت، يقضي أوقات فراغه في العزف على الناي مع يوهان سبستيان باخ، وفي مناقشة الآراء الفلسفية لفولتير. وكان للجامعات في ذلك الوقت مرموق وتقدير كبير حتى لدى المسؤولين. تُرى كيف يقضي الفرد اليمني أوقات فراغه بعد مرور مائتي سنة من ذلك الوقت؟ ومتى تُنشأ أول جامعة يمنية؟ ومتى نناضل من أجل حريتنا دون إرهاب؟

وحين عاد نيبور من الرحلة، وجد أن ملكاً خليعاً قد اعتلى العرش في غيابه، لكنه وجد أيضاً أن مظاهر تقدير واحترام العلماء كانت لا تزال معتبرة، رغم خلاعة الملك. فقد مُنح رتبة أرفع، وقضى يوماً كاملاً في القصر الملكي وتناول طعام الغداء مع الملك ومع الشاعر كلوبتك، كما استُقبل استقبالاً عظيماً من قِبل الأوروبيين في حلب، وكان موضع حفاوة الجميع، وأقيمت على شرفه المآدب والاستقبالات لدرجة نسي معها المتاعب التي واجهها أثناء رحلته المليئة بالمخاطر، من البصرة إلى حلب.



وحين تمعن النظر في أحداث المجتمع اليمني اليوم، تبدو لنا ملامح المرحلة التي تمرُّ بها بلادنا. وهي – كم تبدو – مرحلة الوقوف السلبي أمام آلاف المشاكل والمخلفات التي تراكمت على مرِّ الزمن وـأخذت تفتك بالعشب اليمن.

وكل ما عملناه في ٢٦ (سبتمبر) ١٩٦٣، هو أننا أبعدنا من كان يحول بيننا وبين هذه المخلفات ومَن كان سبباً بوجوده في تكاثرها. وكان عملنا هذا بمثابة دق الطبول في وجه هذه المخلفات، فتيقظت من سُباتها كلها دفعة واحدة، واستعدت لقتالنا ورصَّت صفوفها وبدت تصرع الواحد منا تلو الآخر، فقتلت وشرَّدت، وأتت على أخلاق الشعب وعاداته الطيبة فزادتها تشويهاً كما أتت على البقية الباقية من أخلاقية الشعب، فنشط السلوك الغادر والنفاق، وفسدت الضمائر وانتشرت الجاسوسية.

ولم يكفِ هذا المخلفات أنها استخدمت ضد الشعب أسلحتها القديمة، فلجأت إلى الاستيراد من الخارج، فاستوردت بعض مساوئ المدنية الحديثة كالتضليل والتهريج والشعارات الجوفاء، وكيّ الأجسام وقلع الأظافر، والتعذيب بالكهرباء، والتهديد بالكلاب البوليسية، التي تداعب الضحية بأظافرها حتى تدميها وتفقدها الوعي.

كما عملت هذه المخلفات على تشتيت الشعب اليمني وضرب وحدته الوطنية: فهذا شمالي وهذا جنوبي، وهذا قبيلي وهذا مدني، وهذا زيدي وهذا شافعي. كما أنها استخدمت أساليب حديثة في محاولاتها القضاء على البقية الباقية من وحدة الشعب: فهذا تقدمي وهذا رجعي، وهذا شيوعي وهذا بعثي وهذا قومي.. فوجد الشباب نفسه في دوامة صراعات وهمية نسجتها حوله مخلفاته، التي نجحت في إلهائه عن مواجهتها والقضاء عليها.



ومع هذا، ورغم كل هذه المخلفات، فقد ظلت أصالة الشعب اليمني تناضل ضد هذه المخلفات، وبقي بعض أبناء الشعب غير متأثرين بما حولهم من أضاليل. وهو الآن العدو الحقيقي أمام كل مخلفات ما قبل الثورة وما بعدها.

هذا هو واقع الشعب اليمني الآن، واقع، ليس فيه، للأسف، صراع من أجل التقدم العلمي وليس فيه مباهاة بانتصارات علمية، وليس فيه أبطال أمثال نيبور، وفورسكال وبورنفانيد، كل ما فيه آمال غامضة لمستقبل أفضل.

والسؤال الآن هو كيف نخرج أنفسنا من دوامة المخلفات؟ وكيف نصمد في وجهها ونوقفها عند حدها؟ وكيف نضع أهدافاً لنا واضحة محددة، تستغرق مجهوداتنا وتقضي على مخلفاتنا، وتكون إطاراً لالتفاف كل القوى الجمهورية حولها؟.

في رأيي ، أن هذا الأمر في حاجة إلى تأليف لجنة من العلماء والمثقفين تكون مهمتها دراسة الواقع اليمني دراسة علمية واسعة، وعلى ضوء هذه الدراسات تضع للشعب اليمني أهدافاً محددة واضحة، كما تضع خطة عمل لتحقيق هذه الأهداف. ويصاغ كل ذلك في شكل (ميثاق وطني) ترتضيه كل القوى الوطنية إطاراً لعملها المتحد.

ولا يجب أن يشغلنا شيء عن البدء في بناء جمهوريتنا بناءً قوياً حديثاً، بل علينا أن ندافع عنها بيد، ونبني باليد الأخرى، وهذا هو ما يفرّقنا عن أعداء الحياة والتقدُّم، أعداء جمهوريتنا الذين لا همَّ لهم إلا التخريب باليدين.

والنصر دائماً للشعب وللعاملين لخيره ورفاهيته.

صنعاء في آب (أغسطس) ١٩٦٨ — محمد أحمد الرعدي



بين الحظ والقدر

يتحدث لسان الإنسان

فإذا أسكت لسانه

تحدثت أصابعه

وإذا أصابوها بالشلل

تحدثت عيونه

فإذا أفقدوها البصر

تحدث قلبه

لوحده .. أو في أحضان حبيب

في الثلوج أو في اللهيب

حتى آخر نبضة قلب ...

تور كيل بورنفج



القسـم الأول

THE ROUTE
of the
DANISH EXPEDITION
to
ARABIA
1761-1767

ICELAND
Hamburg
Warsaw
Lublin
Bucarest
Constantinople
Cairo
Bombay

النقط في هذه الخريطة تمثل خط سير البعثة



الفصل الأول

رغم هذه الأيام العصيبة

خط سير البعثة – البداية الحقيقة للمشروع – دوافع الرحلة – اختيار أعضاء البعثة – التنافس بين الدنمارك والسويد.

في صباح يوم هادئ من أيام شتاء عام ١٧٦١، في الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) ركب فريق مكون من خمسة رجال قارباً، في طريقهم إلى إحدى السفن، مرتدين ملابس الرحيل. وقفوا جميعهم في القارب، وأعطوا الشمس ظهورهم ليروا مدينة «كوبنهاجن» وكأنها في متناول أيديهم، المدينة ذات الشهرة الواسعة، وقد أخذت تتوارى ببطء من خلال أشعة شمس كانون الثاني (يناير) الخافتة.

هناك، في عرض البحر، أمام القارب، وتحت أشعة الشمس ترسو في انتظارهم السفينة «جرين لند» التي تربط عاصمة الدنمارك بمدن العالم البحرية الأخرى، إلى هناك حولوا أنظارهم ووقفوا في مواجهة أشعة الشمس، وقد زروا أعينهم، اتقاء منها، وحتى يكون في استطاعتهم رؤية الصواري وحبال السفينة. ومن المحتمل أن يكون في غمر بعضهم شعور بسيط بعدم الارتياح لمنظر السفينة وكأنها شبح أسود. كان على تلك السفينة البحار في رحلة طويلة، أولاً، نحو الشمال، ثم تهبط بهم جنوباً نحو البحر الأبيض المتوسط حتى تصل مدينة القسطنطينية، ومن ثم يواصلون رحلتهم إلى الإسكندرية،فالقاهرة، فالسويس، وعبر مياه البحر الأحمر إلى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية.. إلى هناك، إلى أرض المعجزات، حيث اللبان والمر العلاجي، والبلسم، إلى جنة الله على الأرض، التي حلم الاسكندر الشاب بغزوها، والتي منذ الأزل أطلق عليها اسم العربية السعيدة، ذلك ربما لأنه لم يصلها أحد. وكان جميع أعضاء الفريق يسمونها في مذكراتهم بهذا الاسم.

قبل رحيلهم لم يكونوا قد تعارفوا إلا قبل عدة أسابيع، ولسنين اضطروا أن يعيشوا جميعاً مع بعض، وكانوا جميعاً في سن الشباب، أكبرهم في الرابعة والثلاثين، وأصغرهم في الثامنة والعشرين، ولم يكن منهم من الدنمارك إلا اثنان، واثنان ألمانيا وسويدي واحد.

كان الوجوم واضحاً على وجوههم والقارب يتمايل بهم في طريقهم إلى السفينة المنتظرة، وكانت أفكارهم متعلقة بالعربية السعيدة لكن لم يكن للسعادة أي أثر على هذه الوجوه.

إن للبعد والغموض سحرهما، وعند الاستسلام لهذا السحر، لا بدَّ في وقت ما، أن تتكشف للمرء الجوانب المظلمة من هذا السحر. فهل بدأت تتكشف لهم الآن الجوانب المظلمة في هذه المرحلة؟ هذا ما يمكن أن نفكر فيه، لكن لصمتهم في بداية الرحلة سبباً آخر، أكثر خطورة، ولا حاجة بنا هنا للتخمين، فالأمر مسلم به، فلقد كانت المنافسات والخصومات الحادة تمزق المجموعة، لأسباب كثيرة.

وكان أمر هؤلاء المغامرين الخمسة سراً لم يكشف، ومع هذا ما إن مرَّ أسبوع على بدء رحلتهم حتى نشر الخبر التالي بتاريخ ٢٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٧٦١، على الصفحة الأولى من جريدة كوبنهاجن بوست:

«إن جلالة الملك في هذا الوقت العصيب، رغم مشاغله الرسمية المرهقة، يناضل دون ملل من أجل غزو آفاق جديدة للمعرفة والتقدم العلمي، وتحقيق مجد أكبر لشعبه. لقد أرسل بعثة من العلماء على ظهر السفينة «جرين لند». وسوف يرحل أعضاؤها عن طريق البحر الأبيض المتوسط إلى القسطنطينية ومن هنالك يرحلون عبر مصر إلى العربية السعيدة، ومن ثم يعودون منها عن طريق سوريا إلى أوروبا. وفي كل الظروف المناسبة سوف يكتشفون أشياء جديدة ويقومون بتدوين ملاحظاتهم لصالح التقدم العلمي، كما أنهم سوف يجمعون ويرسلون إلى هنا مخطوطات شرقية ذات قيمة، مع نماذج وأشياء

نادرة أخرى. وتتألف البعثة من ١-البروفسور فردريك كرستيان فون هافن متخصص في اللغات. ٢-البروفسور بيتر فورسكال عالم نبات، وفيزيائي. ٣-المهندس الملازم كارستن فيبور، عالم في الرياضيات والفلك. ٤-الدكتور كرستيان كرامر، طبيب وفيزيائي. ٥-الهر جورج ولهم بورنفانيد، فنان ونحات. هؤلاء الرجال سوف يمضون عدة سنوات في الشرق كما سبق وأمضوا عدَّة سنوات يعدَّون أنفسهم لهذه المهمة، ولهذا فمن المتوقع بثقة، أن جهودهم ومؤهلاتهم سوف يكون لها نتائج مرضية، من أجل تقدم المعارف عامة، ومن أجل ترجمة أكثر صحة للكتاب المقدس خاصة».

بمثل هذه الآمال العظيمة بدأت البعثة الدنمركية رحلتها إلى اليمن السعيدة، وهي أول بعثة تقوم الدنمرك بإرسالها إلى مكان بعيد وأول بعثة ترسلها دولة إلى شبة الجزيرة العربية. ولقد أثارت هذه البعثة اهتماماً كبيراً، حتى في ذلك الوقت وتتبعت أوروبا المتطلعة بشغف للمعرفة في «عصر النور»، هذه المهمة الجريئة بكل اهتمام، وأخذت أسئلة علماء الجامعات الكبرى فيها تنهال على أعضاء البعثة على أمل موافاتهم بالأجوبة خلال رحلتهم.

كما حظت الرحلة بتقدير كبير في نهاية القرن الثامن عشر بسبب الاكتشافات الكثيرة التي أصبح في الإمكان تحقيقها في ذلك القرن، وبعد أكثر من مائة عام أشار إليها المكتشفون الانكليز باحترام كبير وتقدير جمّ بالرغم من مساوئها وأخطارها وبالرغم من أنه في ذلك الوقت كان قد مرَّ على حدوثها سنين عديدة. واليوم بعد مرور مائتي سنة على هذه الرحلة، نجد، للأسف، أن ستاراً كثيفاً من النسيان قد حجبها.

لقد أبحرت السفينة «جرين لند» من كوبنهاجن عام ١٧٦١، ولكن البداية الحقيقية للمشروع كانت في أيار (مايو) لعام ١٧٥٦، عندما بدأ المستشرق، عام اللاهوت الألماني



المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن»[1]، يتقرب من يرن ستورف وزير الخارجية الدنماركي، كان ميشاليس مشهوراً بأفكاره الخلاَّقة، وقد ظلت أحد هذه الأفكار تمتلج في صدره، حتى اقترح على وزير الخارجية تدريب بعض المبشرين – الذين يذهبون كل سنة إلى ترنكبار (Trankebar)[2] – ليقوموا باكتشاف جنوب شبه الجزيرة العربية، كانت جوتنجن في ذلك الوقت هي جامعة هانوفر، التي كانت تربطها علاقات شخصية ببريطانيا وقد كسب الأطباء الانكليز مكانة كبيرة فيها، أكبر من أية منطقة أخرى في أوروبا. وكان البروفسور ميشاليس طبيباً بالخبرة، تماماً كما كان الأطباء الانكليز، وكان يؤمن بوجود الله، وينكر الوحي وكل ما يتعلق بالأديان من اعتقادات، وعدل عن المبدأ الذي يقول بأن كل كلمة، في التوراة، هي وحي من عند الله، وعليه فإن التوراة كتاب لا مجال فيه للنقض أو المخالفة، واعتبر الكتب السماوية ككل الكتب العادية، لا بد أن تخضع للنقد الحر من الناحية اللغوية والتاريخية، وأثناء دراسته بدا له أن القيام برحلة إلى البلاد العربية سوف يلقي الأضواء على الأمور والتساؤلات المتعلقة بالدراسات اللغوية للكتب المقدسة. فعلى سبيل المثال، سيكون في الإمكان التعرف على الأشجار والحيوانات بالبلاد العربية واختبارها ومطابقتها بما جاء ذكره في التوراة من أشجار وحيوانات، كما يمكن دراسة جغرافية شبة الجزيرة العربية (خاصة حركة المد والجزر في البحر الأحمر)، كدليل كبير في محاولة فهم موضوع (الهروب من مصر). كما تمكن الرحلة من دراسة عادات العرب اليومية، وملابسهم، وفن البناء لديهم.

كان ميشاليس مقتنعاً بأنه لم تبق إلا بلدان قليلة في عالمنا هذا، لا يزال شعبه محافظاً على القديم، كشعب شبه الجزيرة العربية، وأن في «العربية السعيدة» إمكانية عظيمة لوجود آثار حضرية متنوعة شبيهة بتلك التي في إسرائيل القديمة وأحسن من تلك في فلسطين،

(١) مدينة في ألمانيا بها جامعة، وبها مسرح مشهور.

(٢) مدينة صغيرة في ولاية مدراس بالهند.



التي كانت خلال قرون قد تعرضت لنفوذ أجنبي متعدد. واقترح البروفسور ميشاليس في رسالة وجهها إلى وزير الخارجية بأن على الحكومة الدنماركية أن تقدم منحاً تدريبية لثلاث سنوات لطالبين في جامعة جوتنجن، كي يحضرا بعدئذ إلى كوبنهاجن لتدريب المبشرين الذين تم اختيارهم لهذه المرحلة تدريباً أولياً متقناً. وأراد البروفسور ميشاليس أن يوصي بأن يقع الاختيار لمثل هذه المهمة على الطالب النرويجي المدعو «ستروم»، والطالب الدنماركي المدعو «فون هافن» وكلاهما من طلابه البارزين في علوم اللغات.

وقد وجد اقتراح البروفسور، استجابة سريعة لدى وزير الخارجية – وهو أصلاً من هانوفر – فالشؤون العلمية والفنية كانت تعني بالنسبة إليه شيئاً كبيراً، وكل ما طلبته الحكومة الدنماركية هو حصولها على خطة للسفر مفصلة، قدمها لها فيما بعد ميشاليس واقترح فيها تدريب طالب يستطيع أن يأخذ على عاتقه مركز القيادة في هذه الرحلة، وافترض أن هذا سيكلف الدولة كثيراً، لكن لا يمكن الاستغناء عنه، ويستحق بذل مجهود كبير للدفاع عنه على أسس علمية، واقترح أن يكون تلميذه المستر ستروم مرشحاً لهذا التعيين.

في أوائل شهر تشرين الأول (أكتوبر) كان بإمكان وزير الخارجية أن يطلع البروفسور على موافقة الملك فردريك الخامس على الخطة، وقبول تعيين المستر ستروم، وتعيين عالم نبات برفقته لأن اختصاصه أصلاً هو علم اللغات. ونتيجة لهذا التعيين شعر المرشح الآخر الدنماركي المستر فون هافن بأن كان هدفاً لتجاهل مهين، فكتب إلى وزير الخارجية حين علم بالأمر يقول: «سيدي، إن الرعب، في الحقيقة، قد ملأ قلب ستروم بعد أن أنيطت إليه مسؤولية بعثة من هذا الطراز، وفي حالة عدم استطاعته السيطرة على مخاوفه ورفضه للعرض الملكي، عندئذ، يا صاحب المعالي سأكون سعيداً أن أحلَّ مكانه».

كان فون هافن يحلم منذ وقت طويل بأن يرأس بعثة مثل هذه، كما كان يحلم بتحدّي الصعاب والأخطار. وبدأ يتظاهر بأنه مطلع على كل مخاطر شبه الجزيرة العربية، ويوحي بمخاوفها بطريق غير مباشر، إلى المستر ستروم، الذي لم يتأخر في الاتصال بالبروفسور ميشاليس، يطلب منه إعفاءه من القيام بهذه المهمة. وهكذا وجد فون هافن الفرصة سانحة، فتملكته البهجة، واختفت في الحال كل المخاوف التي ترسَّبت في قلبه بسبب تكراره لها على مسمع ستروم. لكن القدر لم يكن غافلاً عما كان يدور، فقد أخذت يداه الشاحبتان تنسجان مصير الرحلة الغامض المظلم.

لم يكن اختيار البروفسور ميشاليس للمستر ستروم، إلا بعد محاولته، دون جدوى، إقناع المستر فون هافن، بأن مقدرته الجسدية لا تمكنه من القيام بمثل هذه الرحلة الشاقة. ولكن الآن بعد انسحاب ستروم، وجد من الصعب عليه رفض طلب فون هافن، فاقترح على برنستورف بما يلي:

«إن السيد فون هافن طالب في الجامعة، تملكته الغيرة، منذ اللحظة الأولى التي عرف فيها أن الاختيار وقع على السيد ستروم، وقد أطلعني أنه يفكر كثيراً في خطط عديدة للاكتشافات والمغامرات، وأنه لهذا السبب، بدأ منذ سنين عديدة حضور محاضراتي المتعلقة بشؤون الشرق، ولديه الآن رغبة كبيرة في أن يحمل على عاتقه مهمة القيام بهذه البعثة، ولديه أيضاً من الصفات التي لا يمكن الحصول عليها لا بالمال ولا بالتعليم. وهو مطلع اطلاعاً عاماً على الكثير من المعارف، بما في ذلك علم النبات».

لم تمضِ سنوات قليلة على هذا حتى كان على البروفسور ميشاليس أن يبعث إلى صديقه وزير الخارجية رسالة ضمنها. مضطراً، جحوده لآرائه التي تضمنتها رسالته الآنفة الذكر، لكن الوقت كان قد فات وسبق السيف العذل وأراه القدر أن يكون فوت هافن عضواً في البعثة إلى اليمن السعيدة.



واشترط فون هافن، كي يقبل الانضمام إلى البعثة أن يسمح له بالقيام بدراسات تحضيرية لمدة سنتين وأن يمنح إعانة سنوية قدرها خمسماية ويجسد الر. وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) لعام ١٧٥٦ أبلغ وزير الخارجية البروفسور ميشاليس بأنه قد تم قبول فون هافن في البعثة.

بعد هذا، بدأ فون هافن تكريس وقته لإعداد نفسه، لكن بدأ الشك في قدرته يسيطر على نفسه، وأخذ الخوف يتسرب إلى قلبه، ووجد من الصعب عليه الاستمرار في بذل جهوده لاستيعاب جميع تلك المواد. وفي ربيع عام ١٧٥٧ اضطر البروفسور ميشاليس أن يطلع وزير الخارجية بأن فون هافن يعتبر نفسه عاجزاً عن استيعاب جميع علوم الرياضيات اللازمة للرحلة، ولهذا لا بد أن ينضم إلى البعثة عالم في الرياضيات يعتني بالبحوث الجغرافية، وكان الاتجاه كبيراً لاختيار مساعد لفون هافن في هذه المهمة، على أن يحتفظ فون هافن بقيادة البعثة لأن تعين أولاً. وقبل وزير الخارجية هذه التكاليف الإضافية في ميزانية البعثة، غير أن الصعوبة برزت في إمكانية الحصول على سودبرج، السويدي، لكن الإهمال كان من نصيب هذا الاقتراح، بسبب أن المرشح كان قد وُرط في محاولة للثورة في بلاده ونفي نتيجة لذلك. وبدا للجميع أنه لا يوجد أحد في كوبنهاجن من في استطاعته تحمل هذه المسؤولية. وقد رفض قبول هذا العمل، الألماني المسمى بولزنج، بعد أن قلب الموضوع أخماساً وأسداساً.

في صيف عام ١٧٥٨، كان الجميع في عجلة من أمرهم، ولم يكن لديهم متسع من الوقت، فأصبح لا مفر من سرعة اختيار أي طالب من طلبة جامعة جوتنجن، ووقع الاختيار على شاب، غير معروف يدعى كارسن نيبور (Carsten Niebuhr) وما أن تم تعيين عالم الرياضيات هذا، حتى كان قد وصل إلى مسمع وزير الخارجية أن عالم النبات الذي عين أصلاً لمرافقة فون هافن قد تراجع عن موافقته وتخلى عن المهمة، ورأى



البروفسور ميشاليس أنه يجب استبداله بسرعة بشخص آخر، فبذلت الجهود الكبيرة لهذا الغرض، حتى كان كانون (يناير) ١٧٥٩ حتى كتب ميشاليس إلى وزير الخارجية رسالة أودعها الكثير من معاني البهجة والشعور بالنصر، جاء فيها ما يلي:

«وأخيراً، وبعد جهد كبير، عثرت على الشخص المناسب جداً، للقيام بدور عالم النبات في البعثة، وقد وجدت فيه من المؤهلات ما فاق توقعي، ويدعى، فورسكال وكان في السابق من طلابي، سويدي المولد، درس اللغة العربية وتفوق في علم النبات وفي التاريخ الطبيعي عموماً، وهو ليس في حاجة إلى تدريب، وغلطته الوحيدة هي أنه كثير التفاؤل، لكن هذا يمكن أن يجعله أكثر صلاحية ومثابرة».

نجد البروفسور ميشاليس في هذه المرة أيضاً يعبِّر عن رأيه بحماس شديد، ولكن هذه المرة، لم يجد المناسبة التي يعتذر فيها عن آرائه المتحمسة، كما كان الحال مع فون هافن، وردّ وزير الخارجية على رسالته هذه بالموافقة، وترك له حق التفاوض مع المستر فورسكال في جميع التفاصيل.

وصرف النظر عن المشروع الأساسي الذي كان يرمي إلى تدريب طالبين، يقومان بعدئذ بتعليم المبشرين المختارين للقيام بالرحلة، وعوضاً عنه كوّنت بعثة علمية مستقلة.

لا بد أن يتساءل المرء عن الدوافع التي جعلت ملك الدنمارك يوافق على المشروع بهذه السرعة، وعلينا أن نبحث عن هذه الدوافع في المناخ العام لذلك العصر. فقد كان من تقاليد ذلك العصر مساندة ودعم الفنون والعلوم، وكان فردريك الأكبر ملك بروسيا يقضي أوقات فراغه في مناقشات فلسفية مع فولتير وفي العزف بالناي مع يوهان سبستيان باخ[1]، وهو بهذا قد ضرب المثل لفردرك ملك الدنمارك. لكن إذا سمح ملك

---

(١) (١٦٨٥ – ١٧٥٠) موسيقي ألماني. يلقب بأبي الموسيقى الألمانية. وهو من أسرة ظهر فيها أكثر من خمسين موسيقياً، ويعد في الصدارة منهم جميعاً. ارهق نظره في أواخر أيامه. تعتبر موسيقاه الدعامة التي بنيت عليها موسيقى المدرسة الحديثة. (المترجم).



الدنمارك لنفسه بالاستسلام لقضاء أوقات فراغه في المناقشات الفلسفية واللهو الفني فإن هذا لا بدّ أن يكلفه الكثير من صحته وقواه، ولهذا فقد أولى هو ومستشاره العديم الاكتراث (ملتك Moltke) أهمية كبرى للشعبية والتقدير اللذين سينالهما الملك لدى الشعب الدنماركي، من جراء الأخذ بسياسة تشجيع العلوم والفنون، وهما بهذا كانا على صواب ولم يكونا واهمين، فقد تأكد لهما أن مساندتهما للعلوم والفنون فيه تجربة لكسب الشهرة مستقبلاً. وفي ذلك العصر لم يكن المستقبل يعني اليوم التالي للانتخابات كما هو في عصرنا هذا، بل كان يعني لديهم، كل المستقبل القريب والبعيد، كما كان يعني أيضاً ما بعد الموت. فقد كانت الرغبة لديهم أصيلة في أن تعيش ذكرهم بعدهم بوقت طويل، لأن سذاجتهم كانت كافية لأن توجد لديهم بعض الإحساس نحو التاريخ والوقت، فعلَّقوا أهمية كبرى في أن تكون ذكراهم عطرة لدى الآخرين، حتى لدى من عاش بعد وفاتهم بمائتي عام.

ولهذا الغرض، بنوا املنبورج (Amalienbourg)[1] واستدعوا إلى الدنمارك الشاعر الألماني (Klopstock)[2] ليكمل قصيدة المسيح (Missiah) ومنحوه راتباً كبيراً للقيام بهذه المهمة، واستقبلوا عالِم النبات الشهور أويدر (Oeder) ليقوم بإنشاء حديقة خاصة بالنباتات في مدينة كوبنهاجن، كما ساعدوا على انتشار زهرة الدانكان الباهظة الثمن، (Flora Danican) وأنشأوا متحفاً للتاريخ الطبيعي، وأسسوا أكاديمية للفنون، وكان التنافس قائماً بينهم وبين بلاد السويد حيث كان العالِم العظيم ليني (Linne) يحقق انتصارات مجيدة في العلوم.

---

(١) القصر الملكي بالعاصمة الدنماركية، كوبنهاجن، بناه المهندس المعماري للبلاط، تقولا أيقتفد Eigtved.

(٢) شاعر ألماني (١٧٢٤ – ١٨٠٣) تعتبر قصيدة «المسيح» من أعظم أعماله.



ورغم أن البلاد كانت مهددة بالحروب الكثيرة، والدولة كانت تواجه صعوبات مالية كبيرة، فقد صمم المسؤولون المضي في تنفيذ برامج ثقافية عديدة، كان من أعظمها برنامج الرحلة إلى العربية السعيدة. ولم يكن الغرض من الرحلة القيام بعمل جديد، فريد في نوعه فحسب، بل كان هدفها أيضاً محاولة إشباع تطلعات الناس للعلوم، وحماسهم لمعرفة البلدان الأجنبية، وبالأخص البلاد الشرقية التي تركت تأثيرها في أواخر القرن الثامن عشر. وكان من الصعب معارضة إرسال هذه البعثة، لأن مهمتها الرئيسية كانت جمع المواد والمعلومات التي يمكن أن تساعد في فهم المخطوطات بدرجة أفضل.

وفي هذا الخصوص أعطى وزير الخارجية، وهو داهية مجرب، الحرية كاملة للبروفسور المتحمس ميشاليس، وهيأت للملك فردريك الفرصة النادرة التي لم تهيأ حتى لملك بروسيا.



الفصل الثاني

اختفاء فون هافن

حياة فون هافن المبكرة – رأيه في الرحلة – سفره إلى إيطاليا – اختفاؤه.

بتعيين المستر فون هافن والمستر فورسكال والمستر نيبور، يكون قد تمَّ لوزير الخارجية الدنماركية، والبروفسور ميشاليس تعيين الأقطاب الأساسية في هذه الرحلة. فقد كان الأول عالماً في اللغات وفي الأجناس البشرية، وكان الثاني عالماً في النبات والحيوان، وكان الثالث عالماً في الفلك والرياضيات. وكان المؤمل أن يجمعهم الوئام والوفاق على خير ما يرام، لكنهم خيبوا الأمل في هذا الشأن. فمن الناحية العلمية كانوا يؤلفون وحدة متكاملة، وعدا هذا كانت الخلافات تمزقهم شر ممزق وتلازمهم في كل حياتهم، لدرجة أن الوحدة المنشودة بينهم أخذت طابع الدراما العنيفة.

كان الدنماركي فردريك كرستيان فون هافن هو أول من تعين منهم في البعثة، وكان أكبرهم، ولد عام ١٧٢٧، لأب كان يعمل كاتباً، ولم يعرف إلا القليل عن حياته المبكرة، عدا أنه فقد والده في الحادية عشرة من عمره، واستطاعت والدته تدبير استمرار دراسته، وأدى بنجاح اختباراً في علم اللاهوت وهو في الواحدة والعشرين، وبعد سنتين من ذلك حصل على شهادة الليسانس في فقه اللغة، وركَّز همه بعد ذلك في تعليم اللغات الشرقية، وكما يبدو، بدأ بدراسة اللغة العبرية، ثم توجه إلى جامعة كوتنجن لحضور محاضرات البروفسور ميشاليس الذائع الصيت.

وحين تم قبوله في البعثة بدلاً من ستروم كان في التاسعة والعشرين من عمره، وفي هذا الوقت كان يكتب رسائله في لغة إفرنسية، صحيحة وجميلة، توحي بعبقرية عالمية فذة، وكان الدراسات الأكاديمية بالنسبة له متعة وتسلية قبل أن تكون ثقافة ودراسة وكان مطلعاً غير متعلم، محتالاً غير ذكي، لطيفاً، غير بارز، يدلنا على شخصيته

الأسلوب المخادع الذي استخدمه مع زميله المستر ستروم. ورغم هذا فلا تخلو شخصيته من سحر، كان سلاحه في الحصول على امتيازات من أصحاب النفوذ، أمثال برنستوف وميشاليس. ومن المحتمل أن ديوناً كثيرة كانت قد تراكمت عليه بسبب إصراره على مواصلة الدراسة، رغم موت أبيه المبكر. وتبعاً لبعض ملاحظاتنا على تصرفاته بعد تعيينه، تلك الملاحظات التي لا يمكن تجاهلها، نستطيع القول بأن ديونه، وليس رغبته الملحة في مواجهة الأخطار هي التي كانت الدافع وراء إلحاحه الشديد على البروفسور ميشاليس في أن يلتحق بالبعثة.

ويبدو لنا أنه لم يكن يعتمد في البداية على هذا المشروع الجنوني، ولعله اعتقد أن حدوثه ما هو إلا ضربٌ من ضروب الخيال، وأن الرحلة إلى اليمن السعيدة لم تكن تعني بالنسبة إليه مورداً مالياً سهلاً يساعده على مواصلة تعليمه في تلك المرحلة الأساسية من مراحل دراسته، فقد اشترط حصوله على مساعدات مالية من الملك، للموافقة على الانضمام للبعثة. وسمح له، في الأصل، أن يقوم بالتدريب لمدة سنتين فقط، مع منحة سنوية قدرها ٥٠٠ رجسدالر، أي ما يعادل ٢٥٠٠ جنيه استرليني في عصرنا هذا، ومع هذا فقد نجح في أن يتسلم ضعف المبلغ المقرر له لسنتين، وذلك دون أن يأخذ على عاتقه أي مسؤولية خاصة من مهام البعثة، ثم، ما أن تم تعيينه حتى بدأ يتلمس السبل لتأخير رحيل البعثة، ملحاً في الحصول على عالم في الرياضيات لمساعدته في السنة التالية للسنة التي درس فيها اللغة العربية على يد البروفسور ميشاليس. وفي ربيع ١٧٥٨ أدركه التعب والملل فقابل وزير الخارجية في كوبنهاجن واقترح عليه السماح له بفسحة أكبر من الوقت، واضطر وزير الخارجية أن يقنع الملك في أن يقدم مساعدة مالية إضافية، كي يستطيع فون هافن الذهاب إلى روما حيث يقوم بتعلم اللهجة السورية ولهجة سكان شبه الجزيرة العربية بكلية مارونتيكو، وكانت حجة فون هافن في ذلك هي أن من

المستطاع تعلم اللهجات العربية في روما وليس من المستطاع تعلمها في جامعة جوتنجن. غير أن وزير الخارجية أحس بالشكوك والريب تخالج نفسه في هذا الخصوص، فطلب النصح من البروفسور ميشاليس، الذي طلب مهلة ثلاثة أسابيع لدراسة الموضع، وفي صيف عام ١٧٥٨ أرسل ردّه معارضاً فكرة السفر، بعد أن قام باستطلاع آراء علماء عديدين في اللغة العربية.

في المائتي سنة الأخيرة الماضية، لم يكن أحد في روما يستطيع أن يتحدث اللغة العربية، حتى لو وُجد واحد أو اثنان، فإن لهجتهما ستكون السورية وليس لهجة سكان شبة الجزيرة العربية. والمبرر الوحيد الذي يمكن أن يدركه البروفسور ميشاليس لمثل هذه الرحلة، هو أن فون هافن سوف يجد الفرصة في روما ليقوم بدراسة بعض المخطوطات الشرقية التي لا يمكن العثور عليها في أي مكان آخر. من أجل هذا كله، لم يوافق البروفسور على هذه الرحلة، ولكن رغم ذلك، وبعد وقت قصير، في التاسع من شهر أيلول (سبتمبر) ١٧٥٨، أطلعه وزير الخارجية بأنه قد وافق على السماح لفون هافن بالسفر إلى روما، وأنه قد أضاف إلى مصاريفه السنوية مبلغاً كافياً لتغطية مصاريف هذه الرحلة، وكان لا بد أن تكون مهمته هناك، هي التدريب على قراءة ونسخ المخطوطات الشرقية. بهذا يكون فون هافن قد نال مرامه ووصل إلى مبتغاه، لكنه لم يكن مستعجلاً الوصول إلى روما، فقد تمت الموافقة على سفره إلى هناك عام ١٧٥٨، لكنه حتى ربيع عام ١٧٥٩ لم يكن قد وصل إلى أبعد من شمال ألمانيا، ففي نيسان (إبريل) كان لا يزال في فرنكفورت حيث فاجأه وصول رسالة من وزير الخارجية يتساءل فيها عن سبب بقائه هناك.

وفي ردّه على هذه الرسالة أعطى شرحاً وافياً لجميع نشاطاته خلال السنوات الثلاث الماضية، ذاكراً، في مراوغة، بأنه قد قرأ جميع ما استطاع الحصول عليه في جامعة

جوتنجن من مخطوطات عربية، وأنه قد وصل إلى حدِّ الكمال في عمل دراسة عن النبي (Nahum)[1]، واضطر، آسفاً، إلى التوقف عن إنهائها لأسباب صحية. واستمر في مخاطبته لوزير الخارجية قائلاً:

«وهكذا سيدي، سردت لكم كل ما أنجزته خلال السنوات الثلاث الماضية، في ظل ظروف مؤلمة، مليئة بمخاوف الحرب وتهديداتها وقد قاسيت آلاماً تعيسة من جراء تدهور حالتي الصحية في تلك المدينة البائسة، وإذا لم يكن بقائي في مدينة جوتنجن ضرورياً لأن يتلاءم مع المصالح الخاصة للبروفسور ميشاليس، لكن في الإمكان أن أقضي، بطريقة أنفع، الأشهر العشرة الأخيرة في باريس أو روما. ولا أرغب الآن في أن أقول أكثر من هذا».

هذه التلميحات الغامضة في هذه الرسالة تدل على وجود نزاع بين فون هافن والرجل الذي كان له الفضل في تقديمه وتعريفه إلى وزير الخارجية، لكن فون هافن لم ينه رسالته بمثل ذلك الغموض السابق، فقد ختمها شاكياً حاجته للمال وأنه لم يضطر إلى البقاء بعض الوقت في فرانكفورت إلا في انتظار مساعدة إضافية كان قد وُعد بها.

كتب هذه الرسالة في أبريل ١٧٥٩، وبعدها أرسلت إليه المساعدة الإضافية، وبعد ذلك لم يسمع عنه شيء. وحاول وزير الخارجية الاتصال به بواسطة البروفسور ميشاليس ولكن ميشاليس لم يكن يعرف حتى مكان وجوده، وفي آب (أغسطس) ردّ البروفسور ميشاليس بأنه لم يستطع الاتصال بفون هافن الذي كان ينسى أن يذكر في رسائله عناوين الأماكن التي يسافر إليها.

---

(١) «ناحوم» كلمة عبرية معناها : مفرج الهمّ، واسم لسابع نبي من اثني عشر نبياً صغيراً للعهد القديم. (المترجم)



كتب ميشاليس في حزن بالغ إلى وزير الخارجية يقول:

«لدي أمر ذو أهمية لا أستطيع إخفاءه عن معاليك، فمنذ زمن طويل، انقطع الاتصال بيني وبين فون هافن، من إيطاليا لم أتسلم منه رسالة واحدة، لقد كتب إليَّ من فرانكفورت ومن ستراسبورج، وكان يخفي مواعيد سفره والأماكن التي يزمع التوجه إليها، ولهذا فلم يعد بإمكاني الكتابة إليه وإني أرى أن الأفضل التعرف من أقربائه عن مكان وجوده، أو من أولئك الذين يبعثون إليه مرتباته» ووصل اقتراح ميشاليس متأخراً وهو نفسه يعرف لماذا كان متأخراً فذلك كان من شأنه.

وباقتراب فصل الشتاء لعام ١٧٥٩ كان قد تم اختيار باقي أعضاء البعثة منذ وقت سابق، وكان من المفروض أن تبدأ البعثة الرحيل، لكن السفن الدنمركية غادرت كوبنهاجن إلى ترنكبار في أكتوبر، كما كان مقرراً من قبل دون أن يكون على ظهرها أعضاء البعثة، فقد اختفى رئيسهم فون هافن دون أن يترك أثراً.



الفصل الثالث

بيتر فورسكال والنضال في سبيل حرية الفكر

حياة فورسكال المبكرة – نقده للفلسفة الولفانية – اختياره عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم الألمانية – صراعه من أجل الحرية – كيف التحق بالبعثة؟ لقاؤه مع نيبور.

تسلم البروفسور ميشاليس رداً إيجابياً على رسالة كان قد أرسلها إلى المستر فورسكال، العالم السويدي، الذي سبق وأثنى عليه لدى وزير الخارجية في مطلع عام ١٧٥٩. كان بيتر فورسكال (Perer Forsskal) أصغر سناً بخمس سنوات عن فون هافن، وكان والده، كوالد فون هافن يعمل كاتباً، وفيما عدا هذا، فقد كان يختلف اختلافاً كاملاً عن فون هافن الكسول.

ولِد في (Helsingjore) عام ١٧٣٢ ويبدو أنه في سن ا لعاشرة انخرط بجامعة أبسلا (Uelsingfors)(١) حيث كان عليه أن يدرس العلوم الدينية، وفي ذلك الوقت، لم يكن من المستغرب أن يدخل الجامعة صغار السن، ومع هذا فقد أثار فورسكال حوله نوعاً من الحماس والفخار عندما ألف رسالة جيدة مطولة باللغة العبرية بعد دخوله الجامعة بثلاث سنوات فقط. وبمرور الزمن أخذ دخل رب الأسرة يقل تدريجياً، مما لم يسمح لأولاده الثلاثة بالاستمرار في الدراسة بالجامعة. وكانت الأسرة تتألف من سبع بنات وثلاثة صبيان.

ومن سنة ١٧٤٤ إلى سنة ١٧٥٠، ما كان في استطاعة فورسكال إلا أن يحس بالسرور في أنه استعاض عن الجامعة بالدراسة في المنزل، فقد كان والده يدرسه اللغة اللاتينية واليونانية والفلسفة وعلوم اللاهوت. وفي عام ١٧٥١ نجح في الامتحانات

(١) «ابسلا» : مدينة بها جامعة، تبعد حوالي أربعين كيلو متراً عن استكهلم.



التي تقدم لها، نجاحاً بارزاً فرشح لمنحة دراسية في جامعة أبسلا لخمس سنوات، ويتبع هذه المنحة منحة أخرى للدراسة مدة سنتين في أي جامعة خارج البلاد. انشغل في الجامعة بدراسة علم النبات على يد البروفسور الشهير لينوس (Linnaeus) الذي أعجب به فورسكال إلى حد العبادة، وفي ١٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٥٣ غادر البلاد ليلتحق بجامعة جوتنجن، حيث عزم على دراسة علم اللاهوت والفلسفة واللغات الشرقية على يد البروفسور ميشاليس، أشهر عالم في الشؤون الشرقية في عصره والذي كان عمره في ذلك الحين ستة وثلاثين سنة فقط. وفي هذا الوقت كان فورسكال قد نبذ فكرة الذهاب إلى الكنيسة، وكان إيمانه بالأديان ضعيفاً وقد نقد الفلسفة الولفانية (Wolffianism)[1]، ذلك المذهب الفلسفي الذي حظي بتقدير واحترام كل الفئات المثقفة في العالم، بما فيهم أساتذته بجامعة جوتنجن. ورغم أن رسالته هذه قد تضمنت في الأساس آراء جديدة مخالفة للمألوف فقد أكسبته وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره، مكانة لم ينلها أحد غيره في مثل هذا السن، ولهذا تم اختياره عضواً مراسلاً لأكاديمية العلوم الألمانية.

وما أن عاد إلى وطنه، حتى كان قد أصبح مشهوراً وصاحب مكانة عالية في المجتمع، وبعد وقت قصير من رجوعه كرّس وقته للرد على الانتقادات التي وجهت لرسالته في الدكتوراه، في ألمانيا والسويد، وقد أظهرت ردوده بأنه كان يحذق الجدل في ذكاء وقدرة كبيرة على الإقناع. وكلما زاد شهرة، كلما زاد أعداؤه إماطة اللثام عن وجوههم. وخرجوا عن موقف المتفرج الذي كانوا عليه في السابق إلى مواقف الخصوم.

كان يمكن التسامح في الحكم على أعماله لأنه، في واقع الأمر، كان ذكياً، ولكن الشيء الذي لا يمكن التسامح فيه، أنه كان يعرف أنه ذكي. وفي السنين اللاحقة عرَّضه

(١) نسبة إلى الفيلسوف الألماني أوجست ولف (١٧٥٩ ـ ١٨٢٤). (المترجم)



نفسه لهجوم أكبر حين قدَّم رسالة جدلية أخرى إلى جامعة (أبسلا) وأحسَّ البعض أنهم أصبحوا عرضة لهجوم شديد، فعملوا على الثأر لأنفسهم، فأرجعت الرسالة إلى صاحبها ورفض طبعها. في هذه الرسالة الجديدة غامر بيتر فورسكال بتقديمه بعض الآراء ووجهات النظر، التي جعلت مجموعة كبيرة من الرجال الأقوياء تقف ضده، وكان خطرهم بالنسبة إليه أكبر من خطر أساتذة جامعة جوتنجن الودودين. كتب جزءاً من الرسالة باللغة اللاتينية، والجزء الآخر، باللغة السويدية وحملت العنوان التالي: آراء وأفكار عن الحرية الدينية. وفي الوقت الذي كتبت فيه هذه الرسالة كانت الملكية المطلقة قد انتهت في السويد، غير أن أي إنتاج فكري جديد كان لا بد أن يخضع لرقابة الحكومة أو على الأصح لرقابة أصحاب النفوذ، وذلك بواسطة مجلس العدلية الذي كانت رقابته أكثر شدة منها في العهود التي كان يتمتع فيها ملك السويد بسلطة مطلقة. تحت وطأة دكتاتورية الحزب الواحد، أعدَّ فورسكال دفاعه عن الحريات المدنية، من أربع وعشرين مقالاً، استهلها بأن ذكر أن أعزَّ وأغلى ما يملك الإنسان، بعد حياته هي حريته، وأن الخطر الوحيد الذي يهدِّد هذه الحرية، هو سيطرة وجبروت أصحاب المناصب والوجهاء، وأصحاب الأموال الذي كبرت سطوتهم في البلاد، واستغلوا نفوذهم في سبيل الحصول على امتيازات على حساب الشعب، وحتى في كثير من البلدان الجمهورية، حيث يملأ الحكام الدنيا ضجيجاً وزعيقاً باسم العدالة والحرية، نجد أن غالبية الشعب قد أصبح عبداً للطبقة الحاكمة. لكنا نجد أن سلطة الملك أكثر خطورة من سلطة الشعب، ففي عهد الملك تشارلس الثاني، حين كانت السويد تفقد أعزَّ أبنائها وأموالها، كان الشعب مع هذا، لا يزال يعتقد بأن الملك هو البطل الذي حمى بذلك أرض الآباء والجدود.

وهو في الواقع لم يصن الوطن، بل على العكس، عمل على تخريبه. إن السلاح الوحيد ضد مثل هذا الاغتصاب للسلطة، لا يمكن أن يكون إلا في الحرية. حرية الشعب في التعبير عن كل ما يصيبه من ظلم وجور، وتخريب لمصالحه العامة. إن



الحريات المدنية للشعب، لا يمكن توفيرها إلا إذا وجدت حدود لسلطات الفئة الحاكمة، وملك الشعب حرية التعبير عن نفسه. إن منح الشعب حقه في حرية التعبير، يؤدي إلى قيام الإصلاحات السلمية، لكن قهر الشعب وخنق حرية الرأي لا يؤدي إلا إلى الفوضى، ودفع الشعب لاستخدام القوة ومن مصلحة الشعب أن يصل إلى ما يريد نتيجة نضال أصحاب الرأي فيه من مصلحين وأدباء، وليس نتيجة استخدام القوة. فالحرية لا يمكن الحفاظ عليها إلا بالحرية.

رفضت الكلية طبع هذه الرسالة شأن كل الأعمال الخطيرة الجريئة، وذلك في محاولة منها لإخماد الشعلة التي كان يمكن أن تسبب الانفجار، لكن فورسكال لم ييأس، بل قابل هذا الرفض بإصرار وثقة بالنفس، ولم يستسلم كما أراد له حفنة من المديرين. وقدَّم شكوى إلى مجلس العدلية، فأصبح بهذا كالمستجير من الرمضاء بالنار. وبطبيعة الحال، أيد مجلس العدلية قرار الكلية وخذل فورسكال، فالرسالة في نظره تتضمن أفكاراً خطيرة ولا يجب أن تطبع. واستأنف فورسكال الحكم، غير أنه حصل على نفس النتيجة، فقدم طلباً إلى مجلس العدلية يبدي فيه استعداده لأن يغير كل شيء يجده المجلس خطأً، وكان نصيب هذا الطلب أيضاً الرفض. وكتب للمرة الثالثة طالباً أن يوضح له المخالفات التي يفترض أنه ارتكبها وأبدى استعداده مرة أخرى، في تصحيح أي خطأ يمكن أن تكشف له، فرفضت كل طلباته، فلجأ أخيراً إلى النضال بقوة وإيمان، وعمد إلى الاتفاق مع صاحب مطبعة، وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٥٩ صدر كتابه: «آراء وأفكار عن الحرية المدينة» من ٥٠٠ نسخة، وما أن خرجت آخر نسخة من المطبعة حتى قام في نفس اليوم بتوزيعها على تلامذته في جامعة أبسلا، وعندئذ بدأت سهام أعداء الحرية تنهال عليه، لمجرَّد أنه دافع بقلمه عن نفسه وعما يعتقد. وأصدر مجلس العدلية حكماً بمنع الكتاب، وأمر مدير الجامعة بجمع كل النسخ



التي طبعت، لكنه لم يستطع أن يجمع إلا تسع وسبعين نسخة من الكتاب، تمَّ إحراقها في الحال. وقدَّم فورسكال في الحال احتياجاً ضد هذه المصادرة، فكان ردهم أن عملوا على إخضاعه لتحقيق مشدَّد، طلب منه أثنائه الرجوع عن كل أفكاره وإلا قدموه للمحاكمة.

كان مؤمناً بكل ما كان يعتقد وعزم على عدم التراجع عن سطر واحد مما كتب مهما كلفه الأمر. وما منع مجلس العدلية من اتخاذ إجراءات شديدة ضده، إلا خوفه، من أن تؤدي إلى أن تنفضح الأمور بشكل واسع تكسب فورسكال دعاية وعطفاً لدى الجماهير. فقرر إماتة الموضوع والاكتفاء بتقديم إنذار إلى فورسكال.

لاحظ فورسكال تردد خصومه وضعفهم، فرفض الإنذار، وفي ليلة عيد الميلاد وضع بين يدي جلالة الملك السويدي شكوى مسهبة أوضح فيها كل ما يتعلق بالكتاب المصادر وأوجه الاحتجاجات الهامة. لكن الملك لم يوافق على أفكار فورسكال، واكتفى بأن أصدر توبيخاً شديداً بحق فورسكال. وليس بعد أن يقول الملك كلمته، استئناف، فاضطر فورسكال إلى الرضوخ والاستسلام غير أن هزيمته هذه كانت صورية ومؤقتة، فبعد بضعة أشهر في اجتماع البرلمان السويدي لعام ١٧٦٠ عينت لجنة لدراسة موضوع حرية الصحافة، وفي عام ١٧٦٦ رفعت الرقابة وحققت الصحافة حريتها، وانتصر أخيراً القلم والرأي الحر، على القوة والعبودية.

لكن هذا النصر لم يتحقق إلا بعد ثلاثة أعوام من وفاة رائد الحرية: فورسكال.

ومن حسن الطالع أن فورسكال خلال نضاله ضد السلطات السويدية كان على صلة بملك الدنمارك، وقد تردد الناس في أن يعزوا هذه الصلة إلى عبقريته وأفكاره. وفي أيلول (سبتمبر) ١٧٥٩، عندما كانت المعركة ضده في أوجها، نُشِرت في إحدى الصحف السويدية (Swedish Mercury) الإطراء التالي:



«إن السيد فورسكال كمؤرخ للعلوم الطبيعية، قد دعاه جلالة ملك الدنمارك لمرافقة بعثة علمية إلى جزر الهند الشرقية، وإلى الشرق عامة، وإضافة إلى الامتيازات التي سيحصل عليها، سوف يُمنح أيضاً لقب بروفسور. وهذا دليل لا جدال فيه على المكانة التي بلغها، فقد جمع، إلى جانب علمه كمؤرخ طبيعي، فقه اللغة وإتقانه للغات الشرقية، وسوف تفيد منه البعثة فائدة كبيرة».

في ربيع ١٧٥٩ عندما قبل فورسكال اللحاق بالبعثة، كان قد سبق ذلك نقاش بينه وبين والده، وبينه وبين البروفسور لينوس، وكان لكل منهما رأي مختلف عن الآخر. فبينما ساور لينوس الأمل في أن تتوسع معارفه عن الشرق في حالة سفر أحد المعجبين به إلى هذه البلاد، نجد أن والد كان خائفاً على ولده من الأخطار العديدة التي قد تواجه في الرحلة. وعلى أي حال، فقد نصحه في يظهر إحجامه وتردُّده في القبول، حتى يتسنى له المساومة في الحصول على أكبر كسب ممكن مقابل المشاركة في الرحلة. وفعلاً كان ثمن موافقته على الاشتراك في البعثة باهظاً، فقد طلب أن يُدفع له ٥٠٠ رجسدالر سنوياً، ليس هذا فقط بل طلب أيضاً أن يُدفع له نفس المبلغ من المال أثناء الرحلة، عدا ما تحتاج إليه الرحلة من مصاريف عامة، كما طلب أن يُمنح لقب بروفسور، وأن تمرّ السفينة بجنوب إفريقيا، وهي في طريقها إلى (ترنكبار)، حيث يجب أن يجمع بعض النباتات والبذور لإرسالها إلى أستاذة السابق لينوس. وأكثر من هذا، فقد أصرَّ على أن يتمتع جميع أعضاء البعثة برتبة واحدة متساوية، ليس بغرض رغبته في أن تسود العلاقات الديمقراطية بينهم، ولكن لأنه لم يقبل أن يعترف بأي قائد للبعثة يمكن أن يكون أعلى منه. واشترط أيضاً أنه بعد الانتهاء من البعثة، فإن من حقه ليس فقط أن يُمنح معاشاً مدى الحياة، بل وأن يكون له الخيار في أن يعيش في المكان الذي يريد. وفيما يخص مقدار المعاش، كتب إلى البروفسور ميشاليس ما يلي:

«ليس من اللائق أن أتحدث في هذا الخصوص، ولكن هبة الملوك لا بدَّ أن تتناسب ومكانتهم».



كانت هذه الشروط هي أثقل شروط قدَّمها ميشاليس إلى وزير الخارجية، حتى شروط فون هافن المختفي لم تكن في مثل هذه الثقالة والإجحاف. وفي رسالة من ميشاليس إلى وزير الخارجية حاول إلقاء الضوء على بعض هذه الشروط، فكتب مؤكداً أن المكان الذي سوف يختاره فورسكال للعيش فيه، سوف يكون في الغالب دون شك هو الدنمارك. وبالطبع كانت إضافة هذا التعليق في الرسالة على مسؤوليته الشخصية، خاصة وأنه كان قد تسلم رسالة من فورسكال كتبها بلهجته المعتادة المتعجرفة، لم يحاول أن يخفي فيها الحقيقة التالية: «ليس من المعقول أن أكره نفسي وأعيش في جو السويد الخانق، حيث يحاب الفكر وحرية التعبير.. ومن المحتمل أن يكون الحال هو نفسه في الدنمارك». ولم يكن يتوقع لمسعاه النجاح، لكن لم يمضِ وقت طويل حتى وصل ردّ وزير الخارجية الذي ذكر فيه أن من دواعي السرور أن يساعد صاحب الجلالة ملك الدنمارك الهر فورسكال في الحصول على الشهرة والمكانة العالية في الأوساط العلمية، وهو هذا يلبِّي كل طلباته. وفي ٢١ تموز (يوليو) من عام ١٧٥٩، وافق الوزير على كل شروط فورسكال. وبسبب اختفاء فون هافن الغامض، لم تكن البعثة على ظهر السفينة المتجهة إلى (ترنكبار) في تشرين الأول (أكتوبر)، ولم يتسلم فورسكال طلباً بحضوره إلى كوبنهاجن إلا في أيلول (سبتمبر) من السنة التالية.

وكان آخر ما قام به من أعمال، بينما كان لا يزال في العاصمة السويدية، هو أن عهَدَ إلى أحد الفنانين برسم صورة له، ظهر فيها رجلاً قوياً طموحاً، وبدت نظراته متفحصة في برود وكان وجهه معبراً نوعاً ما في تحفظ، ولم يكن في تعابيره ما يدل على الخير أو المزاج المرح، وشفته السفلى المتدلاة قليلاً، تنم على أن مظهره الخارجي الوضيع يخفي وراءه طباعاً حادّة وخطيرة. ويده اليمنى نجدها محشوَّة في جيب سترته المصنوعة من الفراء، بشكل يجعل جسمه يميل إلى الوراء، مما أعطاه مظهر العظمة، ورباطة الجأش، ليس عن طريق أساليب الرسم المألوفة في ذلك العصر.



كان واثقاً من نفسه، ولكن هذه الثقة لم تصل به إلى درجة الغرور، والصورة تدل على أن صاحبها رجل حازم ونشيط وذو قدرة على تخطِّي العقبات في الظروف العادية وأنه يعرف قدر نفسه وكفاءته، فهو إ ما أن يتسلم خمسماية ريجسدالر في السنة أو لا شيء بالمرة! وما أن انتهى من الصورة حتى ودَّع عائلته وأصدقائه، وكان أمل لينو س الوحيد أن يستطيع فورسكال أن يرسل إليه شجرة البلسم، حتى يستطيع رؤيتها قبل موته وحتى يستطيع اكتشاف خصائصها. وقد تشاءم لسفر فورسكال، فذكر في مذكراته أنه حين أتى فورسكال لوداعه غلب على حديثه التلعثم والتلجلج، وفي هذا بادرة شؤم، فقد سبق أن حدث هذا، لأحد طلابه حين أتى لوداعه، وكان مثل فورسكال عالماً في النبات. وقد واجه قدره إثر إصابته بحمى الملاريا في ظروف قاسية أثناء عمله في بعثة أرسلت إلى أمريكا الجنوبية.

في التاسع والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٧٦٠، وصل بيتر فورسكال إلى الدنمارك، وكان أول الواصلين من أعضاء البعثة، وقد استقبله وزير الخارجية بالبشر والترحاب، وبعد أيام تعرَّف بأحد أعضاء البعثة، بالشاب الألماني الذي يدعى كارستن نيبور (Carsten Niebuhr) والذي كان مظهره ينمّ عن أنه كان حذراً ومحافظاً ويغلب عليه الحياء. وعلم فورسكال أن هذا الألماني سيرافق البعثة كعالِمٍ للفلك والرياضيات.

إن إيمان فورسكال بالمساواة الاجتماعية بين البشر، لا يشمل في نظره رجال العلم وحاملي الدرجات العلمية، ذلك أنه صافح المستر نيبور دون أخذ وردّ، وبإحساس المتنازل المتفضل. كان قد سمع من قبل عن عالم الفلك هذا، ولم يترك في نفسه أي أثر، وكل ما عرفه عنه أنه لا يحمل لقب بروفسور ولا لقب دكتوراه.. وهو الآن، أمامه، يبدو أنه لا يحمل حتى لقب ماجستير، وأنه فقط ماسح أراضي.. وهذا معناه أنه لا شيء.



الفصل الرابع

كارستن نيبور

حياته المبكرة – التحاقه بالبعثة – مقابلته مع وزير الخارجية.

وصل كارستن نيبور من مستنقعات فريزلند المنبسطة حيثُ ولد في السابع عشر من شهر آذار (مارس) عام ١٧٣٣، في مزرعة صغيرة قرب البحر، وكان والده فلاحاً عن أب وجد، واعتادت أسرته الذهاب إلى الكنيسة كل يوم أحد، ومعظم أفرادها أميون، وعدا هذا، لا تعرف الأسرة من الحياة إلا أنها مطر وشمس وزرع. تماماً مثلما كان أجدادهم من قبلهم بآلاف السنين. ولم يسمع أحد منهم باليمن السعيدة وما فيها، وكانت الأسرة تملك الأرض التي تزرعها وتعيش في فقر مدقع في منازل متهدمة، يغشاها ضباب البحر، ويلفّ في متاهاته نساء دون أسنان وأطفالاً يضيع سعالهم في عبابه. وأبقارهم في المستنقعات مبلَّلة، تتطلع في حزن كما لو أنها هي أيضاً مثل أصحابها، تأسف لجهلها القراءة والكتابة. ويشبه الوسط الذي عاش فيه ذلك الطفل البائس اليتيم، الذي أصبح فيما بعد من أشهر وأغنى الرجال في العالم. توفَّت والدته وعمره أقل من ستة أشهر فتولت تربيته زوجة أبيه، وحين كبر قليلاً، كان يقضي وقته في العمل في الحقول، وكان من الصعب أن يقتنع أخوه الكبير بسهولة، بالسماح له في الذهاب إلى المدرسة. وتوفي والده في الوقت الذي استطاع بصعوبة أن يتعلم القراءة والكتابة. وبموت والده أوقف الوصي عليه دراسته على اعتبار أنها ضرب من الجنون وضياع الوقت. وكان الإرث الذي ا نتقل إليه من والده لا يكفي شراء مزرعة ذات أهمية. فكان عليه أن يكسب قوته عن طريق أي عمل، خاصة وقد أصبح في استطاعته الآن القراءة، وأخذ لهذا يتعلم الموسيقى، ليصبح عازف ارغن، فهذه المهنة لا تتطلب منه الكثير من التعليم، فتعلم العزف على الكمان والناي، وكان العزف عليهما هواية فردريك الأكبر في قصره في بوتسدام.



لكن وصيه رأى، بعد مضي بعض الوقت، أن دراسته للموسيقى ما هي إلا ضرب من الرفاهية غير المجدية وعمل غير ضروري، وللمرة الثانية اضطر نيبور إلى التوقف عن دراسته.

وحين بلغ السادسة عشرة من العمر، غلب عليه التأمل والهموم، لكنه كان قوياً، وسليم الجسم، وبدأ يزاول أعمالاً يدوية مفيدة. وأعطاه وصية عملاً في مزرعته الموحلة. وهل هناك في ذلك الوقت ما هو أكثر طبيعي ومنطقي من أن يكسب المرء عيشه عن طريق العمل في الأرض؟ وظل في هذا العمل لدى عمه مدة ثلاث سنوات إلى أ ن أصبح راشداً وفي استطاعته التصرف في مستقبله كما يريد. في ذلك الوقت كانت تنشأ بين الأهالي خلافات حول الأراضي، فكانوا يلجأون إلى هامبورج، لترسل إليهم مساح أراضي يساعدهم على حل خلافاتهم، فعزم نيبور أن يكون لقريته مساحها الخاص بها، وقرر أن يحصل على التدريب المناسب ليكون هو نفسه هذا المساح. وحين بلغ سن الثانية والعشرين، كان فون هافن في هذا الوقت قد أكمل دراسته لعلمي اللغة واللاهوت، منذ وقت طويل، وكان فورسكال، في الوقت ذاته، يعد رسالته عن الفلسفة الولفانية، بينما هو لا يزال يجلس على مقعد في مدرسة بمدينة هامبورج يتعلم الأبجدية وجدول الضرب. وقد استطاع أن يدفع المصاريف الضرورية الخاصة بتعليمه، بفضل إ رث والده، وبعد أن مضت سنة واحدة فقط استطاع أن يلتحق بمدرسة يتعلم فيها النحو والصرف.

وفي عام ١٧٥٧، بعد أ ن ناقش البروفسور ميشاليس موضوع الرحلة إلى اليمن السعيدة مع وزير خارجية الدنمارك، سمح للمستر نيبور بالالتحاق بجامعة جوتنجن، حيث درس العلوم الرياضية على يد البروفسور كاستنر الذي شهد لتلميذه، بالتفوق والنبوغ وحصل له على منحة دراسية، ليكون في استطاعته توسيع مجال دراسته لتشمل علم الفلك، ويكون في استطاعته شراء الأدوات اللازمة.

في هذا الوقت غمرته سعادة لم يعرفها من قبل، ولم يكن لهذا مثيل فقد قضى كل صباه وترعرع، دون أن يعرف في هذه الدنيا إلا تلك الأرض بمستنقعاتها من حوله. لقد بهره العالم الجديد، عالم الجامعة بكل مظاهره المبهجة وبدت قوانين الرياضيات والفلك لناظره في وضوح وجمال. ولكن، لم يحصل إلا نادراً، على هذه المباهج، دون تعب وكد وفشل، وقد ترامى إلى سمعه في هذا الوقت، دون توقع، أن لاسمه علاقة بالبعثة التي كان ملك الدنمارك يخطط لها.

لندع مشاعر نيبور في هذه الأيام تفصح عن نفسها وذلك كما جاء في حديثه مع ولده بعد سنوات طويلة لاحقة كتب ابنه ب. جـ. نيبور في هذا الشأن يقول:

«كان ذلك بعد ظهر أحد أيام الصيف لعام ١٧٥٨، حين أنهى البروفسور كاستنر إحدى الاجتماعات الأكاديمية للعلوم، ودخل غرفة والدي وطلب منه رأيه في السفر إلى العربية السعيدة فأجاب والدي أن لا شيء يمنعه من السفر إذا كان هناك من يدفع النفقات. كانت لدى والدي رغبة جارفة في التعرف على العالم، ولم يكن يربطه بمسقط رأسه شيء، وتابع البروفسور حديثه، وأخبر والدي أن ملك الدنمارك سوف يدفع النفقات. فقرَّر والدي في الحال الاشتراك في هذه الرحلة فقد التقى المشروع بكل أحلامه وآماله منذ زمن طويل».

وكان يكن التقدير الكبير للعلوم ولكل المعارف الحقة، ولهذا فقد خالجه الشك فيما إذا كان في مستوى هذه المهمة أم لا، وفي فائدة القيام بمثل هذه الرحلة. لكن البروفسور كاستنر قام بتطمينه ووعده بأنه سوف ينال التدريب الكافي، وسوف يدرس – ضمن ما يدرس – علم الفلك على يد البروفسور مير، وكان واثقاً من أن قدرات والدي وقوة إراداته ستؤهلانه لهذه المهمة. والشيء الوحيد الذي كان ينقص والدي هو موافقة البروفسور مير على القيام بتعليمه، فذهب لمقابلته في نفس تلك الليلة.



كانت نظرة البروفسور مير إلى الموضوع أقلَّ تفاؤلاً من نظرة كاستنر، فقد حذر والدي من اتخاذ قرار سريع قبل معرفة الأخطار والصعاب التي يمكن أن تواجهه في هذه المرحلة ومع هذا أبدى استعداده لتعليمه ما يريد.

وفي اليوم التالي قدَّم والدي نفسه إلى البروفسور ميشاليس الذي اعتبر قرار والدي السريع، في استعداده للمشاركة في الرحلة، على أنه إحدى مظاهر طيش الشباب، وألزمه أن لا يعطيه الجواب النهائي، إلا بعد أسبوع، وذلك بعد أن يكون قد أمعن النظر في الموضوع. وبعد أسبوع، رجع والدي إلى البروفسور ميشاليس، الذي قبل مشاركته في الرحلة».

وتمت أيضاً موافقة وزير الخارجية على اختيار كارستن نيبور ووعده بأن يعطيه الوقت الكافي لتدريب نفسه ومنحه مساعدة سنوية تعادل ما كان يتسلم فون هافن في السنتين الماضيتين. ومنذ ذلك الوقت كرَّس نيبور كل وقته وجهده من أجل تلك الرحلة فاستمر في دراسته للعلوم الرياضية ليستطيع القيام بالدراسات الجغرافية أثناء الرحلة كما حاول الاستزادة من المعلومات التاريخية، وأخذ في تمرين نفسه، وأهم دراسة قام بها هي دراسته للغة العربية لدى البروفسور ميشاليس ودراسته لعلم الفلك لدى البروفسور مير.

كان من الصعوبة بمكان تعلم اللغة العربية، وفقد نيبور صبره حين بدأ يدرس قواعدها وشعر بأن البروفسور ميشاليس كان ولوعاً في أن يتوه بطلابه بالدخول في التفصيلات النظرية الدقيقة لهذه اللغة. وبعد بضعة أشهر حين لم يستطع أن ينهي إلا المقطع الأول من كتاب النصوص الذي كان لديه قرر التوقف عند ذلك الحد. أما بالنسبة لدراسته لدى البروفسور مير، الضليع في العلوم الرياضية، فقد كان مسروراً، وكان شغف أستاذه بتدريسه، لا يقل عن شغفة في أن يتعلم.



واكتشف البروفسور مير طريقة جديدة لحساب خطوط الطول، عن طريق تسجيل بعض القراءات عن القمر. وكما أراد البروفسور لينوس إكمال معلوماته عن النباتات بما يرسله إليه فورسكال من جنوب إفريقيا، أراد البروفسور مير أن يغتنم فرصة اشتراك نيبور في البعثة كي يقوم ببعض التجارب ليثبت عملياً صحة طريقته هذه في الحساب. ووعد نيبور أن يستخدم جداول أستاذه الخاصة بالقمر لحساب خطوط الطول. وفي مقابل ذلك اهتم مير اهتماماً كبيراً بكل الأدوات التي سوف يحتاج إليها نيبور في الرحلة. وشغلا نفسيهما معاً في الحصول على آلة قياس ارتفاع الشمس والنجوم والتي بواسطتها يستطيع نيبور قياس الزوايا على الأرض. ودرج البروفسور مير بنفسه هذه الآلة حتى تكون أكثر ما يمكن صحة وإتقاناً. وفي استطاعتنا أن نتصوَّرهما منهمكين معاً، في إنجاز هذا العمل، فهذا هو نيبور يرقب أستاذه في اهتمام وإعجاب، وهو، يحفر الدرجات على الآلة الجديدة، وقد استولى هذا العمل على كل لبِّه وجهده، والنور الخافت يصدع على القطعة النحاسية لهذه الآلة وينعكس من مرايا صغيرة. وقد أطبق الصمت على كليهما وخيم عليهما جو من الرهبة وهما أمام تلك الآلة لأول مرة، التي فيما بعد سيشاع اسمها ومنفعتها، والتي كان على المستر نيبور أن يمسح الأراضي في اليمن السعيدة بواسطتها.

وبسبب اختفاء فون هافن طالت فترة تمرين نيبور إلى حد لم يكن متوقعاً فلم يغادر (كوتيجن) إلى كوبنهاجن إلا بعد يوم عيد الملاك ميخائيل في التاسع والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) ١٧٦٠. وبعد وصوله بوقت قصير التقى بالبروفسور الشهير فورسكال ووجد نفسه مضطرباً في حضور هذا الرجل الذي رغم أنه لا يكبره إلا بسنة واحدة، فقد كسب الكثير من العلوم وأحرز شهرة واسعة.

ولم يكن لقاؤهما مشجعاً، فقد ظهر فورسكال أثناء المقابلة مشغولاً، ولم يكن لديه من الوقت لأن يتبادل مع رفيق المستقبل إلا القليل من الملاحظات، بذهن شارد، على



عكس لقاء نيبور مع وزير الخارجية الذي كان حديثه ودياً، وقد غمرته الفرحة وهو ينصت إلى حديث نيبور، الذي ما كان منه إلا أن عرض عليه آلته الخاصة بالفلك. وسأله الوزير لماذا لم يرسل إليه فواتير تكاليفها حتى يقوم بتسديدها، فردَّ عليه نيبور بنزاهة بأنه ما دام يتسلم منحة دراسية من الملك، فإن من العدل، أن يقوم هو نفسه بدفع تكاليف هذه الآلة. في هذه اللحظة، وفي هذه المقابلة في استطاعتنا أن تخيل وزير الخارجية يصغي لحديث نيبور وقد وضع كفه تحت ذقنه، ورأسه يهتز وقد انطلق به ذهنه في التفكير في المصاريف الباهظة التي صرفت لفون هافن، وفي طلبات فورسكال التي لا حدَّ لها، وانتهى به التفكير أن قال لنيبور أن الملك سوف يغطي كل تكاليف تلك الآلة، وأنه شخصياً، سيكون مغتبطاً لو أنه قبل أن يكون أمين صندوق البعثة، كما أخبره أن عالم النبات السويدي المستر فورسكال قد منح لقب بروفسور، حسب طلبه، وسأله فيما إذا كان يريد أن يحمل نفس اللقب، فأجاب مذهولاً بأنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد حصل على درجة الانتهاء من الدراسة الجامعية. وعندئذ عرض عليه وزير الخارجية استعداده لمنحة لقب كابتن إذا أراد ذلك، فأجاب في حيرة بأنه لا يزال صغيراً في السن، وغامر بالقول بأنه سيكتفي بلقب ملازم، وسيكون له الشرف أن ينفذ ملاحظات وإرشادات محددة بوصفه ملازم، أما كبروفسور أو كابتن فسوف يشعر بالخجل الشديد حين يعرف الآخرون أنه لم يتعمق كثيراً في دراسة العلوم الرياضية ونظر إليه وزير الخارجية لحظة في صمت، ثم قرر أن يعيِّنه مهندساً بدرجة ملازم، وكان هذا يساوي تقريباً لقب «مسَّاح أراضي» ولكن هذا هو الالتزام بالنظام، النظام الذي جعله يظل.. لا شيء.



الفصل الخامس

اختيار رسام وطبيب للبعثة ثم بداية الدراما

احتدام الصراع بعد تعيين المستر كرامر – فورسكال يفقد أعصابه – الملك يوبخ فورسكال.

بعد وصول المستر نيبور إلى كوبنهاجن بوقت قصير، تمَّ اختيار عضوين آخرين للانضمام إلى البعثة الدنماركية، فقد قدَّم البروفسور اسكينس والبروفسور أويدر مذكرة يشيران فيها إلى ضرورة أن تضم البعثة مصوِّراً يقوم بعمل الرسومات للعينات التي سوف تجمع، كما يجب أن تضم طبيباً يساعد البروفسور فورسكال في عمله، ويكون أيضاً طبيباً للبعثة.

وللوظيفة الأولى اختارت أكاديمية الفنون الجميلة التي أنشئت حديثاً، المستر جورج ولهام يورنفانيد (Ceorg Welhelm Baurenfeind) وهو رسام ونحات، وكان يبلغ من العمر الثانية والثلاثين، وولد في جنوب ألمانيا، في نورنبرج، واستدعي إلى الدنمارك، ليعمل نحاتاً للطبعة الاستقراطية، ودرس في كوبنهااجن على يد البروفسور برسلر، وتبنى أسلوب الفن الألماني الذي كان أكثر صعوبة من الأسلوب الافرنسي، وخال من الرقة والنعومة.

في البداية كان من الصعب عليه أن يأخذ مكانه بين الفنانين البارزين المشهورين مع أنه لم يكن دون موهبة. وفي عام ١٧٥٤ منحته الأكاديمية أصغر ميدالياتها، وبعد ذلك بخمس سنوات، فاز بأعظم ميدالياتها، بعد أن قدم صورة محفورة سماها «النبي موسى والشجيرة المحرقة». دون أن يخطر بباله أنه نفسه بعد سنوات قليلة، سوف يسافر فوق الأرض نفسها التي عاش عليها النبي موسى. وفيما عدا هذا، كان نتاجه في معظمه يتألف من صور للشخصيات العظيمة، أمثال ملوك عائلة أودنبرج والعائلة المالكة الدنماركية، كما رسم في الأخير صورة للسيد جـ. مولتك، لاقت نجاحاً منقطع النظير، وأثرت دون شك على اختياره عضواً في البعثة.



كان بورنفانيد، كرسام ونحات، ماهراً إلى درجة ما وكان صاحب ضمير حيّ، ومسالماً، ويغلب عليه اعتدال المزاج، والجدية والوقار وكانت لديه خبرة في التلحين والموسيقى.

وقد وجد فيه الآخرون الرفيق المرح الذي لا يسيء كثيراً، ومن وقت لآخر، كان مرحه يتحوَّل إلى حزن وشعور بالغربة والوحدة، وكان يعمل دون انقطاع عدة أيام حين يُطلب منه ذلك، دون أن يتوقع جزاء ولا شكوراً، وهو الوحيد الذي لم يقع في شباك الصراع الدرامي الذي حدث بين أعضاء البعثة.

بدأت الدراما، أول ما بدأت، حيث تمَّ تعيين طبيب البعثة كرستيان كرامر، الدنماركي الأصل، الذي درس التاريخ الطبيعي والطب في جامعة كوبنهاجن، وهو الوحيد بين أعضاء البعثة الذي لم نعرف عنه الكثير. وُلد في التاسع عشر من شهر كانون الثاني (يناير) لعام ١٧٣٢ في مدينة كوبنهاجن، حيث كان يعمل والده خادماً في منزل السيد تشابرلن، الذي كان لكلمته أثر لصالح طالب الطب الشاب؛ ولم يلتحق بالجامعة إلا بعد أن أصبح عمره أكثر من الواحد والعشرين عاماً. وبعد ذلك بسبع سنوات، أي في عام ١٧٦٠، أنهى آخر دراساته واختباراته في علم الطب، وكانت رسالته للدكتوراه، عن الحشرات، ويبدو أنها كانت ذات أهمية، لكنها لم تكن في مستوى أصيل، فقد أُعدَّت في عجلة لغرض الحصول على لقب دكتور والاشتراك في البعثة الدنماركية وقد مُنح هذا اللقب في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٧٦٠، قبل مغادرة البعثة لكوبنهاجن بستة أيام فقط. وباستثناء رسالة الدكتوراه هذه، فإن إنتاجه يقتصر على كتاب واحد نُشر في عام ١٧٥٩، ولا ندري شيئاً عن محتواه وليس في النية دراسته مثلما فعلنا عند دراستنا لمؤلف فورسكال عن حرية الصحافة، وقد تعيننا معرفة عنوانه عن أخذ فكرة عن محتواه، وعنوانه هو : «عصافير الكناريا وطريقة تربيتها».

وكان يتحلى بالأخلاق نفسها التي كان يتحلى بها المستر بورنفانيد؛ فقد كان رقيقاً واجتماعياً، لكنه كان كسولاً، ولم يُظهِرْ قدرة كافية في حقل اختصاصه. وبسبب قدراته، أو على الأصحّ بسبب النقص في قدراته، أصبح الصخرة التي ليست شيئاً في حد ذاتها، ولكنها هي التي تسبَّبت في الانهيار السريع.

لم يجد اختيار كرامر القبول لدى فورسكال، ذلك أنه، قبل مغادرته ستو كهلم إلى كوبنهاجن، اصطحب معه أحد مواطنيه، المدعو فالك، الذي كان يصغره بسنة واحدة، ودرس أيضاً تحت إشراف البروفسور لينوس الطبيعي، ولم يصحبه معه إلا بعد استشارة البروفسور لينوس، على أمل أن يعيَّن مساعداً له في البعثة، ويكون في مركز وعلى درجة من المسؤولية أقل منه. وسوف لا يقوم بمساعدة فورسكال فحسب، بل سيكون من السهل عليه أن يتعهَّد بإرسال العينات النباتية إلى البروفسور لينوس المتلهف لوصولها.

وما أن وصل فورسكال إلى كوبنهاجن حتى قدَّم طلباً إلى وزير الخارجية، الذي كان قد أظهر من قبل استسلاماً لا حدَّ له أمام الطلبات الجائزة.

في هذه المرة كان لفورسكال أربعة مطالبت، أولها أن يحصل على وعد بأن البعثة لا بد أن تقوم بزيارة جنوب أفريقيا، وهو المكان الذي أوصى بزيارته أستاذه لينوس، وثانيها أن يُسمح له بإرسال البذور والنماذج النباتية إلى أستاذة، وثالث هذه المطالب أن يوضع تحت تصرُّفه مبلغ من المال في حساب مفتوح يغطي كل نفقاته الخاصة، ورابع هذه المطالب أن يعيِّن مساعد له، الطالب السويدي جوناس بيترفالك.

وكان طلبه الرابع والأخير، على أخص، وقحاً لأنه حين أرسل هذه المطالب كان يعرف أنه قد تم اختيار الدنماركي كرامر مساعداً له وقد وضح هذه من رسالة بعثها إلى البروفسور لينوس بعد وصوله إلى كوبنهاجن بأربعة أيام فقط، شرح فيها الصعاب التي تعترض تعيين فالك جاء في الرسالة ما يلي:

«أن مهمتي شاقة جداً فمن الصعب عليَّ أن أتحاشى الإقدام على إهانتهم، من ناحية، ومن ناحية أخرى أن أتجنب قبول مساعد لا يعتمد عليه، ومع هذا فسوف استخدم كل أساليب المناورة والسياسة بقدر استطاعتي». وقد ظهر جلياً من قبل، كيف استخدم فورسكال أساليب المناورة في جداله ضدَّ الذين وجهوا النقد لرسالته في الدكتوراه وفي ما قام به من أعمال خلال الصراع من أجل حرية الصحافة.



وفي كل الأحوال لا بدَّ أن يجعل الحق في جانبه، وفي الحالين السابقين كان عليه إما أن يسيء إلى خصومه وإما أن يتقبل آراءهم وقد فضَّل في كلا الحالين الإساءة إلى الجميع من أجل الوصول إلى أغراضه.

في القضية التي بين أيدينا، كان فورسكال على حق لأن المستر فلاك كان دون شك أكثر مهارة من المستر كرامر، وفي هذه الحالة اختار، كما هي عادته، الإساءة إلى الآخرين. وكانت النتيجة أن رفضت المطالب الثلاثة المهمة من مطالب فورسكال الأربعة، فالبروفسور ميشاليس سوف لا يسمح للبعثة أن تصل إلى جنوب أفريقيا، دون أن يلام على ذلك، فلقد كان هدف البعثة من البداية هي اليمن السعيدة، وليس العمل على اكتشاف نماذج نباتية في البلد الذي يحلم به البروفسور لينوس، وأكثر من هذا، فإن الحكومة الدنمارية سوف لا تسمح أن تذهب النتائج التي تحصل عليها البعثة إلى دولة أخرى، في الوقت الذي تتحمل الدنمارك جميع نفقات البعثة.

وعلى هذا، فقد كانت مطالب فورسكال تفتقر إلى المنطق. لكن، دون شك، كان في استطاعته أن يصل إلى غرضه إذا بذل بعضاً من جهده في المناورات الدبلوماسية وخاصة وقد أظهر وزير الخارجية المتسامح، ما هو أكثر مما يسمى بمجاملة في تعامله مع أعضاء البعثة. وعلى أي حال لم يكن موقف الحكومة هو الذي قضى على آماله فيما يخص تعيين المستر فالك.

وبعد شهر من تقديم طلبات فورسكال، كان قد تقرر في الواقع أن يرافق (كرامر) البعثة إلى اليمن السعيدة، واختار فورسكال هذا الوقت ليرسل لوزير الخارجية رسالة أخرى يطلب فيها مرة أخرى تبديل (كرامر) بالمستر (فالك)، وحجته في هذا كانت كما يلي:

«لأن الفرصة مواتية لدراسة التاريخ الطبيعي في مدينة ابسلا أكثر منها وأحسن في مدينة كوبنهاجن، حيث المعاهد الجيدة لا زالت حديثة ومبتدئة، ولأن المستر فالك يحمل توصية خطية من البروفسور لينوس بجامعة ابسلا تشير إلى أنه درس وستفاد على يده. فإن طلبي المتواضع بأن تستفيد البعثة من وجوده عضواً فيها، سوف ينل قبولكم. لكني، لو أعطيت مساعد آخر لا يزال في حاجة إلى تحصيل الكثير من المعلومات في التاريخ الطبيعي، فإني أتوقع أن تكون إفادتي منه ضئيلة جداً».

بعد هذه الرسالة تضاءلت الفرصة بشكل كبير أمام فورسكال في قدرته على تغيير آراء وزير الخارجية. وأصبحت مناوراته غير مجدية ولا مؤثرة. وكل ما استطاعت الرسالة تحقيقه هو أنها نجحت بطريق غير مباشر، في أن تفهم الحكومة الدنماركية، التي عيَّنته في البعثة بمعاش مدى الحياة وبدرجة بروفسور، بأن دراسة التاريخ الطبيعي الجامعية في الدنمارك أقل أهمية وجدِّية من مثيلتها في السويد، وبأن الدنماركي الذي عيَّنته الحكومة الدنماركية لمرافقة البعثة، لم يكن – بالمقارنة إلى المرشح السويدي – إلا مجرد حمار.

في البداية كان لدى فورسكال حججه الخاصة المنطقية في تفضيل المواطن السويدي على المواطن الدنماركي، لكنه الآن قد وضع نفسه موضع المتهم، إذ فسَّر الدنماركيون معارضته لكرامر على أنه تعصب منه للسويد.

وكان رد الفعل سريعاً، فقد سمع البروفسور (كراتزنستن) بأنه فورسكال كان يصفه علانية أمام الناس بأنه غير ماهر في التعرف على النماذج النباتية، وأن البروفسور لينوس هو الوحيد القادر على ذلك فترك هذا في نفسه استياء كبيراً دفعة إلى الذهاب في الحال إلى وزير الخارجية، يحتج على فرسكال، قائلاً بأن الدافع الوحيد له على اختيار السويدي إنما هو التعصب الأعمى الذي يملأ قلبه لمواطنيه.

ونشبت المعارك، بعد أن عينت الحكومة الدنماركية كرامر. فما أن سمع فورسكال نبأ هذا التعيين حتى انطلق يعدو كالمجنون، يفتش عن البروفسور كراتز نستن، وليس لدينا علم بما حدث بينهما أثناء المقابلة، ولكن، لحسن الحظ، عثرنا على رسالة للبروفسور كراتز نستن، وجهها إلى البروفسور لينوس بعد سنة من الحادث، ورغم أن ما عثرنا عليه هو فقط لجانب واحد من جوانب النزاع، فإنه يتفق، إلى حد كبير، مع ما نعرفه من طباع فورسكال ولا يبعد كثيراً عن الحقيقة.

ونترك الحديث للرسالة: «أتى لزيارتي فورسكال، ولما لم يكن من السهل عليَّ نسيان سلوكي الرفيع، وتربيتي العالية، فقد استقبلته بكل لطف وحفاوة، لكنه تصرف معي بعداء وبمزاج سيء، ودون عناء. لقد أخذ يوبخني بعنف ويمطرني بعديد من اللعنات ومسبَّات الدين، حتى حسبته قد أصيب بهوس أثر حمى شديدة، أفقدته أعصابه وتزانه. وأجبته بأن هذه اللهجة القاسية، لا يجب أن توجه إليّ، بل يجب، حين الضرورة، أن توجه إلى المستر اسكافيس الذي كان هو السبب في تعيين المستر كرامر، وأكثر من هذا، فليس من اللائق والمألوف، أن يوجه إليّ مثل هذا الحديث، غير أنه لم يقف عند حده فقدت صبري وقلت له:

كيف تجروؤ على مسبّتي في مكتبي، وأنا بريء من كل ما تدعي، ولا بدَّ أن ينالك عقابي على كل الكلام السيء الذي نشرته عني بين الناس وفي البلاط.

وكان ردُّه: نعم.. أيها البروفسور.. إنك في واقع الأمر لا تستطيع الدفاع عن نفسك. إذا قلت علناً أنك أقل شأناً من البروفسور لينوس. وليس في هذا ما يخجل. فأجبت: الأمر عكس ما تقول، هنا في جامعة كوبنهاجن، لا يجب أن يُمدَح البروفسور لينوس الأجنبي ويقلِّل من شأني. وهنا حيث أنا، لا البروفسور لينوس، أستاذ التاريخ الطبيعي، لا يجب أن يقلن الطلاب فكرة خاطئة عن أنني غير كفء لتعليمهم. وإذا كنت أسلم بالأسبقية للبروفسور لينوس، فهذا من شأني وحدي، وأنت خاصة لا تستطيع أن تجعل من نفسك قاضياً إذا كنت تجهل ما أقوم به، وتجهل ما أعرفه وما لا أعرفه.

فردَّ قائلاً: أنني لا أريد أن أملأ قلبك غضباً، ولكني أريد إخبارك بأنك مجرد قزم إذا قورنت بالبروفسور لينوس. فقمت من مقعدي لأمنع نفسي من أن أصفعه وأجبت:

حسناً، لأكن قزماً، ولكن القزم حقاً، هو الذي يقف على أكتاف لينوس.

وبعد هذا جاء دور أعضاء البعثة الآخرين، فوجَّه هجومه على المستر كرامر، لكني نصحت كرامر أن يتجنب الدخول في نقاش مع هذا المعتوه، الذي دفعه جنونه إلى أن يوجّه إليَّ في منزلي أقسى الإهانات». ولم يقف فورسكال عند هذا الحد، فقد جاء دور وزير الخارجية برنستورف. ففي الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، أبلغه فورسكال بأن طالباً يسمِّي نفسه كرامر قد وصل لزيارته، وأنه أصرَّ على القول بأنه قد عيِّن في البعثة زميلاً له وليس مساعداً. واستطرد فورسكال يقول: «ولما كان كرامر لا علاقة له بي، فإني لا أستطيع أن أحمل على عاتقي اختبار قدراته، وإذا كان كما أعتقد – ولي الحق في أن أعتقد – لم يدرس التاريخ الطبيعي بإتقان كما درسته أنا، ومع هذا فهو في نفس المرتبة التي أنا فيها، فهذا معناه بأنني سأكون مضطراً للعمل بمفردي، وسوف يشاركني فقط شرف هذا العمل ونتائجه».

وطلب في الختام المستر فالك مساعداً له، وهو الذي سبق واقترح اسمه. وإلا، فعلى الأقل، يجب أن يسمح له بأن يقوم باختبار قدرات المستر كرامر وأن يرفع إلى الحكومة تقريراً بنتيجة هذا الاختبار وذلك قبل تعيينه نهائياً.

بهذه الرسالة تجاوز فورسكال حدود صبر وزير الخارجية وطبعه المجامل، فبعد، أن قرَّر نهائياً، تعيين المستر كرامر، وجد نفسه أمام ضغط فورسكال الشديد من أجل تعيين المستر فالك، ووجد نفسه أيضاً في موقف القاضي، ليحكم في موضع سبق وأعطى الحكم فيه الأساتذة الدنماركيون والحكومة الدنماركية. وأصبح، لهذا، فورسكال، معرضاً لأن يستغنى عن خدماته كلية، لولا استحالة الحصول على من يحلَّ محله، خاصة وقد أصبحت البعثة الآن على أهبة الاستعداد للرحيل، ووجد فورسكال في المستر

مولتك السند الوحيد، وهو صاحب تلك المجموعة الجميلة من المحار التي جمعها ونظمها له فوسكال، ولم ينسَ المستر مولتك أن وراء تصرفات فورسكال الشاذّة العصبية، تكمن مواهبه النادرة. ومن المحتمل أن نظرات مولتك غير العاطفية، استطاعت أن ترى أن المشكلة الأساسية ليست في سوء أخلاق فورسكال بقدر ما هي في ما يعتقد أنه الحق.

وصدرت بعد هذه بأربعة أيام توجيهات جلالة الملك، وتضمنت توبيخاً واضحاً للمستر فورسكال، ورفضاً باتاً لكل مطالبه التي حوتها رسالته الأولى لوزير الخارجية:

«وبما أننا نحن الذين نغطي كل تكاليف البعثة فإن كل ما تجمعه في طريقها من حيوانات وطيور وأسماك وما شابه ذلك، يجب أن يرسل مباشرة إلينا، عن طريق شركتنا الشرقية، وليس عن طريق آخر، وإذا حدث وكان لدينا كمية زائدة عن حاجتنا من أي نوع، فنحن الذين نقدر، حسب الظروف، رغبات المستر فورسكال. وحيث وأننا كما سبق وذكرنا، نتحمل كل نفقات البعثة، من البداية حتى النهاية، فمن الطبيعي أن يكون من حقنا وحدنا، اختيار الأشخاص الذين سيقومون بهذه الرحلة، ومن ثم تتجلى رغبتنا السامية في أن يستعد الدكتور كرامر ليقوم بمرافقة البعثة».

وكان ردّ فورسكال على هذه التوجيهات سريعاً، فقد كتب رسالة مطولة إلى وزير الخارجية مؤكداً له أ ن التعصب لم يكن مطلقاً هو الدافع لسلوكه، ورجاه أن لا يأخذ فكرة سيئة عنه، لأن هذا سيفقده الشعور بالمتعة في عمله، وعرض عليه استعداده لتقديم استقالته. وربما استطاعت هذه الرسالة أن تجد طريقها إلى قلب وزير الخارجية، وأن تنال لفورسكال الصفح والغفران.

ولم يفتر غيظ فورسكال ولم تهدأ ثائرته، وقد ظهر هذا من رسالة وجّهها إلى البروفسور لينوس، جاء فيها:

«لقد نال، حديثاً، زميلي كرامر شهادته العليا في الطب، بعد أن قدَّم رسالته الملفقة التي سماها: (Spicimen Insectologine Danicae)، فإذا ألقيت نظرة عليها لا



تجد فيها شيئاً جديداً، وكل ما جاء فيها عن الهوام والحشرات مسروق من مؤلفات البروفسور ليس، أما ما عدا ذلك فمسروق من كتاب (Systema Naturae)، وقد أحضروا من السويد مجموعة من الحشرات سبق اكتشافها، ويريدون أن يظهروا بمظهر العباقرة العلماء، إنهم حقاً ملفقون».

وآخر رسالة حرَّرها فورسكال إلى لينوس كانت بتاريخ أول كانون الثاني (يناير) ١٧٦١، وذلك قبل سفر البعثة بأربعة أيام فقط، واستمر الصراع حول كرامر حتى نهاية ١٧٦٠، حيث تضخمت الدراما فجأة، دون توقع، واعتلت بسرعة مسرح الأحداث المتصارعة وظهر ممثل دراماتيكي جديد على المسرح واحتل المركز منه، فقد وصل من روما فردريك كرستيان فون هافن.



الفصل السادس

فون هافن يعمل على تغيير خط سير البعثة

رسالة إلى وزير الخارجية – فون هافن يعصي الأوامر الملكية.

كانت آخر رسائل المستر فون هافن، هي تلك التي كتبها من فرنكفورت في نيسان (أبريل) عام ١٧٥٩، إلى وزير الخارجية برنستورف، والتي ذكر فيها أنه وصل فرنكفورت بعد كفاح مخيف دام ستة أشهر، منذ أن غادر كوبنهاجن في طريقه إلى روما. وبعد هذه الرسالة لم يعرف أحد أي شيء عن مصيره، ولم يعرف أحد، ما كان يقوم به ذلك العالم الدنماركي في ذلك الوقت. وفي آب (أغسطس) اضطر البروفسور ميشاليس أن يذكر لبرنستورف ضرورة محاولة الاتصال به، عن طريق الحصول على عنوانه من أقاربه في الدنمارك. لكن جميع الاستفسارات لم تسفر عن نتيجة، فقد توارى عن الأنظار فون هافن، وغاب إلى حيث لا يدري أحد. وغادرت السفن الدنماركية كوبنهاجن في تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٥٩ دون أن يكون على ظهرها أفراد البعثة، ولم يعرف مصيره إلا بعد أن تعطل برنامج البعثة وتأجل سفرها، وذلك حين وصلت رسالة منه، إلى وزير الخارجية في الحادي عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٥٩، ونجح في تمديد تأخره سنة أخرى. وفي هذا الوقت الذي كان من المفروض أن يكون قد وصل قبله، بوقت طويل، إلى كوبنهاجن، كتب لوزير الخارجية يقول أن له الشرف في أن يخبر معاليه في تواضع أنه قد تمَّ وصوله سالماً إلى روما. لقد وصلها بعد رحلة استغرقت سنة كاملة، كلفت الحكومة عدا مصاريف السفر مبلغ ٥٠٠ رجسدالر. وضمن خطابه الكثير من الأعذار وشرح كيف غادر فرنكفورت في الثاني والعشرين من شهر أيار (مايو) ماراً بمنز وشتراسبورج وبال وبرن وجنيف، وشامبري وتورين وجنوا، وأخيراً وصل ليغورن في العشرين من شهر تموز (يوليو)، وهذا جزء من رسالته:

«ودون شك، كان من الممكن أن أغادر من هناك مباشرة إلى روما في ثمانية أيام. ولكن ما شغلني وأخرني هو أني أخبرت أن الطقس في روما سيء في الصيف، وحذرني كل الناس من مغبة المغامرة والرحيل إليها في ذلك الوقت، ولم يكن لدي أي سبب خاص يمنعني من الاستماع إلى نصائحهم الغالية وخاصة وأني كنت مقتنعاً بأن مهمتي لا تتطلب مني المجازفة بحياتي وصحتي، فقط، من أجل أن أصل روما متقدماً بعض الوقت. ومع هذا فإن القدر الظالم أوقعني فريسة في فلورنسا، لما كنت أخشى حدوثه في روما. وكان في اعتباري أن الطقس المعتدل في فلورنسا سيساعدني على العمل بنشاط في مكتبات الدوق العظيم، ولهذا قررت الانتظار حتى يتحسن الطقس في روما، وأخرت رحيلي إليها، حتى أواسط شهر تشرين الثاني (سبتمبر) ولكن أصابتني حمى شديدة أخَّرت رحيلي حتى أوائل شهرنا هذا».

وفي روما أيضاً يبدو أن صعاباً لا حصر لها تآمرت ضده، وقد سبق وأكد البروفسور ميشاليس عدم جدوى الذهاب إلى العاصمة الإيطالية، حيث لا يوجد هناك من يتحدث اللهجة الدارجة لسكان اليمن السعيدة. ومن أجل هذا فإن الإرشادات التي على ضوئها سافر فون هافن إلى روما قد حصرت في قراءة ونقل المخطوطات الشرقية، وهذا بالطبع لا يمكن إنجازه، إلا في مكتبة الفاتيكان. وبعد مضي ثلاثة أشهر من وصوله إلى روما، كتب إلى برنستورف بأنه بدأ في دراسة اللغة العربية في الصباح، وبعد الظهر، على يد قسيس سوري، وبعد مضي أربعة أشهر كتب يقول بأنه قد حصل على رسالة توصيه لارتياد مكتبة الفاتيكان. وبعد خمسة أشهر من ذلك كتب يشكر السفير الأفرنسي على توصيته التي، بفضلها كان في مقدوره الدخول إلى الفاتيكان في أي وقت شاء، وبعد مضي ستة أشهر من وصوله روما، وثمانية عشر شهراً من مغادرته الدنمارك لم يعرف بالضبط فيما إذا كان هذا العالم الدنماركي قادراً على أن يبدأ في الدراسة

والقيام بواجبه أم لا. ومرة ثانية يتدخل القدر الظالم في شؤون فون هافن. فقد كتب إلى وزير الخارجية الدنماركي في الثاني والعشرين من شهر آذار (مارس) يخبره بأن مكتبة الفاتيكان لم تعد، لسوء حظه، تفتح أبوابها إلا من الساعة التاسعة حتى الثانية عشر ظهراً، واستطرد يقول: «ولكن في المواد التي تتطلب الدراسة والنقاش فإن أفضل الأحياء على الأموات. وبما أني لا أستطيع أن ألتقي بصديقي القس السوري إلا في الصباح فإني أخشى أن لا يكون في استطاعتي عمل أي شيء إلا تكليف آخرين بدلاً عني كي يقوموا بنقل المخطوطات في مكتبة الفاتيكان».

ونتيجة لذلك لم يحصل فون هافن، على أي نسخة لمخطوط واحد طيلة بقائه في روما، ولكنه نجح في الحصول على علاوة تكاليف سفر قدرها ٢٠٠ رجسدالر. وفي الخامس عشر من شهر تموز (يوليو) كتب البروفسور ميشاليس إلى المستر فون هافن يطلعه على المرسوم الملكي الذي يوجب على جميع أعضاء البعثة أن يقدموا أنفسهم في كوبنهاجن في آخر شهر تشرين الثاني (سبتمبر) على الأكثر، وسوف يغطي ملك الدنمارك كل تكاليف سفرهم. وخصص لكل من فورسكال ونيبور مبلغ ١٠٠ رجسدالر وفون هافن مبلغ ٣٠٠ رجسدالر لأن رحلته ستكون أطول.

وقد رأينا كيف أطاع الاثنان الأمر الملكي، أما المستر فون هافن فكان الأمر بالنسبة إليه يختلف نوعاً ما. فقد كتب، معترضاً، رسالة إلى وزير الخارجية في السادس عشر من آب (أغسطس) يقول فيها:

«سيدي، هذه استحالة مطلقة، فليس لدي أي مبلغ من المال لأدفع مصاريف السفر، ولم أستلم مبلغ المايتين رجسدالر التي بفضلك، منحني إياها صاحب الجلالة. وأنا الآن في حاجة إلى مبلغ ٤٠٠ رجسدالر من أجل العودة، وإذا تسهَّل وصول المبلغ في نهاية الشهر القادم فسوف أرحل حالاً، وأكون في الوطن في تشرين الثاني (نوفمبر)،

لأن الرسائل تستغرق سبعة أسابيع من كوبنهاجن إلى روما». لقد كانت الفلوس أثناء ذلك في الطريق إليه، وذلك مبلغ المائتين رجسدالر، منحة جلالة الملك، إضافة على مبلغ ٣٠٠ رجسدالر لمصاريف السفر. وأصبح مجموع ما وصله أكثر مما طلب، وقد وصلته جميعها في أواسط شهر أيلول (سبتمبر)، ولكنه لم يسافر إلى كوبنهاجن. وبينما ركب المستر نيبور والمستر فورسكال عربة البريد في طريقهم إلى كوبنهاجن، كان أستاذ فن اختلاق المعاذير في التأخير المماطلة ينعم في العاصمة الإيطالية، حيث الطقس لم يكن بالرداءة التي كان عليها في السنة الماضية.

ولو عرف فون هافن ما تخفيه الأيام لأسرع قليلاً. ففي جامعة جوتنجن كان البروفسور ميشاليس ساخطاً على مخالفته أمر جلالة الملك. وقد كتب إلى المستر برنستورف في الخامس والعشرين من آب (أغسطس) يرجوه أن يطلب بتواضع من الحكومة الدنماركية، التسامح المزيد من الصبر، وترسل المبلغ المطلوب من المال إلى فون هافن وأبدى استياءه الشديد من ملاحظات فون هافن غير اللائقة.. جاء في رسالته: «من المؤكد، أنني كنت دائماً أعتبره شاذَّ المزاج، ومتقلب الأطوار، لكنني حين أوصيتكم بقبوله في البعثة، كنت أولي اهتمامي بمواهبه، رغم أن نزاعات كثيرة كانت قد حدثت بيني وبينه، ومع هذا فقد وضح من رسالته، ومن تصرفاته وأخلاقه أنه لا يجب أن يكون له شأن في البعثة أكثر من الآخرين، ولا يجب أن يكون له علاقة بالشؤون المالية، ويجب أن يكلف المستر نيبور في ثقة بإدارة شؤون البعثة المالية». وقد لاحظنا آنفاً كيف استجاب وزير الخارجية لنصيحة البروفسور في هذا الخصوص. لقد قضى سلوك فون هافن على كل الفرصة المتاحة لأن يصبح رئيساً لهذه البعثة، بل إنه تجاوز بسلوكه السيئ كل الحدود، لدرجة أنه تسبب في تخريب خطط وزير الخارجية بشكل إيجابي. وبعد أن تسلم مصاريف الرحلة إلى كوبنهاجن، تأخر شهراً كاملاً، وفسَّر تأخيره هذا، بأنه كان

مضطراً أن ينتظر شهراً كاملاً حتى يتمكن من توديع جميع أصدقائه، ولم يصل مدينة فينيسا إلا في التاسع من شهر تشرين الأول (أكتوبر) حيث نوى أن يظل ثلاثة أيام فقط، يقول في رسالته:

«بالرغم عني، ولسوء الحظ، تأخرت أكثر من ثلاثة أيام» وفي ألمانيا كان سفره بطيئاً جداً، وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) لم يكن قد وصل إلا إلى أوجسبرج، وفيها كتب رسالته التي يعتذر عن سفره البطيء ويرجو: «سوف توافقون معي يا صاحب المعالي بأن من الأفضل أن يصل الإنسان سالماً، وفي صحة جيدة، ولو تأخر وصوله عن الميعاد المحدد، عن أن يهمل في اتخاذ سبل الأمان والحيطة، ويعرض نفسه إلى احتمال وقوع الحوادث أو الموت نتيجة لهذا الإهمال» وفي الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) وصل هامبورج حيث استراح عدة أيام. ولم يصل كوبنهاجن إلا في كانون الأول (ديسمبر). ومن المؤسف والمؤلم أن السفن الدنماركية في هذا الوقت، للمرة الثانية، كانت قد غادرت إلى ترنكبار دون أن يكون عليها البعثة الدنماركية.

إن خطة سفر البعثة إلى ترنكبار الواقعة في جنوب شرقي الهند، عن طريق المرور حول إفريقيا حتى الجنوب، ثم في عودتها يصبح هدفها العربية السعيدة، لهو الجزء الباقي من المشروع الأصلي، المشروع الذي كان من المفروض أن تتحمل مسؤوليته الإرساليات الموجودة في المستعمرة الدنماركية.

وحين أغفل النظر عن الجزء الأخير في المشروع، بقي الجزء الأول منه دون تغيير، لكنه فيما بعد، أصبح لا معنى لوجوده. وكان المستر فون هافن أول من لاحظ هذا، وكان تسويفه في الرجوع إلى الدنمارك، ليس فقط بسبب كسله وسوء تصرفه، ولكن أيضاً بسبب رغبته القوية في القضاء على هذا الجزء غير المناسب من المشروع. وقد سبق وأخبر وزير الخارجية بما كان يفكر فيه، في رسالة له بتاريخ الثالث والعشرين من شهر

آب (أغسطس) من روما جاء فيها ما يلي: «إذا وصلنا على ظهر البواخر المتجهة إلى ترنكبار فمن الواضح أنني بصعوبة أستطيع أن أتوقع وصولي إليكم في الوقت المحدد. وعلى أي حال ليس لدينا هناك في ترنكبار ما نعمله ولا يوجد أي مبرر لوصولنا هناك، وهذا الطريق الذي ستسلكه البعثة ليس أقصرها ولا أكثرها أماناً ولا أفضلها». وأشار في رسالته إلى أن فكرة السفر إلى ترنكبار مأخوذة عن المشروع الأصلي، واقترح أن تسلك البعثة طريقاً آخر كي تصل العربية السعيدة بأقصر طريق، فيجب أن تكون وجهتها أولاً القاهرة، ثم السويس، ثم تعبر البحر الأحمر إلى اليمن السعيدة.

لم يكن المستر فون هافن الوحيد الذي كان هذا الموضوع يشغل باله، ففي شباط (فبراير) عام ١٧٦٠ تسلم البروفسور ميشاليس مذكرة من مستشار مجلس العدلية لمدينة أولد نبرج الهر فون هامل، تضمنت نقداً لاذعاً لمشروع السفر عن طريق ترنكبار، واقترح أن تتجه البعثة مباشرة إلى العربية السعيدة، عن طريق القسطنطينية، حيث يتعرَّف رجال البعثة على رجال الأعمال والتجار ويسمعون منهم النصائح والإرشادات. وبمساعدة السفير الدنماركي المعتمد لدى بلاط الخليفة يستطيعون التعرُّف على الأخلاق والعادات الشرقية.

كان وزير الخارجية الدنماركية يعارض هذه الاقتراحات، لكنه الآن، بعد أن تأخر فون هافن شهرين كاملين في الوصول إلى كوبنهاجن كان مضطراً لمواجهة الأمر الواقع فقبل هذه الاقتراحات نيابة عن الحكومة الدنماركية. وفي الرابع عشر من شهر كانون الأول (ديسمبر) كتب المستر فورسكال إلى البروفسور ميشاليس: «سوف نرحل على مركب حربي وجهته القسطنطينية، ومن هناك، إلى الإسكندرية ثم السويس، ونزولاً في البحر الأحمر إلى جدة القريبة من مكة، ثم إلى ميناء المخاء في اليمن السعيدة».

كان هذا هو خط سير البعثة النهائي، وبهذا انتصرت أفكار المستر فون هافن، لكن، وصل إلى علمه أنه إلى جانب النصر، قد مني بهزيمة شنعاء، فقد كان من المفروض أن يمنح لقب بروفسور، مثل فورسكال، وضاعت عليه أيضاً فرصة أن يكون رئيساً للبعثة، فأصبح لهذا جميع أعضاء البعثة في درجة واحدة. كما لم يسمح أن يكون له أي علاقة بالشؤون المالية للبعثة، وتمَّ اختيار المستر نيبور أميناً لصندوق البعثة. وكان وَقْع هذه الأحداث، على فون هافن كالصاعقة، فهو أكبر أعضاء البعثة سناً، وباستثناء الشاب كرامر، كان هو الدنماركي الوحيد في البعثة، ومضى عليه ما يقرب من خمس سنوات وهو يتسلم من الملك المال لإعداد نفسه لهذه البعثة، ومع كل هذا فهو الآن ليس رئيس البعثة.

كان في الأصل، يعتقد أن الأمر كله، حلم في حلم، وأن الرحلة لن ترى النور. وحين بدأ الحلم يتحقق أصبح التراجع بالنسبة إليه غير ممكن. ويبدو أن الرحلة إلى اليمن السعيدة، لم تكن تهمه بقدر ما كان يهمه الحصول على الهبات المالية من ملك الدنمارك. وحين علم بأنه لن يصبح رئيساً للبعثة، وأن ذلك الريفي الذي يصغره بست سنوات قد عُيِّن أميناً لصندوق البعثة لم يشعر أنه أهين فقط بل شعر أيضاً أنه قد وُرط في عمل، في استطاعة القدر وحده، أن يساعده في انجازه. وأصبح لا مفرّ أمامه من تفجير الموضوع في الحال بصراحة وحرية. واتبع أسلوباً يائساً، وكان هذا الأسلوب هو فرصته الوحيدة.

وحين استدعى أعضاء البعثة لمقابلة القادم الجديد، طلب منهم حسب ما روى نيبور، أن تنقل إليه مسؤولية الشؤون المالية وأن يكون له صوتان، زيادة عن أصوات الآخرين عند التصويت في أي أمر من الأمور، وأن يكون له في الوقت نفسه حق الاعتراض «الفيتو» على أي قرار. ولما سألوه عن أسباب منحه جميع هذه الامتيازات، أجاب عليهم بأنه يفوقهم جميعاً علماً وثقافة وكانت هذه هي البداية المسلية، بالنسبة للمستر فورسكال.



الفصل السابع

الدنمارك في حالة حرب وفوضى

هل كان نيبور سيقبل أن يكون رئيساً للبعثة؟

توصيات الملك للبعثة – توصية الملك الخاصة بنساء المسلمين –

هل وراء الرحلة هدف استعماري؟

بالرغم من أن الرسائل التي عثرنا عليها لا تسلط أي ضوء على منازعات فون هافن مع فورسكال، فإنه يبدو، من البداية، أن الموقف بين الاثنين، كان متوتراً، بعض الشيء. فلم يكن من السهولة أن يصف أحد فورسكال، بالجهل، ثم تمر الأمور وكأن شيئاً لم يكن. وحتى من الناحية الأخلاقية لكل منهما، لم يكن هناك أية إمكانية للتفاهم، بين سيد الأعذار والحجج المختلفة، وبطل التسويف والمماطلة، وبين ذلك البطل، المجادل، المحنك، الذي ناضل في سبيل حرية الصحافة ومن أجل تعيين صديقه فالك.

والذين عاتبو برنستورف على عدم تعيينه نيبور رئيساً للبعثة لم تدركهم الحكمة، إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن نزلت الكوارث بأعضائها فمن المسلم به أن فورسكال، وفون هافن قد أساءا إلى سمعتهما في كوبنهاجن، بينما كان نيبور يتمتع بتقدير كبير من قبل وزير الخارجية لكنه كان أصغرهم جميعاً، ومن الواضح أنه لا فورسكال ولا فون هافن كان سيقبل قيادته كما أن طباعه الحذرة المتحفظة، لا تؤهله بسهولة لقيادة البعثة. وكان من الصعب عليه أن يتخذ قرارات يكون لها أثر على الآخرين، لأن تربيته المتواضعة، وشعوره بأنه علم نفسه بنفسه، قد أكسبه الإحساس بعدم الثقة بالنفس، خلافاً، لما يشعر به كل من فورسكال، وفون هافن من ثقة بالنفس، إلى درجة الغرور. وسبق لنيبور أن رفض لقب بروفسور، ومن المحتمل، أن يسلك نفس السلوك، حين يطلب منه أن يصبح رئيساً للبعثة. فالشهرة وحب الظهور لم يكونا من طباعه، وكان

يفضل الأعمال الهادئة التي لا تثير حولها الضجيج. وكان ينجز أعماله بعناية فائقة. ولم يكن، بطبيعته وتكوينه، يميل إلى التأمل والفكر التجريدي. وكان يحب أن يضع الأشياء في مصطلحات ثابتة وهذا ما قاله عنه ولده، وكان بطبيعته، مراقباً لكل ما حوله، ولم تكن قوته لا في القرارات الجزئية، ولا في الأفكار المذهلة، بل في فهمه بصبر ودقة للمواد التي بين يديه، مهما كان نوعها. ولقد أراد أن يكون عازفاً أرغن يجلس مختفياً في المكان المخصص للعازف في إحدى الكنائس الريفية. ولقد أراه أيضاً أن يكون مسَّاح أراضي، فيذهب في الفلاء وحيداً يحدد في دقة الحدود التي وضعها الآخرون لأراضيهم. ومن الجائز أن نيبور كان أكثر أعضاء البعثة انجذاباً وحماساً للمغامرات، فالعمل الذي كان يتوقعه في الصحراء العربية كان كما قال ابنه: (يتفق تماماً مع رغباته العميقة) فهناك في البلدان التي سيرحل إليها سوف يشعر بغموض أكبر وعزلة أعمق مما يشعر به في وطنه، وسط تلك الأراضي البور. وبدلاً من قيامه برسم حدود النزاع، فإن الفرصة العظمى مواتية له ليرسم خريطة بلد بأسره. أما الرغبة في قيادة الآخرين، وممارسة السلطة عليهم.

ولكن، والحق يقال، لم يكن لدى أحد من هؤلاء، محبي الجدل، والواثقين بأنفسهم والسادة المغرورين، من تملأ قلبه الآمال الأحلام، عما يمكن أن تحققه البعثة من اكتشافات عظيمة، مثلما ملأت قلب هذا الشاب الريفي، الذي كان لا يهتم مطلقاً لا بالألقاب، ولا بالسلطة والمناصب، ولم يكن يطمح في شيء لنفسه إلا أن يكون سعيداً، ودون شك، فقد تأكد لبرنستورف سريعاً، أن فورسكال وفون هافن لا يمكن أن يقبلا نيبور قائداً لهم، كما أن نيبور لا يصلح لهذا الدور. ولقد خطا المستر برنستورف بعيداً حين عينه أميناً لأمول البعثة، ووقف بحزم في وجه مطالب فون هافن لتغيير قراراته التي سبق واتخذها. وعلى كل فالوقت لم يكن يتسع لأي تغيير في البرنامج.



ففي الواحد والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٧٦٠ كانت السفينة الحربية المسماة: (جرين لند Green Land) راسية خارج مدينة كوبنهاجن، وكان قد التحق بالبعثة خادم سويدي قوي يدعى برجرن، كان فيما سبق في خدمة ضابط برتبة كولونيل في الحرب ضد بروسيا. وبلغت الأوامر للرجال الستة أن يكونوا على أهبة الاستعداد للرحيل، وفي يوم عيد الميلاد، تسلم المستر كارستن نيبور، توصيات الملك الأخيرة، التي تضمنت ثلاث وأربعين مقطعاً. كان أهمها ما يلي:

١- سوف ترحل البعثة إلى القسطنطينية على ظهر الباخرة الحربية (جرين لند) تواصل طريقها من هناك إلى العربية السعيدة، حيث تلاحظ وتدرس كل شيء، على أن تظل أهداف البعثة نصب عين الجميع.

٢- أن الطريق الذي سوف تسلكه البعثة، سيكون مؤدياً أولاً إلى القسطنطينية ثم إلى الإسكندرية، فالقاهرة، ثم إلى سيناء، ثم جنوباً، عبر البحر الأحمر، إلى مدينة المخاء. ويتسلم أعضاء البعثة من سفير جلالة الملك في القسطنطينية جوازات سفرهم ورسائل التوصية، وسوف تمكث البعثة في العربية السعيدة سنتين وعند الضرورة ثلاث سنوات.

٣- إن واجبكم الأول هو أن تتعلموا اللغة العربية، قدر استطاعتكم، وسيساعدكم في ذلك، من رفاقكم، عالِم النبات وعالِم اللغات.

٤- سوف ترحلون في الأجزاء الداخلية للعربية السعيدة وأيضاً، ستمرون على طول شواطئها، وسوف تسنح لكم الفرصة لزيارة أماكن كثيرة، تتفشى فيها الأمراض القاتلة، وبما أن طبيباً يرافقكم، فسوف لا تتعرض حياتكم لأخطار هذه الأمراض.



٥- سيكون لكل منكم مذكرة يسجل فيها ذكرياته، وعليه أن يبعث بصورة منها بشكل دائم، حين تسمح الظروف.

٦- على كل منكم التعامل مع (المحمديين)[١] في حذر شديد، واحترام دينهم، وعدم التصرف مع نسائهم، بحرية كما يتصرف، مع النساء الأوربيات.

٧- سوف يكون تحت تصرفكم مبلغ ٢٠٠٠ ريجسدالر لشراء المخطوطات بأسعار معقولة، وقد وزِّعت بِنسب بينكم، خمسان منها، تحت تصرف عالم اللغات، وخمسان تحت تصرف عالم النبات، وخمس لكم جميعاً، والغرض من هذا شراء مخطوطات التأريخ الطبيعي، والجغرافيا، والتأريخ، وشراء المخطوطات القديمة للتوراة، ونسخ للترجمة العربية للتوراة، وخاصة الغائر منها في القدم والتي كتبت بأحرف أبجدية تختلف عن التي تستخدم الآن.

٨- على الأعضاء أن يعملوا جهدهم على الإجابة على الأسئلة التي وضعها البروفسور ميشاليس، وأيضاً على تلك التي يرسلها العلماء الأوروبيون، وترسل إلينا من هذه الأخيرة نسخ ترفق بصورة المذكرات.

٩- يتمتع جميع أعضاء البعثة برتب متساوية، وفي حالة وجود خلاف، يجب أن يسلم برأي الأغلبية، وحين تقومون بحساب خطوط الطول والعرض، عليكم أن تجمعوا المعلومات لعمل خرائط للمناطق التي تمرون بها، وعليكم ملاحظة الاختلافات التي يمكن أن تكون بين الفصول الجافة والفصول الممطرة، وعليكم الاهتمام بأي شيء أثري من العصور القديمة،

(١) يقصد: المسلمين. (المترجم)

ووجِّهوا همكم أيضاً إلى حجم السكان وإلى خصوبة الأرض. وأكثر من هذا عليكم أن توجِّهوا أهمية خاصة إلى حركة المد والجزر في البحر الأحمر، وإلى العلاقات بين الأحياء والأموات، وإلى تأثير تعدُّد الزوجات في زيادة أو نقصان السكان، وإلى العلاقات بين الرجل والمرأة، وإلى عدد النساء في المدينة والريف.

١٠- على الدكتور كرامر أن يولي اهتمامه بالأمراض الخاصة بالمناطق المزارة، وبالقيام بمكافحتها وستكسبون ثقة العرب بمساعدة مرضاهم.

١١- على البروفسور فون هافن أن يلاحظ تقاليد وعادات أهل البلاد، وخاصة تلك التي ألقى عليها القليل من الضوء الكتاب المقدس والقوانين اليهودية، وعليه أن يعمل ليكشف بقدر الإمكان كل شيء عن العرب والإسرائيليين والسوريين، وأن يطلع على طقوس وعادات الوثنيين قبل الإسلام، ويسجل أي اختلافات يجدها عما جاء في التوراة المكتوبة باللغة القديمة، وعما جاء في المخطوطات اليونانية. وأية مخطوطات قديمة عربية أو شرقية لا يستطيع تفسيرها، عليه أن ينقلها طبق الأصل.

١٢- على البروفسور فورسكال أن يجمع المعلومات عن الحيوانات والنباتات وعلى الأخص تلك التي جاء ذكرها في التوراة.

١٣- على الهر بورنفانيد الفنان، مساعدة الأعضاء الآخرين عند الحاجة.

١٤- على المجموعة، أن تعود إلى الوطن مجتمعة، من البصرة، عن طريق حلب وسميرنا[١].. إلى أوروبا.

---

(١) الاسم القديم للمدينة التركية: أزمير. (المترجم)



بعد هذه التعليمات أصبحت البعثة الدنماركية على استعداد للرحيل، وقد قضت عدَّة سنوات في إعداد نفسها لهذه الرحلة، والجميع الآن يعتمدون على القومندان فيشر، فهو قائد السفينة التي سيركبونها، والتي أصبحت مستعدة للرحيل في مطلع العام الجديد، وفي الرابع من كانون الثاني (يناير) سنة ١٧٦١ صعد الرجال الستة إلى ظهر السفينة، بعد أن غادروا القارب، الذي حملهم من تول بوت. وبعد أسبوع من رحيلهم صدرت جريدة كوبنهاجن بوست وبها الخبر التالي:

«إن جلالة الملك في هذا الوقت العصيب، رغم مشاغله الرسمية المرهقة يكافح دون ملل من أجل غزو آفاق جديدة للمعرفة والتقدم العلمي، وتحقيق مجد أعظم لشعبه..».

نعم، كان وقتاً عصيباً حقاً، ولعل الرجال لا يحلمون بالسفر إلى اليمن السعيدة، إلا في الأوقات العصيبة دون غيرها، ففي عام ١٧٦١ كانت تسيطر على الجميع مخاوف الحرب، وكانت الدنمارك تنفذ في هذا الوقت أعظم البرامج الثقافية التي لم تشهد البلاد لها من قبل مثيلاً، مع أن أوضاع البلاد العامة لم تكن مناسبة ولا مشجعة، فالشؤون المالية كانت في فوضى نتيجة للحرب في ألمانيا، وكان برنستورف مضطراً لأن يترك جيشاً قوامه أربع وعشرين ألف جندي مرابطاً على الحدود في هولستن لحمايتها، وكلف الدولة هذا الإجراء مبالغ باهظة، كما أن تهديد نشوب الحرب مع روسيا قد دفع النشاط الدبلوماسي والحياة السياسية إلى الاضطراب ولم يكن اليوم بعيداً الذي يرسل فيه بطرس الثالث جيشه لمطاردة الرحلة إلى ترنكبار. وسيطر على جو العلاقات الدولية كله في ذلك الوقت العديد من التهديدات، وكان يكمن وراء الأفق ما يمكن أن يسميه الناس بعدئذ حرباً عالمية، كما أن فردريك الأكبر لم يكن قانعاً أن يظل يعزف على الناي في سان سوس.



وما أن أتى عام ١٧٦١ حتى كانت حرب السبع سنوات قد دخلت عامها الخامس، بينما اشتد الصراع الاستعماري في البحار السبعة العالمية بين الأفرنسيين والإنجليز، ودخل عامة السادس، ولعل مشاغل ملك الدنمارك العسكرية في هذا الجو المحموم كانت جزءاً من مشاغله الرسمية.

وقد كانت السفن الإنجليزية التجارية التابعة للأسطول الحربي تجعل البحار غير مأمونة بالنسبة للتجار الدنماركيين، مما أنزل بالتجارة خسارة كبيرة. وكانت الحكومة الدنماركية مضطرة إلى إرسال السفن الحربية لترافق سفنها التجارية، وكان ضمن هذه السفن الحربية السفينة (جرين لند) التي كانت في مطلع العام المقبل تستعد للرحيل إلى البحر الأبيض المتوسط، لترافق إرسالية دنماركية من مرسيليا إلى سميرنا، وهي السفينة التي ينظر إليها الرجال الستة وهو يواجهون أشعة الشمس في صباح ذلك اليوم من أيام الشتاء.

فهذا هو المستر فون هافن الأنيق، يملأ قلبه الألم الشديد لتخفيض رتبته، ويستولي على نفسه القلق تجاه هذه الرحلة. وهذا ه المستر فورسكال، الذي قبل أربعة أيام من هذا اليوم، اشتكى إلى البروفسور لينوس من ذلك الشاب الطائش، الذي فرضوه مساعداً له. وهذا هو كرامر الذي وصفه فورسكال بـ (الطائش)، يواجه لسوء حظه رحلة تستغرق عدة سنوات، ويشعر من بدايتها أنه غير مرغوب فيه. وهذا هو المستر نيبور الشاب الصغير القوي البنية، الذي جاء من الريف والمستنقعات، لم ينس بعد ما لقيه، من عدم اهتمام واحترام، في لقائه الأول مع فورسكال، وكان دائماً يقاسي الكثير من فون هافن. وهذا هو المستر بورنفانيد المحبوب، يبدو رزيناً، في زمهرير ذلك الصباح، وتحت أشعة شمس الشتاء الحادة. وأخيراً.. هذا هو الخادم السويدي برجون، الذي قد يكون هو الوحيد الذي لم يشعر بالكآبة السائدة في ذلك اليوم، فقد عاش في الماضي أيام حروب أشد كآبة.



وبعد انتظار طويل.. ها هم الرجال الستة، جميعهم، في طريقهم إلى ذلك البلد الذي يحمل أحد الأسماء السحرية التي تسمى بها الأماكن التي تعرفها أشواقنا فقط. إنهم يتجهون إلى أرض البخور والمر العلاجي والبلسم، إلى الأرض التي سماها الاسكندر (Eudaimon Arabia) لأنه فشل في غزوها، وكان الرومان يسمونها (العربية السعيدة Arabia Felix)، وسماها المستر فون هافن، في رسائله الشيقة، باللغة الفرنسية (I'Arabic Heureuse) أي العربية السعيدة، وسماها المستر نيبور في مذكراته، بالألماني، العربية السعيدة (Das Gluekliehe Arabien)، لكنه حين وصل إليها لم يعد يطلق عليها إلا اسم (اليمن Yemen).

ربما كان هناك شيء ما، وراء هذا التغيير الفجائي للاسم. فهل كان مجرد صدفة، أن ترحل أول بعثة علمية دنماركية إلى الأرض التي منذ عهد الاسكندر حملت اسم (السيعدة)؟ وهل كان فقط هدف البعثة «فتح آفاق جديدة للمعرفة وفي سبيل ترجمة أكثر صحة للكتاب المقدس؟».. إنهم مهما أولو الناحية الدينية من اهتمام، فإنا نستطيع أن نضعها جانباً، ذلك أن الدين قد استغل عبر التاريخ، بحجج تخفي وراءها مهام غريبة مستهجنة. وهناك أمر آخر يؤكد هذا، ذلك أن جميع الرسائل المتعلقة بالبعثة، لم تشر إلى الناحية الدينية مطلقاً. إذاً.. هل قاموا برحلتهم كي يعرفوا لماذا سُمِّيت البلاد بهذا الاسم؟ وهذا الأمر بالطبع، لم تشر إليه أية رسالة، ولم يكن بالأمر الجدِّي.

كان الناس في ذلك الوقت – كما في عصرنا هذا – محبين للاستطلاع، وفي أوج عصر الفلسفة العقلانية، يبدو أن البعثة إلى اليمن السعيدة، كانت تجسم، ذلك الشوق المستحكم لدى سكان شمال أوروبا، نحو أراض سعيدة، في أي مكان في الجنوب، الشوق الذي ينبعث ويتحرك، لكنه حين يصل إلى الغرض المقصود، يصبح حباً للاستطلاع.. وماذا في هذا من غريب؟ حتى في عصور الفلسفة العقلانية المنيعة، وفي

أيام الحروب العصيبة، فإن الاسكندر، الذي لم يستطع غزو اليمن السعيدة، كان يسكن قلبّ كل رجل في هذه البلاد. حتى فورسكال الرصين، لم يكن من المستغرب أن يبدأ بغرابة، التفكير في هذا البلد الذي يحمل هذا الاسم العجيب، ففي أول صفحة من صفحات مذكراته ، التي بدأ التسجيل فيها في أول يوم للرحيل، سأل نفسه هذا السؤال: «لماذا يجب أن تدعى (العربية السعيدة) بالسعيدة، ونبحث عنها عبر البحار الواسعة»؟.

وفي صباح الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) لعام ١٧٦١ والرجال الستة، واقفين، على القارب في طريقهم إلى السفينة (الجرين لند)، والصمت والسكون يخيمان عليهم، لا يسعنا إلا ترديد ذلك السؤال الذي كان يردده فورسكال في ذلك الوقت.

لقد توجهوا جميعاً إلى العربية السعيدة، لكن، لم يعد من هؤلاء الرجال الستة إلى الدنمارك إلا واحد فقط.



القسم الثاني



الفصل الأول

العاصفة

السفينة تضيع في البحر – قياس كمية الملح في البحر – الصراع مع الأمواج – أحد الأعضاء يهرب من السفينة.

كان كل شيء، كما يرام، على ظهر السفينة (جرين لند). لقد استقبل القومندان فيشر أعضاء البعثة بحرارة، ورافقهم إلى غرفتين من أحسن غرف السفينة، واستدل كل منهم على مكان نومه وهيأ إلى جانبه كتبه، وأوراقه، وأدواته، فالمهمة العظيمة تبدأ الآن. ولم تستطع السفينة الإقلاع في الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) كما كان مقرراً من قبل، فحركة الهواء كانت هادئة، وانتظرت يومين حتى هبت الريح المناسبة. ثم بمساعدة التيار المتجه نحو الشمال، استطاعوا أن يصلوا هيلسنجر، حيث اضطر القومندان فيشر أن ينتظر السماء، ترسل ريحها. واغتنم المستر نيبور فرصة التوقف هذه وقام بقياس ارتفاع الشمس، بآلته الجديدة، واستطاع بعدئذ أن يحسب ارتفاع كرونبورج، مع أن ارتفاعها كان معروفاً من قبل، لكنه أراد بهذا أن يتمرن في الأماكن التي يستطيع التأكد من صحة مقاساته.

وفي الرابع عشر من شهر كانون الثاني (يناير)، هبَّت مرة أخرى، ريح جنوبية، غادرت أثناءها السفينة (هيلسنجر) وحين مرَّت بكرونبرج، حيَّتها القلعة الدنماركية، بأن أطلقت طلقات مدافع ثلاث، وحيَّتها قلعة هالسنقبورق، بأربع طلقات، وكان المستر نيبور، يشاهد الاحتفال من على سطح السفينة، وسجل في مذكرته كيف أن السويديين يحيُّون بإطلاق عدد مزدوج من الطلقات، بينما يحيي الدنمركيون بعدد فردي.

وفي المساء وهم لا يزالون في حذاء كولن، هدأت الريح، وأخبر المستر فورسكال البحارة بأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، وأن وقوف الريح، وقوفاً تاماً، في الشتاء،

يكون عادة إنذار بمجيء ريح شديدة. وتحققت نبوءته، وهبَّت العاصفة أثناء الليل، وظلت (الجرين لند) تصارعها يوماً ونصف يوم، ولم تنقشع الغيوم، إلا في السادس عشر من كانون الثاني (يناير)، حين استطاع المستر نيبور، بآلته الجديدة، أن يحدد موقع السفينة بعد أن قذفتهم العاصفة بعيداً عن طريقهم، وتبع ذلك أيام من السأم، والكسل، كانت بالنسبة للمستر فورسكال النشيط بليَّة أكبر من العواصف ودوَّار البحر. كتب في مذكرته يقول:

«إن مجال البحث في التأريخ الطبيعي ضيِّق في ذلك البحر المقفر، الواسع وأثناء ذلك الشتاء القارس، وقد شغلتنا العاصفة بالتفكير فيها، واتقاء أخطارها، عن البحث العلمي، لكني بعد العاصفة، لم أستطع أن أتحمل بقائي عاطلاً، دون أي عمل، في بداية رحلة عليها أن تقوم بتحقيق اكتشافات هائلة».

وبدأ يقضي وقته، في قياس كمية الملح في التيارات المختلفة، كما بدأ يدرس الأعشاب المائية المختلفة، وهي الشيء الوحيد الذي يلفت أنظار عالم النبات في البحر، فقد كان كثيراً ما ينظر صعود المرساة لتحمل إليه بعض الكائنات الحية، وكان أحياناً يجد بعض الأشياء الجديدة بين أعشاب البحر الملتصقة بالمرساة. واستطاع أن يجمع سبعة أنواع مختلفة من الأعشاب، وأن يضع أساساً لمجموعته، من الحيوانات الهلامية، التي كان يقتلها بالكحول المركَّز قبل أن تعود إلى محارها، كما كان يقوم برسمها المستر بورنفانيد في حجمها الطبيعي.

بعد أن غادروا اسكاجن على أمل الوصول إلى البحر المفتوح، إذا بالريح تنحرف غرباً، وتشتد حتى تكاد تتحول إلى إعصار شديد. وقد حاول فون هافن الاحتفاظ برباطة جأشه حين كتب عن هذه الريح قائلاً: «كان الجو عاصفاً طوال نهار اليوم الثاني من شهر شباط (فبراير)، وقد صعب علينا إشعال النار على ظهر الباخرة، ولكنا لم



ننزعج كثيراً، فما دمنا في البحر، فعلينا عدم الاهتمام بهذه المنغصات. وقد قاسينا كثيراً بعد أن سقط أحد البحارة إلى البحر أثناء العاصفة ولم نستطع إنقاذه، بسبب الظلام الشديد والمياه المريعة».

حاول القبطان، بقوة، أن يدفع السفينة في الماء، على أمل إبعادها، بما فيه ا لكفاية عن الشاطئ والاتجاه جنوباً على أمل الاستفادة من هبوب الريح، لكن، محاولاته، ذهبت دون جدوى، رغم أنه استمر ف محاولاته هذه، أربعة وعشرين ساعة. ودفعت العاصفة الباخرة إلى أقصى الشمال نحو النرويج، وفي الثامن من شباط (فبراير)، قرَّر فيشر، محاولة الاتجاه إلى مرفأ نرويجي، ولاحت أمام ناظره الجبال، وبعد ذلك شوهد قارب لأحد المرشدين يتجه نحو السفينة وقد عرف من شراعه، فالجزء الأوسط منه مصبوغ باللون الأحمر، وحاول الاقتراب من السفينة، لكن دون جدوى. فأمواج البحر العالية تصده عنها، وأخذ اليأس يسيطر عليهم جميعاً وفقدوا الأمل في إمكانية نجاح محاولتهم الوصول إلى الشاطئ.

كان فورسكال أثناء ذلك في قمرته، ينظر من خلال النافذة إلى ذلك القارب الصغير وراء دثار من الثلج، وقد وصف هذا في مذكرته متأثراً بالمحاولة النبيلة الجريئة التي قام بها المرشد، كتب يقول: (يتقدم المرشدون النرويجيون نحو السفينة التي تحتاج إلى مساعدتهم، سواء بطلب أو دون طلب. إن هذه التقاليد تحمل الشرف لمبتدعيها وإلى هؤلاء الذين ينفذونها برضا دون شك) بعد هذه المحاولات الفاشلة فقد القومندان فيشر حق الخيار، فلم يبقَ أمامه إلا أن ينطلق بسفينته عائداً إلى هيلسنجر، واستغرقت أربعاً وعشرين يوماً، ذلك لأن الريح كانت تهب من ورائهم وكأنها في سباق مع السفينة، وما أن وصلت السفينة هلسنجر حتى كان قد فارق الحياة بحار آخر.

كان هذه المعركة هي أول معركة يخوضها أعضاء البعثة ضد جبروت البحر ودوَّاره الأليم. وقد حاول المستر نيبور أن يواجه الأحداث بنوع من الفلسفة فكتب: سلمت نفسي كلية بين يدي صاحب القدرة، وبما أني استطعت أن أعتمد تماماً على الضبط والبحارة فقد أويت في هدوء أثناء العاصفة إلى فراشي، بينما كان على الآخرين أن يكافحوا في المطر الشديد والعاصفة والبرد القارس كل ما يمكن أن يهدِّد السفينة».

التجأ المستر فورسكال إلى التفسيرات العقلانية فكتب:

«إن المصاعب والمخاوف، لم تكتنف بداية أي رحلة، مثلما اكتنفت بداية رحلتنا، وكان يمكن أن يغشَ قلوبنا، الألم، والاستسلام، لو أننا لم نلجأ إلى العقل والرزانة، كنا ندرك، أن تقلبات الطقس، لم تكن موجهة ضدنا، ولم تكن في أحسن حالاتها من أجلنا وحدنا. وتحملنا بصبر كل أخطار البحر التي لم يدخر منها شيئاً».

والآن علينا أن نعود، إلى فون هافن، لنعرف إلى أين وصل به الحال، ذلك أنه بعد أن رأينا رباطة الجأش والرزانة اللتين، تحلى بهما، كل من فورسكال، ونيبور، تواجهنا الآن، صورة في منتهى الضعف والبؤس، هي صورة فون هافن، فبعد الصراع المخيف ضد البحر وعواصفه، أصبح خائر القوى، محطَّم العزيمة، وأول عمل قام به حين وصلت السفينة هلسنجر هو طلبه من الكابتن فيشر، إنزاله إلى الشاطئ، لكن فيشر، رفض طلبه، دون أمر صريح من الحكومة الدنماركية بالسماح بنزوله، فكتب فون هافن، بسرعة، رسالة إلى الكونت مولتك، ملأ لها بمشاعره المذعورة، جاء فيها:

«لقد كان عليَّ أن أناضل ليس، فقط، ضد دوَّار البحر، بل، أيضاً، من أجل الحفاظ، على حياتي، الت لا تستطيع مطلقاً، أن تطيق الحالة القاسية على ظهر السفينة، وقد شربنا المياه الملوَّثة، خلال شهر كامل، وعشت، صابراً، حياة لا مثيل لها، ولا يمنعني من شرح



تفاصيلها إلا احترامي لمعاليكم. فمنذ بداية الرحلة أصبحت حياتي سلسلة من الأمراض والآلام، وأطلع مولتك على أن الكابتن فيشر رفض السماح له بمغادرة السفينة إلا بأمر من جلالة الملك، وعبَّر عن خوفه الشديد من أن لا يصل هذا الأمر قبل مغادرة السفينة هلسنجر، وتنبأ بالنتائج المؤلمة لاستمراره في السفينة، كتب يقول:

«هل سأكون ضحية للبحر والشتاء المميت؟ إني أرجو أن أحصل على سماحكم لي بمغادرة السفينة في الحال، وأشكركم على عطفكم عليَّ، إذا نلت قبول ورضاء صاحب الجلالة الملك. وإني في غاية الأسف، فالموت هو الوحيد الذي يمنعني من قطف ثمار المجد».

هذه الاستغاثة من فون هافن لم تكن دون جدوى، في اليوم الثاني لوصول الرسالة كوبنهاجن أرسلت رسالة إلى هلسنجر، كان فيها موافقة الملك بالسماح له بمغادرة السفينة، وأن يسافر على اليابسة إلى مرسيليا، حيث يلتقي ببقية أعضاء البعثة. والآن ها هو ذا البروفسور الذي ادعى أحقيته في ترؤس البعثة، ينزل من السفينة إلى القارب، على يديه ورجليه، وحين لمست قدماه القارب، انقشع الرعب عنه، لكنه دون ريب، كان يشعر في أعماقه بالإهانة أكثر من شعوره براحة الخلاص من أهول البحر. ووقف الأعضاء الآخرون على ظهر السفينة ينظرون إليه في صمت، وينظر إليهم في حنق، والقارب يسير به نحو الشاطئ. وبعد أن غادر القارب، وأحس باليابسة تحت قدميه، عادت إليه ثقته بنفسه، وبخطى متئدة، غاب عن الأنظار.

السفينة (جرين لند) عند وصولها الى مرسيليا ومعها في الصورة الى جانبها ثلاث سفن دنماركية صغيرة تجارية ، وسترافق (الجرين لند) هذه السفن الى ازمير . هذه الصورة بريشة بورنفاتيد وقد رسم نفسه في اسفلها ، والجنتلمان المهندم الذي بجانب الشجرة لا بد انه فورسكال .



الفصل الثاني

وصول البعثة إلى مرسيليا

السفينة تصل بحر الشمال – شواطئ (إيسلند) – فورسكال ورائس البحر ونيبور ومقاسات ارتفاع الشمس – الوصول إلى مرسيليا.

كانت السفينة (جرين لند) لا تزال منتظرة في مرساها، وقد وصف فورسكال، في مذكراته، كيف كانت، حبات الثلج الشتوية، تسقط تحت أشجار البلوط، في حدائق هلسنجر الصغيرة. وأتى الربيع بعد شهر، وحاول الكابتن فيشر للمرة الثالثة البدء في الرحيل، من جديد، لكن تيار (سكاجرال) كان لا يزال جباراً كالوحش الكاسر، وأثناء هذا الانتظار أخذ (نيبور) يحسب المسافة التي قطعتها السفينة، فوجد أنها قد قطعت منذ مغادرتها كوبنهاجن منذ شهرين مسافة ٢٨٠٠ ميلاً، لكنها مع ذلك لم تقترب نحو البحر الأبيض المتوسط، وهو وجهتها، إلا ثلاثين ميلاً، وهذه الحسابات أعطته الشجاعة الكافية لأن يبدي تذمره من آلات وأجهزة السفينة التي اعتقد أن حساباتها لموقع السفينة لم يكن صحيحاً.

في اليوم العاشر من مارس (آذار) حاول فيشر، للمرة الرابعة، الإبحار، ونجح في هذه المرة، وبعد يومين من مغادرتهم هلسنجر، ووصلوا بحر الشمال، حيث لاحظ فورسكال كيف كانت طيور الصفنج المغرِّدة، والطيور الأخرى الصغيرة، تسير وراء طيور الكَّرْكَّرْ الضخمة، التي كانت تطارد طيور زمَّج الماء، في كل أنحاء السفينة، لتلقي الطعام من بطونها، وما أن تخرج طعامها من بطونها، حتى تسرع طيور الكركر الضخمة في الانقضاض عليه.

وواجهت السفينة عاصفة شديدة أخرى في بداية خروجها إلى بحر الشمال دفعتها بالقوة إلى أقصى الشمال، وفي الواحد والثلاثين من آذار (مارس)، حسب رواية المستر نيبور، كانت السفينة في مواجهة اليابسة التي سماها فورسكال هتلند. في البداية لم تساعدهم هذه اليابسة على أن يكون لديهم أي فكرة عن اتجاه السفينة وموقعها، لكن فورسكال قدَّم بعض المعلومات الأخرى التي لم تترك أي أثر للشك في معرفة موقع السفينة. لأنه كان يعلم أن النوع الأبيض الكبير من البوم البحري الذي له أجنحة منقَّطة باللون الأسود والتي يسميها البحارة (جان فان جان) لا توجد إلا في المحيطات الكبيرة. واستطاع فورسكال بهذه الطريقة أن يحدِّد موقع السفينة بنفس الصحة تقريباً التي حددها نيبور بأدواته الفلكية. وبعد هذا اختفت طيور الصفنج المغرِّدة وتبعتها طيور الكر كر الضخمة وبقيت العاصفة التي تحولت إلى إعصار شديد ليلة الخامس والعشرين من آذار (مارس)، وأظهر جهاز نيبور أن السفينة في الصباح قد وصلت في اندفاعها نحو شواطئ جزيرة ايسلند حيث بدأ صفير الريح في الانخفاض، وجاء الفرج بعد الشدَّة، وأتى الربيع وسكنت الرياح بعد أسبوع من هبوبها الأهوج. قال نيبور في مذكراته:

«في الواحد والثلاثين من آذار (مارس) أتى أخيراً الربيع الرقيق الهادي إلى درجة أن السفينة لم تجد ما يحرِّكها طوال اليوم. وفي أمسيات هذا الربيع كان فورسكال مشغولاً في حل سر ذلك الوميض الملحوظ في الماء على طول جوانب السفينة، ولم يستسلم لذلك التفسير القديم الذي يقول أن مبعث هذا النور هو عرائس البحر الخيِّرة، ولجأ إلى أنابيب الاختبار، فملأ إحداها بماء البحر المومض، ووجد بعد أن تركه لمدة أربعة عشر يوماً، أنه لا يزال يلمع قليلاً، وحاول تصفية الماء خلال أربع أوراق سميكة وجافة، فاختفى عندئذ الوميض ولم يجد فيه أي كائنات حية من خلال الميكرسكوب. واستمر في أبحاثه

إلى توصل إلى أن الملح لا يمكن أن يكون هو مصدر هذا اللمعان لأن الماء المصفَّى لم يعد يلمع من أنه لم يفقد شيئاً من ملحه، كما أنه لم يجد كائنات حية على المادة اللزجة المترسبة على ورق التصفية وتوصل إلى أن الوميض لا بد أن يكون مصدره هذه المادة اللزجة نفسها، كما افترض أن مصدر هذه المادة اللزجة هو بعض الأسماك الهلامية المسماة قناديل البحر، والتي تفقدها حركة البحر جزءاً من المادة الهلامية المضيئة التي تنتشر في كل مياه البحر، مسببة لها ذلك الوميض، دون أن تكون محتوية على أي مواد عضوية لكائنات حية. لكن البحوث المتأخرة أظهرت أن الوميض مرجعه، في حقيقة الأمر، مواد عضوية لكائنات حية. وكان فورسكال نفسه متوقعاً وجود أخطاء في أبحاثه، فقد قال «إن الميكرسكوب الذي استخدمه لم يكن دقيقاً بما فيه الكفاية». واستمر الوميض حول السفينة بينما هي تواصل سيرها في طريقها إلى الجنوب، تدفعها ريح شمالية بسرعة إلى الجنوب، وإلى الغرب من إيرلندا، وجاءت العاصفة بعد أسبوع وسقط أثناءها بحار إلى البحر من على حبال السفينة. وأخيراً أظهرت مقاسات نيبور لارتفاع الشمس في الواحد والثلاثين من نيسان (إبريل) بأنه لا بد قد اجتازوا رأس فينستير في شمال أسبانيا وعاد إليهم الأمل في رؤية اليابسة. كما أحسوا بارتفاع درجة الحرارة وعزا فورسكال رزوح أحد البحارة تحت وطأة مرض الاسقربوط إلى التغيير المفاجئ للطقس.

في الواحد والعشرين من شهر نيسان (إبريل) شاهدوا اليابسة لأول مرة، منذ أن اختفى الشاطئ النرويجي وراء الضباب، قبل ستة أسابيع. كانت في الواقع هذه اليابسة هي رأس القديس فنسي، في جنوب البرتغال. ولم يستطع نييبور أن يخفي شعوره بالنصر، وحساباته لم تكن غير مضبوطة إلا بأربع وأربعين دقيقة فقط، أي بثلاثة أرباع الدرجة. لكن الشيء المستغرب حقاً أن يكتب فورسكال في هذه الأونة بعض عبارات المديح عن نيبور. فقد تحسنت العلاقات بين الرجلين بوضوح، وخاصة أثناء الفترة الطويلة التي واجهوا فيها معاً الكثير من محن الحياة وتجاربها. وكان إعجاب نيبور كبيراً



بنشاط العالم السويدي فورسكال، واضطر فورسكال إلى الاعتراف بأن مساح الأراضي الصغير، قام عدة مرات، بعمل حسابات متعلقة بالملاحة، أكثر دقة من تلك التي قامت بعملها آلات الكابتن فيشر. وكان وجود كرامر، الذي أثار حوله ضجة في كوبنهاجن، أقل ثقلاً مما كان يتوقع، فلم يهتم الطبيب الشاب لا بنسَب الملح في الماء، ولا بذلك الوميض البحري. واستطاع فورسكال القيام بتجاربه في اطمئنان وسلام، كما أحس فورسكال أن وجود الفنان بورنفانيد يضفي على جو الرحلة المتعة والسرور. فهو لم يكن يتذمر من شيء، حتى من عمله المرهق في رسم حيوانات فورسكال الهلامية. ووجد بورنفانيد، حين ظهرت اليابسة، مجالات كثيرة لنشاطاته الفنية، فرسم صورتين جميلتين، واحدة للشاطئ الأوربي، والأخرى للشاطئ الإفريقي، كما شاهدهما أثناء عبور السفينة لمضيق جبل طارق. كما وجدت البعثة، في ربيع البحر الأبيض المتوسط، ما أنساها العواصف الهوجاء والمِحن التي قاستها في الشهور الماضية. فالشمس هنا تسطع طول اليوم، والرياح الجنوبية تهبُّ في رقة. وتملكت النشوة المستر نيبور بسبب التغيير المفاجئ في الطقس، ولم يقلقه إلا فشله في أن يقنع الكابتن فيشر بالتوقف في أحد الموانئ الأسبانية، لتزويد السفينة بالماء، فقد كان يعتقد أن الماء الذي بالسفينة غير صالح للشرب. أما فورسكال فلم يكن يشكو من شيء، وقد سُمح له بفتح أحد الأبواب المؤدية إلى مدافع السفينة، وهناك كان يجلس قريباً من سطح الماء، يصطاد الكائنات الهلامية بواسطة شبكة. وكتب في هذا يقول:

«كانت الباخرة تشقُّ الماء في بطء وكنت أغيِّر مكاني بحثاً عن المكان المشمس حتى يكون في مقدوري رؤية الكائنات الصغيرة، ولكني كنت أجد صعوبة في رؤيتها حتى في الشمس، والقليل من الناس يستطيع تمييزها، وهي مجرد نقط صغيرة في الماء كانت تزيد عند شروق الشمس وغروبها. وأصبحت بالتدرج أجيد العمل هذا، فلم أترك ورقة عائمة واحدة أو جذع شجرة تفلت من بين يدي، وكنت أجد الكائنات الحية الصغيرة ملصوقة بها».



كان سير «الجرين لند» هادئاً ومريحاً، وهي تشق طريقها ببطء نحو مرسليا. وفي المساء أشار الترمومتر إلى الثانية والستين درجة «فهرينيتية» ولوحظت أسراب كثيرة من الفراشات تطير فوق السفينة، وفي التاسع من شهر أيار (مايو) شاهدوا مقاطعة «البروفنس»، وبعد أربعة أيام رست السفينة في (استاق Estague) على بعد أميال قليلة من مرسيليا.

وقام المستر بورنفانيد بعمل بعض الرسومات للمدينة، أما المستر فورسكال فقد نزل إلى الشاطئ للقيام برحلة دراسية لبعض النباتات، وللقيام أيضاً بزيارة جامعة «مونبيلييه» حيث التقى بالبروفسور فرنسوا دي سوفاج والبروفسور انطوان جوين. واستقبل هناك بحفاوة بالغة تكريماً لشخصه ولأنه عضو في البعثة، وفي موبيلييه انته فكرة ضرورة أن ترسل البعثة البذور إلى كل الجامعات الأوروبية الكبيرة، وكتب رسالة إلى وزير الخارجية برنستورف جدَّد فيها طلبه السابق لزيارة جنوب إفريقيا، كما اقترح أن ترسل البعثة البذور بواسطة كوبنهاجن إلى جامعات مونبيلييه، وباريس وابسالا وتشلس، وامستردام. كما كتب رسالة إلى البروفسور لينوس أخبره فيها أنه اهتدى إلى طريق يمده بواسطتها بالمعلومات عن اكتشافاته دون أن يصل ذلك إلى علم الدنماركيين جاء في رسالته:

«عندما أريد أن أذكر إليك في رسائلي اسم حيوان أو نبات سوف أقوم بذلك فقط عن طريق كتابة رقم النوع والعائلة، وذلك حتى لا يقوم أحد من العاجزين في الدنمارك بادعاء اختراعها ونشرها باسمه. سوف يكون الرقم الثاني هو في الأصل الرقم الأول من العدد، فعلى سبيل المثال سوف أ كتب ٨٢ والمقصود ٢٨، وسوف أكتب ٤٣٥ والمقصود ٣٤٥ إلخ».



كانت رحلتهم حتى مرسيليا مفيدة جداً، كما لم تكن علاقة فورسكال سيئة بأعضاء البعثة الآخرين. وفي هذا الجو المتفائل نسي فورسكال لبعض الوقت ذلك الذي كان يسميه «أعجز العاجزين» ويقصد ب هفون هافن، ولكن بعد أن غادروا السفينة إلى الشاطئ في الرابع عشر من أيار (مايو) بعد رحلة في البحر دامت شهرين كاملين، عادت إليه ذاكرته في أن فون هافن قد سبقهم إلى مرسيليا.

الفصل الثالث

الحديث عن باريس ثم الوصول إلى مالطة وازمير

فون هافن في باريس – فون هافن يصفع فورسكال – خطر السفن الإنجليزية الحربية – نيبور يرصد النجوم بينما الآخرون يستعدون للمعركة – دراسة هامة عن جزيرة مالطة.

بينما انقطع عن العالم الخارجي بقية أعضاء البعثة، كان فون هافن مشغولاً حتى أذنيه بأشياء كثيرة، على أية حال كان لا بد له من أن يستعيد ما فقده من تقدير أثناء العاصفة وتردّده عن الاستمرار في الرحلة البحرية. وكان من الصعب عليه أن يستعيد مكانته عن طريق القيام بأعمال خيرة جميلة، فحاول تعديل كفة الميزان لحسابه عن طريق الإنقاص من قيمة الآخرين، ولهذا الغرض بعد أن انتهى من الحديث في موضوع السماح له بمغادرة السفينة ف رسالته إلى مولتك، كتب ما يلي:

«لقد أحزنني شعوري بأن معظم رفاقي سوف يكون مصيرهم مؤلماً بسبب الطقس الحار. فبعضهم سيقع ضحية أمراض سبق وأُصيب بها، وبعضهم سيلاقي المصير الذي يلاقيه كل ضعاف الخلق. ولم يكن للاكتشافات التي قاموا بها أي معنى، ولم تكن سوى حسابات لارتفاع الشمس في أماكن سبق معرفة الارتفاع فيها، والحصول على قليل من الأعشاب البحرية التي لا جديد فيها».

وحين عاد إلى كوبنهاجن أثناء ما كانت (الجرين لند) لا تزال راسية في هيلسنجر، سلم مذكرة إلى الحكومة الدنماركية، ضمنها طلبات مبالغ فيها، كتلك التي اعتاد تقديمها، وهو في طريقه إلى روما. فقد طلب أن يبدل الفنان بورنفانيد بشخص آخر، وأشار إلى أحد الفنانين. لأنه كان يعتبر بورنفانيد من العوام، وغير مثقف. وعاد من جديد إلى أسلوبه المتلاعب في خلق الأعذار للتأخير والمماطلة، فطلب السماح له بالبقاء

في القسطنطينية لتعلم اللغة العربية والتركية واليونانية، وأكثر من هذا فقد طلب أن يكون هو الوحيد الذي يقرر خط سير البعثة، والمواسم التي يزورون فيها المدن المختلفة، والمدة التي يقضونها في كل منها، كما طلب أن تكون له الكلمة الأخيرة في تغيل الأجانب بالبعثة. وباختصار، لقد كرر مطالبه السابقة في أن يكون رئيساً للبعثة، المطالب التي رُفضت باحتقار في حينه. وحتى يعطي أهمية كبرى لقدراته مؤهلاته، فقد وعد أن يستخدم منصبه الكبير في لين وكياسة، لمنع الكثير من المشاحنات والمنازعات التي قد تقوم بين أعضاء البعثة، مدعياً أنه وحده القادر على ذلك. وختم مذكرته بأن طلب مبلغ ٤٠٠ ريجسدالر لتغطية مصاريف سفره إلى مرسيليا وقد رُفضت كل طلباته هذه، وعدا أن تسلم ما طلبه لمصاريف السفر. كما فشل في أن يغسل العار الذي لحقه في هيلسنجر، بأن يصل مرسيليا وقد أصبح رئيساً للبعثة.

وفي طريقه إلى مرسيليا توقف في باريس في مطلع الربيع، حيث عزى نفسه عما قاساه في شتاء الدنمارك. فقد شعر في باريس بشعور مختلف كلية عما كان يشعر به وهو داخل تلك القمرة الصغيرة بالسفينة (جرين لند)، والكابتن فيشر يصارع العواصف والتيارات التي لا ترحم. ومكث في باريس عدة أسابيع، شاهد أثناءها الآنسة الفنانة الممثلة (كليرون)، وهي تؤدي دورها في التراجيدا الجديدة المسماة (Tancrede) للكاتب الفرنسي فولتير. واستُقبل في منزل السيد ألبرت المشهور، وناقش هناك الكتاب الناجح (La Nouvelle Heloise) للكاتب العجيب روسو، كما حضر عدة حفلات استقبال، وزار عدة كنائس، وشاهد عرضاً في دار الأوبرا. ولسوء حظه، لم يمكث إلا أياماً قليلة في مدينة ليون، بسبب الرياح الشمالية الغربية التي سبَّبت له الزكام.

وفي نهاية نيسان (إبريل)، كان قد استنذ كل الأعذار الممكنة للتأخير، خاصة ومدينة ليون لم تكن جذابة في نظره، ولم يبقَ أمامه إلا الاتجاه نحو العربية السعيدة وفي السابع



من شهر أيار (مايو)، وصل فون هافن إلى مرسيليا، حيث التقى بعد أسبوع من وصوله بأعضاء البعثة الذين كانوا في غاية النشوة، لأن يضعوا أقدامهم من جديد على اليابسة، بعد أن جمع شملهم ما لاقوه مشتركين من مِحِن وأخطار.

وسمع فون هافن عن العلاقات الحسنة التي نشأت بين فورسكال ونيبور، ورأى الرسوم التي رسمها الرجل الذي أراد إبداله بغيره، وأكثر من ذلك شاهد كيف أن فورسكال قد بدأ سلسلة من التجارب المنتجة، ووضع أساساً لمجموعة من النماذج المفيدة. كل هذا جعله يشعر، أكثر من أي وقت مضى، أنه دخيل عليهم. فقرر أن ينتهز أول فرصة ليأخذ مكانه اللائق بينهم، ولم يطل الانتظار به، فبعد وصولهم بوقت قصير، دعاهم الكابتن فيشر جميعاً إلى تناول طعام العشاء، تكريماً لهم، وأثناء تناول الطعام وصل بهم الحديث إلى الموضوعات السياسية، فنوقش موضوع الانتخابات، التي كانت قائمة في ذلك الوقت، لاختيار ولي عهد للعرش السويدي. وقد وقع الاختيار على (ادولف فردريك) وهمل ولي العهد الأمير الدنماركي واعتبر فون هافن، أنهم باختيارهم هذا، قد ارتكبوا أعظم غلطة، ولم يتردد في أن يوصم الرجل المتسبب في ذلك، زعيم الحزب السويدي المسمى: (Hat Party)، صاحب الفضيلة، ورئيس البلاط، المشهور، السويدي (كارل جوستاف تسن) بأنه: شخص مخجل. فطار صواب فورسكال لسماعه هذه الشتيمة، مع أنه لم يكن صديقاً للحزب، بعد صراعه الطويل من أجل حرية الصحافة، لكنه كان يعرف الرجل العظيم (تسن). فردَّ على فون هافن، في غضب بأن الكونت (تسن) حاول في كل أعماله خدمة بلاده بكل طاقاته، وأنه رجل ذو شخصية جذابة، ومبادئ سامية، ولا يجب أن يتحدث عنه أحد باحتقار. ثم مرَّت لحظة صمت، بعدها قال فورسكال ببرود: «إن الشخص المخجل حقاً، هو الذي استخدم هذا التعبير عن الكونت تسن».

كظم فون هافن غيظة، ولاذ بالصمت، ولكن عندما انتهوا من طعامهم وقد واتجه نحو فورسكال وسأله إذا كان لا يزال مصرَّاً على ما قال. نحن نعرف عن عناد فورسكال ما فيه الكفاية، فقد وقف في الماضي ضد حكومة استكهلم، فيكف يمكن، أن يستسلم لفرد، أياً كان. لقد نظر إلى فون هافن ببرود، وردد ما سبق أن قال: «إن الشخص المخجل حقاً، هو الذي استخدم هذا التعبير عن الكونت تسن».

عندئذ شعر فون هافن أن السماء انطبقت على الأرض. وكما وصل إلى علمنا من بعض المصادر التي ستتحدث عنها بعدئذ، والتي لا يرقى الشك إليها، أن فون هافن صفع فورسكال على وجهه وشتمه شتائم قبيحة. وبعد مضي وقت طويل على بداية هذه الدراما، وبعد أن وصلت إلى ذروتها، كتب نيبور رسالة إلى السفير الدنماركي في القسطنطينية جاء فيها:

«لقد أهين كل من كان على ظهر السفينة، حتى صاحبا المعالي مولتك وبرنستورف، لم ينجيا من الأذى. وقد نال كل فرد من أعضاء البعثة نصيبه من الإساءة، عدا كرامر الذي كان فور هافن يمتدح مواهبه من وقت لآخر. إن فون هافن كان دائماً في ثورة وهياج، ولم يستطع أن يغفر لنفسه مغادرته كوبنهاجن، في صحبة هذه المجموعة الفاسدة، في نظره، دون أن يكون له عليها السيطرة الكبرى».

لقد فشلت كل محاولاته لإثبات وجوده، وأصبح الآن معزولاً أكثر من الأول، والشخص الوحيد الذي استمر يفرض عليه سلطته وعنجهيته، هو ذلك المسكين كرامر، رفيقه الريفي، الذي، ببساطة، كان على استعداد للانصياع لأي شخص كان، ومع هذا فقد وُجِد ما يدل على أنه كان يتحمل في صبر، طباع فون هافن المتقلبة الأطوار. وقد قسم فون هافن البعثة إلى مجموعتين: الأولى لا يمكن احتمالها، ولهذا لا يمكن الثقة بها، والثانية يمكن احتمالها، ولكن لا يمكن الثقة بها. ووقع جميع أعضاء البعثة الواحد بعد الآخر، ضحية كرامة فون هافن المجروحة.

أما المستر فورسكال السويدي الهادئ الواثق بنفسه، فيبدو أن الجميع كانوا يشعرون نحوه باحترام، فقد كانت أعماله سليمة وأظهر في كل مناسبة مواهب لا جدال فيها، ولم تؤثر فيه الأتعاب التي دفعت فون هافن إلى اليأس بل على العكس أكسبته المزيد من القوة والنشاط. وليس من الصعب أن نتصور كيف واجه فورسكال الإهانة التي وجهها إليه فون هافن خاصة، وهو ذلك الغيور على شرفه. لقد أصبحت الحرب قائمة بينهما وجهاً لوجه بعد حادثة وجبة العشاء تلك.

سبق أن ذكرنا أن السفينة «جرين لند» كانت في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط لترافق السفن التجارية الدنماركية من مرسيليا إلى سميرنا وتحرسها ضد السفن الإنجليزية التي كانت الحرب الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا تجعل البحار غير مأمونة.

وفي نهاية شهر أيار (مايو) كانت ثلاث سفن تجارية دنماركية على أهبة الاستعداد للرحيل. وفي الثالث من شهر حزيران (يونيو) أبحرت جميع السفن. وبعد يومين فقط من الإبحار وجد الكابتين فيشر الفرصة سانحة لإظهار شجاعته، ففي الخامس من شهر حزيران (يونيو) لمحوا من بعيد أربع سفن واستطاعوا في الحال التعرف على جنسيتها الإنجليزية من الأعلام التي كانت ترفعها. وكان حالة من السلام قائمة في ذلك الوقت بين الدنمارك وبريطانيا لكن السفن الدنماركية غادرت ميناء فرنسيا، وهم لهذا قد يطلبون تفتيشها، واستعد الكابتن فيشر للرد عليهم وأعدوا جميع المدافع للضرب، ووزعت عليهم الأسلحة الخفيفة وسحبت جميع السرر إلى ظهر السفينة حتى تلك التي تخص الضباط والركاب، وبسرعة كانوا على استعداد لخوض المعركة.

وفي المساء سمعوا طلقة مدفع، فأجاب عليها الكابتن فيشر في الحال. وقد منع الطقس الهادئ وانعدام الرياح السفن الإنجليزية من الاقتراب منهم النهار بأكمله، ولم تقترب إحداها منهم إلا في مساء اليوم التالي وتبادلوا معها الأسئلة والأجوبة ثم تابع كل

من الفريقين رحلته التي توقفت. وفي مساء اليوم السابع من شهر حزيران (يونيو) شاهدوا للمرة الثانية على بعد منهم عشر سفن واستعدوا مرة ثانية للمعركة ولكنها اختفت في الظلام، وفي صباح اليوم التالي طلب قائد السفينة الحربية البريطانية السماح له بتفتيش سفنهم التجارية الثلاث، لكن الكابتن فيشر رفض ذلك، عندما تأكد من استعدادهم للدفاع عن أنفسهم، وخوض المعركة في أي وقت.

أثناء هذه الحوادث المثيرة وقعت حادثة أخرى أثارت انتباه المستر نيبور. ففي اليوم الخامس من شهر حزيران (يونيو) ١٧٦١، ظهر الكوكب فينوس في فلكه أمام الشمس. ولملاحظة هذه الظاهرة النادرة الوقوع، نصب نيبور جهاز الفلك والتلسكوب على ظهر السفينة، بينما كان جميع البحارة من حوله في حركة وجلبة يعدُّون السفينة للدفاع عن أنفسهم. وقد منعه اهتزاز السفينة من أداء عمله على الوجه الأكمل، رغم أن الطقس في ذلك اليوم كان هادئاً جداً. كان منظره مضحكاً، وهو مشغول بأدواته على ظهر السفينة، يرصد الكوكب فينوس، بينما البحارة من حوله يستعدون للمعركة، والسفن الإنجليزية على صفحة المياه الساطعة ترقبهم، وهي قريبة منهم.

في أحلك الظروف وأقسى الأوقات، لا يجنب الشعوب الفرقة والدمار، إلا أولئك الأشخاص الذين ينظرون إلى الأمور بمنظار آخر، غير منظار المخرِّبين، دعاة الحروب والدمار. إن الأمل دائماً في الرجال دعاة السلام والحب، فهم وحدهم لا سواهم، منقذو الشعوب المتناحرة. إن نيبور، وقد صُوِّبت من حوله مدافع الهلاك والخراب في سفن كل من الجانبين، لم يأبه لكل هذا لقد استولى على عقله وقلبه حبه للمعرفة، واكتشاف آفاق جديدة لكل هذا لقد استولى على عقله وقلبه حبه للمعرفة، واكتشاف آفاق جديدة ترقى بالإنسان وتسعده. ونجح الكابتن فيشر في صد السفن المعادية، ووصلوا جزيرة مالطة بعد أسبوع، وأطلقوا حين وصولهم ثلاث عشرة طلقة تحية، وردّوا على تحيتهم بأربع



طلقات من السفن وإحدى عشرة طلقة من المدينة. وكان منظر بيوت المدينة غاية في الجمال، ذلك لأنها بُنيت على مدرجات بعضها فوق بعض، وكان هذا سبباً في سماع طلقات المدافع مجلجلة أقوى من العادة. وفي الحال، انطلق فورسكال ونيبور إلى الشاطئ. وخلال الستة أيام التي قضتها (الجرين لند) في المرسى، أنجزا الكثير من الأعمال: فقد حوَت مذكراتهما وصفاً مطولاً للجزيرة الصخرية، وجمع فورسكال قائمة نباتية ضمَّت ٨٧ نباتاً مختلفاً، ووصف الملاحات الكبيرة الواقعة على الشاطئ وصفاً دقيقاً، ودرس اقتصاديات الجزيرة، وشرح كيف أن أهل البلاد يجلبون الثلج من قمم جبال سيسلي ويستخدمونه في تبريد ماء الشرب، وتحدث عن معالم المدينة بمنازلها وكنائسها، وأسهب في شرح مظاهر الآلهة الكاثوليكية التي شاهدها هناك لأول مرة، وساوره الشك حيث شاهد آثار كاتدرائية القديس جون، فذكر أن بين الأشياء الكثيرة المعروضة فيها شوكة من تاج المسيح، المصنوع من الشوك، ذلك التاج الذي كان حسب رأي الـ (Hasselquist) مصنوعاً من شجرة شوك الألم، لكن فورسكال لم يستطع أن يرى في الشوكة المعروضة أكثر من قطعة صغيرة من العظم مدببة وبيضاء ومستقيمة.

أما نيبور فقد انشغل بعمل الكثير من المقاسات لطول وعرض الجزيرة، وكان هذه هي المرة الأولى وليس الأخيرة التي يسافر فيها حول الجزر والمناطق الساحلية. وقد تأثر بروح الشك المسيطرة على فورسكال. فحين فتشوا المغارة التي يفترض أن القديس بول وجد فيها ملجأ له، بعد أن تحطمت به السفينة، اكتشفوا الطباشير الأبيض الذي يبهر البصر، وهو ما يسمى «عيون الثعابين» والذي وجد فيه المواطنون الدليل على القديس بول طرد جميع الثعابين من الجزيرة. وانتقد نيبور بشدة هذه المعتقدات الشعبية وقال بأن الثعابين لم تسكن هذه الجزيرة الصخرية، لأنها ربما لا تعجبها. وأن المرء يستطيع، دون شك، أن يجد جزراً أخرى صغيرة لم يطأ أرضها قديس، ومع ذلك فليس فيها ثعابين.



بعد مغادرتهم الجزيرة بوقت قصير أصيب نيبور بدزنتاريا حادة مفاجئة. وقلق أعضاء البعثة على نيبور خاصة وقد سبق وشاهدوا الكثير من البحارة يرزحون تحت وطأة الأمراض. وذكر نيبور في مذكراته أنه فقد الأمل كله في أن يرى القسطنطينية، فما بالك باليمن السعيدة!

وحين وصلوا الأرخبيل اليوناني، كان الصيف في عنفوانه، فقد سجل الترمومتر ٧٩ف كل ليلة، وكان الحر الشديد مصر مضايقة للرجل المريض، الذي لم يكن في استطاعته أن يعزي نفسه بأنه أصيب بالحمى، وهو على أي حال لا يزال بين الأوروبيين.

وحين وصلوا (سميرنا Smyrna) اضطر فورسكال أن يتجول وحيداً، وقد شعر نيبور بالأسى وهو يتطلع من نافذة غرفته إلى الميناء التجاري، دون أن يكون قادراً على زيارته. وهنا كان أول لقاء لهم مع الشرق، وأول صورة رأوها عنه هي تلك البلكونات الظليلة المطلة على الشوارع، حيث يلذ الجلوس فيها ومشاهدة المارة، من رجال ونساء، يتجهون إلى الأسواق لشراء فاكهة (القامبو) ودقيق شجرة إبراهيم، وقد وضع الرجال على رؤوسهم العمائم ولبسوا القمصان البيضاء، ووضعت النساء غير المتزوجات الحجاب الأبيض على وجوههن، والمتزوجات الحجاب الأسود. وفي (سميرنا) اكتشف فورسكال عصفوراً لم يسمع عنه من قبل، وسماه (Turdus Seleucus) وأخبره المستوطنون أن القرآن يمنع قتل هذا الطائر لأن له القدرة على أكل ١٠٠٠٠ جندباً في اليوم، وهذا العصفور يدعى اليوم زرزور الجراد أو سمرمر، ويغطي السواد رأسه وبلعومه وجناحيه وذيله، بينما يغطي اللون الوردي ظهر وجوانبه السفلى وله خصلة من الريش على رقبته، وليس صحيحاً أن يكون هذا الطائر قد ذكر في القرآن، ولكنه حتى اليوم يشاهد غالباً في البلدان الشرقية حيث يعتبرون وجوده خيراً ونعمة لأنه يصيد الجنادب.



وغالباً ما كان يقف ركاب الباخرة يشاهدون عصفور فورسكال وهو آخذ في تمزيق الحشرات دون أن يأكلها أحياناً، ولكن لم يحسب أحد فيما إذا كان حقاً في استطاعة هذا العصفور صيد ١٠٠٠٠ حشرة في اليوم، لقد ضاعت هذه الفرصة، فاليوم لم يعد لمثل هذا الطائر وجود.



الفصل الرابع
في القسطنطينية

جولات علمية على طول الشاطئ – السفير الدنماركي – الرجل المختون وغير المختون – دراسات عن القسطنطينية.

في العاشر من شهر تمز (يوليو) غادرت السفينة (اسميرنا)، وأبحرت شمالاً إلى جزيرة (Tenedos) التي أصبح اسمها الآن (Bozcada)، حيث ودَّع أعضاء البعثة الكابتن فيشر، وغادروا الـ (جرين لند) التي كان فيها مقامهم لمدة ستة أشهر، وكانت القطعة الصغيرة من الدنمارك التي أوصلتهم إلى عتبة الشرق. ومن هناك كان عليهم أن يستقلوا مركباً تركياً صغيراً إلى القسطنطينية، وحينذاك كان نيبور في حالة من الضعف، اضطروا معها إلى حمله إلى ظهر المركب التركي، وكانت ملاحظاته التي سجلها في مذكرته هذه الأيام مقتضبة جداً، وفي فترات غياب الحمى كان يقوم بملاحظة الأتراك البارزين على المركب وقد وصفهم بقوله:

«كل شيء فيهم غريب، ملابسهم، وأدواتهم وسلوكهم، حتى أني لو توسعت في آمالي، فلن أجد في الشرق تسلية أكبر من هذه،» ولم يكن الذنب ذنب الأتراك فقد كان نيبور في هذا الوقت يعاني من آلام في بطنه. وسار بهم المركب عبر مضيق الدردنيل وعبر بحر مارمارا، وكان سيره بطيئاً، وعلى مراحل، بسبب عدم وجود الريح القوية، وبسبب أن تجويف المركب كان كبيراً. واغتنم فورسكال فرص التوقف، فقام كل يوم برحلات علمية في حقول القطن والذُّرة الشامية المزروعة على طول الشاطئ. ولم يصل بهم المركب مدينة القسطنطينية إلا بعد الثلاثين من شهر تموز (يوليو). وهناك التقوا بالسفير الدنماركي المستر فون جاهلر، أحد الدبلوماسيين الشبان الذين يعملون تحت إمرة برنستوف، والذي أصبح منذ الآن وسيطاً بين أعضاء البعثة، وبين حكومة كوبنهاجن.



كان البريد في انتظار أعضاء البعثة لدى السفير، وقد حوى رسائل كثيرة من كل الجامعات في أوروبا تطلب من أعضاء البعثة أن يقوموا بفحص ودراسة جميع المشاكل التي يمكن إدراكها، صغيرها وكبيرها، ابتداءً من موضوع، هل يجد الرجل المختون متعة «جنسية» أكبر من الرجل غير المختون.. وانتهاء بموضوع، إلى أي مدى يمكن اعتبار الصحراء العربية المجدّبة بداية توسع الجفاف وزحفه على العالم أجمع. ووصلت مع هذه الرسائل، رسالة من المستر برنستوف يجيب فيها على طلب فورسكال الذي أرسله من مرسيليا، وفيها أن جلالة ملك الدنمارك قد وافق على طلب فورسكال بأن ترسل البعثة البذور إلى الجامعات الأوروبية المشهورة. وأحس فورسكال بالسعادة تغمر قلبه، فقد أصبح في وضع يسمح له بإرضاء معبوده البروفسور لينوس، كما سُمح له أن يعود إلى الوطن عن طريق جنوب فريقيا بشرط أن يتطوع أحد أعضاء البعثة لمرافقته. ويبدوا أن برنستورف أحب أن يضع رقيباً على العالم السوري، الذي أراد أن يجوب العالم كله على نفقة الحكومة الدنماركية. وكان من المحتمل أن يكون هذا الرقيب هو عديم التأثير الدكتور كرامر، لأن فون هافن كان على علاقات سيئة مع فورسكال. كان فورسكال لا يمل من عمله ولا يتعب، وقد رفع من روحه المعنوية السماح له بإرسال البذور إلى جامعة ابسلا، وطال بقاؤهم في القسطنطينية أسبوعاً بعد أسبوع، بسبب حالة نيبور الصحية، كان فورسكال خلال ذلك دائم التجول من مكان إلى آخر، فلم يكتف بزيارة جميع الحدائق الرئيسية في المدينة، بل قام بزيارة عدة مدن أخرى على طول شاطئ بحر مرمرة وعلى طول المضايق حتى البحر الأسود، وكسب صداقة بعض صيادي الأسماك الأتراك وأبحر معهم عبر المضايق، ملاحظاً طريقة صيدهم للأسماك الصدف، دارساً النباتات البحرية المحلية، كما درس التربة في كل أنحاء البلاد التي زارها وجمع بعض البذور وقام بإرسال البعض الآخر، واطلع على طريقة مد المدينة بالمياه، الطريقة التي

أنشأها الإمبراطور الروماني جوستنيان، وجمع مجموعة من الأصباغ كان يبيعها اليهود في سوق المدينة ضمنها الباكام البني والانديقو الأزرق والسرقاتش الأصفر والكراموزي الأحمر. وبينما كان فورسكال يقوم بهذه الأبحاث كان نيبور المجهد يعالج من مرضه في بيت السفير الهادئ حيث تحسنت حالته، واستطاع التجول بعد شهر من وصولهم المدينة، وبحث الشئون المالية للبعثة مع السفير جاهلر الذي ساعده في الحصول على حوالات مالية على التجار الأغنياء في القاهرة، واتفقوا على وجوب أن يلبس جميع أعضاء البعثة الملابس الشرقية بعد مغادرتهم للقسطنطينة، وبرر هذا نيبور في مذكراته بقوله:

«في البلاد العربية سوف نكون موضع ضحك بسبب ملابسنا الأوروبية المتعددة والمنوعة الأقمشة، كما أن هذه الملابس لن تسمح لنا بالراحة الكاملة خاصة ونحن من الآن فصاعداً سوف لا نجد الكراسي وكثيراً من وسائل الراحة الموجودة في أوروبا».

وساعد السفير جاهلر، أعضاء البعثة في الحصول على الملابس اللازمة، وفي أول سبتمبر (أيلول) كانوا للمرة الثانية على استعداد للرحيل، لكن حدثت حادثة قبل رحيلهم بوقت قصير كان لها نتائج هامة على بقية أعضاء البعثة، وخلفت في نفس المضيف الكريم جاهلر ذكريات مرة لوقْت طويل. والسبب دائماً هو فردريك فون هافن. فبعد وجبة العشاء تلك، على مائدة الكابتن فيشر في مرسيليا، كان فورسكال، وفون هافن لا يجتمعان في مكان واحد إلا وتبادلا التعليقات اللاذعة، والقاسية أحياناً.

وفي القسطنطينية حاول كل منهما أن يكبح جماح نفسه بقدر الإمكان، فبينما كان فورسكال يتجول من مدينة لأخرى، كان فون هافن مشغولاً بالبحث عن المخطوطات العربية النادرة وشرائها.



ولأول مرة في كل السنين التي مرت، استطاع أن يظهر بعض نتائج معيَّنة. وقبل انتهاء بقائهم في القسطنطينية، بوقت قصير أرسل إلى برنستورف قائمة بالأشاء التي اشتراها، وهي كلها أربع وثلاثون مخطوطة عربية، أغلبها عن التاريخ والشعر، وقاموسان للغة العربية ذا قيمة كبرى.

وأطلع فون هافن برنستورف على أن السفير الفرنسي في المدينة أكد له أن من المستحيل كلية الدخول إلى اليمن السعيدة. وقبل مغادرتهم القسطنطينية إلى الإسكندرية حاول أن يبين استحالة تنفيذ مهمة البعثة، المهمة التي منذ حادثة العشاء بدت بالنسبة إليه أقل جاذبية عن ذي قبل. وإضافة إلى الرعب المتأصل في نفسه من مخاطر الرحلة وأتعاب الصحراء، تولد لديه قلق شديد من احتقار زملائه له. فيشعر بالوحدة بينهم كما يشعر بالوحدة بعيداً عن وطنه. وقد تنبأ بالموت المبكر لجميع أعضاء البعثة في رسالة له من هيلسنجر. وهو الآن يدعي أن البعثة سوف لا تستطيع الوصول إلى أهدافها، وهو على حق في قوله الأخير، عندما يكون هو المقصود بذلك. فبالنسبة له، لقد استحال عليه، استحالة كلية، الوصول إلى داخل اليمن السعيدة.

يستولي الرعب الآن على قلبه، تماماً، كما استولى على قلبه أثناء الأعاصير في سكاجراك، لكن هذه المرة، لم تكن لديه فرصة للهروب من الباخرة، كما فعل في المرة السابقة، ولهذا فكان لا بد له من أن يلجأ إلى وسائل أخرى ليهرب بنفسه. وحاول، عبثاً. وبكل جهد أن يهرب من قدره المحتوم، فقام بخطوات سرية، دلت على أنه لم يكن يحس بخيبة الأمل فقط، بل أحس باليأس الكامل يسيطر على نفسه. وأخذ السفير الدنماركي يراقبه في حذر، ولمس أن العلاقات سيئة بينه وبين فورسكال، فسأل نفسه عن سبب هذه العلاقات السيئة بين البروفسور السويدي، والبروفسور الدنماركي، وقرر أن يبحث عن الجواب، فعرف كل شيء عن خصامهما، ابتداء من وجبة العشاء لدى الكابتن فيشر، على ظهر السفينة (جرين لند).



ونجح الدبلوماسي القدير في إقناعهما أن يقدم كل منها أسفه للخصام الذي حدث بينهما، ورجاهما أن يعتذر كل منها للآخر ويتعانقا، فقدَّم كل منهما اعتذاره للآخر وعانق كل منهما الآخر، واعتبر السفير أنه بهذا قد استطاع أن ينهي الخصام بينهما، لكنه اكتشف، سريعاً، أنه لم يكن موفقاً في اعتقاده هذا، لأن فورسكال قد نجح بالطريقة التي قدَّم بها اعتذاره في إثارة جروح فون هافن القديمة وإشعال النار في قلبه من جديد. فبعد المصالحة مباشرة، أسرَّ فون هافن صديقه كرامر، بأنه رغم كل شيء سوف يتغلب على فورسكال في يوم ما. وقبل يوم من مغادرتهم المدينة زار فون هافن وكرامر دكاناً يملكه كيمائي فلورنسي، وطلب فون هافن بعض العلاجات استعداداً للرحلة، وفي الوقت الذي كان لا يزال تهديد فون هافن بالانتقام من فورسكال يرنُّ في أذن كرامر، شاهد مرعوباً أن فون هافن قد طلب ضمن العلاجات التي اشتراها كمية كبيرة من الزرنيخ.

Rhodos d. 21. Sept. 1761.

Pet. Forskål C. Niebuhr G.W. Baurenfeind.

آخر صفحة في رسالة فورسكال من جزيرة رودس



الفصل الخامس

فتيات وسم وجزيرة رودس

سلعة من الفتيات – القرصان يتربص بالبعثة – رسالة خطيرة من ردودس – فون هافن يشتري السم – المسيحية والإسلام. أيهما؟ فورسكال ونيبور يتسليان مع الفتيات الجواري.

في الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) ١٧٦١ انتهت كل الاستعدادات للرحلة وابتدأت الآن المغامرة الحقيقية، فودع الأعضاء السفير جاهلر وصعدوا على ظهر المركب الذي سيقلهم إلى الإسكندرية مرتدين الملابس الشرقية الجديدة، وواجهوا على ظهر هذا المركب التركي عالماً جديداً يختلف تماماً عن عالمهم الذي اعتادوا عليه على ظهر الباخرة (جرين لند). فقد كانت مهمة هذا المركب هي نقل بعض الفتيات الشابات لبيعها في أسواق الجواري في مصر، ومن البداية استولت هذه الحمولة الجميلة على اهتمام أعضاء البعثة ومشاعرهم، فنسي فورسكال لبعض الوقت الأعشاب البحرية و(قناديل البحر) من الأسماك. كتب يقول:

«ووجدنا أنفسنا بصحبة تاجر في طريقه إلى القاهرة، كانت سعلته غير مألوفة في الموانئ الأوربية لقد كانت حمولة من النساء الجواري، أنزلهن قمرة في مكان فوقنا حجزت خاصة بهن، وكان حريصاً على عزلهن عن الرجال، فكان يحضر طعامهن بنفسه، وزيادة في الحرص علق بطانية على باب القمرة، حتى لا يرى أحد النسوة عند دخوله ولا عند خروجه، كذلك نيبور اهتم بأمر هؤلاء النسوة فذكر انهن كنَّ يعاملن معاملة حسنة، وهذا يهم كثيراً مالكهن حتى يصلن إلى أسواق مصر في صحة جيدة، والسرور يملأ قلوبهن.



غير هذه الجواري، لم يكن هناك جديد في حياتهم وقتئذ، ويبدو أنهم لم يفقدوا الأمل في رحلتهم هذه.

في الثامن من أيلول (سبتمبر)، حين كانت السفينة في حالة استعداد للإبحار، كانت الريح غير مناسبة. ولم يستطيعوا الإبحار قبل الحادي عشر من الشهر. فعبروا ضيق الدردنيل، وأثناء عبورهم نزل فورسكال ونيبور إلى الشاطئ، الأول من أجل جمع بعض بذور الأزهار، والثاني ليقوم بنصب أدواته الفلكية، لتسجيل بعض القراءات التي فاتته بسبب مرضه. وواصلت السفينة طريقها عبر الأرخبيل اليوناني، حيث التقوا بسفن حربية تابعة لمدينة البندقية رفضت أن تحييهم، ذلك أن هذا الشرف لا يقدم إلا للسفن الافرنسية والإنجليزية. وفي التاسع عشر من أيلول (سبتمبر) مروا بجزيرة ساموس التي غطت جبالها السحب الكثيفة، وهنا كان قائد السفينة التركي خائفاً من أن يلتقي بالقرصان المسمى «الكابتن باشا»، الذي نشر الرعب في هذه المنطقة من البحر، والذي كان يطلب فدية باهظة من كل سفينة تقع بين يديه. وكان هذا القرصان في هذا الوقت بالقرب من شواطئ رودس منتظراً ومتربصاً ومعه ست سفن حربية، وقد أقفل جميع سكان الجزيرة شبابيك منازلهم خوفاً من مهاجمته لهم وسلب ممتلكاتهم.

وكان على أعضاء البعثة مواجهة مشاكل كثيرة، فمن مشكلة الجواري الجميلات، إلى مشكلة ذلك القرصان المتربص بهم، إلى مشكلة نوايا فون هافن السيئة، بعد أن كشف كرامر موضوع شرائه لكمية كبيرة من الزرنيخ من مدينة القسطنطينية. وفي هذا الحال وصلت بهم السفينة جزيرة رودس حيث نزل إلى الشاطئ فورسكال ونيبور وبورنفانيد في اليوم الأول، بينما لم يغادر فون هافن وكرامر السفينة إلا في اليوم التالي، ولم نعرف سبب هذا الانفصال في التحرك، ولهذا فلا بدَّ أن نسأل أنفسنا هذا السؤال.. لماذا أراد الرجال الثلاثة أن يكونوا لوحدهم في رودس في الحادي والعشرين من شهر أيلول



(سبتمبر)؟ ولم نجد الجواب لهذا السؤال إلا في الأرشيف الحكومي الدنماركي، حيث وجدت رسالة أرسلت إلى السفير الدنماركي في اسطنبول مؤرخة ٢١ أيلول (سبتمبر) كتبها فورسكال بلغة ألمانية متعثرة، ووقع عليها إلى جانبه نيبور وبورنفانيد، وكتبت كما يلي:

صاحب السعادة والفضل.

نودُّ من جديد أن نعبِّر لكم عن امتناننا المتواضع، لما أبديتم سعادتكم، نحو جميع أفراد البعثة من اهتمام أبوي ولطف، ونؤكد لكم بأننا بقلوب شاكرة سوف نعتز ونكرم ذكراكم إلى الأبد. وقد وصلنا اليوم رودس، وهنا لدى السفير الافرنسي التقينا برجل مهذب في طريقه إليكم، أبدى استعداده أن يحمل إليكم رسائلنا. ننتهز هذه الفرصة لنطلعكم على بداية قضية سببت لنا جميعاً رعباً، أخبرنا عنها طبيب البعثة الدكتور كرامر. ففي آخر يوم لنا في القسطنطينية قدم الكيمائي الفلورنسي للمستر فون هافن حسب طلبه كميتين مذهلتين من مادة الزرنيخ بحضور كرامر. وحين أبدى كرامر اهتماماً كبيراً بذلك، أراد فون هافن دون شك تهدئة شكوكه فسلمه كميات الزرنيخ للاحتفاظ بها في مكان أمين. ومنذ تلك اللحظة شعر كرامر بفزع شديد وأطلعنا جميعاً على الأمر وأرانا العلبتين اللتين يحتفظ بها الآن معنا. والكميتان من الكبر، بحيث تكفي لأن تنقل إلى الدار الآخرة فرقتين عسكريتين كاملتين. وفي اعتقادنا أن لديك فكرة كافية عن شخصية هذا الرجل وأخلاقه ورغبته الشديدة في السيطرة على شؤوننا المالية وقد أخبرنا الدكتور كرامر بان فون هافن قد قطع عهداً على نفسه أن يتخلص قبل عودته إلى بلاده من الرجل الذي كان سبباً في ما لاقاه من إهانات. وحين نفكر في أعماله السابقة وفي طباعه المتعجرفة وفي ما لمسناه منه من سلوك شرس، يكون في استطاعتنا عندئذ أن نتصور مقاصده الخبيثة التي كانت وراء شرائة هاتين العلبتين من الزرنيخ. وبديهي أن في البلاد المنتشرة فيها الأوبئة والأمراض الفتاكة، يكون أسهل شيء في الدنيا على المرء، أن

يلقي اللوم، في حالة الوفيات المفاجئة والتلازمة، على هذه الأوبئة ولا مفر من أن نضع أنفسنا مرة أخرى تحت توجيهاتكم وعنايتكم، ونحن على استعداد لأن نغامر بأرواحنا في سبيل ما يمكن أن تتطلبه الرحلة من أخطار، لكن من المزعج حقاً، أن نعيش في كل لحظة مهددين بالموت من قبل أحدنا. نطلب من معاليكم أن تتكرموا وتسألوا الكيميائي الفلورنسي نفسه فيما إذا كان قد طلب منه فون هافن علبتين كبيرتين من الزرنيخ الأبيض والأصفر، وسلمهما إليه يداً بيد، ومن الجائز أنه لا يزال يحتفظ ببعضه معه حتى الآن. وحتى إذا لم يحتفظ بشيء منه، فمن السهل عليه أن يحصل في مصر على الكمية التي يريدها ومن المستحيل أن يتصور المرء أي هدف معقول يمكن أن يكون لحمل مثل هذه الكميات أثناء الرحلة. فإذا أمكن أن تصلنا تعليماتكم السريعة إلى مصر لتخلصنا نهائياً من هذا الزميل، وإلا فسوف لا يتوقف إلا حين يكون قد أوقع نفسه في المصائب أو أوقعنا فيها جميعاً.

مع خالص احترامنا، وسنظل لمعاليك خداماً متواضعين إلى الأبد.

بيتر فورسكال　　　　س. نيبور　　　　س.و. بور نفانيد

ملاحظة: بقي على ظهر الباخرة عالم اللغات وطبيبنا.

رودس في ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٧٦١».

«هنا رودس وهنا سوف أبدأ العمل» في استطاعتنا أن نتصور فورسكال مردداً هذه الكلمات الشهيرة على شفاهه، وهو يغادر السفينة إلى جزيرة رودس، لكتب الرسالة التي أشعلت الفتيل. وفي الوقت ذاته أرسل نيبور رسالة إلى سكرتير السفير، أشار فيها إلى شراء فون هافن لمادة الزرنيخ. وقد أكمل رسالته كما يلي:

«إني أتمنى أن يستطيع فون هافن الاستفادة بهذا الدواء (الزرنيخ) لنفسه، لأني على ثقة أن هذه الطريقة هي أحسن طريقة يعالج بها الشر نفسه. وإذا كان من سوء حظي أن أكون معرضاً لمثل محاولة القتل المخجلة هذه فإني كضابط سأعرف كيف أنتقم لنفسي من الأعمال الشريرة، ومع أني لن أجد في هذا الكثير من راحة الضمير، فإنه لشرف لي أن أكبر أن أموت شهماً شجاعاً من أموت جباناً بائساً. نسأل الله أن يحفظنا من مثل هذه الشرور».

اتضح من هذه الرسالة أن المستر نيبور كان ينوي قتل فون هافن إذا حاول هذا الدنماركي القضاء عليهم.

بعد هذا التطور المؤسف للأحداث، جاءت شروط الكابتن باشا الفجة، في السماح لهم بالمرور، غاية في الزهد لدرجة أن أحد لم يتذمر منها. ففي الثاني والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) أجيبت طلبات هذا القرصان، وبعدها أبحرت السفينة من جديد وعليها حمولتها من الفتيات.

في هذه الفترة لم يكشف النقاب عن العلاقات الحاقدة بين أعضاء البعثة إلا تعليق لاذع سجله نيبور في مذكرته، نتيجة لنقاش بين أفراد البعثة وبين ذلك الرجل المسلم الذي كان يعمل كاتباً في السفينة، فقد خرج فون هافن، أثناء النقاش عن الموضوع وأشار في تهور، إلى أن الديانة المسيحية، أفضل وأحسن من الديانة الإسلامية، ونتيجة لهذا القول، وقف الكاتب المسلم في الحال وغادر الجمع بعد أن قال لهم بأن من يعتقد في إله غير (الله Allah) فهو لا بعد أن يكون إما ثوراً أو حماراً.

ونجد أن نيبور، لأسباب أخرى، كان ميالاً للوقوف إلى جانب المسلم في رأيه. جاء في مذكرته: «لقد ذكرنا قول الرجل المسلم الفاضل، بأن على الإنسان أن ينظر نظرة

شامخة إلى كل شخص يعتقد أن دينه أحسن دين، وأنا شخصياً لا أرى من واجبي هداية الناس، لكن، حين كنت أستفهم من بعض المسلمين العقلاء عن جوهر الدين الإسلامي، كنت أطلعهم أيضاً أثناء الحديث عن أشياء كثيرة في الدين المسيحي، دون أن أزعم بأنها أحسن من المعتقدات التي جاء بها القرآن. ولهذا لم يغضب أحد مني».

هذا القول يطلعنا على حقيقة المستر نيبور، فهو لم يرض لنفسه أن يكون من المبشرين، ولم يهب نفسه من أجل معتقداته، بل كان يريد فقط نشر الثقافة، لا الدعوة إلى تبديل الأديان، فالحقيقة، في نظره، نسبية.

المركب الآن يسير بهم في عرض البحر، ولأول مرة منذ مغادرتهم القسطنطينية امتد من حولهم الأفق الواضح، وبرد الجو مرة ثانية، فانسحب القوم من التجمع الواحد بعد الآخر، إلى أعمالهم المعتادة، ودار حديث طويل خاص بين فون هافن وكرامر باللغة الدنماركية، وأكمل بورنفانيد رسم النماذج النباتية التي جلبها فورسكل من تركيا، كما انشغل نيبور بملاحظاته الفلكية والجوية، بينما كانت تسمع أحاديث الفتيات الجواري وهن في غرفتهن العليا، ثم جاء الظلام ورافقته تلك الومضات الفسفورية على جانبي السفينة، وذكر فورسكال في مذكراته كيف كان كل مساء يقوم بواسطة المكرسكوب بفحص الماء الذي يجمعه من خلال نافذة قمرته، وأنه، مهما بذل من عناية، لم يجد أي أثر لعرائس البحر التي يقولون بأنها مصدر هذه الومضات. لكن يبدو أن عرائس البحر التي يبحث عنها في الماء دون جدوى، قد اتفقت معه على ميعاد يلتقون فيه على ظهر السفينة. كتب فورسكال يقول: «كنت من خلال نافذة قمرتي أبحث عن المواد المضيئة التي شغلت معظم وقتي، وقد أعطى هذا، الفرصة للفتيات الساكنات فوق قمرتي، لمشاهدة هذا الصياد الأوروبي. وحين كنت أسمع كلامهن فوقي وأتطلع إلى أعلى، كن يختفين بسرعة، لكن دون حشمة، وظللن هكذا، واحدة تظهر وأخرى تختفي، وفي النهاية تبادلنا جميعاً الحديث معهن وتعرفنا عليهن واحدة واحدة».



ومن حسن الحظ، أن اطلاعنا على مذكرات نيبور مكننا من التجسس على فورسكال واكتشاف أمور تفصيلية أكثر عن تطور معرفته بالجواري، كما أبان لنا كيف كان تصور نيبور للحادثة نفسها مختلفاً عن تصور فورسكال.

ندع الآن نيبور يسرد لنا الحادثة كما رواها:

«كنت في الغالب أجلس أنا وفورسكال على أرضيَّة قمرتنا نقرأ ونكتب، وحين كنا نسمع أصواتهن فوقنا، كان من الطبيعي أن نطل من نافذتنا لنعرف ماذا كان يحدث فوقنا. كان منظرنا بالنسبة لهن يدعو للغرابة، فلم يكن معتادات على منظر الأوروبي المتوحش في نظرهن، فالعادات الشرقية لم تكن قد تمكنت منا بعد، كلبس العمائم بشكل دائم، وفي البداية كنَّ يعرضن عنا استنكاراً لكنا لم نسمح للضعف أن يتسرب إلى قلوبنا من جراء هذا الإعراض خاصة حين شاهدناهنَّ يوقفن بعضهن البعض من الاستمرار في الضحك علينا. وبالتدريج اعتدنَّ علينا وألفنَّا وألفناهنَّ وأطلعناهن على أنواع مختلفة من الفواكه والحلويات المصنوعة في أوروبا.

وحين كان يطيب لهنَّ شيئاً منها، كنَّ يدلينَ بوشاح من نافذتهنَّ حتى نربط به ما طاب لهن. وبادلتنا الهدايا بإعطائنا شيئاً أو شيئين صغيرين. وكنا لا نعرف من اللغة التركية كلمة واحدة، ولم تكن تعرف واحدة منهن أي لغة أوروبية. واستطعنا التعبير عن أنفسنا بالإشارات فقط، وأكثرهنَّ وداً كانت تقول لنا بعض كلمات في مناسبات عديدة، ومن أجل أن نعرف معنى هذه الكلمات التركية، سألنا الكاتب التركي عن معناها، ومعنى كلمات تركية أخرى، وبهذا استطعنا أن نعرف أنها كانت تقصد بهذه الكلمات تحذيرنا من أن لا نحاول التطّلع إليهنّ، أو الحديث معهنَّ، إلا حين ينشغل الرجال بصلواتهم، وعلى أي حال لم يكن في استطاعتنا دائماً التأكد من عدم وجود الرجال، وأخيراً اعتادت النسورة القرع على نافذتهن كإشارة لنا بأنهن وحيدات. ولهذا وجدت الفتيات، ووجدنا نحن أيضاً تسلية كبرى في رحلتنا هذه».

في خضم الدراما القائمة التي ابتدأت بإرسال الرسائل من رودس كانت التسلية مع فتيات المركب عاملاً مساعداً لتخفيف وقع المأساة على نفوسهم. إن منظر هذين الرجلين المتعلمين، وهما يوقفان أبحاثهما ودراستهما من أجل الإصغاء إلى قرع الفتيات على النافذة، ومن أجل رفع الحلويات إليهن، ليبدو لنا كالواحة الغاصة بالسعادة والمشاعر الإنسانية الرفيعة، وسط صحراء حياتهم المتصارعة. ويبدو لنا أيضاً كما لو كان حلماً عابراً في الخيال لليمن السعيدة. في السادس والعشرين من أيلول (سبتمبر) رست السفينة في ميناء الإسكندرية وانتظر أعضاء البعثة حتى اليوم التالي لينزلوا إلى الشاطئ، فقد كانوا يتوقعون الالتقاء بالقنصل الفرنسي. وقد لقي ما يقارب من ثمانية أشخاص حتفهم على ظهر السفينة خلال هذه الفترة بعد أن انتشر الطاعون فيها منذ أن غادرت رودس، وسر نيبور كثيراً لعدم ظهور عوارض هذا المرض على أي عضو من أعضاء البعثة، لقد أشفق عليهم الوباء الحقيقي فابتعد عنهم، لكن وباء زميلهم فون هافل ظل يلازمهم حيث ذهبوا. كان هذا هو حالهم مساء ذلك اليوم قبل أن يضعوا أقدامهم للمرة الأولى على أرض عربية. وحين استيقظوا في الصباح وجدوا أن الباخرة قد خلت من الفتيات الحسان، وعلق نيبور على ذلك بقوله: «لقد أخذوهن أثناء الليل.. في صمت وهدوء». إن وقع هذه الجملة تملأ نفوسنا بالأسى والحزن. فهي تجعلنا نفكر في المصير المجهول لتلك الفتيات اللاتي يباع فيهن ويشترى كالسلعة، وربما كان هذا هو شعور نيبور وفروسكال حين وجدا في ذلك الصباح قمرة الفتيات خالية من نزيلاته.

وحين فكر فورسكال في الأخطار التي تهدد البعثة في ذلك الحين تذكر ذلك السؤال الذي سأل نفسه في بداية الرحلة: لماذا تدعى اليمن السعيدة.. باليمن السعيدة؟ ولماذا يصعب علينا أن نمسك بالبرق الخاطف؟



القسم الثالث

I.

مقاطع رسم بياني رسمه نيبور لآلة الري المصرية المسماة الساقية



الفصل الأول

عام في مصر

البحث عن شجرة البلسم في الإسكندرية – أثار قصور كليوباترة – الآلهة المدمرة – الفلاح البسيط – أول مواجهة للوحشية الشرقية – لصوص البحر.

بعد مغادرة رودس دخل عامل جديد في حياة البعثة هو عامل التهديدات بالموت. التهديد الخارجي من قبل الأمراض والأوبئة، ومن قبل مواطني هذه البلدان الأجنبية، والتهديد الداخلي من خطط الانتقام لزميل حانق، وقد ألقت هذه التهديدات عليهم ظلاً من الكآبة والشؤم، وأصبح هذا الظل هو الحقيقة الوحيدة لمعنى وجودهم، ولم يعد هدفهم في البحث عن أرض (سعيدة) يحتل مركز الصدارة في نفوسهم، كما في بداية الرحلة.

لقد اختلط لديهم الخوف بالأمل، وتركت التهديدات بالموت أثرها على سير الأحداث بطرق أكثر جموداً. فقد كان من المقرر أساساً أن تظل البعثة في مصر، في طريقها إلى اليمن، مدة شهر فقط، لكنها بسبب الظروف الجديدة مكثت فيها أكثر من سنة، دون أية نتيجة سوى تعميق المشاكل وإثارتها بدلاً من القضاء عليها.

بدأ سير الأحداث في الإسكندرية، حيث ملأ الغم صدورهم جميعاً، لكن غرابة المحيط الجديد قد أنستهم همومهم، فانهمك فورسكال من أول يوم لوصولهم، في أبحاثه النباتية. وقد أذهله منظر النباتات الغريبة المدهشة تنمو في الهواء الطلق دون حاجة للطقس الصناعي كما في حدائق أوروبا، كما أنه أحسَّ أن كل شيء بالنسبة إليه كان جديداً.. الناس، والبلاد، والطبيعة، والنباتات ولم يستطع أن يفكر في شيء عدا جمع النباتات وملاحظتها، فكان يذهب للتجوُّل في الأراضي القريبة من البحر من طلوع الشمس حتى غروبها، وأحياناً كان يقضي ساعات عديدة منحنياً على زهرة في إحدى حدائق المدينة، كما كان في غاية السرور، وهو يصف شجرة النخيل التي رآها لأول مرة في حياته.



وبدأ في الإسكندرية البحث عن شجرة البلسم النادرة التي حلم أستاذه البروفسور لينوس أن يرى جزءاً منها قبل وفاته، وكانت هذه الشجرة هي الهدف الرئيسي للأبحاث النباتية. وبقراءة بعض مذكرات فورسكال يكون في استطاعتنا أن نتتبَّع ما كان يجول بخاطره من أمل ويأس، جاء في مذكرته:

«لقد أخبروني اليوم أن شجرة البلسم الأصلية المكاوية يمكن أن أراها في حديقة خارج المدينة. ودون تمهُّل، أسرعت لأرى أندر شجرة في العالم، وحين وصلت إلى هناك لم أجد إلا مكن شجرة كانت من قبل في هذا المكان، ولعلها لم تكن شجرتي المطلوبة. ودلُّوني بعدئذ عل يهودي يسكن داخل المدينة، قالوا أنه يزرع هذه الشجرة النادرة في جرَّة حجرية بمنزله. ويعيش اليهود في حيّ خاص بهم له باب واحد فقط، وفي منازلهم لا شيء سوى ممرات مظلمة توصل عائلة بأخرى. وتجرَّأت وسرت في هذه الممرات التي تملأ قلب الإنسان بالشكوك، ولم أجد عدا شجرة البلسمين المورموديكا، فاللحظة التي نستطيع فيها مشاهدة شجرة البلسمين لم تأتِ بعد».

إن اللحظة التي ينتظرها فورسكال لا بد أن تأتي، وفي الوقت الحاضر توجد أشياء أخرى نادرة عليهم مشاهدتها ووصفها. وبرفقة نيبور زار فورسكال الآثار العظيمة للإسكندرية، وانتقلا من مكان إلى آخر على ظهور الحمير التي تقف في الشوارع في انتظار تأجيرها، وقد شُدَّت السروج على ظهورها. وهناك شاهد آثار قصور كليوباترا، وأعمدة بومي، والمسلات المشهورة كما شاهد سراديب الأموات، التي لم يجسر أحد منهما على دخول ممراتها المظلمة إلا بعد أن أطلقا فيها بعض طلقات مسدس، لإخافة أبناء آوى التي تقطنها. واكتشف فورسكال أن بيوت الإسكندرية بُنيت من نفس نوع الحجر الذي وُجد في جوانب الأكمة، حيث نُقرت سراديب الأموات التي يُفترض أنها، أصلاً،



كانت محاجر، ولهذا ساير إنشاء مدينة جديدة تحت الأرض، إنشاء مدينة أخرى على وجه الأرض من الأحجار المنقورة.

وبعد أن صعد فيلسوف علم النبات من باطن الأرض إلى ظهرها، وقف أمام جميع آثار الماضي وأخذ يتأمل سير التاريخ، وقال:

«إن جهل لهذه الآثار لم يستطع، على أي حال، أن يقلل من تقديري لمهارة ومثابرة الأجيال الغابرة، التي تركت هذه الآثار الرائعة. كما لم يستطع أن يغيّر من حقيقة أن أعمالنا العظيمة في فن البناء التي نفخر بها اليوم، قد تصبح نفسها، في يوم ما، آثاراً. وليس من المؤكد، فيما إذا كانت الأجيال القادمة، سوف تمجِّدها بنفس الدرجة التي يمجِّد جيلنا، عدلاً، آثار قدماء المصريين».

ومعظم الآثار التي زارها فورسكال ونيبور، كان قد سبقهما إليها رحَّالة شاب من الدنمارك، كان يعمل ضابطاً في البحرية، يدعى ف.ل نوردن، بعثة الملك كرستيان السادس إلى مصر عام ١٧٣٧، وأبحر عبر النيل حتى وصل إلى بلاد النوبة. وقد سجل جزءاً من الرحلة كتابة، والجزء الآخر عن طريق حفر مجموعة كبيرة من الصور. وقد صدر ما كتبه عن الرحلة في مؤلف ضخم بعد موته، تحت عنوان (رحلة إلى مصر وبلاد النوبة). وكان هذا هو المؤلف الثالث والأخير لهذا الرحالة، وقد صدر الكتاب قبل ست سنوات فقط من مغادرة السفينة (جرين لند) لأرض الدنمارك. وتضمن هذا المؤلف خرائط لمدينة الإسكندرية، ولهذا قرر كارستن نيبور أن لا يصنع لها خريطة، واكتفى بأن بذل جهداً كبيراً في فحص صحة المقاسات المهمة في خريطة الضابط نوردن. وبينما كان مشغولاً بهذا العمل، وجد نفسه فجأة، في موقف صعب، وقد تجمَّع حوله جمهور كبير من الناس. كتب في هذا يقول:

«كان بين الحضور تاجر تركي، لحظ أني وجهت آلتي الفلكية نحو المدينة، فسلبه الفضول عقله وأصرَّ على أن أسمح له بالنظر من خلال عدسة الآلة، وما أن رأى من خلال العدسة، حتى ظَهرت على ملامحه علامات الاضطراب والانزعاج، فقد شاهد إحدى القلاع وقد انقلب عاليها سافلها. وفي الحال، شاع بين الناس أني جئت إلى الإسكندرية بغرض أن أجعلها تقف على رأسها بدلاً من رجليها».

في البداية لم يكن نيبور مهتماً لما أثير حوله من إشاعات، لكن فيما بعد بدأت تظهر في المدينة دلائل عدم الرضا والريبة، مما أدى إلى وصول الأمر إلى حاكم المدينة، وأصبح خادمه التركي يرفض مرافقته حين تكون معه ما اعتقدوا أنه آلة دمار رهيبة. واضطر نيبور إلى إبدال هذا الخادم بخادم آخر أقل تأثراً في هذا الخصوص. وفي مناسبات كثيرة حاول الأهالي خطف الآلة من أجل تحطيمها، مما جعله يحرص على استعمالها فقط خارج المدينة، ومع ذلك حدثت عدة مشاكل.

ذات يوم أراد نيبور أن يأخذ بعض قياسات لارتفاع الشمس في الأجزاء الجنوبية للدلتا، وبينما كان منهمكاً في عمله هذا، إذ بأحد الفلاحين يقترب منه ويبدي اهتماماً زائداً بعمله، ولأن نيبور أراد أن يريه شيئاً لم يره ف حياته من قبل فقد سمح له أن ينظر من خلال الآلة. ولما رأى المدينة وقد قلبت رأساً على عقب تملكه رعب شديد، وسأل خادم نيبور ما عسى يمكن أن يكون السبب في هذا، فأجاب عليه بأن الحكومة مستاءة جداً من سكان هذه المدينة ولهذا فقد أرسلت نيبور ليقوم بتدميرها، فحزن الفلاح المسكين لسماعه هذا الجواب ورجا نيبور الانتظار حتى يستطيع أن يذهب ويبعد زوجته وأولاده وبقرته عن مكان الخطر، فأكد له الخادم أن لديه من الوقت ساعتين فاندفع الفلاح كالريح نحو بيته.



بعد هذه الحادثة جاء الألم بعد الفرح، وأتى اليأس بعد الأمل، فخلال بقاء البعثة في الإسكندرية سكن أعضاؤها في بيت القنصل الفرنسي. وفي إحدى الأيام عند الغروب صعدوا إلى سطح المنزل ليستمتعوا بنسيم المساء، وبينما كانت أشعة الشمس تهبط على سطوح المنازل وعلى المآذن شاهدوا منظراً محزناً في الشارع، فقد كان الجمهور يضرب حتى الموت بعض اللصوص من البدو الذين دخلوا المدينة من الصحراء واستطاع الجمهور الغاضب اكتشاف أمرهم والإحاطة بهم أمام بيت القنصل. لقد تركت هذه الحادثة البشعة أثراً عميقاً في نفوس العلماء الأوربيين، وكانت بالنسبة لهم أول مواجهة للوحشية الشرقية وإنذاراً لهم من الأخطار التي يواجهونها في حالة الصدام مع الجمهور الشرقي الهائج. ومنذ ذلك اليوم لم يجسر نيبور على استخدام آلته الفلكية إلا في المناطق المأمونة. وضمن المخاطر التي كانت تحدق بهم، كان لا يزال ذلك الخطر المتمثل في فون هافن. وفي بداية شهر تشرين الأول (أكتوبر) كتب نيبور إلى السفير فون جاهلر مرة أخرى مشيراً إلى شراء فون هافن الزرنيخ ومعطياً تفصيلات كاملة لمحاولته السيطرة على شئون البعثة المالية، ومحاولته فرض نفسه رئيساً لها. وأنهى خطابه بأن كرر تهديده بأنه سيطلق النار على فون هافن إذا حاول القضاء عليهم بالسم، وكان واضحاً أن نيبور كان يبحث عن مساعدة جاهلر في تخليصهم من زميلهم الذي لا يطاق. وقد أجمع أعضاء البعثة على ضرورة إبعاده عنهم.

خلال بقائهم في الإسكندرية، لم تصل، على أي حال، أي أخبار من السفير في القسطنطينية. وفي الواحد والثلاثين غادروا المدينة على ظهر مركب مصري صغير، أبحر بهم على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى مدينةرشيد، التي تقع بالقرب من الفرع الغربي لنهر النيل، الذي يصب في البحر الأبيض.

بالنسبة لفورسكال، كان يعني وصولهم إلى دلتا نهر النيل توارد خواطر رؤى جديدة عن أسراب لا نهاية لها من الطيور القواطع، التي حطت على البحيرات الداخلية وعلى الحقول الواسعة المنبسطة، حيث ينمو الأرز والبرسيم بين مجموعات متفرقة من شجر النخيل وفي مدينة رشيد وجدوا مسكناً لهم مع بعض الرهبان الفرنسيسكان، ورافق أحد هؤلاء المستر نيبور والمستر فورسكال والمستر بورنفانيد إلى منارة المراقبة الواقعة في طرف المدينة، حيث اتسع أمام ناظرهم منظر مديد للدلتا، وحيث رسم بورنفانيد أنجح رسومه وأعظمها خلال كل الرحلة.

وفي السادس من نوفمبر، واصلوا رحلتهم في قارب في نهر النيل، وكانت الرياح في اتجاه مضاد لهم، مما سبب لهم سيراً بطيئاً، لكن هذا أعجب فورسكال، فقد استطاع، بسبب بطء سير القارب، أن يقفز إلى اليابسة، كلما شاهد زهرة نادرة. وكان يقضي معظم وقته جالساً على سطح المركب، متابعاً تغيير المناظر على طول الشاطئ، فهذه أشجار النخيل تمر أمامه، وهذه المنازل المبنية من الطين، وقد تغطت سطوحها بأكوام القمح التي تجذِب كل صباح أسراب الطيور الصغيرة. وعلى الأرض نشر الأرز وتجمع الأطفال لدرسه، الصبيان منهم يلبسون فقط الطواقي الحمر، والبنات كما خرجن من بطون أمهاتهن. وكان يشاهد من وقت لآخر، رجلاً راكباً حماره وعليه سترة زرقاء رثة، أو امرأة تعود من النهر وعلى رأسها جرة من الفخار.

وعند المغيب، كان يرسو المركب بعيداً بعض الشيء عن المدن، وبسبب لصوص البحر اضطروا أن يوقفوا حارساً كل مساء، كان يشاهد في ضوء القمر كالشبح وهو يجيء ويذهب على ظهر المركب، وكان عليه إطلاق النار مرة أو مرتين حين يسمع أي حركة مريبة.

أغطية رأس مصرية بريشة بورنفانيد

1761	Compte Des Medicaments que fleuriot apoticaire a eu l'honneur de fournir pour Messieurs Les voyageurs danois de Dannemarc.		
aoust 6	un Lavement astringent		20
	un Electuaire stomacal		30
7	Son Lavement n°		20
9	Son Lavement n		20
	Son Electuaire reiteré		20
10	6 prises poudre antiepileptique		30
	[illegible] potion Carminative anodine		12
13	Son Electuaire n		15
17	Son Electuaire n		30
20	un vomitif		30
21	Son Electuaire reiteré		10
7bre 3	un [illegible] d'esprit de vin Camphré		30
	Trois [illegible]		20
			24
		11	11
	8i sel de tartre	4	
	3 j r. arsenic jaune		8
	4 on arsenic blanc		16

قائمة العلاجات التي اشتراها فون هافن من القسطنطينية نرى في اسفلها بندين لسموم احدهما « زرنيخ اصفر » والآخر « زرنيخ ابيض »



الفصل الثاني

فون هافن يناقش آراء فولتير

وزملاؤه في انتظار فصله من البعثة

فون هافن يناقش آراء فولتير – رسالة من السفير جاهلر – حياة البعثة في خطر.

في العاشر من نوفمبر لعام ١٧٦١ وصلت البعثة إلى القاهرة، ووصف فون هافن مساكنهم فيها في رسالة بعث بها بعد أسبوعين من وصولهم إلى السفير فون جاهلر، أبانت لنا هذه الرسالة مدى اهتمام هذا (الجنتلمان) الدولي الأنيق بأمور الرفاهية وآداب السلوك «الإتيكيت».

كتب في الرسالة يقول:

«في مساء اليوم الخامس، وصلنا إلى القاهرة، وفي صباح اليوم الثاني، الأربعاء في الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) وصل مترجم القنصل الهولندي لاصطحابنا إلى المدينة. وقد بقيت بعض الوقت، مع رجل فرنسي، إلى جانب أدواتنا، التي حملتها فيما بعد إلى البيت الذي استؤجر لنا في الحي الفرنسي من المسيو كلمنت. وحين وصلت إلى هناك شاهدت في دهشة بالغة بأن المنزل مؤلف، فقط، من ثلاث غرف بسيطة، دون أثاث، ودون أن تكون للنوافذ زجاج. وقد أُخبرنا أن من عادات هذه البلاد تأجير المنازل خالية من الأثاث ومن الزجاج على النوافذ وأبدى الرجل الفرنسي الذي اطلع على صعوبة موقفنا هذا، استعداده في الحال أن يقدِّم لنا بعض الأثاث. وقد قدَّم لنا القنصل الهولندي منزله، وفي الحديقة، فيه متسع لنا جميعاً. وقبل المستر كرامر شاكراً غرفة هناك.

وفي النهاية قدَّم لي هذا الفرنسي شقة ممتازة ومريحة جداً في منزل المسيو (بيزاور دين) أشهر رجل أعمال فرنسي في هذه البلاد، وقبلت عرضه، خاصة وهذا المنزل يقع في

الحي الفرنسي. وحصل بورنفانيد على غرفة لدى الرهبان الكبوشيين، أما فورسكال ونيبور، فهما الآن يعيشان وحدهما في المنزل الذي استؤجر لنا جميعاً من الميسو كلمنت، وفيه نتناول الطعام الذي يطبخ لنا كما نريد. وقد جلبنا معنا من الإسكندرية كل الحاجات الضرورية من النبيذ وغيره».

وببقاء فورسكال ونيبور في مسكن لوحدهما، استطاعا عزل فون هافن، الذي كان مرتاحاً للمسكن الراقي ولمرافقة الدبلوماسيين ورجال الأعمال الفرنسيين، الذي كان يناقش معهم الموضوعات الثقافية العميقة وآراء الكاتب الفرنسي الشهير فولتير[1]. وكان كرامر سعيداً بمسكنه الجديد، فقد ابتعد عن مواطنه، مدبِّر المكايد، فون هافن، وابتعد أيضاً عن فورسكال ونيبور وعن نشاطهما المزعج له بعض الشيء. ومنذ مغادرة كوبنهاجن لم يستطع أن يعمل شيئاً، أو يجمع شيئاً، أو يكتب سطراً واحداً، فكان دائماً في حاجة إلى الراحة بسبب إجهاد نفسه في مراقبة نشاط ومثابرة فورسكال ونيبور.

وبينما كان نيبور وفورسكال ينتظران وصول جواب من القسطنطينية يفصل فون هافن عن البعثة، إذا بهما، بعد وصولهما القاهرة بشهر، يتسلمان رسالة من السفير الدنماركي، خيَّبت كل آمالهما، فقد عبَّر فيها جاهلر عن مخاوفه مما كتبا إليه من جزيرة رودس، ومع ذلك فقد كان متردداً في أن يصدق بأن فون هافن يمكن أن يكون لديه مثل هذه الخطط المخيفة، ولهذا فمن رأيه بأن عليهم أن يحاولوا في الوقت الحاضر الاستمرار في مرافقة زميلهم عالِم اللغات الدنماركي. وأهم شيء في نظره، هو أن لا يدعاه يتأكد أن كرامر قد أطلعهم على شرائه لمادة الزرنيخ، وعليهم قدر المستطاع إخفاء

---

(١) فيلسوف ومفكر فرنسي (١٦٩٤ – ١٧٧٨). له كتابات رائعة، أشهرها مسرحية (أوديب). سجن مرتين لاتهامه بإهانة الوصي فيليب، ولاتهامه بإهانة النبلاء في السياسة دعا فولتير إلى الإصلاح لكنه كان يخاف الثورة. وكان حر الفكر في الدين، لذا رفض رجال الدين دفنه في باريس حسب الطقوس المسيحية. جمعت آثاره في سبعين مجلداً ونشرت بعد وفاته. (المترجم: عن الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمدشفيق غربال).

غضبهم عليه وكرههم له، وأن يتظاهروا أن علاقاتهم معه ودِّية ومبنية على الثقة المتبادلة، وأن لا يطلعوا أحداً على خلافاتهم. وأكد لهم أن أي شيء من هذا القبيل سوف يكون غير مرضٍ لصاحب الجلالة الملك الذي سوف يصبُّ عليهم جام غضبه وازدرائه الشديد. وكان اللوم في الرسالة من نصيب نيبور، لأنه ذكر في رسالته، أنه في حالة الظروف القهرية قد يجبر على إطلاق النار على فون هافن، وقد علَّق جاهلر في رسالته على هذا بقوله:

«إن استخدام القوة بهذا الشكل، ولفت نظر العالم كله سيكون عملاً غير لائق، وسوف يقضي قضاءً نهائياً على السمعة الحسنة للبعثة وعلى الشهرة التي اكتسبتها، بل أنه سيقضي على شرف الأمة كلها، وعلى ثقة أشهر علماء الدنيا في البعثة».

وأطلعهم فون جاهلر في رسالته أنه قد بعث بتقرير عن المشكلة إلى صاحب السعادة وزير الدولة البارون فون برنستورف بكوبنهاجن، وأطلعه على رغبتهم في الانفصال عن فون هافن. والأمر الآن يعتمد على برنستورف وحده، وحتى تصل أوامره حيثَّهم السفير على أن يظلوا في القاهرة وأن يحافظوا على وحدة البعثة. وحين أجاب فورسكال ونيبور على هذه الرسالة تجلَّت بصراحة خيبة الأمل التي أحسَّا بها بعد وصول جواب السفير الذي لم يبتّ في الموضوع لصالحهما. وقد أوضح فورسكال في رسالته بأنهم في القاهرة لا يخافون كثيراً، لأن المنزل الذي استأجروه لا يصلح لسكنى فون هافن، ولأنهم محاطون دائماً بأوروبيين كثيرين، لكنهم في القريب، سوف يتوجهون إلى الصحراء حيث يعيشون بين العرب الذين تسير حياتهم على الفطرة. وقد جاء في رسالته ما يلي:

«إن سعادتكم تقدرون دون شك، أن حياتنا لا يمكن أن تطاق، ونحن نتذكر دائماً أننا نعيش في انتظار خطر عظيم، يصنعه لنا أحد زملائنا الذي يعيش بيننا.



لقد طلب منا، للمرة الثانية، في غضب، أن نسلم له قيادة البعثة. فأخبرناه أن رغبة جلالة الملك واضحة، في أن يكون جميع أفراد البعثة على قدم المساواة، لكنه لم يهتم بهذا، وأعلن مهدِّداً أن الأمر سوف لا يطول حله، وقد سق وأبدى ما يشير بأنه لن يتردَّد في ارتكاب عمل رهيب، وسنكون أحسن حالاً إذا لم يكن معنا».

واستمرَّ فورسكال ونيبور وبورنفانيد في القاهرة، منتظرين في توتر شديد ردَّ برنستورف.



الفصل الثالث

فورسكال بين الصحراء والإسكندرية

فورسكال يجمع ١٢٠ زهرة ويستقبل قافلة مكة وقافلة السودان – سعر الفتاة العذراء ٤٠ ماهوب وسعر الولد الصغير ٢٠ ماهوب.

كان لدى أعضاء البعثة أعمال كثيرة يقومون بها، وكانت الأشهر التالية أشهر عمل ومثابرة. ففي بداية كانون الثاني (يناير)، حين انتهى موسم الشتاء القصير في مصر، انطلق فورسكال في جولات طويلة في الصحراء. وكان يقضي الليل في المدن الصغيرة نائماً على الحصير، يرافقه مساعدان عربيان. وفي منتصف كانون الثاني (يناير)، وصل إلى قرية (سيد بك) الواقعة في طريق القوافل إلى مدينة السويس. وحين أتى الربيع الحقيقي، رجع إلى الإسكندرية لتجميع الأزهار التي نمت بعد فصل الأمطار. وفي أول شهر آذار (مارس). كان يتابع دراساته النباتية مرة أخرى في الوادي الصحراوي حول مدينة مطرة. ونتيجة لهذه المجهودات المتواصلة أَلَّف مجموعة لأكثر من ١٢٠ زهرة من أنواع مختلفة، معظمها كانت غير مألوفة على الإطلاق، كما جمع كميات كبيرة من البذور. وما أن انتهى من جمع هذه المواد حتى هرع إلى غرفته في منزل المسيو كلمنت بالقاهرة ليبدأ في تنظيمها وترتيبها، وخلال ربيع عام ١٧٦٢ كتب بحثين في وصف النباتات والحيوان ضمنهما نتائج مجهوداته.

وبينما كان يقوم بتأليف هذين المؤلفين، كان، يقصد التغيير، يجسد متعة كبيرة في الخروج عند غروب الشمس لاستقبال القوافل القادمة، والتجوال عبر خيوط الشمس الترابية، بين آكام البضائع المرمية هنا وهناك وبين الجمال الباركة، وأشباح الرجال التي تروح وتجيء على الرمال، في صمت وسكون، حافية الأقدام، عليها جلاليب طويلة حتى الرسغ.



هذه هي القافلة القادمة من مكة والمؤلفة من عدة آلاف من الجمال في طريقها إلى القاهرة حاملة الزمرُّد واللؤلؤ والماس والياقوت والمسك والعطور والقطن الهندي والثياب الحريرية وبلسان جليعاد. كما شاهد فورسكال القافلة وهو تعود إلى مكة، محملة بالحرائر الداخل في نسيجها خيوط الفضة والذهب ومحملة بالورق اللمَّاع وغير اللمَّاع، والملابس المصنوعة في فرنسا وفي البندقية، والأقمشة الكتانية الزرقاء والبيضاء، التي قيل إنها تسمى أقمشة يونانية مع أنها مصنوعة في القاهرة، وإبر الخياطة والسكاكين والبارود ورصاص البنادق وزيت السمسم والشيرة والعسل الأبيض والأسود والفول والحمص والعدس والأرز والقمح وجميع أنواع الحبوب الصالحة للأكل، والمسامير والملح والنشادر.

وكان فورسكال يقوم أحياناً بزيارة القافلة من سينار في أعماق السودان والتي كان يقودها رجال سود كالفحم، وضعوا على أكتافهم اللحف الملونة الصفراء والبنفسجية والقرمزية، وتدلى عليها شعرهم المجعد القصير نوعاً ما. وكان هؤلاء الرجال يوقفون حيواناتهم أمام نزل القافلة، ثم يذهبون للبحث عن العقود والمرايا والسيوف والبنادق. وهذه السلع هي ما تحمله القافلة عند عودتها إلى السودان. أما ما حملته من السودان، فالفتيات الجواري والعبيد، وكان سعر الأولاد الصغار في سن الثامنة عشرين ماهوباً، والرجال ما بين العشرين والثلاثين سنة من ٣٥ إلى ٤٠ ماهوباً، أما المخصي فيرتفع ثمنه إلى ١١٠ ماهوباً، ويرتفع سعر الفتاة العذراء إلى ٤٠ ماهوباً و ٣٠ ماهوباً لغير العذراء، و ٦٠ ماهوباً لمن تستطيع منهن إعداد الطعام. كما تحمل قافلة السودان عدا العبيد القردة، ويُباع الواحد منها بعدة بارات فقط. وتحمل القافلة أيضاً البغاوات، ويباع الواحد منها بـ ٣ ماهوب، وفي حالة ما إذا كانت تستطيع الحديث، فإن الواحدة منها تباع بـ ٢٥ ماهوباً. وتحمل أيضاً أنياب العاج وقرون الحيوان المسمى وحيد القرن، وهي



من ألوان مختلفة: الأصفر والأحمر والأسود والأبيض، وأحسنها جميعاً هي الصفراء. كما تحمل ريش النعام وزيت النعام الخام المستخدم في علاج الروماتزم، والسياط المصنوعة من جلد الفيل، وتراب الذهب الخادم، وبذور البلح، والمسابح المكونة من حبوب الحمص والتي تستخدم في عمل عقود الزينة، والملح الذي يجعل التبغ أكثر نكهة وقوة.

وتحمل القافلة المساحيق التي تستخدم في صناعة المقويات للباءة، وبذور الترمس التي لا تُؤكل إلا مطبوخة، والبطيخ والفول من الحجم الكبير، وبذور التتيشم المستخدمة في علاج رمد العيون، والصمغ العربي من كردفان المستخدم في صنع العلاجات، والأصباغ والمبيضات وفواكه ويكه (قامبو) المفيدة لعلاج مغص البطن، وعجينة التمر الهندي الأصلي المفيدة في حالة التخمة بعد أكل كمية كبيرة من فاكهة القامبو.

A year in Egypt

d
e
E
k
f
b
a
n
c
z

l
b.
E
a
m
i

اعتمد نيبور عل علم حساب المثلثات لقياس ارتفاع الاهرامات

I.F. Clemens Sc.

عربي مصري من رسم بورنفانيد . وحسب قول نيبور ، كان البدوي الذي هاجم فورسكال
بالقرب من الاهرام ، يلبس نفس هذا الزي



الفصل الرابع

نيبور يحاول حلَّ لغز الكتابة المصرية القديمة

وصف مدينة القاهرة – نيبور وبورنفانيد يشاهدان فتاة مختونة – نيبور يتعرف على ما لا يقل عن ٣٠٩ مدينة صغيرة – ما هي مبادئ الاستعمار؟ – رجل غريب يخطف عمامة فورسكال – نيبور يقيس ارتفاع أهرام الجيزة.

بينما كان فورسكال منشغلاً بجولاته العلمية، كان نيبور بطريقته الخاصة في انشغال بأعماله في القاهرة. ففي مذكرته الصغيرة ملأ وصفه للمدينة ما لا يقل عن ١٤٩ صفحة، كما قام هو وبورنفانيد برسم العديد من ا لأطباق المحفورة. وقد بدأ نيبور دراساته بإعطاء صورة تفصيلية عن المدينة، فوصف أحياءها المختلفة ومساجدها وجميع ميادينها الواسعة، ووصف طريقة مدّ المدينة بالماء من نهر النيل والطرق المستخدمة في التصفية، ووصف سكان المدينة: أخلاقهم وعاداتهم وملابسهم، ونوع حكومتهم ومهَنهم، وأورد قائمة بصادرات البلاد ووارداتها، واستغرق وصف الأدوات المائية فصولاً واسعة، كآلة المساة (الساقية)، كما وصف الطواحين ومعاصر الزيت والمشاريع الزراعية والآلات الموسيقية وملح النشادر، وتضمَّن الوصف رسوماً إيضاحية دقيقة، بينها رسم لآلة سماها نيبور (موقد الدجاج)، وهي تطابق في الجوهر جهاز التفريخ الصناعي الحديث، حتى الألعاب المصرية كانت موضوع دراسة واسعة.

واقترب نيبور من الإجابة على الأسئلة المعقدة التي سبق ووضعها البروفسور الألماني فيما يخص الختان لدى العرب، ومن ناحية أخرى سلك طريق التجارب المباشرة، فقد قام برفقة فورسكال وبورتفانيد بزيارة أحد البارزين في العرب. وكانت هذه الزيارة تجربة لا يمكن نسيانها، نعود إلى مذكرة نيبور في هذا الخصوص.



«بينما كنا في زيارة أحد البارزين من عرب القاهرة، بأملاكه بالريف البعيدة عن المدينة بستة أو سبعة أميال، عبر فورسكال وبورنفانيد عن رغبتهما في أن يريا ويرسما فتاة شابة مختونة. وفي الحال أمر مضيفنا بإحضار فلاحة في الثامنة عشر من عمرها، وسمح لهما بمشاهدة كل شيء أحبا مشاهدته فيها، وتم كل هذا أمام سمع وبصر الخدم الأتراك، واستطاعا أن يرسما كل شيء من الطبيعة مباشرة، ويداهما ترتجفان خوفاً من رد الفعل السيئ من قبل المسلمين ولأن سيد المنزل كان صديقنا، فلم يجرأ أحد على إبداء أي معارضة».

واستخدم نيبور البوصلة لتحديد اتجاه النيل في كل مدينة مر بها، رغم أن هذا العمل كان يوقعه في مواقف حرجة في المدن، كما سبق وحدث في القاهرة، فكان يثير غضب الجماهير التي اعتقدت أنه يمارس السحر، مما اضطره في صبر، إلى التخلي عن استخدام آلته الفلكية والبوصلة والاستعاضة عنهما بالمرور بالشوارع الرئيسية مشياً على الأقدام وتسجيل عدد الخطوات التي يكون قد قطعها، وعن طريق هذه الأبحاث الميدانية استطاع التعرف على ما لا يقل عن ١٧٤ مدينة صغيرة بين القاهرة ودمياط و١٣٥ مدينة صغيرة بين القاهرة ورشيد وسجل اسم كل مدينة من هذه المدن الصغيرة باللغة العربية والإفرنجية، كما أنه سجل اتجاه النيل في كل واحدة منها. وعمل أول خريطة من خرائطه الكبرى. وكان يفضل أن يأخذ معلوماته من الطلاب الفقراء الذين كانوا دائماً مسرورين لأن يتسلموا عطاءً صغيراً، عوضاً عن أن يأخذ هذه المعلومات من الشخصيات الكبيرة.

في ذلك الوقت كان المبدأ الذي يسير عليه التوسع الاستعماري الأوروبي يرى أن المهم في الأمر أن تتم سيطرة بلد أوروبي على الشعوب الأجنبية الأخرى. لكن نيبور أوضح في ثقة أن الطريقة الوحيدة لكسب ثقة هذه الشعوب هي أن يتخلى الأوروبي عن

غروره وأن يتعلم لغة هذه الشعوب ويلبس لباسهم ويعيش حياتهم البسيطة. ومن الصعب أن ندعي أن هذه الأفكار الخيرة قد أثارت عقول الأجيال اللاحقة، فقد بنيت علاقة الغرب بآسيا وأفريقيا خلال المائتين سنة الماضية على أسس ومبادئ مناقضة لذلك تماماً. وقد استطاع نيبور بسلوكه المتواضع أن يجنب نفسه شرور الحوادث التي حدثت كثيراً لفورسكال خلال جولاته في الصحراء. والموقف الحرج الوحيد الذي واجهه كان حين رافق فورسكال المعتد بنفسه إلى درجة الغرور والذي لم يجد من السهولة أن يخلص نفسه من الشعور بالعظمة. حدث ذلك في ربيع عام ١٧٦٢ حين وعد نيبور فورسكال أن يساعده في أعماله بمنطقة أهرام الجيزة. فقد خرج الاثنان من القاهرة يرافقهما دليلان عربيان وركبوا الحمير التي سارت بهم على الكثبان الرملية، وقد وضع نيبور بجانبه على حماره أدواته الفلكية. وبينما هم يسيرون على هذا الحال شاهدوا فجأة ناحية الصحراء أحد الأعراب المسلحين يعدو نحوهم على حصان في سرعة فائقة.

ومن أجل أن يكون في استطاعتنا تخيّل هذا المشهد الصحراوي علينا أن نبعد عن مخيلتنا ما اعتدنا رؤيته من أساليب الحياة الحديثة التي تغمر العالم اليوم. ففي ذلك الحين لم يكن نابليون قد جعل من الأهرامات شيئاً مألوفاً في العواصم الغربية، ولم تكن توجد في ذلك الوقت فنادق لها برك سباحة وملاعب لكرة التنس، ولم تكن توجد مدارس لتعليم ركوب الخيل، ولا نوادي ليلية ولا أكشاك تبيع (الكارت بوستال) والأفلام الملونة، ولم تكن توجد الطرق المعبَّدة بالأسفلت حيث يمكن لركاب السيارة العمومية أن يشاهدوا آثار خوفو وخفرع وقد كستها فيضانات الإضاءة الحديثة لا نور القمر.

بدون هذه الأشياء، في إمكاننا أن نتصور هذه الآثار الخالدة تجثم في الصحراء وحيدة، بعيدة عن القاهرة، تهب عليها العواصف الرملية، وتحيط بأبي الهول، وقد اختفى نصفه تحت الرمال، وجميعها أحجار لا حصر لها، تعرض جسدها الهرم المتآكل

أمام السياح الوحيدين في ذلك الوقت من الكواكب والنجوم التي تمر عليها بانتظام من وقت لآخر، وقد تهدَّمت ممراتها ونهب كل ما تحتويه قبورها، وكلها في انتظار أن يسحب منها أحجارها، حين يخطر على بال أحد السلاطين إنشاء بعض الأبنية الجديدة في القاهرة أو حين يكون سكان القرية المجاورة في حاجة إلى زريبة إضافية للأبقار.

في هذه المناطق المعزولة شاهد فورسكال ونيبور ذلك الرجل الغريب الذي يعدو نحوهم ويوقف حصانه أمام حميرهم، ويعرض عليهم، بعد أن عرف مهمتهم أن يدّلهم على منطقة الأهرامات لكن فورسكال رفض عرضه، فأخبرهم أنه لا يستطيعون منعه من مرافقتهم. وقام بمرافقتهم حتى منطقة الأهرامات، وبينما كانوا يدورون حول إحدى التلال، انطلق بحصانه في سرعة خاطفة حتى دنا من فورسكال وغرس أمامه على الرمل رمحه الطويل وسد عليه طريقه طالباً منحه (بخشيش). ندع المستر نيبور يقص علينا ما حدث بعدئذ:

«لم يرفض فورسكال فقط إعطائه (البخشيش)، بل رفض أيضاً أن يعده بأي شيء، وظلينا على ظهور الحمير لا حول لنا ولا قوة خاصة ونحن غير مسلحين ولا يمكن الاعتماد على مرافقين في شيء، وكل ما استطعت عمله أني أسرعت في الحال حتى قمة إحدى التلال القريبة منها، ورحت أصرخ موهماً الآخرين بوجود الكثير من الناس أسفل السهل بالجهة الأخرى للتلة، وحين سمع الرجل الغريب هذا الصراخ، ترك فورسكال وشأنه وأصبح أكثر تأدباً. ثم قررنا ألا نسير أبد من ذلك، وأن نعود إلى قرية تبعد ثلاثة أميال أو أربعة أميال عن الجيزة، وتصرف الرجل بغطرسة ونحن في طريقنا إلى هذه القرية، وما كان في استطاعتنا إلا الصبر، وطلب منا مرة أخرى منحه بعض المال. ومن المؤكد أنه كان سيقنع بالشيء البسيط، لكن فورسكال كان قد صمم أن لا يعطيه شيئاً، وحين تأكد لديه أنه بهذا الأسلوب سوف لا يحصل على شيء، مدَّ يده إلى

رأس فورسكال وسلبه عمامته، واتبع فورسكال تجاه هذا التصرف أسلوباً يدعو للإعجاب، فلم يترك للغضب في نفسه سبيلاً إلى الانفجار، بل التفت إلى المرافقين العربيين وقال لهما:

«أنتما من البدو، وفي بلادنا يقول الناس إن الأوروبيين يستطيعون السفر في سلام ما داموا تحت حماية البدو، فإذا وقفتم موقف المتفرج وسمحتم لهذا البدوي بسرقتي، فسوف أخبر الناس حين رجوعي إلى وطني بأن البدو لا يؤتمنون على شيء ولا يطمئن إليهم».

لقد أثارت هذه الكلمات في نفس المرافقين الشهامة البدوية، مما دفعهما إلى إجبار البدوي على إرجاع عمامة فورسكال، وبعد ذلك اتجه صوبي وحاول أن ينتزع مني آلتي الفلكية التي كنت قابضاً عليها أمامي على حماري».

كان في استطاعة نيبور الصبور المحافظة على اتزانه وهدوئه، لو لم يكن هدف البدوي هذه المرة هي آلته الفلكية التي ذكر له أحد المرافقين أنه لا يمكن الحصول على آلة مثلها في مصر، وقد ذكر في مذكراته أنه لسوء الحظ لم يستطع تقبل الأمر بهدوء وبرود كما يفعل عادة فورسكال، فقد مسك البدوي بشدة بالشال الذي يلفه حول رقبته، ولم يكن البدوي عندها قابضاً للجام حصانه فخر بسرعة صريعاً إلى الأرض. وقاد نيبور هذا التصرف إلى موقف غاية في الخطورة. ذلك أن البدوي اعتبر هذا إهانة كبرى له على مرأى مجموعة من الفلاحين الذين تجمعوا حولهم. فكيف يسقط مسيحي بدوياً من على ظهر جواده! وما أن وقف البدوي من جديد على رجليه حتى شهر مسدسه في وجه نيبور وصوبه إلى صدره. فأحس نيبور بالخوف يزحف إلى كل عضو في جسده، وشعر بالموت يأخذ طريقه في سرعة نحوه. وما كان ينقص البدوي ليطلق النار إلا الرصاص فقد كان المسدس خال منه، أما نية إطلاق النار فقد كانت متوفرة لديه بشكل واضح. وحاول الحاضرون تهدئته، وفي الأخير حاول إفهامهم أنه سيكون راضياً إذا أعطاه نيبور القليل من المال.



واستمر نيبور وفورسكال في عملهما بمنطقة الأهرامات لعدة أيام، تحت تهديدات كثيرة مشابهة لما حدث لهما آنفاً. وقاس نيبور بواسطة البوصلة موقع الأهرامات، فوجد أنه جوانبها الأربعة متجهة شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً. ولم تتأثر هذه النتيجة بالمقاسات التي أُجريت حديثاً، والتي تُظهر أن الفرق بين اتجاه جوانب الأهرامات والجهات الأربعة في البوصلة، يصل فقط إلى جزء بسيط جداً من الدرجة. وأكثر من هذا، صعد نيبور أهرام خوفو وأهرام خفرع القائمة الانحدار، وهي التي لا يستطيع اليوم صعودها إلا متسلقو الجبال المتمرنين، وبعد أن نزل كانت لديه القناة بأنها نُحتت من أعلى إلى أسفل، وشاركه الرأي هذا أغلبية الخبراء. واستطاع أن يقيس ارتفاع هرم خوفو فكان ٤٤٠ قدماً. ونفترض أنه كان يستخدم القدم الدنماركي، الذي يعادل ٠.٣١٨٥ من المتر، ولهذا يكون تقديره لارتفاع هرم خوفو ١٣٨.٠٩ متراً. وتبعاً لأكثر المقاسات دقة في وقتنا الحاضر، وجد أن ارتفاع هذا الهرم هو ١٣٧.٣٧ متراً، وعلى هذا نجد أن الفرق لا يتجاوز ٧١ سنتيمتراً، وأن الغلط لا يتجاوز النصف في المائة، وقد يكون سبب هذا الفرق في القياس هو التآكل الذي طرأ على الهرم بمضي الزمن.

بعد أن قاس نيبور أهرام الجيزة، مضت الشهور وهم ينتظرون دون جدوى رداً من برنستورف، فاضطر نيبور أن يشغل نفسه بأي شيء، فقرر أن ينسخ بعض المخطوطات الهيروغليفية التي أثارت اهتمامه. ووجد في البداية صعوبة، فبدأ يفقد الأمل، لكنه رويداً رويداً اكتسب تدريباً كافياً حتى أصبح لا يجد في الحروف الهجائية المصرية أية صعوبة أكثر من تلك التي يجدها المرء في اللغة اليونانية أو الكوفية. وكان أمله أن تساعده هذه المخطوطات في حل لغز الكتابة المصرية القديمة، لكن آماله خابت، ولم يحلَّ هذا اللغز إلا بعد خمسين سنة من ذلك الوقت، حين حلَّ تشامبوليون في براعة، ما وجد من كتابات هيروغليفية على حجر رشيد.

ولاقى نيبور الكثير من المشاق، وبذل جهوداً كبيرة في عمله هذا، فكان يقوم بنسخ هذه المخطوطات في الشارع العام، يحيط به جمهور محب للاستطلاع بدَّت على ملامحه في



وقت واحد، علامات الاستغراب والغضب. واختار نيبور مساعداً له أحد الطلاب الفقراء، وكانا يضطران من وقت لآخر إلى إيقاف عملهما بسبب اللعنات الكثيرة التي كانت تصل إلى مسمعهما، وبسبب ضجيج الناس من حولهما. وفي أحد الأيام هدَّد أحد الشرطة نيبور بالضرب في السوق العام إذا لم يختفِ من ذلك المكان حالاً. ونصحه مساعده الطالب (المحمدي) بالاختفاء، لأن الرجل كان يبدو جاداً في تهديده. وأذعن نيبور للأمر، واختفى بعد أن جمع أدواته في خضم ضوضاء وتهكم جمهور الناس، ورجع إلى منزله وقد أظلمت الدنيا في وجهه وهو يئنُّ ألماً لما لاقاه من إهانات في ذلك اليوم. شكى همَّه إلى مساعده العربي قائلاً: لماذا أخضع لإهانات هؤلاء القوم الجهلة دون أن أردَّ عليها؟ واستمرا في سيرهما على طول الشارع في صمت، وبعدئذ ردَّ (المحمدي) بقوله: هل تستطيع أن تمنع الكلب من أن ينبح خلفك؟ ولو رفسك حمار هل تصبح في وضع لائق لو ردَّيت على فسته برفسة؟

آلات موسيقية شرقية بريشة الفنان بورنفانيد



الفصل الخامس

فون هافن يراوغ

فون هافن يحصل على ٥٠ مخطوطاً – رحلة إلى صحراء سيناء – فون هافن يراوغ – خصام جديد.

من الصعب علينا أن نتصور ذلك (الجنتلمان) الأنيق فون هافن لا يقوم بأي محاولة لأداء واجبه، بينما يواجه نيبور المشاكل والأتعاب الكثيرة في أداء عمل ليس من اختصاصه. فحين كان فورسكال مهتماً بدراسة شؤون القوافل، ونيبور يبذل قصارى جهده في قياس ارتفاع الأهرامات، كان (الجنتلمان) فون هافن حبيس الحياة البذخة والعيش الهني في دار المسيو بيزورادين بالحي الفرنسي، شاغلاً نفسه بأمور أخرى غير أمور البعثة. فكانت شؤون التمثيل هي وحدها التي تستولي على اهتمامه، ويقضي من أجلها غالب أوقاته، وعن طريق رسائله جعل فون جاهلر يعيش كل الأحداث والشؤون الاجتماعية التي كانت تجري في ذلك الوقت بالقاهرة، وحضر عدة حفلات استقبال كان يقيمها قنصل فرنسا، وقنصل البندقية، وقد وجد في الأول الشاب الغني العديم المبالاة، القليل الكلام، والمثقف جداً، ووجد في الثاني كبر السن نوعاً ما، وضعف البنية، وسرعة الغضب، والغطرسة إلى حد ما. وكان يشعر أنه يُستقبل لدى القنصل الفرنسي بتحفظ نوعاً ما، أما لدى قنصل البندقية، فكان يُستقبل – رغم طباعه الحادة – بودّ وترحيب كبيرين. وجاء في مذكراته أنه قام بزيارات رسمية إلى جميع رجال الأعمال الأوروبيين البارزين في المدينة، ونستطيع أن نتصور كيف كان مشغولاً بهذه الزيارات إذا عرفنا أن عدد هؤلاء البارزين وعائلاتهم يصل إلى ما يقرب من أربعين شخصاً، وإذا عرفنا أيضاً أن الزيارة الأولى ما هي إلا بداية لزيارات لا أول لها ولا آخر.



كما التقى بمصطفى باشا حاكم القاهرة، ملأ وصفه لهذه الزيارة عدة صفحات في مذكراته. ووجّه همه لزيارة صاحب النيافة مطران سينا وصاحب العطوفة بطريرك الإسكندرية والسنيور نيكو لوبارنبل، الثري اليوناني. وفي كل مكان استقبل البروفسور الدنماركي باحترام كبير، وبالروائح العطرة لماء الورد. ونال الدكتور كرامر نصيبه من كل هذا. ومدح فون هافن كرامر في إحدى تقاريره، وكانت هذه السطور القليلة، هي كل ما أمكن أن نحصل عليه عن ما كان يعمل كرامر طول بقائهم بالقاهرة.

أما عن نشاطاته العلمية، فلم يكتب فون هافن تفصيلات كثيرة عنها في تقاريره، فقط ذكر (لمولتك) بأنه بالقاهرة حصل على خمسين مخطوطاً تقريباً، ولم يذكر له أية تفصيلات أخرى بشأنها. وبعد عدة أشهر أخذ هذا الرقم في الانخفاض، فقد ذكر في رسالة (لتملبر) بأنه في مصر حصل فقط على وصايا عبرية قليلة ذات أهمية كبرى يرجع تاريخها إلى ما يقرب من ألف عام، كما وجد أيضاً بعض الكتب العربية. وأخبر (مولتك) من ناحية أخرى على أن أبحاثه التاريخية كانت كلها غير ذات قيمة، وأخبره أن كل من يحاول أن يعرف شيئاً عن حياة الجزيرة العربية قبل عصر النبي محمد إنما هو في الواقع يخادع نفسه، لأن عالِم التاريخ (بوكك) قد قال كل شيء يمكن أن يقال في هذا الخصوص، وأنه يشك فيما إذا كان هناك عدا ذلك ما يمكن قوله. كما ذكر أنه يشك في أن يكون لأعمال أعضاء البعثة الآخرين أي نتائج، وبخصوص أعمال نيبور في منطقة الأهرامات بالجزيرة أشار أنه لا يعتقد أن أحداً قد اكتشف شيئاً جديداً فليس بينهم من يفهم كثيراً في الفن المعماري.

وخلاصة الأمر أن فون وكرامر، خلال بقاء البعثة في مصر لأكثر من سنتين لم يعملا شيئاً يذكر عدا تلك الوصيتين اللتين اشتراهما فون هافن وعدا أن كرامر استطاع أن يشفي حماراً من مرضه، وعدا حفلات الاستقبال الهائلة وماء الورد المعطر.

خلافاً لأعمال فون هافن السابقة أوكلت إليه التعليمات الملكية القيام بعمل آخر أثناء وجود البعثة بمصر. فقد سبق لبعض الإنجليز أن وجدوا أكمة في صحراء سيناء، كان سكان المنطقة العرب يدعونها جبل (المكاتب) مما ذكره هؤلاء الإنجليز أن وجوه إحدى الصخور في هذا الجبل مغطاة بالكتابة التي يفترض العلماء الأوروبيون أن النبي موسى هو نفسه الذي كتبها حين قاد شعبة في الهرب من مصر عبر الصحراء سيناء.

فزيارة هذه الأكمة ونسخ ما عليها من كتابة وتفسيرها وتقرير أصلها قد أصبح – دون أهداف البعثة الأخرى – الأمل الكبير الذي يثير أكبر اهتمام العالم المعاصر. والرجل الذي اختير لأن يحوز شرف تأليف فصل جديد في أبحاث التوراة ويقوم بدور الوسيط بين النبي موسى والملك فردريك الخامس هو الدنماركي فردريك كرستيان فون هافن. ونتيجة لهذا أصبح فون هافن مرعوباً ومغروراً في الوقت نفسه، لقد أحسَّ بالزهو وعدم الرضا معاً. ومن محاولاته ارتداء ثوب عملاق. وفي القسطنطينية سبق وسمع من السفير الفرنسي قوله بأن جبل المكاتب هذا لا وجود له فأسرع ينقل هذا الخبر إلى برنستورف وأضاف عليه، بأن لا أحد سوى السفير الفرنسي قد سمع مجرَّد سماع عن هذا الجبل. وفي القاهرة سمع مطران سينا بهذا الاسم لكنه لم يسمع مطلقاً عن أي كتابة هناك، ولم يسمع أحد في كل أنحاء الحي الافرنسي الأنيق عن أي كتابة من هذا القبيل. ولهذا زادت شكوك فون هافن ومخاوفه، ولكنه مع هذا قرر القيام برحلة إلى هناك. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٦١ كتب إلى فون جاهلر يخبره أن من المستحيل السفر في الصحراء في الصيف بسبب الحر الشديد، وأنه سيزور هذه الأكمة في الشتاء، ونسي وهو يكتب هذه الرسالة أنه كان يكتبها في فصل الشتاء، وبعد شهرين من كتابة هذه الرسالة كتب رسالة أخرى بتاريخ ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢ كرر فيها ما سبق وقال عن أن الرحلة في الصيف لا يمكن أن تطاق. وجاء الربيع وأصبحت الرحلة في نظرة أكثر



صعوبة. فقد ذكر في إحدى رسائله أن رياحاً حارة جداً تهب في هذا الفصل بالصحراء آتية من الجنوب، وأنه قد يدفع الثمن غالياً لنصر مشكوك فيه، ولكتابات قد لا يكون لها وجود، وقد يضطره البحث إلى قضاء عدة أسابيع وربما عدة شهور في تلك الصحراء ذات الرمال الملتهبة، وأكد بأنه سوف لا يدع أية فرصة تمر، أثناء بقائهم بالقاهرة دون أن يزور هذه المناطق. لكنه بعد وقت قصير عاد إلى شكوكه، وأكد من جديد أن الرحلة سوف تكون شاقة ومؤلمة وخطيرة. وذكر كيف أن ستة عشر حاجاً قيل أنهم أسروا في هذه المنطقة، في حين سلب بعض البدو سفينة قرب الشاطئ.

ومرت الشهور دون أن يكون في استطاعة فون هافن استعادة رباطة جأشه، وفي السادس عشر من نيسان كتب رسالة إلى تمبلر بخصوص الرحلة المقترحة إلى صحراء سيناء، أكد فيها أن القيام بالرحلة لا يمكن أن يكون إلا في الشتاء ووصف الحر في الصيف في جمل دراماتيكية رائعة، وعدد هذه المرة في قائمة مصاعب الرحلة التي اعتاد على سردها كالببغاء. وأصبح هذه المرة عدد الحجاج المأسورين سبعة عشر بدلاً من ستة عشر، وأصبح عدد السفن المسلوبة قرب الشاطئ ثلاث سفن بدلاً من واحدة وقال أن إحداها غرقت في البحر الأحمر. وازداد عدد الذين لم يسمعوا في القاهرة عن هذا الجبل، ووجد أن الآراء متضاربة في هذا الخصوص، مما أقنعه أن عليه من أجل أن يجد هذا الجبل، أن يجوب كل الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين وشبه الجزيرة العربية.

وظل فون هافن يلفّ ويدور متقمصاً شخصية الرجل العملاق المكلف بأعظم مهام البعثة، ولم يجسر أن يطلب إعفائه من القيام بهذه المهمة، خوفاً من أن يؤدي هذا لدى الحكومة الدنماركية إلى نتائج في غير صالحة. وفي إحدى رسائله ذكر العذر الذي منعه من أن يبدأ تنفيذ المهمة، فقال أنه حين كان يستعد للرحيل وصلتهم تعليمات فون جاهلر في أن يلزم جميع أعضاء البعثة البقاء بالقاهرة وأن لا يوزعوا أنفسهم إلى

مجموعات حتى تصل أوامر أخرى من برتستورف. وقال فون هافن أن بورنفانيد رفض كليةً الذهاب معه إلى سيناء. وأنها رسالته بقوله: «كنت على استعداد لأن أرحل لوحدي لو أن عوامل أخرى لم تحدث، سوف أكتم أمرها حتى عودتنا إلى الوطن إن شاء الله». وليس من الصعب علينا معرفة الصحيح من هذه الأعذار الكثيرة والملفق منها.

فأوامر السفير جاهلر ببقاء أعضاء البعثة جميعهم في القاهرة لا يمكن أن تفسّر بضرورة تأجيل رحلة سيناء، وإلا فإن فورسكال كان يجب عليه أن لا يذهب إلى الإسكندرية، وأيضاً ما كان يجب على نيبور وبورنفانيد أن يذهبا إلى دمياط. وكان من الطبيعي أن لا يستطيع فون هافن إقناع بورنفانيد في أن يرافقه إلى سيناء، بعد حادث شراء الزرنيخ من القسطنطينية وبعد سلوك فون هافن المتغطرس على ظهر الباخرة (جرين لند).

أما الأمر غير الطبيعي والذي لا يصدق فهو جدِّية فون هافن ورغبته في القيام بهذه الرحلة. ونستطيع أن نؤكد أن كل حججه ما كانت إلا أعذاراً ملفقة أضافها إلى أعذاره السابقة التي لا تحصى. فقد ذكر بنفسه في إحدى الرسائل التي سبق وقرأناها بأنه كان يستعد للقيام بهذه الرحلة لوحده، لولا عوامل أخرى لا يمكن أن يبوح بها منعته من ذلك، وهو في هذا غير صادق، وكان قصده من هذا تجميع أعذار يخفي بها عدم رغبته وخوفه من القيام بهذه الرحلة.

وكما رأينا، لم تتحسن العلاقات بين أعضاء البعثة خلال بقائهم في مصر في انتظار جواب من برنستورف بل على العكس، اشتدَّت الخصومات العنيفة في مناسبات كثيرة بين الخصمين اللدودين فون هافن وفورسكال، ففي الخامس عشر من آذار (مارس)، كانت الأمور قد ساءت إلى أبعد الحدود، مما اضطر نيبور إلى كتابة رسالة غلى فون جاهلر وقَّع عليها إلى جانب نيبور فورسكال وبورتفانيد، طالب فيها من جديد بفصل



فون هافن عن بقية أعضاء البعثة، وأطلعه أنه دون جدوى لا يزالون في انتظار قرار كوبنهاجن في هذا الخصوص، ووصف له أحد مشاهد الصراع بين فورسكال وفون هافن الشديد الحساسية. جاء في رسالته:

«في هذه المرة أثير من جديد بينهما نقاش سياسي فأطلق فون هافن للسانه العنان ووصف الهولنديين بكلمات نابية، وكرر كلمات الذم والتحقير للمرة العاشرة، فردَّ عليه عالم النبات في هدوء وكياسة، بأن المتحدث يستطيع أن يختار التعابير الأكثر لياقة عند الإشارة إلى شعب بأسره، حتى ولو لم يكن بين الحاضرين أي فرد من مواطني هذا الشعب. فكبر على فون هافن سماع هذه الملاحظة توجه إليه. فأخبر فورسكال أن ليس من حقه تصحيح أخطائه، واشتعل قلبه غضباً وحقداً وأخذ يستخدم اللغة الخشنة الوقحة التي سبق له استخدامها على ظهر الباخرة (الجرين لند) ومدّ يده إلى جرة بالقرب منه، وفي غضب هدَّد برميها على رأس فورسكال، وتوتر الموقف بينهما مما دفعنا إلى اختطاف الجرة من يده تفادياً لتطور الأمور إلى أسوأ العواقب، ونحن في هذا مسترشدين بتوصياتك الصريحة في عدم استخدام القوة لحل المشاكل وفي المحافظة على وحدة البعثة، لكن فون هافن لم يقف عند حد، واستمر في الشتم، مع أننا ذكَّرناه بأنه قد أجبر في السابق على الاعتذار أمام معاليكم عن مثل هذا السلوك، لكنه لم يأبه بأي شيء ولم يهتم بشيء، مما يجعل فورسكال يرجو في تواضع أن تقدم له كوبنهاجن الترضية المناسبة لهذه الإهانة الجديدة.

كم من الصعوبات سوف تواجهنا جميعاً إذا استمرينا في العيش مع هذا الرجل!.. وبالرغم من أنه لا يقيم في نفس المنزل الذي نقيم فيه، إلا أنه أتى أكثر من مرة إلى المطبخ المشترك قبل تناول وجبة العشاء مباشرة، ثم غادر المنزل ليذهب لتناول العشاء مع رجال الأعمال الافرنسيين، وتستطيعون معاليكم أن تتصوروا كيف تكون مشاعرنا نحو

الطعام الذي أمامنا وكيف تصبح شهيتنا ونحن نسمع أحياناً بعض تعليقاته على الطعام. حتى لو سمحنا لأنفسنا في أن نعتقد بأن لا شيء يمكن أن نخافه بخصوص المادة التي اشتراها من القسطنطينية فهو مع هذا يستطيع إيذاءنا بوسائل أخرى عديدة، فبعضنا يضطر للخروج إلى أماكن معزولة وخطيرة، ومحاطة بالأعراب، للبحث عن بعض النباتات، وبعضنا يعرض نفسه للكثير من المخاطر حين الخروج لوضع خرائط للمدن وقرى الريف. ومن السهولة المتناهية في هذه البلاد أن يقوم الإنسان بأي عمل مهما كان فظيعاً في مقابل المال. ففي استطاعة فون هافن أن يبعث وراءنا أحد الأعراب أو الأتراك ليلحق بنا أي مصيبة يريد. في عجلة قصوى نلتمس منكم يا صاحب المعالي أن تخلصونا من هذا الرجل في أسرع وقت ممكن، فإننا لا يمكن أن نشعر مطلقاً بعد اليوم أننا في مأمن من دسّه ومكره».

وبعد أن مضت ستة أشهر منذ أن طلبوا نفس الطلب، ورجوا نفس الرجاء، في رسالتهم تلك التي أرسلوها من جزيرة رودس، وبعد أن مرَّ شهر على إرسالهم الرسالة الأخيرة، دون أن يصلهم رد من كوبنهاجن، كتب فورسكال رسالة إلى برنستورف احتوت على أقصى ما يمكن قوله في الضغط عليه ليتخذ قراراً سريعاً.

وبمضي الوقت أخذ الموقف يتدهور من شهر إلى آخر، ووصلت العلاقة المتوترة بين فورسكال وفون هافن إلى درجة لا يمكن احتمالها. ولن يرجع البعثة إلى وضعها الطبيعي ويجعلها قادرة على مواصلة أداء مهمتها إلا قرار حاسم من كوبنهاجن. ومضى الزمن متثاقلاً شاقاً في انتظار ما تبديه الأيام بعد كتابة رسالة فورسكال الأخيرة. وبعد مضي أكثر من سنة منذ الصدام الأول بين فورسكال وفون هافن على مائدة الكابتن فيشر، فقد فورسكال ونيبور الأمل في أن يصلهما أي رد، وبدت اليمن السعيدة في نظرهما بعيدة أكثر من ذي قبل، وسيطر الصمت على كل شيء وأصبح سكان القاهرة



يعانون من ثقل حرارة الصيف. وتوقف نيبور عن نسخ الكتابات القديمة. وفي نسيم المساء البارد، كان يجلس برفقة بورنفانيد يتسليان بترديد الألحان الجميلة بالنآي الإفرنجي. كما اضطر فورسكال إلى التوقف عن القيام برحلاته العلمية، لأن النباتات المزروعة على شاطئ النيل أصابها العطش، وكانت تذبل فور قطافها.

أخيراً وفي نهاية شهر حزيران (يونيو) ١٧٦٢ وصل قرار برنستورف. فقد وصل البريد حاملاً معه ثلاث رسائل، الأولى إلى فورسكال والثانية إلى فون هافن والثالثة إلى نيبور. وهرع كل منهم في عجلة إلى غرفته الخاصة يزيل الختم الملكي الشمعي عن الرسالة الملكية ويفتحها ويقرأها.



الفصل السادس

خيبة أمل

أبشع أنواع النذالة – الدبلوماسية والتعصب يشوهان الحقائق – الدبلوماسي ، هل هو الذي يقرأ السطور أو ما بينها؟ – ثلاث رسائل تصل البعثة.

نعود الآن إلى مدينة كوبنهاجن، عاصمة الملك فردريك الخامس، حيث قابل الناس سفر البعثة بزهو وطني كبير وأحسوا بأنهم قد ملكوا الدنيا وهو يقومون بهذا العمل العظيم. وبإرسال هؤلاء العلماء الخمسة شعرت الأمة الدنماركية بارتياح كبير لأن تكون سباقة في ميدان البحث العلمي. وقل في هذا الوقت احتمال تسرب أخبار منازعات أعضاء البعثة إلى الجمهور، ويوم الاثنين ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٧٦١ نشرت جريدة (رويال دوتش بوست) بافتخار أهم أخبارها، كما يلي: «يهتم صاحب الجلالة كما هو شأنه دائماً بالعمل على اتساع العلوم وتقدم المعارف لصالح الجميع. من أجل هذا قام في بداية هذا العام بإرسال مجموعة من العلماء إلى الشرق، هدفها الأول أن تظل ثلاث سنوات في (العربية السعيدة)، البلد المجهول حتى الآن بالنسبة لنا. وقد وصلنا عن طريق تقارير موثوق فيها أن الإمبراطور العثماني منح هؤلاء العلماء، حين كانوا بالقسطنطينية، جوازات سفر، كما زودهم جميع السفراء الأجانب المعتمدين لدى البلاط العثماني برسائل توصية لضمان سلامتهم وإعطائهم تأشيرة دخول إلى جميع البلدان التي يريدون الذهاب إليها، وأكثر من هذا فإنها بعد أنهت رحلتها عبر البحر الأبيض المتوسط وصلت مدينة الإسكندرية في مصر متمتعة بصحة جيدة وفي اطمئنان وأمان، وأذن لها بضعة أشهر بالقاهرة، وبعدها تواصل رحلتها، لتجد في طريقها جبل سيناء حيث سيكون همها وهدفها البحث عن الكتابات القديمة المنقوشة على إحدى الصخور هناك، والتي يظن أن كتابتا ترجع إلى عهد النبي موسى وهروب أبناء إسرائيل من مصر. وقد تلقي الأضواء على تاريخ الكتاب المقدَّس. ثم تتابع البعثة رحلتها عبر البحر الأحمر إلى اليمن السعيدة».



في الوقت الذي نشر في هذا الخبر كانت الأسرار المفزعة التي أرسلها فورسكال في رسالته الشهورة من رودس، قد سبق وسببت نشاطاً سياسياً كبيراً بين القسطنطينية وكوبنهاجن. وفي السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٦١ قرر السفير الدنماركي بتركيا إرسال رسالة فورسكال إلى برنستورف مرفقاً معها تقريراً مطولاً باللغة الفرنسية، كان له أثر فعال في إلقاء الضوء على الشخصيات الرئيسية في الدراما. جاء في رسالته وهو يصف حفل العشاء على ظهر السفينة (جرين لند) ما يلي: «لقد استخدم فون هافن تعبيراً بذيئاً، لا يمنعني من ذكره إلا احترامي لمعاليكم، ولكن لأن الملابسات تجبرني على أن أحيطكم علماً بفحوى هذا التعبير البذيء، فإنه يكفي أن تعلموا أن هذا التعبير يستخدمه العامة للإشارة إلى أبشع أنواع النذالة التي لا مثيل لها إلا في الكلاب». وذكر في الرسالة، أن كمية الزرنيخ التي اشترها فون هافن، حسب ما أخبره الصيدلي نفسه، أقل مما زعم رفاقه. وهو بهذا قد كذب كذبة كبيرة، فبين الأوراق التي تركها بعد موته قائمة حساب الكيمائي نفسه، يجد أن كمية الزرنيخ المشتراة كبيرة لدرجة أنها تكفي لقتل الكثير من البشر. لكن في الوقت الذي يكذب فيه السفير معلومات فورسكال بخصوص كمية الزرنيخ، نجده يؤيده في مطالبه التي تدعو إلى فصل فون هافن عن بقية أعضاء البعثة.

وقد جاء في رد برنستورف على هذه الرسالة قوله:

«فلو أخرجنا فون هافن من البعثة فسوف يأخذ مكانه الهر فورسكال ويكون عندئذ على رئاسة البعثة، وكسويدي هل سيعامل بقية أعضاء البعثة أحسن مما يعاملهم أحد مواطنيهم؟

إني أعرف أنهم متساوون في الدرجات والرتب، ولكن مع هذا، أحدهم لا بد أن يكون على رأسهم، وسوف يعتبر نفسه على الدوم شيئاً أكبر من الآخرين. وعلى أي

حال، دعنا نفترض بأن الهر فورسكال – ومعه جميع أفراد البعثة – حقق نجاحاً باهراً، عندئذ سوف يشير العالم أجمع إليه وحده بالبنان، ويتحدث عنه فقط، كما لو أنه قد صنع كل شيء. ولا يسيء إلى أمتنا شيء أكثر من أن ترى هذا السويدي وهو يسلبها شرف الاكتشافات التي عاشت أصلاً في ضميرها مئات السنين، حتى هيأ لها كرم صاحب الجلالة الملك الفرصة للخروج إلى الوجود».

هذه الرسالة تدّلنا إلى أي مدى لا يزال برنستورف يجهل تقصير فون هافن عملياً وأخلاقياً.

وقد أنهى رسالته بأن كرر القول بأن السفير فون جاهلر حر في أن يبرز عندما يريد، الأمر السري في انفصال فون هافن، إذا اعتقد أن انفصاله عن البعثة هو الحل الوحيد لتحاشي فشل البعثة، لكنه في الحاشية عبَّر عن أمله الصادق في أن يستطيع فون جاهلر أن يتدبر الأمر دون أن يضطر إلى استخدام ذلك الأمر السري.

إن طريقة معالجة الموضوع في رسالة برنستورف إنما هي في واقع الأمر تقليد للطريقة نفسها التي اتبعها جاهلر في رسالته، بما فيها من زخرفة في القول وتشويه للحقائق، فقد مرَّ الوزير مرور الكرام، كما فعل السفير على الأسباب الحقيقية للشكوى التي بعث بها فورسكال ونيبور وبورنفانيد من رودس ولتفسير الخصام الدراماتيكي بين الرجلين المتخاصمين، الخصام الذي سببه الحقيقي هو التوتر بين كفاءة فورسكال النشيط، وغرور فون هافن الكسول، قبل برنستورف تفسير السفير الذي عزا أسباب هذا الخصام إلى التعصب الوطني، الذي كما نعلم لم يلعب إلا دوراً غير ذات أهمية في النزاع. وعلي أي حال، فقد ارتكب برنستورف خطأ جسيماً – كما فعل جاهلر – حين بنى رأيه في الخلاف على أساس التعصب الوطني بين أعضاء البعثة. لكن له عذر واحد في هذا، فعدا التقرير المحرَّف الذي تسلمه من جاهلر، فإن ذاكرته لا تزال تحتفظ بذكرى

ذلك الصدام المشؤوم لفورسكال بالبروفسور كراتز تستن ومحاولته حشر البروفسور لينوس في شؤون البعثة الدنماركية ومحاولته إبدال الدكتور كرامر بسويدي يدعى فالك، خدمة للعلم كما خيِّل له. لكن الأحداث أثبتت بطلان ما خيِّل له أنه الحق. وكان لإسلوبه المتعجرف غير الدبلوماسي في الوصول إلى ما يريد الأثر الكبير لأن لا ترى الحكومة الدنماركية في مطالبه إلا الانحياز والتعصب لمواطنيه. إن التعصب الوطني الذي كان قبل ذلك عاملاً ثانوياً من عوامل الصراع والمأساة، أصبح الآن في رسالة برنستورف الهدف الصريح لعدم فصل فون هافن. وهكذا لم يجد وضع البعثة الخطير والمتفجر بكل ما يمكن أن يخلفه من نتائج في المستقبل، أي حل. وحين قرأ السفير، وهو ذلك السياسي الناجح رسالة الوزير لم يخامره أي شك فيما يقصد الوزير، فالعمل في السلك الدبلوماسي يوجب على المرء أن يقرأ ما بين السطور وأن يكتشف النوايا المخفية وراء الكلمات. كانت رسالة برنستورف إليه مليئة بالمعاني الخفية ولا يستبعد أن يكون ذلك الظرف المختوم المرفق بالرسالة والذي بداخله الأمر السري، فارغاً من أي شيء. فقد كان شكلاً لا أكثر، ولم يفكر السفير لحظة واحدة في تنفيذ ما جاء فيه، خاصة بعد أن قرأ مخاوف الوزير في هذا الخصوص. وأصبح من أصعب الأمور بالنسبة له كتابة الرسائل إلى أعضاء البعثة بواسطة فورسكال فقط الرفض الرسمي لطلبهم فصل فون هافن عن البعثة. ورسالة فون هافن كانت مؤثرة ومسكت العصا من الوسط، فبعد المقدمة الطويلة التي كان الغرض منها إرضاء غرور فون هافن تدرج فون جاهلر إلى الموضوع جاء فيها ما يلي:

«صديقي العزيز. أتحدث إليك وأنا أكن لك الاحترام والتقدير لمؤهلاتك وذكائك. هل لي أن أقول لك أن شيئاً ما يزعجني ويجعلني في حالة قلق دائم، إن الأمر يتعلق بوحدة البعثة وانسجام طباع أفرادها وترابط قلوبهم من أجل المصلحة المشتركة العامة

التي يجب أن يراعيها جميع أفراد البعثة، والتي هي قادرة أن تشد من أزر البعثة وتحفظ لها سمعتها وتسير بها نحو الشرف العظيم المأمول، شرف الإنجازات التي يتطلع إليها بكل فخر ليس فقط صاحب الجلالة بكرمه ووطنيته وحبه للعلم بل العالم أجمع المتشوق للعلم والمعرفة. لست أقصد بحديثي هذا تلك المنازعات الطفيفة التي حدثت بينكما في الطريق من مرسيليا إلى القسطنطينية والتي نشأت عن سوء تفاهم. إني على يقين من أن المصالحة التي قمت بها قد احترمها الطرفان بإخلاص كما تمنيت، وعلى أي حال لقد تسلمت رسالة من الطرف الآخر من القاهرة لا يبدو فيها أنه على الأقل يؤكد استمرار تلك المصالحة، ولم يقدم أحد منهم أي شكوى خاصة ولكنهم أثاروا بعض الشكوك بملاحظاتهم العابرة. هل أكون في حاجة إلى إخبارك، يا عزيزي فون هافن بأنهم أمدوني ببعض ما يمكن أن يكون أساساً لاهتمامي في حالة ما إذا ظل في قلوبكم وعقولكم ذرة من خصام وتناحر.

إن العالم المتحضر كله يتطلع إليك باهتمام شديد، إن لم يكن باعتبارك رئيساً للبعثة فباعتبارك أكثر أعضائها شهرة وسمعة. يا سيد فون هافن إن الجميع يعرفون أنك دنماركي، أليس هذا العمل بالنسبة إليك أشرف مهمة تقوم بها. لتكون قادراً عن طريقها أن تعمل من أجل مجد مليكك ومجد حكومته وتحت حماية عرشه، وأن تساهم في مشروع من صنع بلادك، ومن أجل إحراز الشرف الخالد لمواطنيك. أناشد بالله أن تعتبر هذه البعثة أغلى شيء في حياتك. فكر في الشرف وهتاف الإعجاب الذي سيكون في انتظارك، ثم فكر في مغبة الصعوبات التي يمكن أن تواجه البعثة وتقضي على كل أحلامها. إني أخشى في هذه الحالة النقد الذي سيوجه إليك مباشرة، وسيكون على صاحب الجلالة أن يأخذ في الاعتبار شهادة العموم. وسوف لا أخفي عليك أنني قلت نفس القول تقريباً إلى الهر فورسكال. وأنا أقولك لك كما قلت له بأنني أرى أن لا شيء

أسهل على المرء من أن يعيش في تفاهم وسلام وانسجام مع جميع الناس، وعلى المرء أن يتجنب كل التعصبات ويستجيب دائماً للعقل ونداء الواجب، واجب المرء نحو رفاقه ونحو ربه قبل أي شيء آخر. وأنت أذكى من أن أطيل الحديث معك، وكل ما تبقى بالنسبة إليّ هو أني أتوسل إليك أن تعتبر كل ما قلته نصيحة مخلصة لصديق وأن تحفظها مكتومة عن الآخرين، وأن تعتقد أن لا غرض لي إلا أن تكون في سعادة».

لقد نجح الأريب فون جاهلر، أحسن من أ ي وقت مضى، في أن يقول شيئين في وقت واحد، فهو ينذر فون هافن ويرضي غروره في وقت واحد، فقد كشف له مخاوفه وشكوكه ولكن بأسلوب يدل على أن فون هافن في واقع الأمر بريء من كل ما يخاف منه. فإذا كان يريد حقاً من شرائه الزرنيخ قتل الآخرين فهو لا بدَّ أنه شعر، حين قرأ هذه الرسالة بأشنع توبيخ، أما إذا لم يكن لديه مثل هذه النوايا الخبيثة، فإن الإنذار قد صيغ بحنكة لا يشعر معها بأي مرارة أو كدر. ومن الطبيعي أن يسلك السفير في رسالته لف أو دوران، تماماً كالمكاتبات العادية في السفارات، وقد طلب منه الاحتفاظ بالرسالة سراً. في البداية أخبره أنه شعر بدافع شديد للكتابة إليه شخصياً، وعلاوة على ما جاء في الرسالة المشتركة، ذكر في رسالته:

«ستلاحظ أن الانفصال المقترح لا يتلاءم مع رغبات السلطات العليا، وبدلاً عن هذا، فإن على البعثة كلها أن تواصل رحلتها كمجموعة واحدة دون تأخير أكثر مما كان. ومن شأنك أنت إطاعة هذه التوجيهات في أقصى سرعة ممكنة».

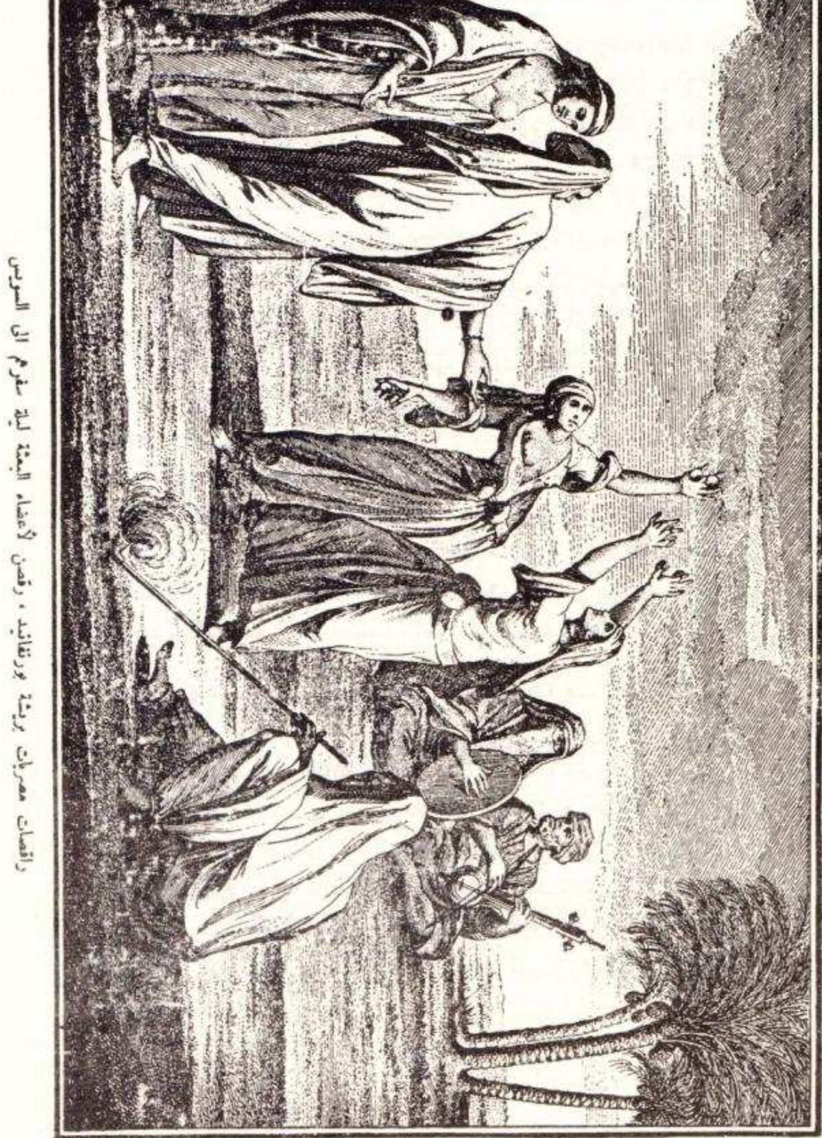
بعد هذا أراد فون جاهلر أن يؤكد لنيبور أن تهديده بإطلاق النار على فون هافن لم يفسر مطلقاً تفسيراً مسيئاً إليه، كما توقع ذلك. «بل على العكس من ذلك إن بعض ما نقلت عنك في تقاريري أني أعطيتهم فكرة طيبة عن أخلاقك العالية، التي ستمكنك من أن تكون أكثر قدرة على إصلاح ذات البين عن طريق الإقناع والنصح، أو على الأقل،

حثهم على أن يعاملوا بعضهم البعض معاملة المتمدنين. وفي سبيل هذا الهدف عليك أن تأخذ في اعتبارك قابلية فون هافن للهيجان السريع، من جهة، ومن جهة أخرى سجية فورسكال المتصنعة، على أن تحذر الوهم في أنه دائماً على حق، دون أن تفقد ثقته. وعليك أيضاً أن تجهد نفسك لتكسب ثقة الشخص الآخر، أو على الأصح، أقول، دون لباقة، عليك أن تتملق كليهما».

وبخصوص مادة الزرنيخ التي اشتراها فون هافن قال جاهلر:

«إن أفكارك ومخاوفك بخصوص موضوع العلاج الذي أثار الكثير من النقاش ليست إلا مجرَّد خيال واسع وسوء فهم، أرجو أن تصدقني في هذا.. ولا تخف بعد اليوم، فالعالم ليس شراً، كما يمكن أن يظن به وسوف لا أقول، ولن أستطيع أن أقول شيئاً أكثر من هذا في هذا الخصوص».

الأمر كله لا شيء، والعالم ليس شراً كما يظن به، هذه خلاصة الرسائل التي تسلمها فورسكال ونيبور وفون هافن، هرعوا إلى غرفهم لقراءتها، بعد ظهر ذلك اليوم من أيام الصيف الشديد الحرارة، وفور قراءتهم لها، تبددت كل آمالهم، بعد تلك المحاولات العديدة في الاتصال بالمسئولين الدنماركيين، وبعد أن ظلوا في الانتظار في مصر أكثر من سنة، وبعد أن أرهقوا أنفسهم في كتابة تلك الرسائل المطولة المصاغة بأسلوب دبلوماسي راقي. بعد هذا كله، اتخذ قرار على مستوى عال، في أن لا داعي لأي قرار، وعلى الأمور أن تسير كما كانت تسير من قبل، فليس في الإمكان أحسن مما كان.



راقصات مصريات بزينة وقلائد ، رقصن لأعضاء البعثة ليلة سفرهم الى السويس



الفصل السابع

موسيقى حزينة وفتيات راقصات

فورسكال يعارض البلاط – فلاسفة الخصام – راقصات ورقص مصري.

ذات مرة قال فورسكال:

«إن الخطر الوحيد الذي يهدد حرية الإنسان مصدره هؤلاء الرجال الذين عن طريق مناصبهم أو مراكزهم، أو ثرواتهم، أصبحوا أصحاب نفوذ وسلطة في البلاد».

وحين تسلم قرار الحكومة الدنماركية الذي يشبه أوامر العمليات العسكرية، لا بدَّ أنها خطرت بباله، ولو للحظة واحدة، هذه الحكمة الجريئة التي تضمنتها رسالته العلمية عن الحريات المدنية التي صادرتها السلطات السويدية قبل ثلاث سنوات.

إن فورسكال على النقيض من فون جاهلر، لم ينجح في أن يعني أكثر من شيء واحد في وقت واحد. ففي رده على الدبلوماسي الدنماركي عارض في لطف، قرار البلاط تماماً كما فعل في السويد أثناء الصراع الجدلي حول حرية الصحافة. فذكر أن القرار الملكي قد قذف بآمالهم، المحلقة في السماء، إلى متاهات الاضطراب والقلق، ورفض التجاوز عن شراء فون هافن للمادة السَّامة واعتبار الموضوع منتهياً، وأعلن بصراحة أن البلاط الدنماركي كان ببساطة – غير راغب في أن يواجه جهالة فون هافن وأخلاقه السيئة – وقال أنه حتى لو أن البلاط قد اطلع على حقيقة فون هافن، لما كان في إمكانه إلا أن يعتبر، أنه من أجل إنقاذ سمعة أحد مواطني الدنمارك، لا مانع لديه من التضحية ببعض الشرفاء المعتدلين من الناس وتعريضهم لأبشع الأخطار. وذكر أنه يبدو أنهم قد فقدوا حتى الأمل في فهم أكثر وتقدير أكبر من قبل حكومة خيِّرة.

أشار فورسكال بهذه الكلمات القاسية إلى محاولة فون جاهلر عدم إماطة اللثام عن مخاوفهم وشكوكهم، وإظهار الأمر كأن شيئاً لم يكن، وحاول تخفيف وقع هذا على سمع

جاهلر، فأخبره أن من الأفضل حقاً أن يطلع فون هافن على نواياه التي يشك فيها، ليعرف أن الجميع مستعدون للرد على عدوانه، وأن أي محاولة قد يقوم بها للقضاء عليهم سوف يكون مآلها شر عليه.

لم يلجأ فورسكال قبل هذه المرة إلى أساليبه الهجومية لأنه كان يأمل أن تتخلص البعثة من فون هافن، أما الآن وقد قضى على أمله هذا فإنه يطالب جاهلر أن يقوم بتوبيخ فون هافن الدنماركي، وإلا فسيجد نفسه مضطراً إلى أن يتصرف في الأمر بنفسه.

كان الإصرار العنيد هو رد الفعل بالنسبة لفورسكال، أما المشتركون الآخرون في الرسالة التي أرسلت من رودس فقد شعروا جميعاً أنهم أصيبوا بخيبة أمل في الصميم حتى بورنفانيد الرجل الطيب، انتابه حزن شديد ولم يكن لديه شجاعة فورسكال لأن يقف في وجه السلطات الدنماركية. ولكنه مع هذا غامر وعبر عن استيائه في كلمات. جاء في رسالته إلى جاهلر ما يلي:

«سوف أخضع باحترام كبير لأوامر جلالة الملك، ولكن في الوقت نفسه لا أستطيع أن أقول إلا أن مثل هذه الرحلة بالنسبة لي ولزملائي، ما هي إلا كمن يتجرع شربة مرّة. وعلى أية حال هذه رغبة الملك وعلينا إطاعتها، وعلى قدر مسئوليتي سوف أعمل ما في استطاعتي للحفاظ على الهدوء والسلام بين أعضاء البعثة، كما سيكون همي الكبير الدعاء والابتهال راجياً من الله الرحمة العون».

حتى نيبور لم يقتنع بحجج الدبلوماسي جاهلر، فقد جاء في رده على جاهلر قوله: «للأسباب السابقة لا تستطيع معاليك أن تلومني إذا كنت أفضل مرافقة فورسكال لا الآخر».



وفي القسم الأول من رسالته علق ببراعة على رغبة السفير في أن يجعل نيبور من نفسه وسيطاً بين الفريقين المتنازعين. كتب في هذا يقول:

«لم أنجح في أن أقضى على الخلاف فيما بينهما، وأزرع في قلبيهما بدلاً عنه بذور الخير والحب، ولأني لست فيلسوفاً مثلهما، وهما كما هو معروف ينبوعان من ينابيع المنطق والفلسفة، فقد كنت أتأثر وأنفعل بما يحدث، أكثر من تأثر المتخاصمين نفسيهما فهما ينظران لكل ما يحدث نظرة متفلسفة ويفسِّران بعمق كل الانفعالات والتصرفات والأحاسيس الإنسانية. ومن طباعهما أنهما حين الخصام، يلفان ويدوران، ويصولان ويجولان، وبعد بضع لحظات، يستمران في أبحاثهما كأن شيئاً لم يحدث».

كان فورسكال مستهتراً لدرجة اختراع الوسائل لغش الحكومة الدنماركية، وكان فون هافن يجيد حبك المكائد والدسائس وشراء المواد السامة، وكان كل منهما بأسلوبه الخاص، عنيداً ومتعجرفاً ونزقاً وكثير المطالب. وكان أحدهما نشيطاً والآخر كسولاً. وكل منهما كان يعتقد اعتقاداً راسخاً في مكانته البارزة التي لا تدانيها مكانة أخرى. وفي هذا الخصوص كان كل منهما أكثر صواباً من الآخر، وكان من الصعب جداً على أصحاب الطباع الأقل ادعاءً وغروراً احتمال مرافقتهما. ولو نفذنا إلى بواطن الأمور لوجدنا أن «التعليم والمعرفة الحقة» بالنسبة لهذين الرجلين ما هي في حقيقة الأمر إلا خليط من الطموح الهادئ والشكوى الصارخة، ومزيج من الدسائس والغرور الذي لا حد له. ونتيجة لما توصَّل إليه نيبور من فهم جديد للأمور نجده يقف الآن بعيداً عن النزاع بين فورسكال وفون هافن. وسوف لا يكون مستقبلاً مع أحد ولا ضد أحد، خاصة وقد طلب منه جاهلر، أن يلبس رداءه على الكتفين. لكن نيبور ردّ عليه بأنه قد ترك الرداء يسقط على الأرض. وحين نريد أن نفسّر الأمور، كما يفسره الدبلوماسيون، فإننا نقول إن هذا الموقف الذي توصل إليه نيبور، يكون تماماً كما لو أنه اتبع نصيحة فون

جاهلر، وكل ما أدته إجراءات برنستورف الأخيرة من أغراض هي أنها أدخلت اليأس إلى قلب كل عضو في البعثة وتسببت في أن أصبح كل منهم وحيداً معزولاً، وأصبح في البعثة خمسة أحزاب بدلاً من حزبين.

صمم فون هافن على القيام بتنفيذ الرحلة المهمة إلى جبل سيناء، وعلى انفراد استعد كل منهم لمغادرة القاهرة إلى السويس بصحبة القافلة. وفي الأيام الأخيرة لبقائهم بالقاهرة، استأجروا بعض الراقصات المصريات من الفتيات بغرض التسلية وإضاعة الوقت. ولأن الرجال الخمسة كانوا غير متزوجين، فقد منعت الراقصات من تقديم الرقص في منزلهم، وقمن به في الشارع العام بدلاً من المنزل، واستطاع أفراد البعثة بهذه الطريقة أن يطردوا الأفكار المزعجة من رؤوسهم. وبالرغم من أنهم في البداية لم يجدوا أي متعة ذات أهمية في مراقبتهم ذلك النوع من التسلية، فإنهم بالتدرج وجدوا أنفسهم مأخوذين بأصوات جميلة ورقصات حالمة، وجمال لا مثيل له، وشعروا في الأخير كما لو أنهم كانوا يشاهدون أعظم راقصات أوروبا، ويستمعون إلى أشهر مغنياتها. أحسوا بذلك كله، رغم بساطة الأداء وبساطة الموسيقى الغنائية، ورغم أن الفتيات قمن، بما يمكن أن يكون في نظر الرجل العاقل، حركات موغلة في الفحشاء. ووجدوا في البداية أن جميع الفتيات الراقصات قبيحات، بأيديهنَّ المصفِّرة وأظافرهنَّ المحمرّة، وزينتهنّ السوداء والزرقاء حول رقابهنّ، ووجوههنّ وأذرعهنّ. والأطواق في آذانهنّ ورسوغهنّ، أو في أنوفهنّ، وكميات كبيرة من المرهم المعطر على شعرهنّ، يستطيع المتفرج أن يشمَّه من مسافة بعيدة. وقام بورنفانيد برسم صورة مغرية لهذا المنظر في الفترة الأخيرة من الرقص، بعد أن تحوَّل القبح في كل شيء إلى جمال أخَّاذ في كل شيء.

بمثل هذه التسلية نجحوا في طرد الأفكار السوداء من رؤوسهم وكانت الفتيات في كل يوم أجمل من اليوم الذي سبقه، وكلما قرب يوم مغادرتهم القاهرة كلما زادت



الفتيات في نظرهم جمالاً على جمال. وحين جاء يوم سفرهم من القاهرة تراءت الفتيات لهم كأنهن الحسان الملاح أو الحور العين. لقد أعادت إليهم هذه التسلية ذكرى تلك الفتيات الجواري اللاتي تلهى بالاحتكاك بهن فورسكال ونيبور على ظهر الباخرة التي حملتهم إلى الإسكندرية. وللمرة الثانية استطاعت بعض الفتيات الصغيرات أن تنسيهم كل الأخطار المحدقة بهم وللمرة الثانية أيضاً أحسوا للحظات، كما لو أنهم يعيشون في اليمن السعيدة.

وهكذا انتهى وصفنا لبقائهم الطويل بالقاهرة، بنفس الصورة التي انتهى إليه وصفنا لرحلتهم البحرية من كوبنهاجن، ومن السهل أن نتصوّر، عالم الفلك، ذلك الشاب المتقد حماساً ونشاطاً يقف أمام منزل المسيو كلمنت، عند المغيب، ناسياً نفسه أمام الفتيات الراقصات، وهنّ يرقصن حافيات الأقدام على الرمال الدافئة. إننا نكاد نسمع الموسيقى الحزينة ذات اللحن الرتيب المتكرر كما لو أن الريح فقط هي التي تصفر داخل تلك الآلات الموسيقية، ويظل نيبور في ظلمة أول الليل يسمع الأغاني لوقت طويل، الأغاني التي يمكن أن تكون أغاني حب، أو أغاني الأبطال المتجهين إلى ساحات الوغى، كما يمكن أن تكون الأغنية التي تحكي قصة ذلك الشخص الذي انطلق يبحث عن السعادة، فتبعه الموت حيثما ذهب، حتى إذا ما شارف الوصول إلى هدفه، عاجله الموت وانحنى على صدره.

القسـم الرابع

Baurenfeind del: J.F. Climens Sc.

بائعة الخبز بريشة بورنفانيد



الفصل الأول

مع القافلة.. من القاهرة إلى السويس

من القاهرة إلى السويس – طلقات نارية في الممر الصخري.

خلفت البعثة وراءها بالقاهرة آخر مظاهر الحضارة الأوروبية، وبدأت الآن رحلة الصحراء الحقيقية، وتألفت مستلزمات رحلتهم الجديدة من خيمة وسُرُر سفرية صغيرة، وبعض أواني الطبخ النحاسية، ومن الدقيق والرز والبسكويت الجاف والزبدة وحبوب القهوة، وزيت الطعام واعتمدوا أنه سيكون في استطاعتهم شراء اللحم من العرب لأن القافلة تحمل معها الأغنام والماعز والدجاج. ووضعوا الزبدة في أواني من الجلد واستخدموا كطاولة للطعام، قطعة مستديرة من الجلد في أطرافها حلق من الحديد، كما استخدموها لوضع بعض حاجياتهم بها وتعليقها على الجمل حال السفر. ووضعوا الفناجين في صندوق خشبي مغطى بالجلد، ووضعوا الشموع في صندوق مماثل. وبدلاً من المرايا المعرَّضة للكسر، أخذوا معهم بعض الصفائح النحاسية الجميلة. وكانت فوانيسهم مصنوعة من الكتان الأبيض، ويحمل كل منهم قربة صغيرة بها ماء، وفي زجاجات كبيرة حملوا ما يحتاجون من النبيذ. لكنهم عدلوا عن هذه الطريقة واتبعوا الطريقة العربية وأفرغوا النبيذ في أواني من جلد الماعز، وهي تختلف عن قِرب الماء، في أن جانبها الأشعر للداخل وقد دبغت بعناية حتى لا يلحق بالخمرة مذاق غير حسن. ويندر أن يحمل المسافر معه الحطب أو أي نوع آخر من الوقود، وهم لهذا يقومون بشراء روث الحيوانات الجاف لاستخدامه كوقود حين تتوقف القافلة.

وبينما كان أعضاء البعثة يعدّون أنفسهم لمغادرة القاهرة، إذا بهم يسمعون دوي طلقة مدفع من قلعة المدينة، تدل أن رسول قافلة مكة قد وصل ليخبر الجميع أن وصولها أصبح منتظراً في الحال، وهذا يعطي الناس الذين لهم أقارب راجعين مع الحجاج الوقت الكافي للخروج لاستقبالهم، واستنتج نيبور من هذا أن الصحراء بين

القاهرة والسويس أصبحت من جديد خالية من العصابات، التي كانت تغزو المنطقة في تلك الشهور واستنتج أيضاً أن قافلتهم سوف تعود إلى السويس في أقرب وقت ممكن. واستأجر أعضاء البعثة بعض الجمال لحملهم مع أمتعتهم إلى نقطة تجمُّع القافلة المتجهة إلى السويس، التي تقع خارج المدينة في واد صحراوي، ليس بعيداً عن قرية المطرية، حيث كان فورسكال في الأيام الأولى لبقائهم بالقاهرة يذهب غالباً في جولاته العلمية. وحين وصلوا هناك وجدوا الوادي يغص بالناس وبالحياة، فالخيام منصوبة في كل مكان، تحيط بها الأكياس الكبيرة المليئة والجمال والأعراب المشغولين بالاستعدادات لرحيل القافلة. ولم يعرف أحد على وجه التأكيد موعد تحركها، وقد استأجر فورسكال من الجمال أكثر من الحاجة على سبيل الحيطة. وجاء الليل فغطى سواده القافلة وأهلها، وتلألأت السماء بنجوم لا عدَّ لها ولا حصر، تبارك كل بني البشر وكل الحيوانات وتنزل على قلوبهم السكينة والسلام، ولم يكن يهدد ذلك الهدوء، من وقت لآخر، إلا بكاء طفل في خيمة أو نهيق حمار خارج المخيم. وكأن هذا البكاء وذلك النهيق ما هما إلا تذكير للقافلة النائمة بأن القمر على وشك أن يطل عليها بجماله الذي ليس له مثيل.

وجاء الصباح واستعادت السماء إليها السكينة والسلام، وأبدلهما الإنسان والحيوان بالضجيج والعجيج وبناح الكلاب، ورائحة فضلات الحيوانات، والسحب الترابية التي غطت الوادي من عليه وحجبت عنهم ضوء الشمس وأحالت نهارهم إلى ليل. أين منه الليل! وفجأة دون إنذار، والشمس في المغيب، طويت جميع الخيام وحملت معها جميع (البالات) على ظهور الجمال المنتشرة في أنحاء الوادي، الجمال التي أخذت، الواحد بعد الآخر، تنهض من مربضها وتتحرك وراء بعضها في خط طويل نحو الشرق. وبسرعة لحقت بها البعثة الدنماركية لتحفظ مكانها في وسط القافلة، حيث تكبر فرص نجاة البعثة، عن أي مكان آخر حال مهاجمة القافلة، وركب الجميع الخيل إلا نيبور فقد امتطى ظهر أحد الهجين على سبيل حب الاستطلاع.

واختلف أعضاء البعثة في تقديراتهم لعدد الجمال التي تتألف منها القافلة. فذكر فون هافن أنها ما بين ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ جمل، وفاقه في التقدير فورسكال، فقال أنها مكونة من عدة آلاف من الجمال، بينما ذكر نيبور أنها تزيد عن ٤٠٠ جمل. وبالرغم من أن تقديره كان أقلها جميعاً، إلا أن المرء يميل إلى قبول هذا التقدير كأقربهم جميعاً إلى الصحة، ليس لأنه برهن أكثر من مرة أن تقديراته صحيحة، بل لأن القافلة التي تغادر القاهرة إلى السويس في نهاية شهر آب (أغسطس) تكون في الغالب من أصغر القوافل.

استمرت القافلة في سيرها في اليوم الأول حتى الحادية عشرة مساء. ووصف فورسكال وصول القافلة إلى مكان الاستراحة، وكيف أن العرب يقيمون خيامهم في دوائر تتسع الواحدة بعد الأخرى حول أول الواصلين، وكيف تخلى عن الجمال حمولتها، ثم تبرك على ركبها مكونة ما يمكن أن يكون حائطاً حول الرجال والبضائع.

وكل ما حصل عليه فورسكال بعد تجواله حول القافلة وبيده الفانوس، هي بعض الأعشاب الرطراطية، وقليل من الأزهار المسماة (أزهار القمر)، وبعض أشجار الطلح الصحراوي. وقد تناوبوا الحراسة طول الليل، ضد المتسللين إلى المعسكر، وضد مرافقيهم من المرشدين الذين قال عنهم فورسكال:

«أنهم يجدون صعوبة بالغة في كف أيديهم عن الأشياء التي يسهل إخفاءها والتصرف فيها».

ومرة أخرى يجدون أن من الصعب عليهم معرفة ساعة تحرُّك القافلة، والإشارة الوحيدة لذلك كانت تأتي من سماعهم جَمجمة مئات الجمال في وقت واحد، وهي تُحمَّل وتُضرَب بالعصي لتقف على أقدامها. وقد أخذ كل واحد من المسافرين يستعد في عجلة، فلا يريد أحد أن يخاطر وينفصل عن القافلة، فيفقد حماية المجموع ضد أخطار الصحراء الكثيرة.

ومن جديد، يخرج من الضجيج والعجيج والصياح والعويل ذلك الخط الطويل المنتظم من الجمال المتحركة على الرمال، كأنها دودة النبات الخضراء المتموجة في سيرها، نحو تلك الكرة الحمراء للشمس التي تبدو وكأنها ساعتئذ ترتاح بعض اللحظات على قمة إحدى التلال الأمامية.

وفي يوم ٣٠ آب (أغسطس) انطلقوا يواصلون سيرهم لليوم الثاني وأشعة الشمس تسطع على وجوههم حتى منتصف النهار، حين أعطيت لهم الإشارات للراحة بين بعض التلال الطباشيرية البيضاء. وتمنى الأوروبيون المنهكون أن تطول هذه الراحة، ولكن ما أن تناولوا طعامهم حتى تحركت القافلة بعد توقف دام ساعة واحدة فقط، واستمرت في سيرها دون توقف أو راحة قصيرة حتى مغيب الشمس حين نصبوا خيامهم عند أسفل جبل (تاجا Taja) ومنح المسافرون ساعات قليلة فقط يرتاحون فيها، وبعد ذلك سارت القافلة في طريقها عبر ممر ضيق، يعتبر أخطر موقع استراتيجي يسهل منه الهجوم على القافلة. وفي هذا المكان بالذات هاجمت قبيلة الصوالحة القوافل السابقة ونهبت كل ما عليها. وحين غطى الظلام كل القافلة أصبح عبور هذا الممر أكثر اطمئناناً وأماناً من أي وقت آخر. وبينما كانت القافلة تسير في هذا الممر الطويل سمعت طلقة نارية بالقرب منها، وسمعت على التوّ أصداؤها ترن هنا وهناك على جوانب الممر الصخرية، وامتدت في الحال يدا فورسكال ونيبور إلى حلاهما.. لكن ما إن مرّ بعض الوقت حتى اطمأن الجميع، فقد تبين أن لا وجود لأحد من هؤلاء اللصوص الخطرين، وأن قافلة مكة الضخمة كانت هي أيضاً تمرّ الآن في هذا الممر الخطير تحت جناح الظلام، وهي القافلة التي بشَّرت بوصولها تلك الطلقات النارية التي سمعوها قبل أيام قليلة في القاهرة. والآن ها هم يسمعون وقع أقدام الجمال على الأرض الصخرية، كزخَّة مطر عابر، في حين يحاول الرجال بطلقات بنادقهم تخويف أي لص يمكن أن يلفُّه الظلام.

وأرجع كل من فورسكال ونيبور سلاحهما على كتفيهما بعد أن اطمأن قلباهما، فلم يكن هناك ما يدعو للقلق. إنها فقط تحية من «اليمن السعيدة» حملتها معها القافلة الواصلة من مكة التي كان عليها أن تجتاز الممر دون تأخير، وكانت محملة باللؤلؤ والماس والمسك والبلسم. وكان عليها أن تعود من القاهرة محملة بالإبر والمسامير والورق المصقول وغير المصقول.

ونجحت قافلتنا في عبور تلك التلال الخطرة دون أن يهاجمها أحد، وبعد خمس ساعات من السير المتواصل أشرقت الشمس من جديد وتوقف الركب لراحة قصيرة، ولم يبق أمامهم إلا نصف يوم من السير ليصلوا مدينة السويس. بالمدينة، وبعد الاستراحة القصيرة تحركت القافلة. وفي الحال استطاعوا أن يروا من بعيد الخليج، وبعد ذلك بقليل لاح أمام ناظرهم مرأى المدينة نفسها، بمنازلها المبنية من الطمي على الرمال. وليس مثل أشجار النخيل شيء كان في استطاعته أن يدخل بعض البهجة على تلك المناطق الرملية الكالحة.

وفي الساعة العاشرة من صباح الواحد والثلاثين من آب (أغسطس) كانوا على أبواب مدينة السويس، ثم ساروا نحو ذلك الفندق البدائي المدينة، بعد أن أمضوا، حسب ما جاء في مذكرة نيبور، ما يقرب من اثنين وثلاثين ساعة وأربعين دقيقة على ظهور الخيل والجمال. لكن اليوم أصبح بين القاهرة والسويس طريق ممهد يبلغ طولهماية وست وثلاثين كيلو متراً، ولكنه مزدحم، ومهمل، وسطحه دائماً في حالة غير جيدة.



الفصل الثاني

إنهيار فون هافن

فون هافن في موقف ذليل – نيبور وفون هافن يغادران السويس إلى صحراء سيناء.

كانت الرحلة كارثة كبرى خاصة بالنسبة لبورنفانيد، فقد أصيب بالحمى أثناء الطريق، ولم يستطع أن يخفف من حدتها ذلك الكأس الإضافي من شراب البراندي بعد العشاء. وكان تقريباً في حالة إغماء كامل حين وصولهم إلى ذلك الفندق البدائي بمدينة السويس، وفي السويس لأول مرة منذ بقائهم بالإسكندرية، قبل سنة تقريباً، نجد أن جميع أعضاء البعثة يعيشون تحت سقف واحد، وأن الخصمين العنيدين فورسكال وفون هافن ينامان في سريرين متجاورين ويأكلان على مائدة واحدة.

وكان من المفروض أن يرافق بورنفانيد فون هافن إلى جبل المكاتب بسيناء لكن مرضه جعل فون هافن مضطراً أن يختار بين أمرين أحلاهما مر، فإما أن يخاطر بالقيام بهذه الرحلة لوحدة معرضاً نفسه لكل المخاطر التي غالباً ما تحدث عنها هو نفسه، وإما أن يذل نفسه بطلب مساعدة أولئك الذي هم في عداء معه. واختار الأمر الأخير بعد أن تغلبت مخاوفه على غروره. ففي إحدى الأمسيات وضع الأمر كله بين أيدي الجميع، وطلب أن يرافقه أحدهم، وحين لم يرد عليه أحد التفت إلى الدكتور الدنماركي كرامر وسأل إذا كان في الإمكان أن يرافقه كرامر ذلك الإنسان الرقيق الطباع الذي عاني ما فيه الكفاية من مزاج فون هافن المتقلب، والذي كان من رأيه أن فون هافن لا يصلح للقيام بهذه الرحلة الخطيرة. وعلى أي حال فإن رده على طلب فون هافن كان الإحجام عن الذهاب، واعتذر لأنه كدكتور للبعثة لا بد أن يكون بجانب زميلهم المريض بورنفانيد.

وبرفض كرامر فقد فون هافن فرصته الوحيدة في الحصول على حليف. وهو الآن يقف وحيداً ضد فورسكال ونيبور الرجلين الذين يكرهما من أعماقه والذين في وقت

ما، كان يدبر قتلهما بما لديه من زرنيخ. بعد رفض كرامر، خيم على الموقف الصمت الطويل، وعندئذ مرة ثانية انتصر الخوف على الغرور والتفت فون هافن إلى فورسكال يطلب منه في صوت منخفض فيما إذا كان يرغب في الذهاب إلى جبل المكاتب، ومرة ثانية يخيم الصمت على الجميع، ثم يخفض فون هافن نظره إلى أسفل وتمر لحظات صمت رهيب، ثم ينظر فورسكال إلى فون هافن نظرة باردة لا معنى لها، بعدما يرد عليه بأن التعليمات الملكية ليس فيها أن من واجبات عالم النبات الذهاب إلى شبه جزيرة سيناء، وأن عليه أن يهتم بالمريض بورنفانيد الذي ساعده دون ملل طوال الرحلة في رسم العينات النباتية.

ولم يبق الآن أمام فون هافن إلا رجل واحد. هو آخر رجل في العالم يمكن أن يطلب منه فون هافن شيئاً في الظروف العادية. ذلك الرجل كان يقول عنه أنه فلاح جاهل جلف، والذي حاول مرات عديدة أن يسلب منه إدارة الشئون المالية الخاصة بالبعثة. وفي استطاعتنا أن نتصور كيف كان كارستن نيبور يستمع إلى تلك الأحاديث وقد أدار ظهره للجميع، واستمر هكذا ربما لأنه كان متظاهراً بالاستغراق في إصلاح آلته الفلكية. في هذه المرة كان الصمت قد وصل إلى درجة لا تحتمل، ولم يتقدم أحد لإنقاذ ذلك الدنماركي واستمر ذلك الصمت المميت حتى كان في مقدورهم سماع بورنفانيد المريض وهو يتنفس بصعوبة وضيق في الغرفة المجاورة وأخيراً استطاع فون هافن أن يسأل في صوت خافت فيما إذا كان المستر كارستن نيبور في استطاعته أن يتكرم ويقوم بمرافقته. وكان فورسكال طوال هذه اللحظات لا يزال ينظر ببرود إلى وجه فون هافن، بينما فون هافن لا يتمالك أن يرفع بصره عن الأرض. وفي الغرفة المجاورة كانت أنفاس بورنفانيد لا تزال تسمع، وكان نيبور لا يزال منهمكاً في إصلاح آلته. وأخيراً خرجت من فمه بعض الكلمات الآلية وكأنه يتحدث إلى آلته. وكان معنى هذه الكلمات، أن لا مانع لديه من مرافقة فون هافن إلى جبل سيناء.

هذا كان ما يمكن أن يكون قد حدث بهذه الطريقة، وليس لدينا كل التفصيلات لما حدث، فقد سكت عن هذه الأحداث كل من فورسكال وفون هافن، وكانا في هذا على صواب، ونيبور، بالرغم من أنه في مذكرته ذكر أن لهجة فون هافن كانت آمرة في مخاطبته للآخرين، فإن مرّ في حذر على بقية الأحداث.

والمهم في الموضوع كله، أنه منذ اللحظة التي وافق فيها نيبور على القيام بالرحلة، أصبح فون هافن قورة مفرغة منهكة. وكل ما لم تستطع تحقيقه الرسائل التي أرسلت إلى برنستورف وجاهلر، استطاع نيبور تحقيقه، دون أن يريد أو يدري حين نطق بتلك الكلمات التي معناها قبوله المشاركة في الرحلة.

كان في طلب فون هافن من الآخرين مساعدته، بداية انهيار غروره وكشف حاجته للاعتماد على غيره. وحين تقدم نيبور وأنقذ موقفه، لم يكن ذلك بداعي الشفقة لكنه كان بالأولى تنفيذاً للقرار الذي اتخذه بالقاهرة في أن لا ينضم لأي كتلة من الكتل المتصارعة وأن يقف على الحياد، لكن موقفه قد كشف لأول مرة وأمام الجميع، الضعيف من القوي والمدعي من الأصيل وتأكد للجميع، للمرة الأولى مكانة فون هافن المتدنية.

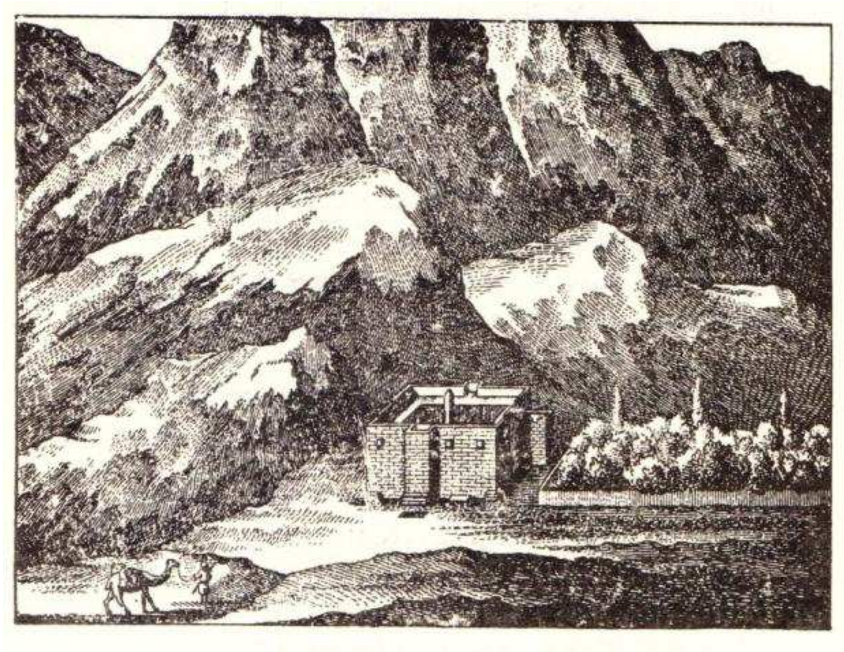
في هذه المرة لم يُذلَّ فقط فون هافن كما أُذلَّ بعد موقفه المتردد المؤسف في مواصلة الرحلة البحرية في هلسنجر، بل استطاع الآخرون أيضاً قهره وسحقه وجعله ضعيفاً، لا يخاف من ضرره. ومن الآن فصاعداً أصبح في قدرتهم السيطرة على الموقف في حالة ما إذا أراد تنفيذ أي خطة ضدهم كما أصبح طريقه الآن يؤدي به إلى التدهور والانهيار. فما أن حُطم غروره حتى هزم نفسياً، خاصة وله تلك الطباع وتلك الأحاسيس، وهو ذلك النوع من الرجال الذين يحاولون أن يجعلوا من أنفسهم قادة حين لا يكون في القيادة مشاق حقيقية ومخاطر صحيحة.

أما الآن فقد نسفت جميع آماله من الأساس، فتلك الكلمات التي سمعها من نيبور، وكانت في ظاهرها موقفه الحرج، كانت في الحقيقة بداية لفشله الذريع. وستبدي لنا

الأيام القادمة إلى أي مدى وصل به انهياره بعد ذلك، لقد وصل إلى درجة من الصغر والضعف ما جعل حتى فورسكال نفسه يساعده على سبيل الإشفاق به، فحين أظهر عجزاً في التفاهم مع بعض المشايخ العرب لنقص في لغته العربية أخذ فورسكال على عاتقه مهمة التفاهم مع ثلاثة مشائخ من قبيلة الصوالحية كان عليهم أن يروا الطريق لنيبور وفون هافن نحو جبل المكاتب.

وغادر نيبور وفون هافن السويس ووقف بيتر فورسكال يراقبهما ومعهما المرشدون العرب وهو يختفون جميعاً وراء العواصف الرملية في الجانب الآخر من الشاطئ، في طريقهم إلى سيناء، وظل بقية أعضاء البعثة في السويس ينتظرون.




دير القديسة كاترين بريشة فيبور



الفصل الثالث

الانتظار

فورسكال يواصل أبحاثه وحيداً – قلق فورسكال لعدم عودة نيبور وفون هافن – السفن ماذا تحمل من السويس وإليها؟

لأول مرة في كل الرحلة يسير الوقت في السويس متثاقلاً بالنسبة لفورسكال ولعل القليل من الغضب قد استولى على قلبه، لأنه لم يشترك في رحلة سيناء المثيرة والخطيرة، خاصة وقد تكسرت الأجنحة المزيفة لرفيقهم المشاغب، وأصبح يزحف بالكاد على الأرض، بعد أن كان يعتقد أنه دون البشر يطير في السماء فوق الرؤوس. وكان في استطاعة فورسكال أن يضيف إلى خبرته الكثير لو أنه رافق نيبور، لكنه عوضاً عن ذلك كان عليه أن يجوب القفار وحيداً في الصحراء المحرقة حول مدينة السويس، وقد غامر في الذهاب إلى وادي (قير Dgirr) ووادي (مسبها Mosbeha) اللذين بديا أمام ناظره من بعيد كأنهما خضراوان، واضطر إلى أن يحمل معه بندقية بسبب قطَّاع الطرق، لكنه مع ذلك لم يقابل في طريقه أي لص، ولم يقابل أيضاً لسوء حظه أي نبات عدا بعض الأعشاب الرطراطية العادية. لأن كل هذه الوديان كانت جافة ورملية في منتصف فصل الصيف الحار. والمنظر الوحيد الذي لفت نظره وأعجبه هو منظر تلك الغزلان الصحراوية، التي كانت تقترب من وقت لآخر وتتطلع في غرابة ودهشة إلى ذلك المتجول الوحيد. وأعظم شيء استولى على اهتمام فورسكال، هو شاطئ البحر الأحمر التي ألفَّ من نتائجها مجموعة نادرة من الأصداف الجميلة، ومجموعة من الأسماك التي جفَّفها تحت أشعلة الشمس الحارة، وضغطها كما كان يفعل بالنباتات المجففة.

وانتاب القلق فورسكال لتأخر نيبور وفون هافن في الرجوع إلى السويس. ماذا عسى يكون قد حدث لهما؟ ولماذا لم يكونا أوفياء لما اتفقوا عليه جميعاً؟. وفي هذا الحال



تذكر فورسكال قرار نيبور السابق في أن طلق النار على فون هافن إذا داخله الشك في أن الدنماركي يحاول أن يضع خططه موضع التنفيذ. وحين غادرا السويس كان فون هافن قد أهين أكثر من أي وقت مضى، وليس بمستبعد أن يكون قد وصل إلى حالة يأس أدَّت به إلى...! لم يستطع فورسكال أن يترك لنفسه العنان في التفكير في مثل هذه الأفكار السوداء، وحاول أن يجد شيئاً آخر يملأ به وقت فراغه، فأخذ يتسكع على شاطئ البحر يتحدث مع صيادي الأسماك مع التجار وصنَّاع المراكب، محاولاً في صعوبة استخراج المعلومات والأخبار منهم. فاكتشف عن هذا الطريق، كيف أن السفن تصنع من شجر الصنوبر المستورد من أنطاكية بسوريا ومن الجزر اليونانية، بينما تصنع قاعدة السفينة من شجر السَّرْوْ ومن شجر السنط وحتى من نبات الميموزا. وبسبب ارتفاع تكاليف نقل مواد بناء السفن، ارتفعت تكاليف بناء السفن، كذلك فإن تكاليف النقل في البحر الأحمر كانت مرتفعة لدرجة أن ثلاث رحلات تقوم بها السفينة إلى جدة – ميناء مكة – تكفي لتغطية تكاليف بناء هذه السفينة.

كانت السفن تحمل من السويس، القمح والأرز والعدس والفول والتنباك والصابون والكتان وقضبان الحديد. والسكاكين والمرايا والبارود والذخيرة، وحين تعود السفن تحمل معها إلى السويس بشكل أساسي، البن من (اليمن السعيدة) معبأ في صناديق من الخشب كما تحمل البخور بكميات قليلة.

على هذا المنوال قضى فورسكال كل الأسبوع، واستعاد بورتفانيد كامل صحته، لكن ما أسرع ما وقعا من جديد في شباك القلق والأوهام وبرز أمامهما ثانية السؤال: ماذا حدث لنيبور وفون هافن؟ فقد حان موعد رحيلهم إلى جدة، ولم يصل أحد من سيناء ولم تصل أي أخبار.

كتابات هيروغلفية (مصرية قديمة) نقلها نيبور في جبل المكاتب

في الأعلى : مدينة السويس . وفي الاسفل : السفينة العربية التي سافرت عليها البعثة ، راسية بالقرب من الطور



الفصل الرابع

لا أخبار من جبل سيناء

جبل المكاتب والوصايا العشر – مغادرة غاية في الغرابة وكتابات مصرية قديمة وأصنام – الأوروبيون يجعلون السحب تمطر – كيف تسبب فون هافن بإهماله في فشل المهمة – العرب أهل خرافة – الوصول إلى دير القديمة كاترين.

احتفظ كل من نيبور وفون هافن بمذكرات كاملة خلال رحلتهما الخطيرة متتبعين مسالك أقدام موسى وبني إسرائيل. واستحق عمل فون فافن في هذه الآونة الاهتمام الكبير، لأن رحلة سيناء من المهام المنوطة به شخصياً كما كانت إحدى الأهداف الرئيسية للبعثة ككل. ولهذا السبب لم يرد برنستورف فصله عن الآخرين. وتوفرت في سيناء لفون هافن الفرصة الوحيدة للحصول على دلائل هروب الإسرائيليين، والقيام باكتشافات قد يكون لها الأثر العظيم والتقدير الكبير لدى كل بلدان العالم المتحضر. فقد كان عليه زيارة جبل المكاتب ونسخ جميع النقوش والمخطوطات، واكتشاف الجبل الذي تسلم منه موسى الوصايا العشر حيث استطاع بعصاه تفجير الماء من الصخرة الصماء. وكان من واجبه أيضاً القيام بزيارة ذلك الدير المشهور بشبة جزيرة سيناء، بما احتواه من المحفوظات العبرية القديمة التي لم يفحصها ولم يرقبها أحد من العلماء الأوروبيين. وخلاصة القول، أن الآمال المتعلقة على مثل هذه الاكتشافات كانت أعظم من تلك المتعلقة باليمن السعيدة ذاتها، حيث الاكتشافات لا تحرك العواطف والقلوب بسهولة كما ف اكتشافات سيناء. ومن وجهة النظر العلمية، لقد أوكل إلى فون هافن أعظم مهام البعثة، ولم نجح حتى في واحدة منها فسيكون له شأن عظيم في العالم أجمع وسوف يحرز ملك الدنمارك مكانة عالية ونصراً كبيراً.

في اليوم الأول من سفرهم عمل فون هافن على إثارة الخصام مع المرشدين من أجل موضوع تافه، فقد طلب هؤلاء المرشدون إعطاءهم المزيد من الدقيق والأزر. وكان يمكن لرجل عاش وسافر وأكل على حساب الدولة لمدة ست سنوات دون أن يقدم شيئاً مقابل ذلك، أن يتغلب على هذا الموضوع البسيط، لكنه لم يستطع إلا خلق شعور العداء بين الناس الذين تعتمد البعثة على حسن نواياهم. وقاسى عضوا البعثة بعض المتاعب نتيجة لهذا العداء، واتضح أن النية الحسنة لم تتوفر لدى أولئك المرشدين. كتب فون هافن في مذكرته وقد اقتربوا من جبل المكاتب ما يلي:

«بعد ظهر هذا اليوم وفي المساء زارنا الكثير من الأعراب وعرَّفونا بأنفسهم، فما كان منا لا أن ذبحنا عنزة أُكلت كلها في تلك الليلة، نصفها طبخ في الماء وكان منه الشربة والنصف الآخر وضع على النار فكان منه اللحم المشوي اللذيذ، وكان كل شيء في تلك الليلة لذيذاً وطيباً، ذلك أننا لم نذق اللحم منذ أن كنا بالسويس».

وفي صباح اليوم التالي في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) انطلقوا على الطريق عند الفجر بعد أن ملأ الجميع بطونهم، وأصبح الحدث الكبير الآن منتظر الوقوع، نتابع في هذا الخصوص مذكرة فون هافن:

«أخيراً جاء اليوم الذي سيأخذنا معه إلى جبل المكاتب ويكشف لنا كل أسرار هذا الجبل، ففي الساعة السابعة وصلنا عتبة الجبل، حيث كان علينا أن نرتجل ونترك جمالنا في أماكن وجدت فيها ما ترعاه من أعشاب. وأمامنا شاهدنا الجبل الذي كان علينا صعوده ولكننا كنا لا نزال نشاهد تلك الأنواع من الأحجار الرملية التي نراها في كل مكان».

وبدأت آمالنا تتبخر، فمثل هذه الأحجار لا يمكن أن توجد عليها أي كتابة. ومرت ساعتان ونحن نصعد في الجبل، وكلما صعدنا كلما زاد الجبل انحداراً. ولم يكن أمامنا ما يمكن أن يسمى طريق، أو حتى قدم. فكان علينا أن نقفز من حجرة إلى أخرى، ونتسلق الآكام في الوهاد والوديان الضيقة. وحين وصلنا إلى القمة شاهدنا الكثير من الأحجار الواقفة هنا وهناك على بعد منا، وظننا أنها أحجار قبول. كانت قمة الجبل واسعة، لكنها كانت مستوية، وربما استغرق المرور من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر ساعة أو أكثر، وبعد أن مشينا قليلاً وجدنا مغارة صغيرة، كأنها في كل مظهرها، حفرت على الصخرة حفراً. وبعدها بقليل وجدنا مغارة أخرى طولها يبلغ من سبع عشر إلى ثمانية عشر خطوة، وعرضها يبلغ من اثني عشر إلى أربع عشر خطوة، وشكلها غاية في الغرابة، يسندها عمودان قصيران مربعان منحوتان من الصخرة نفسها، وبصعوبة تستطيع اليدان احتضان أحدها. أما ارتفاعها، فلا يسمح للرجل أن يمشي بداخلها منتصب القامة. وبعد أن تركنا هذه المغارة وصلنا إلى أحجار المقابر التي سبق وشاهدناها من بُعد. وفي مكان واحد استطعنا أن نرى منها أكثر ما استطعنا رؤيته من بعيد. وقد خرَّ بعضها على الأرض صرعى مهشمة، وعلى بعض ما تبقى منها واقفاً وُجدت بعض الكتابات المنقوشة، لكنها كانت كتابات هيروغلوفية، طمسها الدهر وأتى على القسم الأول منها. ولقيت نفس المصير تلك الكتابات التي على الأحجار الصرعى على الأرض. ووُجد أن بين ثمان أو تسع أحجار لا تزال واقفة أربع منها فقط لا تزال تحتفظ بأحد جوانبها من الكتابة الهيروغلوفية ويمكن قراءتها بوضوح أو يمكن التعرف عليها.

وقريباً من هذه الأماكن وجدت بعض المغارات المختفية تحت الصخرة، وكانت مليئة بالرمال والحصى لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يدخلها إلا على يديه ورجليه.

وكانت إحدى هذه المغارات قائمة على عمود من الصخرة نفسها وبداخلها تجويفان صغيران على جدارها الخلفي المواجه للمدخل، يسعان لوضع الأصنام الصغيرة بداخلها. كما وجد أن بين الأحجار المهشمة شكلان مثيران للانتباه، أحدهما صورة للنصف الأعلى من الإنسان، مطموس الوجه ولعل الأعراب هم الذين طمسوا ذلك. والشكل الآخر صورة لصنم له ثلاثة وجوه أحدهما له يدان ملصوقتان بشدة إلى الجسم.

فإذا مال المرء للتصديق بأن الإسرائيليين قد يكونوا هم الذي نصبوا هذه الأحجار ولعلهم جلبوا معهم رسوم الكتابة الهيروغلوفية من مصر، فإن الصعوبة في هذا تكمن في هذين الشكلين الذين، من المؤكد أن موسى لم يحفرهما لا بواسطة الإسرائيليين ولا من أجل الإسرائيليين. هذا دون أن نذكر الحقيقة، بأن الكتابة الهيروغلوفية نفسها تحوي رسوماً للإنسان والحيوان.

وطلبنا من العرب أن يدلونا على أماكن لنقوش أخرى، وأمطرناهم بسيل من الأسئلة فأكدوا لنا أنهم لا يعرفون «جبل مكاتب» آخر غير هذا الذي رأيناه. وادعى أحد المشايخ، وهو شيخ المشائخ، ملكية هذا الجبل، وطلب منا مبلغ ١٠ باتاك من أجل السماح لنا بنسخ النقوش، وغادرنا المكان بعد أن رفض أن يقبل مبلغ ٤ باتاك. وبينما نحن نسير تقدم منا الشيخ المرافق لنا وهمس في مسمعنا فيما إذا كان الشيخ الكبير والمرافقون له من العرب سوف يحصلون على نصف النقود التي سوف يغلها الجبل. فقد كانوا يعتقدون أننا جئنا لاستخراج كنوز الجبل ولم يصدقوا لحظة واحدة أن هدفنا هو مجرَّد هذه الكتابات والنقوش. وترجموا عدم قبولنا إعطائهم ما طلبوه من النقود ومشاركتهم كنوز الجبل، على أننا مطمئنون أن الكنز الذي يجثم تحت الجبل سيجد طريقه إلينا، وأنه سينهض من رقاده ويلحق بنا إلى وطننا عند صدور أوامرنا إليه بذلك. ولم تجد نفعاً تأكيداتنا لهم بأن اعتقاداتهم هذه مجرَّد أوهام وأباطيل. وسألني الشيخ الكبير في غضب إذا لم نكن نحن الشعب الذي في استطاعته حين يريد، أن يجعل السحُب تمطر، فأجبته بأنه مجنون وفاقد لعقله. ولم يكن لدي الرغبة أن أقول له أكثر من ذلك».

كان هذا نهاية الحديث عن الجبل، وفي اليوم الثاني واصلوا سفرهم. وهكذا عمل البروفسور الدنماركي على التقليل من أهمية أعظم أهداف البعثة الدنمركية وتصويرها على أنها لا شيء. إن القصة كلها يمكن أن يعبر عنها في سطور قليلة: في المكان الأول لم يجد فون هافن نقوشاً عبرية، بل وجد مجموعة من المغارات وأحجار مقابر عليها كتابات هيروغلوفية محفورة، وقد محت الريح نصفها، كما وجد بعض الأصنام. وكل هذا جعله يعتقد أن هذه الآثار لا يمكن أن تكون من مخلفات الإسرائيليين. ومن المحتمل أنهم زاروا جبلاً غير جبل المكاتب الحقيقي. وسأل المرشدين فيما إذا كانت توجد بعض الصخور الأخرى المكَتبَة في المنطقة من حولهم. فأجاب عليه العرب، الذين سبق واختلف معهم وراوغوه في إجاباتهم عن استفساراته بقولهم: لا شيء يوجد. ورغم هذا كان سعيداً أن يسمع مثل هذه الإجابة.

هذا جانب من قصته، أما الجانب الآخر منها، فإنه بعد أن يئس من وجود الجبل الحقيقي، تمادي في تجاهله الكتابات المنقوشة التي وجدها. وحين سمع بيتر فورسكال عن هذه الرحلة العقيمة قال عنها في مذكرته:

«إنني في غاية الدهشة كيف أن فون هافن ونيبور لم يحوِّلا أفكار العرب وخرافاتهم إلى صالحهما، وحسب ما أرى كان هذا ممكناً. فنحن نعرف جميعاً أن أخطر الأمور وأشدها تدميراً في عالم الإنسان، يمكن دائماً تحويلها إلى صالحه وخيره، إذا ما وقعت في أيدي الرجال المحنكين».

في الحقيقة، لم ينجح فون هافن في استغلال خرافات العرب، لأنه لم يكن يريد أن يكون له بهم علاقة، ولأنه بموقفه غير الودي قد خسر ثقتهم. لقد اعترف بالهزيمة على أيدي الأشخاص الذين بسذاجة، كانوا يعتقدون بأن في قدرته استخراج كنوز الأرض وجعل السماء تمطر. والشيء الوحيد الذي نجح فيه هو أنه زاد العلاقة بينه وبينهم هدماً

وتخريباً، وهو الذين على مساعدتهم كان يعتمد. ووصل الحال بفون هافن إلى درجة أنه فقد جل سلطته على المرشدين، حتى أنه لم يكن قادراً أن يقول شيئاً حين يقوم أحدهم بتغيير هجينه – أي هيجن فون هافن – بهجين تحطم سرجه. وما إن يركب فون هافن هذا الهجين حتى يسقط من عليه أرضاً، ويضطر إلى مواصلة بقية الرحلة على الأقدام. كما أنه فشل في أن يجعل العرب يفون بالتزاماتهم في الرجوع إلى السويس، حيث كان القلق يأكل قلب فورسكال الذي لم يكن لشكوكه أي أساس من الصحة. فالإهانة التي واجهها فون هافن في السويس قد عطَّلت ما تبقى لديه من المبادءة في الخير والشر معاً. فأصبح يجد في تناوله الطعام مع رفاقه، الفرصة لتعزية نفسه وطرد همومها، بعد أن كان في السابق يجد فيه الفرصة لدس السم لهم والانتقام منهم.

وفي صباح أحد الأيام وصل فون هافن ونيبور والمرشدون إلى الدير الذي أهدي إلى القديسة كاترين. ومطران هذا الدير يسمي نفسه (مطران سيناء) وهنا عاشت البعثة الدنماركية دراما أخرى مخيفة. نضع بين يدي القارئ وصف فون هافن للأحداث التاريخية التي حدثت هناك في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر):

«كان للرهبان مدخل آخر إلى الدير عدا الباب الرئيسي الذي لا يفتح أبوابه إلا بحضور المطران، وبواسطة حبل يسحب الرهبان المؤن ومن يريد إدخاله من الناس. ويقع هذا الدير في المنطقة المنخفضة من الوادي وليس على سفح الجبل. وهو مكوّن من بناء مربع في غير انتظام بُني من الحجار الرملية، طول كل منها أقل أو أكثر من نصف ذراع، وارتفاعها ربع ذراع أو أكثر قليلاً. وحين ظهر أحد الرهبان أخبرناه أننا نحمل معنا رسالة إلى الأب كرستوفراوف ماسدونيا قائلين أنها مرسلة من القسطنطينية وأننا من الإفرنج، ولما عرف أننا لسنا يونانيين، استغرب كثيراً لكنه وعد أنه سيطلع الأمر على القس الكبير، وأثناء ذلك ذهبت إلى مخيمنا لأحضر الرسالة وجاء معي الخادم اليوناني



الذي قام بمساعدتنا في التحدث إلى الرهبان دون أن يفهم العرب شيئاً من ذلك. وبعد أن رجعت من المخيم كان علينا أن ننتظر وقتاً طويلاً قبل أن نرى واحداً من هؤلاء القساوسة.

وأخيراً صرخ ذلك الراهب الذي سبق وتحدثنا معه يدعو أحد الأعراب إلى الاقتراب من الحائط. وبقرب الباب كان يوجد على الحائط ثقب صغير كان الراهب بالداخل منبطحاً على الأرض يتحدث من خلاله، وكان من الوسع ما يكفي أن يدخل الرجل كفه وذراعه وألقى الراهب على الأعراب خطاباً بصوت عال ليتمكن الجميع من سماعه، وأخبرهم فيه بأن في استطاعة الشيخ حسن والرجال الأغراب الذين رافقهم دخول الدير، أما الأعراب فعليهم الانصراف من هناك. وبعد هذا طلب رؤية رسالة التوصية، فأعطيته إياها من خلال ذلك الثقب. ودون تكسير خاتم الشمع الذي عليها أرجعت رسالتنا إلينا معتذرين بأن الأوامر التي لديهم تقضي بعدم تسلم أي رسالة عدا تلك التي يكتبها إليهم مطرانهم».

وكان فون هافن قد زار مطران سيناء بالقاهرة عدة مرات، لكنه نسي أن يطلب منه رسالة توصية إلى رهبان الدير. وضاعت الفرصة من أيديهم ومعها كل مجهوداتهم. فلو أن فون هافن دخل الدير لوجد في هذا الدير الصحراوي مجموعة من النفائس لا تقدر بثمن. من هذه النفائس كؤوس القربان للطائفة الروسية، والشمعدان الضخم اليوناني الفضي، والأقمشة وملابس الكهنة الخاصة بالمذبح والمطرزة بالذهب، والصلبان المرصعة بالماس وعصا القساوسة، وجميعها هدايا من ملوك العصور الوسطى والبطاركة وطبقة الأساقفة. ولم تكن هذه المدخرات العظيمة هي أهم شيء في الدير، وليست هي التي ستخلب لب فون هافن، ذلك أن بالدور الثاني من الدير ما هو أعظم من ذلك حيث توجد ثاني مكتبة في العالم بعد مكتبة الفاتيكان، ولم تكن عظمتها في جمال تنظيمها

وفخامتها فقط، لكنها كانت تحوي من المخطوطات القديمة أكثر من ٣٥٠٠ مخطوطاً، منها ٢٢٥٠ يوناني و٦٠٠ عربي وأكثر من هذا، فهنا كانت تحفظ أعظم مخطوطات التوراة شهرة في العالم، والتي كانت تدعى (المجموعة السينائية). ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع وحصل عليها بعد ذلك تشندورف الذي لم ينس أن يحمل معه من القاهرة رسالة توصية من مطران الدير.

وأعجب ما في الموضوع أن مذكرات فون هافن تقص علينا أنه لم يكن مصمماً على دخول الدير ولم يطلب أي مخطوطات خاصة بالتوراة ولكنه طلب فقط قليلاً من الطعام. جاء في مذكرته:

«لأن دخول الدير كان غير ممكن، فقد طلبت من الراهب أن أقل ما يمكن عمله من أجلنا هو أن يبيعونا قليلاً من الطعام لأن جميع المؤن التي كانت معنا قد استهلكها رفاقنا الأعراب. فأجاب عليَّ بأن هذه هي الصحراء وأنهم أنفسهم لا يجدون شيئاً منه، ومع هذا فسوف يرى إذا كان في استطاعته أن يعطينا من حديقتهم بعض فاكهة التين والعنب. وذهب ولم نستطع أن نتحدث معه مرة أخرى».

لكن فون هافن لم ييأس كلية من الحصول على الطعام. جاء في مذكرته:

«وبعد نصف ساعة أدلى ذلك الراهب بسلة من العنب والتين من على حائط الحديقة، فأكل العرب معظم الهدية، وعدنا إلى مخيمنا بالسلة فارغة». ولم يقم بجهود كبيرة ليعرف فيما إذا كان هذا هو جبل سيناء الحقيقي أم لا. تماماً كما فعل قبل ذلك حين غادر جبل المكاتب دون أن يعرف بالتأكيد اسمه الحقيقي. لقد نبذ فكرة اكتشاف الصخرة التي فجَّر منها موسى المياه ولم يقم بأي جهود جديدة لبلوغ مخطوطات. وفي كل هذه الحالات كان عذره واحد: ليس لديهم ما يأكلون!.. ويبدو أنه كان يحسُّ أن

عذره هذا وآه وغير كاف. فمن الدير، لم يكن البعد بينهم وبين واحة الفران إلا يوماً واحداً حيث يمكنهم الحصول بكل سهولة على جميع ما يريدونه من أطعمة. فقد كان لديهم المال الكافي، وكان في استطاعتهم إرسال بعض الأعراب ليحضروا لهم من الواحة ما يريدون من الطعام أو يذهب جميعهم إلى الواحة ثم يعودون إلى جبل سيناء. وتكاليف هذا السفر ستكون تافهة إذا قورنت بالخسائر التي لحقت بالحكومة الدنماركية من جراء عودة بعثتها، صفر اليدين خاوية الوفاض، بعد أن قطعت المسافات الطويلة بين كوبنهاجن وشبه جزيرة سيناء.

وكان لنيبور الرأي نفسه، فحين اقترح فون هافن العودة احتج بقوله:

«حتى إذا لم نستطع الدخول إلى الدير، فإنني ما كنت أرحل طويلاً في الصحراء دون الصعود على الأقل إلى جبل سيناء».

وحين اقترح نيبور صعود الجبل اختلق فون هافن عذراً آخراً سجله في مذكراته: «كانت رغبتي شديدة في رؤية هذا الجبل، ولكن مع ذلك كان صعوده مستحيلاً بسبب ما أصابني من حمى وبسبب جرح في قدمي، وتركت الهر نيبور يذهب لوحده برفقة اثنين من العرب».

وبينما كان نيبور يصعد جبل سيناء كان فون هافن عائداً برفقة اثنين من العرب، وقبل ذلك بيوم رسم نيبور رسمين لدير القديسة كاترين أوضح موقعه بالنسبة للجبال وللوادي، ورسم خريطة أولية للمنطقة محدداً موقعها بالضبط في شبة جزيرة سيناء، عن طريق أخذ مقاسات ارتفاع الشمس وعن طريق تقدير المسافة المقطوعة من السويس. وهو الآن في طريقه لصعود جبل سيناء، وكان مقتنعاً بأن هذا الجبل هو في الحقيقة نفس الجبل الذي تسلم فيه موسى الوصايا العشر. ووصف جميع الكنائس الصغيرة المقامة

على طول الطريق، ونسخ جميع الكتابات التي وجدها على واجهة الصخور، ولم يلحق بفون هافن إلا بعد الظهر، وهو يسير في الطريق إلى واحة الفران، بسرعة وعجلة، ناسياً أنه محموم وأن بقدمه جرح ومفكراً فقط في الراحة التي تنتظره هناك بالواحة، حيث لديه الكثير ليأكل ولا شيء يعمل، أما في جبل سيناء فكان عليه الكثير ليعمل والقليل ليأكل.

وما أن جاء اليوم العشرين من أيلول (سبتمبر) حتى رحلوا من جديد، وفي فجر اليوم التالي واصل نيبور سفره وحيداً، على أمل أن يكون في استطاعته هذه المرة نسخ النقوش دون مضايقة من أحد، ولم ينجح كلية في تجنب الأعراب، لكنه بفضل سلوكه اللطيف وبفضل القليل من المال استطاع أن يعمل طوال اليوم، وفي المساء حين لحق بفون هافن الذي استقر به المقام في قرية (نازب Nassab) كان قد اكمل رسم خريطة أولية للمنطقة، ونقل جميع الكتابات المحفورة، مقتنعاً أن المنطقة كانت في الماضي مقبرة مصرية، وقام بنقل الكتابة الهيروغلوفية من أهم ثلاث صخور وملأ بها ثلاث صفحات في مذكراته. وفي اليوم التالي استيقظ في الفجر وواصل سيره، ليقوم هذه المرة بنقل الرسومات والكتابات التي على الصخور التي سبق وأضاعها منهم العرب حين أخفوها عن أعينهم انتقاماً من فون هافن. وما أن أتى مغيب الشمس حتى كان قد نقل جميع النصوص الموجودة في تلك الأكمة، وملأ صفحتين من مذكراته. وتضمنت هذه النصوص كتابة كوفية ورسوماً على الصخور لجمال وثيران.

وبينما كان نيبور يبذل قصارى جهده في إنجاز هذه الأعمال كان فون هافن ينعم بالراحة في إحدى القرى. حيث كتب في مذكرته آخر ما دونه عن الرحلة:

«من السهل أن نلمس الأثر المشؤوم الذي عانت منه بعثتنا بسبب مرض فنانها بالسويس، ليس فقط لأن معنى هذا هو غياب اثنين من أعضاء البعثة ولكن لأننا كنا أيضاً في أمس الحاجة إليه، فقد حرمنا من الحصول على كثير من الرسوم الجيدة وحرم

أيضاً جبل المكاتب وكل النقوش التي سبق ذكرها، لأنها لم ترسم جيداً كما كان سيقوم الهر بورنفانيد برسمها. ومع هذا، فقد كان الهر نيبور خير بديل له رغم أن الرسم لم يكن من اختصاصه ولا من هوايته. لقد أدى العمل أحسن مما كنت سأؤديه وذلك لجهلي فن الرسم وبسبب الصعاب التي عانيتها وذكرتها آنفاً. ومن العدل أن يحظى هو نفسه بشرف جهده في نقل النقوش، وشرف إرسالها، دون أن أشاركه في هذا بنسخ مستعارة».

في بعد ظهر الخامس والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٧٦٢ بينما كان فورسكال يتجوّل كالعادة بين التجار على أرصفة الميناء بالسويس، لمح من بعيد القافلة الصغيرة تشق طريقها إلى المدينة بعد أن مرت بالخليج شمالاً. وبوصول القافلة تجمّعت البعثة بأكملها من جديد في الفندق بمدينة السويس في حالة معنوية مرتفعة، فبورنفانيد كان قد استعاد صحته، وبعودة نيبور استطاع فورسكال أن يضع نهايةً لمخاوفه، ورجع فون هافن من رحلته إلى سيناء، فكل ما يمكن أن يقال في هذا الخصوص هو أن الوضع كما كان من قبل: لم يعرفوا شيئاً عن جبل سيناء، فلا معلومات ولا أخبار.

وأرسل فون هافن خلال الأيام التالية لوصولهم السويس، صورة لمذكراته عن رحلة السويس بواسطة السفير جاهلر إلى برنستورف، الذي أصيب بعد قراءتها بخيبة أمل أصابته في الصميم، وتملكه غضب شديد وألم بالغ. فقد وجد أن المذكرات اهتمت بالأمور التافهة المضحكة وأهملت أهدافها وفشلت في أداء مهمتها، مما دفعه (أي برنستورف) إلى كتابة رسائل تأنيب وإنذار إلى كل فرد من أفراد البعثة، كانت رسالة فون هافن أعنفها وأشدها. فقد وجه الوزير احتجاجه على إهمال فون هافن في جبل المكاتب، وفي جبل سيناء وفي دير القديسة كاترين، ذلك الإهمال الذي كان في رأي الوزير خطيراً لدرجة أن الأمر كله لا بد أن يعاد من جديد عند عوده البعثة من اليمن السعيدة. وكان رأيه أيضاً أن هذه هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على شرف البعثة فيما



يخص هذا الجزء من واجبها. وعلى كل لم يكن لهذه التهديدات أي فائدة. لأن فون هافن لم يتسلم الرسالة، فقد كتب الوزير رسالته بتاريخ ٢١ حزيران (يونيو) ١٧٦٣، وبعد عدة أشهر من إرسالها تسلم رسالة مزعجة من اليمن السعيدة، كتبها فورسكال وكان عليها إلى جانب توقيعه توقيع نيبور وكرامر وبونفانيد وكان تاريخ كتابة هذه الرسالة هو التاسع من شهر حزيران (يونيو) ١٧٦٣، أي أنها كتبت قبل أن يكتب برنستورف رسالته بأربعة عشر يوماً تقريباً[١]، وقد دخل فورسكال في الموضوع مباشرة قائلاً: إن عالم اللغات الدنماركي فردريك كرستيان فون هافن قد مات فجأة.

(١) باثني عشر يوماً (المترجم)



القسم الخامس



الفصل الأول

الربيع في تهامة

أرسل مئات من النماذج النباتية إلى الدنمارك – لماذا سموها العربية السعيدة – كسوف الشمس – فورسكال يمزح مع ركاب السفينة – نيبور والمستحمات.

في يوم هادئ من أيام الصيف، في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٦٢، كان الرجال الخمسة أعضاء البعثة، من جديد، يقفون على قارب يعبر بهم ناحية الشمس وأصوات المجاذيف تخرّ في آذانهم، وقد خلا الهواء من أي نسيم يمكن أن يحرك ذلك الحر الشديد الرابض على سطح الماء الجامد. لقد تركوا خلفهم مدينة السويس، حيث شكلت الظلال المدببة والواجهات البيضاء للمنازل نموذجاً للتناسب بين الأشياء وظلها، تتغير تدريجاً كلما ابتعد القارب عن الشاطئ، وأمامهم تقف أربعة مراكب ضخمة لا يرون منها إلا الأجزاء الواقعة منها في الظل. وكان النور شديد الوهج حتى أن رؤوس الصواري والحبال كانت تظهر نقط لامعة. وكانت أشعة الضوء تصطدم بالمياه أمام السفن وخلفها.

هذه هي السفن، التي خلال ثلاثة أيام، ستقوم بالإبحار جنوباً في خليج السويس، وبعد ذلك تبحر بميل في البحر الأحمر حتى تصل جدة التي كانت وقتئذ ميناء مكة. وقف أعضاء البعثة في القارب في طريقهم إلى هذه السفن، محاطين بصناديقهم التي بها أمتعتهم. ومن الصعب التصديق حين النظر إلى مظهرهم الخارجي أنهم هم أولئك الأشخاص ذاتهم الذين كانوا في وقت سالف على ظهر السفينة (جرين لند)، فالشمس قد لفحت وجوههم وصبغتها بلون جديد، وقد أسبل فورسكال ونيبور كامل لحيتيهما، ولبس جميعهم الجلاليب الشرقية الطويلة التي اعتادوا على لبسها منذ أكثر من سنة. ولم تكن أحاسيسهم ونفسياتهم تشبه كثيراً ما كانت عليه حين مغادرتهم كوبنهاجن، حين

كان الصمت الحزين يخيم على رؤوسهم. إنهم الآن يتجاذبون أطراف الحديث فيما بينهم حول الطقس والرياح، وقد اعتادوا على البيئة العربية التي تحيط بهم كما اعتادوا على طباع بعضهم البعض، وهدأت مخاوفهم من فون هافن وتأكدوا من أنه سوف يكون مشغولاً بالبحث عن طعام جيد ولن يجد متسعاً من الوقت للتفكير في تسميم الآخرين.

إن هذا التطور في طباع أعضاء البعثة ما هو إلا تطبيق للقانون النفساني الذي كما يبدو تسير عليه كل البعثات. ففي البداية تحدث مرافقة الآخرين المفروضة، حالة من التوتر تتطور حتى تصل إلى درجة غير معقولة. وفي بعض الأحيان تصل إلى درجة تدعو للضحك. وقد تقف في الأخير حالة التوتر هذه عند حد تتخطى معه العداء الشخصي. ورغم هذا، فليس لهذا تأثير على الزمالة، فحين يعيش الرجال تحت دكتاتورية القدر المشترك، فإنهم قد لا يستطيعون احتمال بعضهم البعض، ولكنهم أيضاً لا يستطيعون الاستغناء عن زمالة بعضهم البعض.

وهذا بالطبع لا يجعلهم أصدقاء أعزاء، لكن يبدو أن أخلاقهم تصبح مؤقتاً حسنة ولطيفة بفعل الظروف.

كان لبقائهم بمصر نتائج فاقت ما كانوا يتوقعونه، خلافاً لرحلتهم الفاشلة إلى سيناء، فبالإضافة إلى إرسال عدة مئات من النماذج النباتية فقد أرسل فورسكال أيضاً مؤلفاته الكاملة. اثنان منهما خاصان بالنباتات وواحد خاص بالحيوان. وملأ نيبور ما يقرب من ألف صفحة في مذكرته بملاحظاته الفلكية وبتقلبات الجو مقرونة بالخرائط وتخطيطات المدن مع وصف لعادات وتقاليد سكانها، وتضمنت مجموعات بورنفانيد الفنية العديد من الرسومات النباتية وأشياء أخرى، كالملابس والآلات والأجهزة والآثار والمناظر الطبيعية. ورغم هذه النشاطات والدراسات، فإن السؤال الصامت



الأهم لا زال ماثلاً أمام أعينهم دون جواب، ذلك السؤال الذي أصبح موضوع الحديث الرئيسي فيما بينهم:

- لماذا اليمن السعيدة؟

لقد فرغوا الآن من الاستعدادات الأولية للرحلة، واجتازوا مرحلة الشكوك والخصومات، فساد المرح بين جميع أعضاء البعثة الستة، في ذلك اليوم الهادئ من أيام الصيف على ظهر ذلك القارب في الخامس من تشرين أول (أكتوبر) ١٧٦٢. وكان لفرحهم وانطلاقهم في الحديث سبب آخر نجد صعوبة في تحديده أكثر من غيره. لكنه حقيقة واقعة لا ريب فيها، ذلك أنهم قد أصبحوا الآن على وشك اكتشاف ما تجمعوا من أجله، فإذا سارت الأمور كما يجب فإن الجواب لذلك السؤال الهام يقترب منهم رويداً رويداً، وهم في طريقهم إلى هدفهم الكبير.

بعد ثلاثة أيام من صعود البعثة على ظهر إحدى السفن، أبحرت السفن الأربع في اتجاه الجنوب على المياه اللامعة، محملة حتى السطح بالمسافرين والبضائع، وقدَّر فون هافن المسافرين على باخرتهم وحدها بـ ٥٠٠ إلى ٦٠٠ راكباً. وقدَّر فورسكال البحارة بها لا يقل عن اثنين وسبعين رجلاً، يرافق أغلبهم زوجاتهم وأولادهم. واحتل الحجاج الأتراك أفخم القمرات ترافقهم جميع حريمهم، ونزلت نساؤهم في أماكن تحت قمرة أعضاء البعثة مباشرة، وأصبح حال أعضاء البعثة كما لو كان الحال عليه تقريباً مع الجواري في السفينة التي حملتهم من استنبول، وكانت النتائج، كما سوف نرى، شبيهة بالنتائج السابقة في بهجتها ومتعتها.



كان سطح السفينة، مقدمتها ومؤخرتها، مليئاً بالتجار الذين كوموا صناديقهم وحزمهم، بحيث تركوا مساحات في وسطها للنوم وللجلوس، وكانوا يقضون وقتهم في الحديث وفي إنجاز بعض الصفقات التجارية، وتدخين الغليون وبطبخ الأرز. وكل سفينة من السفن الأربع كانت تجرُّ خلفها ثلاثة أو أربعة قوارب صغيرة معظمها مشحون بالماعز والأغنام، وعندما تحين ساعة إطعام هذه الحيوانات كان يرمى إليها من على ظهر السفينة كيس من التبن. وكان موقف الركاب نحو الأوروبيين موقفاً متردداً. غير واضح. ومن وقت لآخر اضطر الأوروبيون الخضوع، للتهديدات وسوء المعاملة – لكنهم كانوا موضع اهتمام من قِبل أحد المسلمين البارزين. واستغل فورسكال حادث الكسوف المتوقع فوق البحر الأحمر، لاستعادة مكانتهم المفقودة ومركزهم الضائع. فقد أخبر ربان السفينة وركابها أنه يتنبأ حدوث كسوف للشمس. وبالفعل حدث هذا الكسوف في السابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٦٢. فدهش جميع المسلمين لهذا، وكبر شأنهم لديهم، واعتبروه ضليعاً ليس فقط الشؤون الروحية والمادية، بل وفي شؤون الطب أيضاً، وتهافت عليه ظهر ذلك اليوم الكثير ممن شعروا بالمرض فجأة، وطلب كل منهم علاجاً لمرضه، فأخبرهم الدكتور «الجديد» كيفية علاج أمراضهم المختلفة بأحسن الوسائل وأنجعها، ونصح غالبيتهم بأن يناموا أو يأكلوا، أما قليلاً أو كثيراً مما هي عادتهم. وفي الأخير أتى أحد الحجاج، وشكا أنه لا يستطيع أن يرى في الليل، فنصحه الهر فورسكال أن يشعل مصباحاً.. وانفجر الحاضرون بالضحك لسماعهم هذه النصحية. ويبدو أن جميع الحاضرين استعادوا صحتهم بعد ذلك، وأصبحوا يشعرون بالراحة وهم الذي كانوا قبل قليل يشكون الآلام من أمراضهم.

وبعد أن مضى أسبوع تقريباً على مغادرتهم مدينة السويس، ظهر الشاطئ العربي أمامهم، وكانت تسمع التهليلات والهتافات العنيفة وهي تشق عنان الفضاء، ولبس

جميع الحجاج ملابس الإحرام وأطلقت السفن مدافعها فرحاً، وعلا صوت الطبول نشوة وابتهاجاً. وفي المساء علقت الفوانيس الملونة على حبال السفينة، وعلق المسافرون فوانيسهم الخاصة على طول السفينة وعلى السطح في مقدمة السفينة ومؤخرتها. وكان التجار يطلقون النار من مسدساتهم ابتهاجاً، كما كان يدور بين المسافرين والبحارة إناء من الفخار لاستقبال التبرعات لقائد السفينة الذي أنجز المهمة المذهلة. واستمر الناس يمرحون حتى أعماق الليل.

لم يكن لنيبور سمع حاد فقط وهو يصغي للضجة التي كانت تحدثها النساء في الأماكن التي تحتهم، بل كان له أيضاً نظر ثاقب نحو جمالهن، وسحر أجسادهن. وقد اضاف إلى ملاحظاته للشمس والقمر والنجوم ملاحظة من نوع عجيب هي ملاحظة الحسان من الحريم. ويحسن بنا أن نترك الآثم نفسه يعترف. جاء في مذكراته:

«كان حمامنا مجاوراً لحمام الحريم، وكلاهما كانا وسعين لما يكفي لاغتسال ثلاثة أشخاص أو أربعة في وقت واحد. وحين دخلت أول مرة الحمام تملكتني الدهشة، فقد كان باستطاعتي أن أسمع أصوات النساء بوضح نوعاً ما، واستولت عليَّ فكرة التفتيش عن ثغرة ما في الحائط المشترك بيننا، ووجدت فعلاً شقاً صغيراً في هذا الحائط».

هكذا انتهت رحلة السويس، بالحديث عن الحسان، تماماً كما انتهت رحلة القسطنطينية بوصف تلك الجواري من الفتيات، وكما انتهت إقامتهم بالقاهرة بمشاهدة الفتيات الراقصات. ويبدو كما لو أنهن نفس الفتيات، يظهرن بعد كل مرحلة من مراحل سفرهم، ثم يختفين، تماماً مثل فتيات الفرق اليونانية التي تظهر على المسرح بين فصول المسرحية.

Baurenfeind del. J.F.Clemens Sc.

صياد في جدة بريشة بورنفانيد

جدة بريشة بورنفانيد. وتبدو السفينة التي كان عليها ان تأخذ البعثة معها الى شواطىء « العربية السعيدة » .



الفصل الثاني

من جده إلى اللحية

وصولهم إلى جدة – قطعة ظريفة – وصف ميناء جدة – إسماعيل صالح – عيد الميلاد المسيحي على ظهر السفينة – كيف استقبلوا في اللحية.

في التاسع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٦٢ رست السفن الأربع في ميناء جدة. وهنا افترق الأوروبيون عن بقية الركاب، فاتجه الحجاج المسلمون على اليابسة شرقاً صوب مكة، وواصل الرحالة الدنماركيون رحلتهم في البحر جنوباً في اتجاه (اليمن السعيدة). وقبل مواصلتهم السفر اضطروا للبقاء في جدة ستة أسابيع، بسبب الرياح الشمالية الدائمة التي أخّرت وصول السفن القادمة من المخاء محملة بالقهوة، والتي كان عليها أن تعود بهم من جدة إلى اليمن السعيدة.

كان بقاؤهم مملاً بين عرب مصر، الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة عدائية، لكنهم هنا، التقوا، مندهشين، بشعب ودود، واستطاعوا لأول مرة أن يزوروا أماكن شرب القهوة، دون مواجهة أي إزعاج أو مضايقة أياً كانت. فعرب جدة لا يجدون في وجود الأوروبيين بينهم إهانة لهم، كما كان الحال في مصر. والكل، غنيهم وفقيرهم لطيفوا المعشر ومحبون للاستطلاع. وبسبب آلتهم الفلكية كسب أعضاء البعثة شهرة واسعة في قدرتهم على التنبؤ بالمستقبل. وفي مساء أحد الأيام، في بيت الباشا، قصَّ عليهم أحد المشايخ الحاضرين كيف أن أحد خدمه قام بسرقته مبلغاً من المال، وطلب من نيبور أن يدله على اللص، فرفض نيبور طلبه هذا في انزعاج، فقد كان الأمر فوق طاقة آلته الفلكية وأبعد من الحدود التي تصل إليها قدراته. وعندئذ تقدم أحد الرجال المسنين، كان حاضراً مجلس الباشا هذا، وأبدى استعداده لاكتشاف الجاني، وطلب حضور جميع خدم الشيخ المسروق ووضعهم في صف واحد بحوش المنزل، وأخذ يغدو ويروح

أمامهم مرتلاً بعض التراتيل والصلوات، بعد أن وضع في فم كل واحد منهم قطعة من الورق، ثم أمرهم بابتلاع الأوراق التي في أفواههم، مؤكداً لهم أن الأبرياء منهم لن يسمهم ضرر، وأن الله ينزل نقمته وغضبه على السارق فقط. كان نيبور أثناء هذا يرقب في دهشة بالغة الرجل العجوز، وهو يطلب منهم واحداً بعد الآخر أن يفتحوا أفواههم حتى وجد أن أحدهم لم يجسر على ابتلاع الورقة، وعندها اعترف في الحال أنه هو السارق.

خلال فترة بقائهم بجدة قام كل من نيبور وبورنفانيد وفورسكال بإنجاز بعض الدراسات على المنطقة، كل في مجال اختصاصه. وعند المغيب كانوا يتجولون على الرصيف، وفي استطاعتنا أن نتخيلهم يسيرون هنا وهناك، يسجلون أسعار الحرائر المستوردة من الهند، وأسعار العسل والشراب والبيرة الصفراء من مصر، والقصدير والزئبق والشمع من أوروبا. من حولهم يتزاحم الناس في ذلك الميناء العربي – الذي ربما لم يتغير منذ ذلك الوقت بروائحه المخمة، وألوانه الترابية، الخضراء والصفراء، وحماليه المشدودة أعينهم إلى الأرض. وعلى طول الرصيف امتد خط طويل من السفن الخاصة بتجارة الرقيق، حاملة أشرعتها بانحراف كسهام منطلقة نحو الشمس الغاربة. وفي إحدى الأمسيات بعد وقت من هبوب الرياح الجنوبية، ظهرت في الأفق السفينة (العجيبة) التي ستحملهم في آخر مرحلة من مراحل سفرهم إلى اليمن السعيدة. ولم يكن من المألوف أن تقوم هذه السفينة بنقل المسافرين، فهي خاصة بنقل البن وبلادها مسقط وقد وصلت جدة بحمولة من حبوب البن، جاءت به من المخاء باليمن السعيدة، وهي راجعة الآن لتحصل على حمولة جديدة تعود بها هذه المرة إلى موطنها مسقط. وكان يبدو أن بحارتها من السفاكين المتوحشين، وكان قائدها العربي، عاري الجسم تقريباً، عليه مئزر ملفوف حول الجزء الأعلى من فخذيه، ومعلق بطرفه سكين مقوّسة. وكان عدد بحارتها لا يقل عن تسعة أشخاص من العبيد السود، بعضهم من زنوج إفريقيا

بشفاههم الغليظة وأنوفهم المفلطحة، والبعض الآخر من شاطئ مالبار بالهند، تشع من جلودهم الألوان السمراء الداكنة الذهبية أكثر من زملائهم الإفريقيين. بعد أن شاهد أعضاء البعثة السفينة ومن عليها أخذتهم الظنون كل مأخذ، وأحسوا أنهم يجازفون بحياتهم بالسفر على هذه السفينة في رحلة طويلة قد تصل إلى ما يقرب من ٤٠٠ ميلاً بحرياً حتى ميناء المخاء. لكن، ماذا كان يمكن أن يعملوا، فقد أخبرهم الجميع بجدة أن من غير المتوقع أن يأتي الكثير من السفن، ومن غير المتوقع أيضاً أن تبحر إلى اليمن خلال فصل الشتاء هذا، أي سفينة أحسن من هذه السفينة (المسقطية). وبعد أن حصلوا على رسائل توصية إلى حاكم (اللحية) أول (ديسمبر) ١٧٦٢، واصطحبوا معهم مرافقاً لهم، أحد أبناء التجار المؤسرين في المخاء، يدعى إسماعيل صالح وكان شاباً نشيطاً واجتماعياً نوعاً ما، ويتكلم قليلاً اللغة الهولندية، ولم يكن غريباً عن الطباع والأحوال الأوروبية. واعتقدوا أنه قد يكون ذا نفع لهم خلال إقامتهم في المخاء، وأثر فيهم تملقه الفطن، فدعوه في ثقة تامة لمرافقة البعثة.

وفي صباح اليوم التالي، في التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) خرجت السفينة العجيبة من ميناء جدة، وكان منظرها غريب الشكل ومسلياً في الوقت نفسه، وعليها تلك التشكيلة المتنوعة من البضائع والركاب الذين يبلغ عددهم مع البحارة والخدم ما يقرب من عشرين شخصاً. وطلعت الشمس وغطّت السماء الخالية من السحب، وهبّت رياح شمالية رقيقة، دالة على فصل الشتاء في شبه الجزيرة العربية. وتبين للجميع أن السفينة الغريبة الشكل، والتي كان يسميها فورسكال بالقارب (الملفق) كانت تسير بخفة حتى حين هبوب النسيم الرقيق. وبدأت روحهم المعنوية تقوى بابتداء المرحلة الأخيرة من رحلتهم الطويلة. عدا كرامر الذي كان حانقاً لأنه فقد ساعته في أرضية السفينة، ولم يستطع الحصول عليها لتراكم الكثير من الصناديق هنا وهناك. وتأكد لديه

أنها لا بدّ قد تلفت في الماء الذي كان يتسرب من خلال السفينة إلى قعرها. كانت هذه السفينة المكشوفة مليئة حتى آخرها بصناديق البضاعة، وبين هذه الصناديق كان الركاب يقضون النهار وينامون الليل، مولين للشمس ظهورهم نهاراً، ومتجهين بوجوههم مساء نحو النجوم. وقد أشعل تنور من الطين في مقدمة السفينة، له حجم اسطواني بعض الشيء، في اتجاه الجزء الأعلى منه. وكان بجانبه اثنان من البحارة يعدان طعام المسافرين المؤلف من التمر ومن الخبز المصنوع من الذرة، الذي يخبز كل يوم بيومه، إذ يقوم أحد الهنود بطحن الذرة في مطحن من حجر الجرانيت، ثم يعجن الطحين، ويترك لليوم التالي حتى يتخمّر، وحين تخمد النار في التنور، يخبز العجين على جوانبها وبعدها تقفل فوهة التنّور بغطاء من الطين. هذه الطريقة يمكن مشاهدتها حتى الآن في المخابز العربية. ثم يخرج الخبز من الموقد ويدهن بزيت السمسم ويؤكد حالاً ولا يزال دافئاً. لسنا ندري كيف كانت ردود الفعل لدى فون هافن وهو يتناول مثل هذا الطعام البدائي. كتب فورسكال عن هذا الطعام يقول: «لم أكن معتاداً على هذا النوع من الخبز، ولم يعجبني مذاقه. أما ركاب السفينة الذين لا يعتمدون على شيء سواه، فكانوا مع هذا، أقوياء الأجسام. ورغم أنهم من العبيد إلا أنهم كانوا أكثر سعادة وقناعة ممن سبق وشاهدت من العرب والأتراك، حتى أنهم أسعد من الذين يملكون كامل حريتهم».

لقد اكتشف فورسكال كم كانوا سعداء حين شكا أحد العبيد من ألم ألمّ به بجانب قلبه، واستعدّ في الحال قائد السفينة ووضع طرف أحد القضبان الحديدية في النار حتى احمر، وكوى به مرتين صدر هذا العبد المسكين. لقد كان العلاج أشد قسوة من المرض، لكن المريض أفاد من ذلك.

ولأن الطريق الساحلي الذي تسلكه السفينة مليء بالصخور الخطيرة، المسننة القريبة من سطح الماء، فإن قائدها، تماماً كقائد سفينة السويس، لم يجرأ على مواصلة الرحلة في

الليل. فعند المساء كان يأمر بلف الشراع والتوقف عن الإبحار، أحياناً في خليج مأمون بالقرب من الشاطئ الصحراوي وأحياناً بالقرب من جزيرة مرجانية في مأمن من الريح. وبينما تشتعل النار في الموقد كان فورسكال يجد الفرصة سانحة للقيام بتجميع المحار، أو ملاحظة طيور الشاطئ، حيث وجد طائر الشنقب وزمج الماء وأسراب من النسور التي تعيش على فضلات الإنسان والحيوان. وفي الوقت الذي يقوم فيه فورسكال بمثل هذه الملاحظات نجد نيبور ينصب آلته الفلكية للقيام ببعض الملاحظات الفلكية في الليل. وباطلاعنا على الجداول الفكية التي سجلها في هذه الفترة، نجد أنه أثناء توقف السفينة كان يسجل قراءات جديدة تساعده في عمل خارطة كبيرة للبحر الأحمر. وقام أيضاً بتحديد خط الطول بالنسبة لموقعهم، بملاحظة بعد القمر عن الألفا في برج الحمل، أو عن بعدها عن نجم الثور في نجمة الثور. وعلى ضوء فانوسه السفري الصغير سجَّل النتائج في الجداول، وكل من حوله نيام في نيام.

وحين كانت السفينة ترسو في المساء بعيداً عن الشاطئ كان في إمكانهم إرسال مجموعة صغيرة لشراء الطعام من المستوطنين في تلك الشواطئ، ولخوفهم من اللصوص ولقلة عمق المياه، كانوا دائماً يخوضون في الماء إلى الشاطئ وعلى أجسامهم القليل من الملابس على قدر الإمكان، وليس بحوزتهم أي مبلغ من المال، فإن هاجمهم اللصوص فإن خسارتهم في هذا الحال تكون أقل ما يمكن.

كان فورسكال محباً للمغامرة، وكان دائماً مستعداً لمرافقة هذه المجموعات إلى المجهول. وقد وصف لنا كيف كانوا يجدّون طريقهم إلى القرى الصغيرة البسيطة، بشوارعها الملتوية المسقوفة، ومنازلها المبنية من حصير القش والحشائش، وكيف كانوا في بعض الأحيان يدخلون في مساومة مع بعض القبائل المتجولة في الصحراء، وحين يصلون معهم إلى اتفاق يتسلمون البضائع منهم ويدعون بعضهم إلى السفينة حيث يقدم لهم التمر وتدفع لهم أثمان سلعهم. وما أن يشتروا منهم شيئاً أو يأكلوا سوية، حتى تتحول نظرات العداء وسوء الفهم إلى نظرات ودية، وكرم ضيافة.



حدث ذات مرة أن خاضوا الماء إلى الشاطئ المواجهة خمسة أو ستة رجال كانوا يجرون نحوهم، عراة الرؤوس، متدلية ظفائر شعرهم على رقابهم، ولباسهم قطعة صغيرة تغطي ما توسط من أجسامهم، وكان يحمل كل منهم بيده هراوة طويلة، وما أن لمح فورسكال الهروات بأيديهم، حتى أسرع كلمح البصر، وقطع بعض العصي للدفاع عن النفس. وفجأة وضع رئيس القادمين هراوته على الرمال، وبسرعة البرق حال قائد السفينة اختطافها، فلاحظ الأعراب مخاوف الآخرين وشكوكهم فرمى جميعهم أسلحتهم إلى الأرض وبدوا حديثهم بالتحية والسلام.. وفي الحال انضمت إليهم نساؤهم مرتدية أثواباً مهلهلة وعلى رؤوسهم شالات سوداء لم تستر الرأس بكامله، رُسمت عليها خطوط ومثلثات سوداء لتجلب الحظ لأصحابها، كما يعتقدون.

من هذه النسوة اشترى فورسكال قليلاً من اللبن الرائب وقليلاً من الزبدة السائلة التي كانت محفوظة في أوعية صغيرة من الجلد. وتفضل النساء أن يأخذن مقابل ذلك خام الرصاص، والمساحيق السوداء التي يصبغن بها أنفسهن ولأن هؤلاء الأوروبيين لا يملكون شيئاً من هذه الأشياء فإنهن يقنعن بما يعطى لهن من خبز الذرة الطازجة، كن يجمعنه من السفينة في أطراف أثوابهن المشمرة، ويسرن به على الماء حتى الشاطئ. واصلت السفينة طريقها جنوباً بمعدل سير متغير تبعاً لقوة الريح الشمالية. وليلة عيد الميلاد المسيحي لسنة ١٧٦٢ توقفوا محجوبين عن الريح بالقرب من جزيرة بركانية تدعى (Kotubel) لكن أعياد الميلاد تخص ذلك العالم الذي سبق واختفى وراء الأفق، وبعد وقت قصير ستأتي السنة الجديدة لتحل محل السنة القديمة. وبعد أربعة أيام من توقفهم الأخير بينما كانوا يجرِّبون المنظار المقرب في اتجاه الجنوب الشرقي، شاهدوا أعالي منازل ميناء اللحية مرتفعة فوق الأفق البعيد. كانت هذه المدينة هي الميناء الشمالي لليمن. وفي اليوم التالي وصولا شاطئ المدينة، وعلا الضجيج بين الركاب. وكان على السفينة أن ترسو بعيداً عن الشاطئ بستة أو سبعة أميال لأن البحر كان في حالة الجزر. وبعد أن لفت الأشرعة نزل إلى الشاطئ ربان السفينة ليعمل على تأمين القوارب التي

ستنقلهم إلى الشاطئ ويتأكد فيما إذا كان المكان آمناً أم أنه يجب عليهم مواصلة الرحلة قليلاً نحو الجنوب إلى الميناء التالي: الحديدة. وعاد إلى السفينة بعد ساعات قليلة وأخبرهم أن كل شيء على ما يرام، وإن حاكم المدينة الأمير فرحان يبعث إليهم بتحياته وسلامه. وأنه صديق حميم لجميع الزوار الأجانب، وقد عبَّر عن رغبته في أن يلتقي بجميع المسافرين ويطلب منهم أن ينزلوا ضيوفاً عليه في المدينة ووعد أن يعطيهم جماله ليسافروا عليها إلى المخاء. وأكثر من ذلك فقد علموا أن أحد تجار المدينة البارزين يرحب بهم ترحيباً كبيراً، ويحثهم على دخول المدينة، وأبدى استعداده ليسكنهم في أحد بيوته مجاناً. وكان في حاجة ماسة لطبيب.

بدأ الآن كل شيء مطمئناً بالنسبة لهم، وبعد جدل قصير قرر الأعضاء قبول هذه الدعوات الكريمة، والتوقف في اللحية، ثم بعدئذ يواصلون طريقهم براً إلى مدينة المخاء. وفي هذا الوقت تقدم منهم ذلك الشاب اللطيف الذي اصطحبوه معهم من جدة والذي كان عليه مواصلة الرحلة على السفينة، وأبدى استعداده لأن يحمل معه جميع الصناديق التي بها ما جمعوه من نبات وحيوان، ويضعها أمانة في جمرك المخاء حتى وصولهم. وقد أحس كل من نيبور وفورسكال أن هذا أحسن من أخذها معهم في سفرهم الطويل على اليابسة، فشكروه كثيراً وسلموه واثقين مدخراتهم التي لا تعوض. وأثناء تسليمهم هذه المدخرات، صرخ كرامر فجأة صرخة الفرح حين استطاع أن يمدَّ يده إلى أرضية السفينة ويجد الساعة التي فقدها منذ أن كانوا في جدة. ولم يجد قطرة ماء واحدة في قاع السفينة التي ظلمها فورسكال وسماها بـ (الملفقة)، ووجد الساعة في حالة جيدة. ثم تبع ذلك تبادل الأمنيات الطيبة بمناسبة الوداع وعم المرح والهرج كل السفينة، وهم يودعون قائدها والشاب إسماعيل صالح الذي لم تفارق شفتيه الابتسامة. بعد هذا اتجهوا إلى الشاطئ. وفي أمسية التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) لعام ١٧٦٢، خلال الذكرى السنوية الثانية لمغادرتهم كوبنهاجن، وطأت أقدامهم لأول مرة تربة اليمن السعيدة. وكانوا جميعاً، فورسكال ونيبور وفون هافن وبورنفانيد وكرامر وخادمهم برجرن في حالة جيدة.

خريطة لميناء اللحية رسم نيبور



الفصل الثالث

اليمنيون ضيوف القدر

الاسكندر المقدوني يحلم باليمن – حضارة اليمن في القديم – سبب انهيار الإمبراطورية السبائية – وضع اليمن الجغرافي – مرة أخرى.. لماذا أسموا اليمن.. بالسعيدة؟ – قصة القملة الحية.

كانت بلاد اليمن مملكة قديمة في الوقت الذي سمَّاها الإسكندر[1] (Eudaimon Arabia) وكانت الحضارة المعينية قد ازدهرت فيها قبل أكثر من خمسة قرون من عصر هذا الملك الفارس الطموح، الذي أخذته الحمى معها بلا رجعة، دون أن تطأ أقدامه أرض أحلامه، بلاد اليمن. واستمدت هذه الحضارة ثرواتها الضخمة من التجارة بين الشرق وبلدان البحر الأبيض المتوسط فقد كانت السفن الهندية تفرغ حمولتها في موانئ اليمن حيث يقوم التجار المعينيون بنقلها بواسطة القوافل إلى غزة ومعها منتوجات اليمن الخاصة به، وهي اللبان والبلسم والمر العلاجي[2]. وقد كبر شأن هذه المملكة فشيَّدت المدن العظيمة وتوسعت حتى حدود فلسطين. وجاء أفول هذه المدنية العظيمة عام ٧٠٠ تقريباً قبل الميلاد المسيحي، حين انهارت سلطة المعينيين، لكن ثرواتهم ظلت باقية بعدهم، وحل محلهم السبائيون الذين شيدوا المدن المترفة في صرواح ومأرب، وأرسلوا ملكة سبأ رمزاً لغناهم في زيارة للملك سليمان الحكيم، وفي زيارة إلى كل أطفال الدنيا الذين يقرؤون في التوراة قصة هذه الزيارة. إن أسطورة «العربية السعيدة» لا يمكن أن تنسى، فلها جذور عميقة في نفوسنا وفي التاريخ.

(١) هو الإسكندر الأكبر المقدوني، المولود عام ٣٥٦ ق.م. وقد قامت بينه وبين الفرس عدة معارك في عهد كسرى فارس داريوس الثالث. واحتل مصر وسوريا، وشيد مدينة الإسكندرية. واستولى على فارس وأفغانستان. ومات في الثالثة والثلاثين من عمره. ويبلغ عدد من سموا بالإسكندر من عظماء الغرب العشرين. (المترجم: عن كتاب اليمن عبر التاريخ للأستاذ أحمد حسين شرف الدين).

(٢) المر العلاجي: صمغ راتنجي يخرج من ساق شجر المر.



وجاء انهيار الإمبراطورية السبئية حين أنزل البطالسة سفنهم للعمل في البحر الأحمر مما أدى إلى الاستغناء عن التجارة بواسطة القوافل. فتحولت صرواح ومأرب في الصحراء إلى مجموعة من الآكام الرملية. وظل الإسكندر بعيداً عنها، لكن الأنباط (Nabataeans) أتوا وأتى الحميريون، وأخيراً أرسل (المحمديون) فرسانهم القساة إلى السهل التهامي الصحراوي. ولم يستطع أحد أن يوطد ولا أن يمحي تلك الأسطورة، أسطورة العربية السعيدة. فهي رغم كل شيء تتردد بين الأنقاض في زهو كأغنية لقبرة فوق اللهيب. وفي هذه الأرض قُتل الرجال واغتصبت النساء وسيق الأطفال إلى الأسر، ورغم هذا لم تقدم للعالم رمزاً للرعب والمخاوف، بل ظلت رمزاً للجنة على الأرض، وظلت الآمال تعيش في قلوب الرجال الذين يصلون إلى موانئها الطينية حيث كانت تصب في يوم ما ثروات الشرق. إن اليمن لا تزال حتى اليوم تدعى اليمن السعيدة.. لماذا؟

إننا لا نقترب كثيراً عن الجواب حين نأخذ في اعتبارنا وضعها الجغرافي. فهي تتألف من جزئين: من تهامة، وهي امتداد طويل لسهل صحراوي(١)، يمتد على طول امتداد البحر الأحمر من ميناء المخاء(٢) في الجنوب إلى ميناء اللحية في الشمال. ومن المناطق المرتفعة، وهي مناطق جبلية خصبة تمتد مجاورة لتهامة وبها عاصمة البلاد صنعاء التي تشكل مع المخاء واللحية مثلثاً متساوي الأضلاع تقريباً. فإذا تخيلنا دائرة حول هذه المدن الثلاث فإن مدينة الفقيه تقع على وجه التقريب، في مركز هذه الدائرة، في وسط الصحراء التهامية، كملتقى للبضائع التي تأتي من مناطق الجبال العالية الغنية حول صنعاء، والتي توزع بعدئذ في اتجاه مينائي المخاء واللحية. لم يكن بين هذه البضائع

---

(١) ليست تهامة صحراء، بما في هذه الكلمة من معنى. فهي صالحة للزراعة، وبها الآن بعض المزارع، المعتمدة على مياه الآبار. ويمكن زراعة أراضي واسعة جداً فيها إذا توفر المال والإدارة الحسنة. (المترجم)

(٢) لم يحالف التوفيق المؤلف وهو يحدد تهامة اليمن، لا من ناحية الواقع ولا من ناحية وحدة الأراضي اليمنية.



اللبان والبلسم كما كان قديماً، فزمانهما ولى وذهب، لكنها كانت تضم ما هو أحسن، فبلاد العربية السعيدة تنتج الكثير من المنتوجات العطرة ومن متطلبات الحضارة الحديثة كالبن والتنباك. وتحمل القوافل جميع هذه البضائع من الجبال سائرة بها نحو تهامة كالسيل المستمر. وتكون الجمال في العادة، محملة بالبن والحمير بأوراق التنباك. وتمر القافلة في طريقها في الصحراء بمدينة بيت الفقيه حيث تهب الرياح الشمالية على الرمال دون أن تلتقي في سيرها بورقة واحدة من العشب، فخلال هبوط الأمطار في فصل الصيف على المناطق الجبلية، لا تنزل قطرة واحدة على تهامة[1] حيث تشتد الحرارة لدرجة أن السيول التي تسببها الأمطار في الجبال والتي تنحدر نحو تهامة تلتهمها الرمال كلية، قبل أن تصل إلى أي مكان بالقرب من البحر. وفي الشتاء نجد أن الهواء في تهامة جاف وخفيف ولكنه في الصيف رغم انعدام الأمطار يصبح رطباً وغير صحي، ويحس الناس أثنائه أنهم في حمام بخار ويشعرون بالفتور أكثر وأكثر من شهر لآخر مع عدم القدرة على تناول الطعام، ودون وجود ما يطفئون به عطشهم من ماء الشرب.

إن نسبة الوفيات بين الأطفال باليمن كبيرة، فمعظمهم يتعرضون للموت في سن مبكرة. وقليل من البلدان الأخرى يكون فيها معدل الوفيات السنوي مساوياً لمعدلاته في هذا البلد الذي يسمونه جنة الله على الأرض. والسبب في ارتفاع هذا المعدل هو انتشار مرض اليرقان والدزنتاريا والملاريا. إنه القدر وهذا هو المقدّر للإنسان اليمني. فحين تقف موجات الغزاة حين لا يجدون هناك أكثر مما وجدوا، يأتي عندئذ دور الأمراض في احتلال البلاد ورغم كل هذا فاليمن لا تزال حتى اليوم تدعى العربية السعيدة.. لماذا؟ هذه هي البلاد، وذلك هو السؤال الذي واجهته البعثة الدنماركية في التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) لسنة ١٧٦٢، حين وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام بلاد اليمن وأمام هذا السؤال.

(١) الواقع أن الأمطار تسقط أحياناً وبغزارة على تهامة في فصل الصيف، كما أن سيول أمطار الجبال تصل تهامة. (المترجم)



فالنبأ الذي عاد به ربان السفينة بأن حاكم المدينة يرحِّب بمقدمهم وإن أحد التجار قد لهم أحد منازله قد آثار آمالهم وأحلامهم. وبالفعل لم تخب آمالهم فما أن وطئت أقدامهم الشاطئ حتى وجدوا ذلك التاجر في انتظارهم بنفسه على الرصيف، ودبَّر مرورهم بالجمرك دون صعوبة ورافقهم إلى المنزل المبني من الحجر، الذي وضعه تحت تصرفهم. وبعد قليل من وصولهم وصل رسول من الأمير فرحان ومعه خروف رائع هدية لهم بمناسبة وصولهم، وأيضاً رسالة من الحاكم يرجوهم للمرة الثانية، أن يعتبروا أنفسهم ضيوفه. وأكد لهم أن يرحب بوصولهم إلى اللحية، وأن في استطاعتهم أن يظلوا فيها إلى حين يشاؤون في أمان وسلام. وقد لهم عشاء جيداً لأن أدوات الطبخ الخاصة بهم كانت لا تزال على السفينة. وقد وجدوا الطعام غريباً عليهم بعد تناول البلح وخبز الذرة لفترة طويلة. كما أراد كل من الحاكم والتاجر أن يدفع لربان السفينة أجرة ركوبهم على الباخرة من جدة إلى اللحية، لكن أمين صندوق البعثة، نيبور رفض ذلك شاكراً وتساءل في مذكرته، فيما إذا كان يمكن أن يحدث مثل هذه المبادرة الطيبة من قبل السكان الأوروبيين، لمسافرين عرب في أي مكان في أوروبا. وغمرت كرم الضيافة العربية هذه عالم الفلك المتواضع الذي لم يكن معتاداً على طلب أي شيء من أحد. كتب يقول في أول مساء لهم بميناء اللحية: «كنا في غاية السرور أن نكتشف أن العرب، أكثر لطفاً وحفاوة كلما ابتعدنا عن مصر، وعلى الأخص، هنا، في البلد الذي كان هدفنا الأساسي، فقد استقبلنا، من البداية، المواطنون خير استقبال».

في اليوم التالي أحضرت صناديقهم، التي استبقوها ولم يرسلوها مع الشاب إسماعيل صالح إلى المخاء، وخشوا أن يكن في الجمرك تفتيش لأدواتهم يدعو للشك. وهم في هذا الهم، إذا بالأمير فرحان يصل ويعطي تعليماته في أن تسلم جميع الصناديق إلى الأوروبيين دون فتحها. ولاحظوا أن الأمير قد تكون لديه الرغبة في أن يرى أدواتهم

وأن يشرح له طريقة استخدامها. فأخرجوا من الصناديق عدة أشياء اعتقدوا أنها ستنال إعجابه وإعجاب أولئك العرب الذين تجمعوا حوله. أخرج فورسكال منظاره العجيب وشرح للعرب كيفية استخدامه، ولم يذكر لنا هو شيئاً عن هذه الحادثة في مذكرته لكننا نجد للمرة الثانية أن عين نيبور المتفحصة تنقل لنا (الكوميديا) التي شاهدتها:

«طلب الهر فورسكال من موظفي الجمرك أن يحضروا له قملة حية[1] لكنهم لم يتقبلوا، كأمر مسلَّم به، ادعاء الأوروبي بأنه لا بد وأن يكون لديهم مثل هذه الحشرة على أجسامهم. وحين وعدهم بأنه سوف يدفع بعض المال مقابل تلك المخلوقة، كان من الواضح أن أحدهم كان قادراً على أن يقدم شيئاً ما.

ولم يشعر الأمير بالغبطة والسرور من قبل، كما شعر بها حين شاهد هذه القملة في حجم كبير جداً. وقد أمعن النظر فيها جميع الحاضرين، واحد بعد الآخر، وجاء في الأخير دور موظف الجمرك الذي قدمها فأخذ يقسم اليمن في غضب، بأن لم يشاهد قملة عربية في مثل هذا الحجم، وأن المخلوقة الموجودة تحت المنظار المكبر لا بد أن تكون، بالضرورة، قملة أوروبية، وأخبر زملاءه أن من حسن حظه أن يقدم هؤلاء الأوروبيين بعض المال في مقابل قملة عادية. وفي الحال شاع عنا أننا لا نشبه في شيء التجار الأوروبيين الواصلين من الهند الذي اعتادوا من وقت لآخر أن ينزلوا في ميناء اللحية. واعتقد الأهالي أننا مهتمون بالقمل أكثر من اهتمامنا بالسكان، مما دفع أحد المواطنين في اليوم التالي أن يصل إلينا، عارضاً علينا ملء كفه مقابل ستويفر واحد للواحدة».

لم يكن عمل فورسكال الذي أثار الدهشة لدى الجميع إلا البداية وبعده جاء دور نيبور وآلته الفلكية، لنصغ إليه يحدثنا عن نفسه:

---

(١) للأسف الشديد لا تزال حتى الآن هذه الحشرة موجودة في كل البلدان العربية، خاصة في الأرياف (المترجم).

«من كل ما عرضنا على سكان اللحية من أشياء مدهشة لم يثر انتباههم وإعجابهم شيء مثلما فعل التلسكوب الذي عرضته عليهم، والذي كان يريهم الأشياء مقلوبة. لقد دعوتهم لمشاهدة امرأة تمشي في ميدان السوق على بعد منهم، فكادت عيونهم تخرج من محاجرها دهشة وإعجاباً، حين شاهدوا المرأة تمشي بأقدامها في الجو دون أن تسقط ملابسها من عليها. وقد صرخوا في صوت واحد وفي حماس بالغ: الله أكبر. وشعر كل منهم بالسعادة والغبطة لأن مثل هؤلاء الأوروبيين المشهورين قد أتوا إلى مدينتهم. وشعرنا نحن للمرة الثانية بالسعادة تغمر قلوبنا جميعاً للقائنا بهؤلاء المواطنين الطيبي القلب».

بعد ذلك، خلال الأيام التالية جاء دور الدكتور كرامر ليعرض قدراته. فما أن أشيع أن البعثة تضم بين أفرادها طبيباً، حتى ظهرت عوارض المرض على نصف سكان اللُّحية. وحاول كرامر علاجهم بتقديم النصائح المفيدة، ولكنهم في الحال أخذوا يطالبونه بدواء أكثر فعالية من النصائح. فاضطر الدكتور الدنماركي للجوء إلى حل يائس على أمل تخفيف ذلك السيل من المرضى، لكن النتيجة كانت على عكس ما توقعه، فقد تضخم عدد المرضى بدلاً من تقليله. وهذا هو نيبور ينقل إلينا تلك الأحداث: «لا شيء سبب شهرة كرامر مثلما سببته تلك الشربة التي أشار على أحد الموظفين بتناولها والتي عملت عملها فيه من أسفل ومن أعلى بشكل سبَّب لهذا المسكين المرض الشديد. ومع هذا فإن العرب يفضلون دائماً مثل هذه الشربة الشديدة التأثير. واندفع الناس إلى المجيء لطلب نفس ذلك المسحوق الذي سبَّب لذلك الموظف ملازمة الفراش».

خلال الأيام التي أمضوها في اللُّحية، كان فناء منزلهم يغص بمحبي الاستطلاع من المواطنين العرب الذين، رغم أنه كانوا جميعهم مؤدبين، فقد أوجدوا بعض الصعوبات للأوروبيين بسبب وجود النزعة لديهم في اعتبار كل شيء يرونه غير عادي وغريب، حتى إذا كان غير ذلك، مما جعل نيبور يعيِّن بواباً على مدخل المنزل كي لا يسمح لأحد



بالدخول إلا إذا كان لديه مهمة محددة. وكان في انتظار أعضاء البعثة الكثير من الأعمال، فوضع كرامر مواده المسهلة جانباً وكرَّس نفسه لعلاج الأغنياء من المحسنين منهم. وأخذ فون هافن على عاتقه الدراسات اللغوية التي ليس من السهل تحديدها. وكتب إلى برنستورف يقول:

«إن الاكتشافات اللغوية التي أتوقع القيام بها لا يمكن بالطبع إرسالها إلى الوطن بعد تسجيل الملاحظات مباشرة، فلا بد أن يكون لدي الوقت لفحصها واختبارها. وابتدأت أسأل نفسي إذا كان مكانها المناسب قد لا يكون في مذكرة مجمعة».

بينما كان فون هافن يوجِّه لنفسه مثل هذه الأسئلة، كان الثقل الحقيقي للعمل يقع كالعادة على كاهلي نيبور وفورسكال، وقد بدأ الأول عمله بوصف المدينة، من الناحية التاريخية والجغرافية والتجارية. فكان يتجول كل يوم في منطقة السوق المليئة بالتراب والغبار، وبين البيوت المبنية من حصير القش، والشوارع الملتوية، حيث يجلس على الأرض الخياطون والنجارون يصنعون منتوجاتهم الخشبية والشمس تلقي أضواءها على أدواتهم ومعداتهم من خلال ثقب في السقف. ولأول مرة في كل الرحلة استطاع نيبور أن يستخدم آلته الفلكية دون إزعاج من أحد، ودون أن يعرض نفسه للهجوم من أحد. وعمل خريطة لمدينة اللُّحية تعتبر حجر الزاوية في خريطة اليمن المشهورة التي رسمها بعد ذلك، والتي كانت أكثر خرائطه صحة وإتقاناً.

في ظل هذه الظروف المشجعة استعاد فورسكال نشاطه وهمته في العمل فقد تخلص مما كان يشعر به في جدة من ملل وفتور، ومنحته اللُّحية المزيد من النشاط والقوة اللذين لم يشعر مثلهما من قبل. وبدأت مذكراته تستقبل الكثير من المعلومات عن وحدات الوزن والمقاس، وعن العملة ومعدلات استبدالها، وأسعار البضائع. كما تفحَّص تاريخ المدينة وكيف كانت عرضة للغزوات الكثيرة والخراب، وكيف كان السكان، نتيجة للغزو، يهربون إلى الجزر القريبة من الشاطئ حيث يكونون في مأمن، لأن الغزاة لا يملكون القوارب للحاق بهم.

وقد أثارت الأنظمة الشرعية اهتمام دكتور الفلسفة فورسكال، وروعة ذلك المعتقد الخاص بالثأر[1] الذي بموجبه يعيش أقارب القاتل تحت التهديد الدائم حتى لو لم يشتركوا في جريمة القتل! وعلى نقيض هذا المبدأ السخيف أعجب بالهنود البينيان الذين يعيش عدد كبير منهم في هذه المدينة والذين لا يمكن أن يقتلوا أي حشرة مهما كانت صغيرة، ذلك لأنهم يؤمنون بمبدأ تناسخ الأرواح. ووصف لنا كيف كانوا يقومون بشراء الأسماك حية ويعيدونها إلى البحر مضطرين إلى دفع ضعف ثمنها، لأن الصيادين يستغلون فيهم حرصهم على إنقاذ حياة هذه الكائنات. وبالطبع لقد استغرقت الأبحاث النباتية معظم وقت فورسكال واستولت على جل اهتمامه، تماماً مثلما كان الحال في القاهرة، غير أنه هذه المرة، كان الوحيد من أعضاء البعثة الذي قام بهذا المجهود الكبير. فقد انطلق في جولات طويلة خارج المدينة، فعلى سبيل التجربة انطلق أولاً إلى قرية (Naaman) ثم سار إلى أبعد من ذلك، إلى قرية (Kudmie). وفي الأخير دفعه طموحه إلى الوصول إلى (مور) حيث تنتهي الصحراء وتبدأ الأراضي الخصبة في البلاد. وتجوَّل على ظهر حماره في الطينية عبر مزارع الدخن الذي ينبت حتى يصل إلى ارتفاع قدم. وكان يقف وسط هذه المزارع على شجرة من أشجار الطرفاء رجل يحدث صوتاً موسيقياً حاداً يبعد به الطيور عن ما نضج من الثمار. وسار فورسكال في هذه المناطق دون أن يحاول أحد تهديده أو تكدير صفوه. وقد كتب ف رسالة إلى البروفسور لينوس يقول:

«قبل الآن كنت مضطراً لأن أواجه الأبحاث النباتية واللصوص في وقت وحد».
لقد شعر براحة كبيرة في اليمن حين علم أن باستطاعته مواصلة أبحاثه النباتية في سلام وأمان، موجهاً أقل العوائق، تماماً كما لو كان في بلده السويد. ورجع إلى اللحية ومعه

---

(١) معلومات المؤلف في هذا الشأن مغلوطة، لأن عادة الأخذ بالثأر ليست من مبادئ الشريعة الإسلامية، فالدين الإسلامي يحارب هذه العادة السيئة (المترجم).



أكثر من ماية نموذج جديد من النباتات، وامتلأ قلبه بالغبطة ولهج فمه بالمديح والشكر لسكان هذه المنطقة. واتفقت آراء جميع أعضاء البعثة في أن هذا البلد فريد في نوعه، فطيبة سكانه لا يمكن مقارنتها بطيبة سكان أي بلد آخر زاروه في رحلتهم الطويلة. وفي إحدى أمسيات الشتاء الدافئة، التي كانت في دفئها أكثر دفئاً من صيف البلدان الاسكندنافية، كان كل منهم يروي لزملائه العديد من الأمثلة والحكايات عن طيبة هذا الشعب واستعداده لمساعدة الغير. وكان ظاهراً مما كتبوه في مذكراتهم أن موجة من الصفاء قد سادت العلاقات فيما بينهم، وكأن الطيبة والهدوء والسلام التي أحسوا بها من حولهم لدى اليمنيين قد نفذت جميعها إلى قلوبه وخففت من روح العداء لديهم، وأشاعت الصفاء والمودة بينهم.

لقد اكتشفوا خلال عامين عوامل الضعف والنقص لدى كل منهم فاعتادوا عليها وأصبحوا لا يرون فيها الكثير من الغرابة والاستنكار. وها هم الآن، بعد أن واجهوا في رحلتهم الصعاب الكثيرة، يصلون البلد الذي قصدوه، فيستقبلون فيه استقبال الضيوف الذين طال انتظارهم، ويُرحب بهم كما يرحب بالأصدقاء القدماء العائدين إلى وطنهم.

كتب كرستن نيور في هذا الخصوص يقول:

«لأن كل شيء كان يسير سيراً حسناً بالنسبة لنا في اللحية، فقد طاب لنا، الهر بورنفانيد وأنا، أن نعزف معاً بعض الألحان على الكمنجة في الهواء الطلق في تلك الأمسيات الجميلة».

وفي استطاعتنا أن نتصور، ذلك المنظر الجميل، منظر نيبور وبورنفانيد في إحدى الأمسيات الدافئة والنجوم تتلألأ في السماء، وهما يقفان على تلك الرمال الناعمة كالسجاد الفاخر، ويعزفان ألحاناً جميلة للآخرين الجالسين على مقاعد من الطين،

ودخان الغليون يتصاعد من بينهم. يا ترى ماذا كانت تلك الألحان التي كانا يعزفانها في تلك الساحة المحاطة بالحيطان الطينية المنخفضة بتلك المدينة العربية السعيدة الرابضة في الصحراء؟ هل كانت للموسيقار تلمان؟ أم فيفلدي أم باخ؟ لسنا نعرف شيئاً في هذا الخصوص، ومع هذا فإن هذه الألحان التي أتت بعد الخصام الشديد بين أعضاء البعثة، وقبل أقسى الأحداث وأخطرها، لم تكن عديمة الجمال كلية بالنسبة لنا ونحن نتخيل ذلك المنظر الجميل.

وانسابت هذه الألحان الغريبة إلى مسامع الأهلين، فاستطاع المارة في الشوارع القريبة سماعها، وشاع في الحال أن بين الأعمال العجيبة التي يقوم بها هؤلاء الغرباء، هي قدرتهم على عزف الموسيقى المدهشة. وما أن وصل هذا الخبر إلى علم أحد التجار الأغنياء المسنين حتى أرسل إلى البعثة رسالة يطلب فيها المجيء إلى داره مصطحبين معهم كمنجاتهم. لكن العازفين رفضا دعوة هذا الرجل الغني، لأنهما كانا يعرفان أن المسلمين لا يحترمون الذين يشغلون أنفسهم بالموسيقى.

وبعد مرور عدة أيام على هذه الدعوة، لم يستطع هذا الرجل أن يرى هذه الفرصة تفوت منه دون أن يعمل شيئاً، فقرر رغم ضعفه الشديد وعدم قدرته على المشي أن يتحدث إلى هؤلاء الأوروبيين ويستمع إلى موسيقاهم، فأمر بوضعه على ظهر حماره، الذي سار به حتى باب منزل أعضاء البعثة، يسنده خادمان على جانبي الحمار. ودعاه أعضاء البعثة للدخول، وأشعل نيبور وبورنفانيد الشموع، وبدءا في عزف بعض الألحان الحزينة، لأنهما كانا يعلمان أن العرب يسهل عليهم تقدير وتذوق الموسيقى الجادة أكثر من الموسيقى المرحة. وبعد العزف قدَّم السيد برجرن القهوة وأخذوا جميعاً يتحدثون عن أوروبا وعن الشرف وعن المسيحية والإسلام. وأخيراً، بدأ الرجل يقص عليهم بعض القصص عن حياته.



لنستمع إلى كارستن نيبور يقص علينا ما سمعه من أحاديث ذلك الرجل:

«كان، على ما أذكر، في الثامنة والثمانين من عمره. لم يتزوج أبداً زواجاً صحيحاً. لكنه كان يفاخر بأنه قد حرم مجموعة كبيرة من الفتيات الصغيرات الجواري، من بكارتهن، وكان بعدئذ يعمل على زواجهن، أو يقوم بإعتاقهن، لتعود إليهن حريتهن من جديد، وكان عنده في ذلك الوقت فتاتان من الجواري الصغيرات الجميلات، حصل عليهما حديثاً، وكانت الرغبة تتأجج في نفسه لأن يمارس معهما ما هو من عادته. وقد قدم لدكتور البعثة مبلغاً من المال، عساه بخبرته يستطيع أن يمنحه القوة اللازمة لذلك».

من مذكرة الهر نيبور في استطاعتنا أن نعرف أن هذا الحادث لم يكن الوحيد الذي واجهه دكتور البعثة، فقد واجه مشاكل أخرى مشابهة.

نعود ثانية إلى مذكرة نيبور لنقرأ ما يلي:

«ووجدنا تاجراً آخر من تجار اللحية في نفس الموقف الحائر، يسمح لنا مظهره، أن نقدِّر عمره بين الخمسين والستين سنة. عرض هذا التاجر على دكتور البعثة مبلغ ماية سبيس ديلير، إذا استطاع أن يجعل منه صالحاً حتى لزيارة واحدة لجاريتين من جواريه، اللتين سبق وحاول معهما دون أن يحالفه التوفيق. وقد استخدم من قبل العديد من الأدوية كان قد حصل عليها من أطباء إنكليز مهرة. ولهذا، وقواه في هذه الحالة من الإرهاق الشديد، فإن كرامر لم يكن في إمكانه أن يعمل من أجله شيئاً».

وصف نيبور حالة هذين الرجلين بسخرية غير ملحوظة. لكن يبدو أن كرامر لم يكن كذلك حيال هذه القضايا، فقد طفح البشر على وجهه وهو يستمع إلى مثل هذه القصص. فأين يمكن أن يجد المرء بلداً آخر على ظهر هذه الأرض يشكو مرضاه بوضوح وصراحة نفس هذه المشاكل؟

لا شك في أن ما رأى وسمع هذا الدكتور الشاب المزاول لمهنته في حياء، قد شكل إثارة بالنسبة له. أليسوا الآن في اليمن السعيدة!



وإذا كان السيد برجرن، خادم البعثة لم يكن له في السابق ذكر، لا في نشاطات البعثة ولا في مؤامراتها، فهو الآن في اللحية قد حقق بعض الانتصارات، فقد تدخل ونجح في شفاء أحد خيول الأمراء، حين توقف كرامر عن معالجته. وقد كسب هذه الخبرة حين كان في السابق منتمياً لرجال الخيالة في حرب بروسيا.

وكان حماس الأمير لشفاء حصانه لا حدود له، مما جعله يقول أن البعثة الدنماركية تضم دكتورين لا يقل أحدهما شهرة عن الآخر.

على أي حال، حين تسير كل الشواهد في اتجاه واحد وحين تتفق شهادات الجميع، لا بد أن يكون للحقيقة فيما يقال بعض النصيب. في استطاعتنا أن نقول مفترضين، أن في منتصف شهر شباط (فبراير) لعام ١٧٦٣، حين كانت البعثة الدنماركية تستعد للرحيل عبر صحراء تهامة إلى مدينة بيت الفقيه، لم يكن أحد من أعضاء البعثة يخامره أدنى شك في سبب تسمية هذه البلاد بذلك الاسم الشهير: العربية السعيدة. فكل شيء في ذلك الوقت كان يدل على أن هذه الأرض التي يتهيأون لاكتشافها لأول مرة في تاريخها، هي حقاً أرض السعادة على وجه الأرض. وقبل مغادرتهم لم يعد أمامهم من مشكلة إلا اختيار الهدية المناسبة التي يقدمونها إلى الأمير فرحان بمناسبة رحيلهم. فاتفق جميعهم على أن يهدوه ساعة، وأن يطلبوا منه الاحتفاظ بآلة التلسكوب التي سبق واستعارها منهم. وفي مقابل هذه الهدية جدد الأمير فرحان عرضه السابق في أن يقوم نيابة عنهم بدفع أجرة الجمال والحمير التي ستحملهم إلى بيت الفقيه. لكن أمين صندوق البعثة رفض مرة ثانية العرض شاكراً للأمير كرم أخلاقه، وقال له إنهم لم يأتوا إلى اليمن ليعيشوا على نفقة مواطنيه. وفي اليوم التالي وصل رسول من الأمير فرحان طالباً التحدث إلى الهر فون هافن، وكان يمسك إلى جانبه حصاناً فحلاً، أبيض اللون، مهيب المنظر. وخرج فون هافن من المنزل وأخذ ينظر في ذهول، تارة إلى الرسول وأخرى إلى الحصان. وعندئذ انحنى الرسول حتى كان رأسه يلمس الأرض، وأبلغ تحيات صاحب السعادة الأمير فرحان، وقال إن الأخير يطلب في تواضع من فون هافن أن يقبل هذا الحيوان هدية متواضعة، مقدمة إلى اسطبلات صاحب الجلالة ملك الدنمارك.

فتاة يمنية من منطقة زراعية في الجبال بريشة بورنفانيد

في اعلى ميناء اللحية ، وفي اسفل مدينة بيت الفقيه بريشة بورنفانيد



الفصل الرابع

في بيت الفقيه

تعريف الأوروبي لحياة العربي – وصف مدينة بيت الفقيه.

غالبية المدن في هذه الدنيا بها قصور، وفي هذه القصور يقطن الرجال الأثرياء الذين لهم مشاكلهم المتعلقة بالخيل والجواري وأشياء كثيرة أخرى. أما الصحراء العربية فلا قصور فيها ولا أثريا، والحياة فيها غاية في البساطة وليس لسكانها مشاكل حقيقية. فيها يستيقظ العربي قبل الشروق، قبل أن يغرق النهار في جحيم حرارة الشمس، ليشعل النار ويجلس القرفصاء بجانبها يدخّن غيلونه، وينتظر أن تغلي قهوته التي وضعها على النار. وحين تصبح القهوة جاهزة يصبها ويقدمها إلى الآخرين في أقداح صغيرة لا يسمح كل منها إلا بجرعة واحدة. وتعاد الأقداح بعد الانتهاء من شرب ما فيها لتملأ من جديد، وهكذا، مرات عديدة. وفي هذا يتجلى أحد معاني التقاليد العربية في الضيافة. ذلك أن تقديم قدح كبير مفعم قد لا يكون لائقاً، وقد يكون في هذا ما معناه: إليك هذا، أيها الضيف، اشربه وارحل.

ويمر وقت ليس بالقصير، والضيف لا يزال ممسكاً بكأسه الفارغ قبل إعادته ليملأ من جديد، وقرص الشمس يرتفع إلى عنان السماء، ثم ينعطف إلى الغرب ليلحق بالأفق المنخفض، ثم يغيب في رعشة. هذه هي حياة الصحراء، لا جديد فيها غير هذا. لا طيور تغني لطلوع الشمس، ولا شجر يتحرك مع هبوب الرياح، ولا يقطع السكون المخيم إلا صوت الإنسان. وكأن كل الأشياء قد تركت المكان لتسمح للإنسان أن يمعن النظر بسهولة أكثر، في حياته الخاصة . لا شيء هنا إلا صوت الإنسان في الصمت المطبق، وآثار أقدامه على الرمال الدافئة، وحتى هذه الأشياء حين نمعن التفكير فيها، سرعان ما تختفي ويصبح الإنسان هنا لا شيء. لكن الإنسان العربي قنوع بالأشياء الصغيرة،

والعرب يعيشون حياتهم كما يشربون القهوة، قانعين بمصّة منها بين الفينة والأخرى. إنهم ضيوف القدر، ومن العدل أن لا ينتظرون منه أن يصب الكثير من الثروات في الأواني التي يرفعونها إليه. فلو أعطاهم الكثير من الثروات، وأمرهم بعدئذ أن يتركوه وشأنه فإن هذا لا يتناسب مع تقاليد الضيافة العربية. إن التعريف الوحيد لحياة الصحراء، هو أنها حياة الفاقة. هذا هو العالم الذي واجه أعضاء البعثة الدنماركية، حين غادروا في الثاني والعشرين من شباط (فبراير لعام ١٧٦٣ مدينة اللحية في طريقهم إلى الجنوب فوق سهول تهامة نحو بيت الفقيه. ولم نعرف كيف كان مصير ذلك الحصان الفحل المهدى لفردريك الخامس ملك الدنمارك، فلم يكن معهم في هذه الرحلة التي ركبوا أثناءها الحمير وسبقتهم على الطريق الجمال حاملة على ظهورها أمتعتهم وأدواتهم، وكانت كل صباح تسبق القافلة لأن سيرها كان أبطأ من سير الحمير. وفي القرى التي صادفوها في طريقهم كانوا ينامون الليل، حيث كانت تذبح له نعجة دون مقابل حيث أوامر الأمير فرحان التي كان مرشدو البعثة يبلغونها إلى الفلاحين، لكن نيبور كان يحاول في كل مرة الوصول إلى تسوية مع صاحب النعجة، فلم تنسه رحلاته الطويلة في هذا العالم ماذا تعني النعجة بالنسبة لفلاح في المستنقعات الشمالية بوطنه.

بدلاً من السير مباشرة في الطريق الصحراوي عبر مدينة المراوعة، ساروا في حذاء الجبال عن طريق (Cannemie) حتى يروا المزيد من الأشياء. ولم يصلوا بيت الفقيه إلا في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) حين وصلوا بأمتعتهم إلى الجمرك وسلموا أحد زعماء التجار، واسمه عمبر سيف، رسالة توصية. وقد استقبلهم كما استقبلوا في اللحية، بمنتهى اللطف والتكريم، وعمل على نقل أدواتهم من الجمرك دون فتحها، إلى منزل أعطاهم إياه. ولأنهم تأخروا في إنزال أغراضهم، فقد دعاهم لتناول طعام العشاء في داره. وسار كل شيء على أحسن ما يرام وبمنتهى السهولة والراحة. إنهم لا يزالون في اليمن السعيدة.

تقع مدينة بيت الفقيه في وسط السهل الرملي المنبسط. وهي مركز تجاري، يبعد على وجه التقريب أربعة أيام عن كل مدينة من مدن المثلث: اللحية – المخاء – صنعاء. وإذا توغلنا من بيت الفقيه إلى داخل البلاد في رحلة ليوم كامل وجدنا تلال البن، أما إذا سرنا في الاتجاه المعاكس، فإنا نصل بعد يوم ونصف إلى شاطئ البحر بالقرب من ميناء الحديدة. ويصل هذه المدينة لشراء البن تجار من الحجاز ومصر وسوريا وتركيا ومراكش، وحتى من إيران والهند، ومع هذا فقد كانت بعيدة كل البعد عن أي مظهر من مظاهر المدن الثرية، فلم يكن بها إلا القليل من المنازل المبنية من الحجارة، وكان يعيش أغلب سكانها في أكواخ من القش بنيت دون نظام في شوارع ضيقة مليئة بالتراب. ولا يوجد بالسوق إلا الأشياء الضرورية. ومياه الشرب كانت غير كافية. إن موقعها المتوسط، ولا شيء سواه، هو الذي جعلها المركز المناسب الذي جعلت منه البعثة الدنماركية منطلقاً لها، منه تنطلق من جولاتها وإليه تعود.

كان كل منهم يسير في اتجاه خاص به، فرحل فون هافن وكرامر إلى ميناء الحديدة وفورسكال اتجه إلى الشرق حيث تلال زراعة البن وحيث الأرض الخضراء، وكرستن نيبور جعل من بيت الفقيه مركزاً لرحلات استكشافية كثيرة إلى الصحراء، قام أثناءها بجمع المعلومات لعمل خريطة كبرى لليمن، وقد سبق له أن جمع بعضها في الطريق من اللُّحية. وسلك في جمعه للمعلومات نفس الأساليب التي كان قد جرَّبها في رحلته مع فون هافن إلى شبه جزيرة سيناء. فبمشيه بجوار حماره استنتج أن الحمار يقطع في المتوسط ١٧٥٠ خطوة متساوية في كل نصف ساعة، ومن هنا كان في استطاعته أن يعرف المسافة التي يقطعها في سفره. فليس عليه إلا مراقبة الوقت الذي يستغرقه السفر بين منطقة وأخرى ويحوِّل هذا الوقت إلى خطوات، ثم يحوِّل الخطوات إلى أميال، وكان يساعده في تحديد اتجاه الطريق بوصلة جيب. وبمثل هذه الآلة البسيطة، لم يستطع أن يأخذ الزوايا

بدقة. إن الأفق المنبسط في الصحراء يشكل دائرة متصلة من حوله، يستخدمها في كل مكان كأساس لحساب ارتفاع الشمس بواسطة آلته الفلكية. وفي المساء كان يقوم بتدوين ملاحظات الصباح وتحسين التسجيلات التي لديه عن طريق إصلاح أخطاء البوصلة، التي اعتبرها في هذه المنطقة ١١° — ١٥٠' غرباً. يوماً بعد يوم، وميلاً بعد ميل كان يضيف أجزاء جديدة إلى خريطته الضخمة التي كانت في بدايتها تشبه لعبة الألغاز الكثيرة الخطوط والتعاريج، وفي نهايتها أصبحت تشكل أول خريطة لليمن، وأصبحت فيما بعد، الرائد الذي لا غنى عنه للمكتشفين الإنكليزيين العظيمين (هاييس) و(بالسقريف) اللذين حملاها في رحلتهما إلى هذه المناطق، جاء في كتاب هاييس المسمى (اليمن) قوله:

«إن من المستحيل، محاولة التقليل من التقدير الذي يستحقه عمل نيبور». كما أن بالسقريف أهدى كتابه عن اليمن إلى العالم نيبور الذي كان أول من عرَّف أوروبا باليمن السعيدة. وبدأ العمل الحقيقي في بيت الفقيه، فلم تكن تعني الرحلة من اللُّحية إلى بيت الفقيه، إلا رسم خط واحد على الخريطة. وكان نيبور في الأشهر التالية، في رحلات دائمة من مكان إلى آخر على ظهر حماره، في تلك الصحراء المترامية الأطراف. ويتم السفر في تهامة عادة في الليل بسبب حرارة الطقس نهاراً. لكن، بالنسبة لنيبور، لم يكن من الممكن أن يقوم بدراسته في الظلام، فقام برحلاته في النهار، محتملاً حرارة الطقس. وكان أفراد البعثة يقضون لياليهم مضطجعين على الرمال، ملفوفين بأغطيتهم، وفوقهم السماء في امتدادها كأنها غطاء إضافي. وفي بعض الأمسيات كانوا يهرعون إلى مدعى (مقهاية)، وهي كوخ بسيط، به يستطيع المسافر أن يعوض النقص فيما يتناوله من ماء الشرب، بأن يشرب القليل من قهوة القشر، التي لها لون الشاي ومصنوعة من قشر

حبوب البن، وتشرب على كميات قليلة، ويتم تجهيزها في آنية كبيرة من الطين الداكن[1]. وفي بعض الأحيان حين يواتيهم الحظ، كانوا يجدون نزلاً أكبر من (المقهاية) يسمونه (Mausale)[2] حيث ينام الكثير من النزلاء، بين الدخان المتصاعد في غرفة واحدة على دكك من الطين. ويقدم لهم في هذه الأماكن خبز الذرة الدافئ والحليب الطازج السميك الذي يظل عالقاً بالأصابع كخيط طويل. وتمر الأيام وتتلاحق وهم تحت السماء التي لا تتغير، وفوق نفس الرمال التي لا تتبدل، وفي تلك القرى المتشابهة بأكواخها المبنية من القش.. وحميرها، ونسائها التي تبدو وكأنها قد غطست جميع ملابسها في تلك الأواني الفخارية الضخمة التي فيها تصنع الأصباغ النيلية.

من مذكرة نيبور نستطيع أن نتتبَّع نشاطاته يوماً بعد يوم. لقد كانت معظم الأحداث عادية في هذه الفترة، مثل تلك الحادثة التي رواها عن تلك الليلة التي وصلوا فيها إلى إحدى القهاوي بعد منتصف الليل بنصف ساعة. جاء في مذكراته ما يلي:

«لقد شاهدنا شاباً له ست أصابع في كل يد، وست أصابع في كل قدم. ولم نشاهد شيئاً آخراً يلفت النظر. كل الأحداث كانت عادية، ولا جديد تحت الشمس، فسكان القرى يشبهون بعضهم البعض، وجميع الحمير تترك على الرمال وراءها نفس الأثر، ولا شيء يتغير غير الأسماء وتاريخ اليوم».

في السابع عشر من آذار (مارس) ترك نيبور بيت الفقيه لأول مرة وذهب إلى القرى الواقعة بالقرب من الشاطئ، عن طريق، غليفقة. وكانت تلك القرى التي تتألف من عشرين كوخاً أو ما يقرب من ذلك، مبعثرة تحت أشجار النخيل ويملكها الصيادون. وفي الحديدة التقى بفون هافن وكرامر، الذي أطلقا لنفسيهما العنان في الاستمتاع باللقاء

(١) يسمى هذا الإناء في اليمن: جَمنة، والجمع جمين (المترجم).

(٢) يحتمل أن يكون اسمه: موسنة (المترجم).

مع أثريا التجار في المدينة. ولم يحب نيبور أن تؤخره تلك اللقاءات والحفلات، فترك المدينة في اليوم التالي، عائداً إلى بيت الفقيه عن طريق (Machfur) ولكنه بعد يومين في الحادي عشر من آذار (مارس) غادر ثانية بيت الفقيه إلى مدينة زبيد عن طريق (Dimne). وكانت جولاته الأخيرة في الفترة التي كان فيها الربيع يغطي جميع مدرجات الوديان بغطاء من الزهور الصغيرة التي لا تكاد ترى، حيث كان يجد الندى له ملجأ فيها. وقد طلى المسلمون حجار قبور موتاهم بغطاء لامع من الجص. وفي إحدى القرى استطاع نيبور أن يحصي أكثر من ستماية من الأواني الطينية المليئة بمادة الصباغ الأزرق. وعاد نيبور بعدئذ من الحديدة إلى بيت الفقيه، ونجد حتى الآن أن المنطقة الجنوبية الغربية المرتفعة بالنسبة لمدينة بيت الفقيه، قد اكتشفت. وفي التاسع عشر من شهر آذار (مارس) غادر المدينة إلى الشمال في اتجاه (Kahme) واستغرق القياس والحساب وتسجيل الملاحظات كل وقته. وبالتدريج أخذ يرى ملامح الخريطة تبرز إلى الوجود. ودون أن يخامرنا أدنى شك، نستطيع أن نقول أن نيبور خلال رحلاته الطويلة هذه في هذا الربيع قد استمتع بأجمل أوقاته على الإطلاق، منذ مغادرته كوبنهاجن. فقد كان مستغرقاً كلية في عمله، ومسروراً وهو يقوم به بانتظام ودون أي عائق، وحيداً في أحضان تلك الحياة البسيطة، المحاطة بآفاق الصحراء الواسعة. وكانت نفسه مفعمة بالبشر لدرجة أنه لم يستطع أن يقاوم الرغبة في نفسه في أن يخرج عن المألوف يعبر عن مشاعره ضمن دراساته العلمية. وسنرى في مذكراته كيف كانت مشاعره في الفترة الأولى لبقائه في العربية السعيدة. جاء في مذكراته: «لم تكن الترتيبات لهذه الجولات التي قمت بها حسنة جداً. لقد استأجرت حماراً لأركب عليه ويحمل حقيبتي الصغيرة، وبداخلها بعض الملابس الكتانية وبعض الكتب. وكانت ملابسي عبارة عن عمامة ورداء دون أكمام، وبعض سراويل كتانية وخف. وبالرغم من أن الخوف من اللصوص، لا



داعي له هنا، فالمرء في العادة يحمل معه سلاحاً حين يقوم بمثل هذه الرحلات. فكان لديَّ سيف متدلّ تحت ذراعي، ومسدسان بحزامي. أما سائق الحمار الذي كان أيضاً خادمي ومرشدي، فقد كان يتبعني على قديمه، حاملاً سيفاً ودرعاً، بالإضافة إلى سكين ضخمة، وكان لدي بساط قديم جعلته بردعة للحمار نهاراً، وللجلوس والنوم عليه مساء، ومائدة للطعام عند تناول الأكل. واستخدمت غطاء عند النوم، الشال الكبير الذي يلبسه العرب اتقاء للشمس. ولا غناء لنا عن حمل إناء من الطين به ماء كنا نعلقه في خطاف تحت البردعة. والمسافر العربي يأخذ معه إضافة إلى الأشياء السابقة غليونه الذي يضعه في كيس من الجلد، لكنني كنت قادراً على لاستغناء عن هذا، لأني كنت قد عودت نفسي على الإقلال من التدخين لدرجة أنني لا أحس بالحاجة إليه. لقد حاولت أن أعيش على الطريقة العربية، ولهذا فلم أعد بحاجة لا لسكين ولا لشوكة ولا لملعقة. فالشخص الذي تجد نفسه الراحة في السفر على هذه الطريقة، والذي يحتفظ بسعادته، حتى لو لم يجد في المساء ما يأكله في أحد الأكواخ إلا الخبز المصنوع من الذرة، سوف يجد من السرور والسعادة القدر الذي وجدته أنا أثناء رحلتي في اليمن. لكن البارزين من العرب يسافرون بطريقة أكثر راحة وسهولة، لكنهم لا يحتاجون إلى الكثير من المال فحسب، بل يحتاجون أيضاً إلى القدرة على احتمال المشاكل التي يسببها اصطحاب الكثير من الخدم. وأكثر من هذا فإن الرجل الثري لا يجد الأمان في الطريق كما يجده المسافر الفقير».

«لست شيئاً ولا تملك شيئاً» هذا هو تعريف حياة الإنسان في الصحراء لكن هذا بالنسبة لكارستن نيبور لم يكن بالشيء الجديد.



الفصل الخامس

جنة أم مملكة أموات

رحلة طويلة إلى تعز – فورسكال ونيبور يحققان أعظم اكتشاف نباتي – الملاريا تهاجم البعثة.

بينما كان نيبور يقوم بجولاته الدراسية في تهامة كان فورسكال قد قطع الطريق إلى تلال شجرة البن التي تقع على بعد يوم كامل إلى الشرق من بيت الفقيه. والشهر الذي قضاه في هذه المناطق كان بالنسبة إليه أسعد أوقات الرحلة كلها. كان لديه، كنيبور، مرشد عربي، وقضى أيامه في رحلات طويلة بين القرى: (Hadie) و(Bulgose) و(Mokaja) وكسمة (Kusma). كان الطقس في هذه المناطق مريحاً أكثر بكثير من طقس (تهامة) الجاف اللافح. وقد وجد في هذه المناطق أرضاً خصبة بها العديد من النباتات، وهو الذي اضطر، لأكثر من عام، أن يقوم بأبحاثه في بلدان تكاد تكون صحراء قاحلة. وكانت جوانب التلال مغطاة بالغابات الواسعة، وفيها وجد فورسكال ودياناً باردة بها نباتات السَّرخْسِّ ونبات الأركيديا[١] والكثير من النباتات الأخرى التي لم يشاهدها من قبل. وكل مكان ذهب إليه كان يحس بروائح شجر البن تملأ كل جوانحه، في هذا الوقت الذي تتفتح فيه زهورها. وكان يعود من رحلاته هذه إلى بيت الفقيه. ووصف ذات مرة، لزملائه، هذه المناطق وصفاً شيقاً لدرجة أن بورنفانيد وكرامر قررا الذهاب معه. وهناك رسم بورنفانيد مجموعة من الرسوم للقرى الجبلية ولأشجار البن. وكان دائماً نشيطاً وحيوياً.

إن مصادر المعلومات تفترض رغم أنها لم تقل بوضوح، أن كرامر رافق فورسكال في رحلاته وساعده بحماس في جمع هذه المجموعات الغريبة من النباتات. ومن الواضح

---

(١) الكلمة معربة: أصلها الإنكليزي Orchid (المترجم).



أن هذين الرجلين قد عملا معاً على خير ما يرام وهذا يدل على أن كرامر لم يكن على أي حال مساعداً سيئاً. لقد تطورت الأمور بشكل كبير، لدرجة أن السبب الرئيسي للمعركة العنيفة بين كرامر وفورسكال في كوبنهاجن قد تلاشى إلى لا شيء.

ولهذا لم يكن بمستغرَب، أن يجد نيبور، وهو عائد من إحدى جولاته، أن مركز تنقلات البعثة في بيت الفقيه كان خالياً من الجميع. حتى فون هافن وجد أن من الضروري أن يقوم برحلة إلى مناطق زراعة البن ليسلي نفسه مع فورسكال وكرامر وبورنفانيد. وأسرع نيبور فجهَّز حماره ليذهب لقضاء إجازة لعدة أيام مع رفاقه في تلك المناطق الجميلة المرتفعة. واستقبلهم العرب هناك بطريقة ودِّية، واستغربوا فقط، بعض الشيء وصول هؤلاء الأوروبيين من بلادهم النائية، مع أنهم ليسوا من تجار البن. ولم يستطيعوا أن يفهموا كيف يصرف المرء الكثير من المال دون أن يجني من وراءه ذلك أي فائدة. فما كان منهم إلا أن أشاعوا بأن باستطاعة هؤلاء الأوربيين صناعة الذهب، وفسروا رحلات فورسكال المتعددة إلى الآكام على أنها بغرض البحث عن عشب معين تحتاج إليه هذه الصناعة. كما فسروا أن دراسات نيبور الليلية للنجوم، ما هي إلا لهذا الغرض، وأن لديه معرفة بفنون السحر.

لكن البعثة لم تجد الذهب في اليمن السعيدة، ووجدت بدلاً عنه السلام الذي ظهرت بوادره في اللُّحية، وأصبح الآن يغمر قلوبهم جميعاً في هذه الوديان الخصبة، التي تشبه حقاً في مناظرها الجنة على الأرض. ولأول مرة في رحلتهم كلها، نجد أن جميع أعضاء البعثة يشتركون في الرحلات من أجل تمتعهم برفقة بعضهم البعض ليس إلا.

بعد عدة أيام من الرحيل المريح والاستجمام عادوا من جديد إلى بيت الفقيه، وكان على نيبور العودة ثانية للعمل على إكمال الخريطة. فلا يزال في حاجة إلى تغطية المناطق الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بيت الفقيه، واقترح على فورسكال ضرورة الرحيل معاً

في رحلة طويلة إلى مدينة تعز، التي تقع في التلال على بعد خمسة أيام جنوب شرقي بيت الفقيه، وعلى بعد أيام قليلة إلى الشمال الشرقي من ميناء المخاء، وسيكون رحيلهم أساساً، عبر المناطق الجبلية. والسبب التي دفع نيبور إلى اصطحاب فورسكال في هذه الرحلة، هو أن فورسكال كان قد اعتاد خلال رحلاته في مناطق زراعة البن، على اللهجة التي يتحدث بها سكان هذه المناطق، وهي تختلف كلية عن لهجة تهامة.

ووافق فورسكال دون تردد واستأجر حمارين. وفي السادس والعشرين من آذار (مارس) غادرا بيت الفقيه، إلى تعز، وسارا في طريق وعر ومهجور، مارِّين بـ (العدين Udden) و(جبلة Djobla). وفي الطريق بدأ فورسكال يجمع النباتات، وبدأ نيبور يضيف إلى خارطته الجديد من الخطوط المبهمة. وقاسا درجة الحرارة كل يوم، وكان قد طلب نيبور من بورنفانيد القيام بنفس العمل في بيت الفقيه، حتى يكون لديهم أساس لمقارنة طقس الصحراء بالطقس في الجبال. وفي كل مكان حاولا أن يكونا غامضين بقدر الإمكان. وقد جابا كل المدن التي بها سوق عام، وأجابا على جميع الأسئلة المتعلقة بجنسيتهما، بالقول أنهما من الشمال، من بلاد الشام، التي عن طريقها في الغالب يعرف العرب تركيا، واليونان أحياناً. ولأنهما كانا قويان، فقد كان يوم سفرهما يدوم طويلاً، يبدآنه عند الشروق ويواصلان السفر طوال اليوم تحت أشعة الشمس التي تقلُّ حرارتها في ممرات الجبال المتعرجة. ولا يبدأ المسافرون في البحث عن كوخ ينامون فيه إلا بعد هبوط الليل. ولم يكن في هذه الأكواخ إلا القليل من النزلاء، خلافاً لتلك الموجودة في تهامة، وغالباً ما كانا هما النزيلين الوحيدين، وكان طعامهم يتألف غالباً من خبز الذرة المحفوظ لديهم من يوم مضى، ومن القليل من الماء أو قهوة القشر. ومع هذا فقد كانا يجدان في هذا الطعام، بعد يوم طويل من السفر، لذة أكبر ما يمكن أن يجدا في أغلى وجبة بأوروبا. ومرَّت بهم الأيام هكذا، دون أن تحدث حادثة واحدة متميزة عن الحوادث

العادية الأخرى، عدا ذلك الحادث العاطفي الذي حدث بعد ظهر الرابع من نيسان (إبريل) وهو في طريق عودتهم من جبلة وتعز إلى بيت الفقيه، فبينما كانا يسيران في طريقهما كالعادة راكبين حماريهما جنباً إلى جنب، في صمت وذهول، بسبب حرارة الشمس، وبينما لم يكونا يسمعان إلا وقع حوافر الحمارين على الطريق الصخري إذ بفورسكال يلمح فجأة لمعاناً غريباً على بعد مسافة أمامهما، واستطاع أن يعرف مصدر ذلك اللمعان بعد عدة دقائق من المسير. ففي إحدى التلال القريبة من الطريق كانت تنتصب شجرة متفتحة الأزهار، اتجه إليها فورسكال بمفرده بعد أن نزل عن ظهر حماره، وقبل أن يصل إليها التفت إلى نيبور وصرخ بصوت مثير دفع نيبور أيضاً إلى الإسراع نحو الشجرة، واجتاح السرور قلب فورسكال وهما يشاهدان أعظم اكتشاف نباتي كانا يأملان الحصول عليه في كل رحلتهم.

لقد وجدوا شجرة البلسم المكاوي الأصلية، وبينما كان نيبور يربط الحمارين كان فورسكال يصف تفتح أزهار هذه الشجرة بعد أن جلس في ظل أحد الأشجار وبيده غصن من أغصان هذه الشجرة. قد يتبادر إلى الذهن، أن فورسكال كعالِم نبات، يجمع كل ما تطالعه يده من أعشاب وأشجار، وفي الواقع كان غالباً يكتفي يقطف زهور الأشجار ويندر أن يحتفظ بأوراقها وسيقانها وجذورها. وكان وصفه لهذه العينات النباتية مفصلاً ومكتوباً بعناية مكن الخبراء فيما بعد من التعرف عليها بسهولة، ويقال ولا شك في صحة هذا القول أن سبب هذا هو خوف فورسكال من أن يحرم في كوبنهاجن من أن يكون له شرف اكتشافاته التي كان لا بد من إرسالها إلى هناك. فقد كان وصفه لها يظل محتفظاً لديه حتى يعود من الرحلة. في هذه المرة احتفظ لنفسه إلى جانب وصف هذه الشجرة، بإحدى غصونها المزهرة. وحين عاد إلى بيت الفقيه كان أول عمل يقوم به هو إرسال تقرير عن هذا الاكتشاف إلى البروفسور لينوس، الذي

حين غادر ابسلا أعرب عن أمله في أن ينجح فورسكال في أن يرسل إليه غصناً من شجرة البلسم المزهرة، حتى يكون في استطاعته أن يقوم بفحصه، ووصف طبائع وخصائص هذا النوع من النبات. وفي الثامن عشر من نيسان (إبريل) كتب إليه فورسكال من بيت الفقيه وأرفق برسالته ساقاً من هذه الشجرة متجاهلاً بعمله هذا أوامر المنع التي صدرت من الحكومة الدنماركية. جاء في رسالته: (إني أعرف الآن نوع شجرة البلسم فهي تنمو في اليمن، لكن السكان هنا لا يعرفون كيف يجمعون البلسم منها. إني لا أستطيع أن أسجل اكتشافاتي في رسائل خاصة، غير أن ما يمكن قوله، هو أن هذه الشجرة ليست الـ (Pistac) وليست الـ (Lenticus). ولكنها من نوع البراون (Brown's Genera) وقد جمعت أيضاً عدداً لا يصدق من النباتات الأمريكية والهندية ونباتات أخرى جديدة، لكن ليس من المسموح أن أسجلها في قوائم مفصولة عن بعضها البعض. وعلى أي حال سوف تظهر هذه الاكتشافات إلى الوجود إذا وهبني الله طول العمر والصحة. وفي الحقيقة يستحق حقاً هذا البلد أن ترسل إليه بعثة زراعية خاصة، ويجب التمسك بأن يكون إرسال هذه البعثة على شرف البروفسور ميشاليس في كونتجن. وإذا لم يطل بي العمر حتى أناقش معك ما جمعته من نباتات، فسوف أخسر ويخسر العلم معي عندئذ أكثر مما يمكن أن تتصور). لقد استغرق وصول هذه الرسالة سنة، منذ أن أرسلت مع الساق المزهر المقطوع من شجرة قرب (Oude) حتى وصولها إلى أبسلا. وخلال هذا الوقت الطويل كان كل شيء قد تغير.

ولأول مرة كان لينوس قادراً على دراسة شجرة البلسم الأصلية، لكن هذا لم يكن إلا شكلاً على ما يبدو، فقد كانت الزهور ذابلة. وفي اليوم الثاني لتسلمه رسالة فورسكال من بيت الفقيه، وصف محتوياتها المثيرة في رسالة كئيبة بعث بها إلى عالم الفلك وارجانتين جاء فيها قوله: (البارحة تسلمت رسالة من فورسكال، من مملكة الأموات) وعلى عكس



ما ظنه لينوس فقد كان اكتشاف فورسكال لشجرة البلسم تتويجاً لنشاطات البعثة في اليمن السعيدة. وكان السكان في كل مكان في هذه البلاد ودودين، وعلى استعداد لتقديم المساعدة والعون. كما سادت روح المودة بين جميع أعضاء البعثة. ولم يكن لعملهم من قبل مثل هذه النتائج الباهرة، ولم تكن توقعات المستقبل بمثل هذا الجمال.

بعدئذ، سارت الأمور سيراً خاطئاً، ففي اليوم الثاني لاكتشافهما هذه الشجرة، عادا إلى تهامة حيث الحرارة كانت كاسحة، خاصة بعد بقائهم مدة طويلة في المناطق المرتفعة، وبعد يوم طويل من السفر الشاق، وحين خيم على الأرض سواد الليل وجدوا كوخاً في قرية (Kurtub) يقضون فيه الليل.

كتب نيبور بهذه المناسبة يقول: «بالرغم من سكون الهواء في الخارج، فإننا كنا نجد في الغالب بداخل الأكواخ هواء بارداً وكنا نشعر بارتياح في الأيام الدافئة. وفي تلك الأمسية كان يتوجب عليَّ الاهتمام بصحتي، فغطيت نفسي بذلك الشال الكبير الذي كنت أحمله على كتفي. لكنني كنت مهملاً حين ألقيت بنفسي على تلك الأرضية الطينية العارية من أي فراش. وفي الحال طواني النوم في عالمه، خائر القوى بسبب الحرارة والسفر الطويل.

وهاجمتني في اليوم التالي حمى شديدة، ولم أشعر بتحسن قليل في صحتي إلا بعد يومين، حين كنا قادرين على مواصلة الرحلة عائدين إلى بيت الفقيه. لكنني بعد ذلك كنت معرضاً، من يوم لآخر، لهجوم الحمى، مما سبب لي إرهاقاً كبيراً فأصبح من الصعب عليَّ القيام بأي عمل».

عاد فورسكال ونيبور المتوجع في مساء السادس من نيسان (إبريل) إلى بيت الفقيه حيث كانت تنتظرهما اخبار سيئة. لقد كان البروفسور فون هافن طريح الفراش، وكان يبدو هذه المرة أنه مريض حقاً.



وقد شرح الهر نيبور هذا الموقف في مذكراته بأسلوب ينم عن نفوره من الدنماركي فون هافن:

«حين وصلنا إلى بيت الفقيه وجدنا الهر فون هافن مريضاً، ويظهر أنه كان يعاني من علَّة شديدة في المعدة.. وكان متضايقاً أكثر من أي وقت مضى، من أسلوب حياتنا أثناء هذه الفترة. فقد مضى وقت طويل دون أن نستطيع الحصول على نبيذ أو أي نوع من أنواع المشروبات الروحية. وكان علينا أن نكتفي بالماء والقهوة وشراب القشر. وفي أغلب الأماكن في تهامة كان الماء رديئاً وغير صالح، وحذرنا الناس من تناول اللحم بكميات كبيرة في هذه المناطق. إن الذي يعرف كيف يستفيد من الأنواع الأخرى من الطعام، يجد من السهل عليه الاستغناء عن اللحم في طعامه، لكن طباخنا لم يجد في السوق كل ما نطلبه من مستلزمات الطبخ التي تمكنه من أن يطبخ طعاماً أوروبياً، ولهذا السبب كنا في الغالب نأكل اللحم كل يوم في مقرنا ببيت الفقيه. وأعتقد أن هذا قد أثر في صحتنا تأثيراً عكسياً، خاصة على صحة من لا يقوم بأي وجه من وجوه النشاط البدني، والرياضة. وأخص بالذكر فون هافن الذي لم يكن يغادر المنزل إلا لماماً، ولم يكن يتحرك من مجلسه الذي ينام عليه إلا عند الأكل».

وانقضى فصل الربيع في تهامة، وكان نيبور وفون هافن لا زالا مريضين، وأيقن كل شخص بأن عليهما مغادرة بيت الفقيه في أسرع وقت ممكن، كي تتحسن ظروف معيشتهما. ومع هذا لم يكن في قدرة أحد تشخيص مرضهما، فنيبور يفسر مهاجمة الحمى له بتكرار وانتظام على أنه من تأثير البرد، وفون هافن عزا مرضه إلى سوء التغذية. وكان كل منهما على خطأ في تفسيره. حتى الدكتور كرامر لم يكن في موقف يستطيع فيه تشخيص المرض. وهذا هو السبب الذي جعل قرارهم بمغادرة بيت الفقيه عملاً مصيرياً. وفي الحقيقة لم يكن البرد هو سبب مرض نيبور، كما لم يكن فون هافن يعاني من مرض في معدته. لقد أصابتهما في الواقع الملاريا.



القسم السادس

TABULA ITINERARIA
sistens illam partem
TERRÆ YEMEN
quam
Societas litteraria auspiciis et sumtibus
FRIDERICI V. ET CHRISTIANI VII.
Daniæ Regum
in orientem missa
peragravit
Ad observationes astronomicas et hodometricas
conformata; Auctore
C. Niebuhr.
MDCCLXIII.

BAHHR EL IEMEN

SINUS ARABICUS.

SIGNORUM Explicatio

Urbs Capitalis
Urbes Communes
Vicus
Pagi
Arx
Hospitium

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10
Milliaria Germanica 15 in uno Gradu

خريطة اليمن رسمها نيبور



الفصل الأول

موت فون هافن في المخاء

لماذا سميت «بيت الفقيه» بهذا الاسم؟ - أخطر قرارات البعثة – لعبة إسماعيل صالح – خمره وهندي كافر – اتهام أعضاء البعثة بالجنون، ومحاولة تسميم البعثة – سرقة بيت البعثة – البعثة في ضيافة الإنكليز – حاكم المخاء يرتكب الجرائم من أجل حصوله على الرشوة – تحليل لشخصية فون هافن.. هل كان حقاً ينوي قتل زملائه؟

سميت مدينة بيت الفقيه باسم رجل تقي عاش في تهامة منذ أمد طويل، كان الناس يأتون إلى مقره من كل مكان للاستماع إلى أحاديثه فشيدت مدينة في هذا المقر، سميت «بيت الفقيه» أي بيت الرجل الحكيم[1]. لكن في عام ١٧٦٣ لم يكن هناك رجل حكيم يعيش في هذه المدينة، ولو كان موجوداً لكان قد شرح لأعضاء البعثة الدنماركية بأن رحلتهم إلى المخاء ما هي إلا ضرب من الجنون المطبق. إن مدينة بيت الفقيه متساوية البعد تقريباً عن كل المدن الثلاث الهامة، اللحية وصنعاء والمخاء. وحين قرروا مغادرتها لاكتشاف مناطق جديدة، وللحصول على ظروف حياة أفضل للمرضى منهم كأن لديهم الخيار بين شيئين، إما أن يرحلوا إلى العاصمة صنعاء أي إلى المرتفعات حيث يزرع البن، وإما أن يرحلوا إلى ميناء المخاء الذي يقع في الجزء الجنوبي من صحراء تهامة. وجاءات نهاية شهر نيسان (إبريل) وقد أصبحوا على أبواب فصل الصيف. وبنهاية الربيع، بعد عدة أسابيع يتحول هواء الصحراء المنعش إلى لهيب الأفران، وتصبح مدينة المخاء، الغارقة في البحر والرطوبة، والخالية من أي مياه للشرب إلا تلك الملوثة، جهنم التي لا تطاق. هذا ما سيجدونه في تهامة أما في المناطق المرتفعة حيث تقع مدينة صنعاء، فسيجدون هناك هواء الجبال النقي والحدائق الظليلة المليئة بالخضروات والفواكه ومياه

(١) الصحيح: بيت الرجل المتبحر في العلوم، خاصة الدينية منها. (المترجم).

الآبار الغير ملوثة. وكان برنامج البعثة يتضمن زيارة كلا المدينتين صنعاء والمخاء، وكانوا يعلمون أنه بعد الاستقبال الحسن الذي استقبلوا به في اليمن لن تواجههم أي صعوبات في سفرهم مباشرة إلى العاصمة صنعاء، دون الحصول على المزيد من رسائل التعريف بهم من مدينة المخاء، كذلك لم يكونوا في حاجة ملحة للصناديق التي سبق وأرسلوها إلى الجمرك هناك. وكان كل شيء حولهم يوحي بأن سفرهم سيكون مباشرة إلى صنعاء وحين يأتي فصل الخريف ومعه الهواء البارد يواصلون رحلتهم من صنعاء إلى المخاء. ويكونون بهذا قد ساروا حسب النهج المحلي الذي يسير عليه المواطنون حتى يومنا هذا، حين نجد أن الذين لديهم قدرة مالية ينتقلون إلى الجبال لقضاء فصل الصيف فيها. إن صنعاء ليست بعيدة كثيراً عن بيت الفقيه والرحلة إليها ليست في الواقع أكثر مشقة من الرحلة إلى المخاء بالنسبة للمريض، وفي طقس المناطق المرتفعة الصحي سوف يجد أن الفرصة الممتازة للشفاء، بينما يصبح همها في طقس المخاء الحار، الرطب، ليس الشفاء وحده بل والمحافظة أيضاً على مجرد البقاء أحياء.

لم يكن هناك أي سبب واضح للتردّد، فالأمر كان جلياً. ومن الغريب أن لا يوجد لدينا ما يدل على أن الموضوع قد نوقش من قبل أعضاء البعثة، فلم يكن لدى أحدهم أي اعتراض، كما كان الحال عليه في المناسبات السابقة، وقد توصلوا بالاجتماع إلى أخطر قرار متعلق بمصير البعثة.

وخلال الأيام القليلة الأخيرة في بيت الفقيه، كانت البعثة الدنماركية مثل سفينة تضامن بحارتها وعقدوا العز على أن يجربوا تعريضها لأشد الأخطار.

في العشرين من نيسان (إبريل) لعام ١٧٦٣ غادروا بيت الفقيه إلى الجنوب عبر الصحراء لقضاء فصل الصيف في المخاء. وكان فورسكال ونيبور يسافران خلال النهار، حتى يتمكن فورسكال من أن يجمع النباتات التي يصادفها في طريقه، ويجمع

نيبور المعلومات التي يحتاجها للخريطة، أما باقي أعضاء البعثة، فكانوا يتبعونها على ظهور الجمال ليلاً ومعهم الأمتعة والأدوات. وكانت الحرارة لا تطاق وقد سجل ترمومتر فورسكال بانتظام ١٠٠ درجة فهرنيت، وكانت الرمال تغطي كل شيء والجفاف في كل مكان ولم يصادفهم في الطريق لا نبات ولا قرى. وكل ما كانوا يشاهدونه من وقت لآخر هي طريق القوافل المتجهة إلى الجبال والمحملة بالملح من المناجم على الشاطئ. وفي مساء الثالث والعشرين من نيسان (إبريل) قبل إقفال أبواب المدينة بوقت قصير، وصل فورسكال ونيبور إلى المخاء منهكي القوى. وبينما كانا في طريقهما إلى داخل المدينة أخبرهما أحد الحراس أن ركوب اليهود والمسيحيين الحمير داخل المدينة ممنوع، فاعتبر نيبور هذا المنع بداية شؤم. وكانت هذه هي المرة الأولى منذ مغادرتهم القاهرة التي واجهوا فيها ما يسيء إليهم. وسارا داخل المدينة بين جماهير الناس التي امتلأت بهم شوارع هذه المدينة، يجر كل منهما حماره وراءه في صمت وتعب شديد. وهنا في المخاء كان يوجد الشاب إسماعيل صالح ابن الرجل المؤسر، الذي كان له دراية بظروف الأوروبيين ويعرف النطق ببعض كلمات المانية مكسرة. حين كان أعضاء البعثة يجده قبل ستة أشهر تقريباً قام هذا الشاب بزيارتهم واستطاع بشخصيته اللطيفة والقريبة إلى القلب أن يكسب عطفهم، حتى أنهم عرضوا عليه السفر معهم مجاناً على السفينة التي نقلتهم إلى اليمن. وحين قرروا مغادرة الباخرة والنزول في اللحية اقترح عليهم، أنه على سبيل العرفان بالجميل سوف يقوم بالإشراف والعناية بمجموعة الصناديق بما فيها النماذج النباتية التي جمعها فورسكال حتى تصل إلى الجمرك بمدينة المخاء. وقبلوا هذا الاقتراح دون أدنى شك في الأمر، وسلموا إليه النماذج النباتية التي لا يمكن الاستعاضة عنها، معتقدين أنهم قد وجدوا فيه الصديق، صاحب الكلمة التي لا بد أن تكون ذا نفع كبير بالنسبة لهم حين وصولهم إلى موطن رأس المخاء.

وحين وصلا المدينة وصل إلى سمعهما أن ثلاثة تجار إنجليز كانوا قد وصلوا من بومباي بالهند قبلهم، ومعهم مجموعة من البواخر. وفكرا ملياً في زيارة هؤلاء الأوروبيين الإنكليز لطلب المساعدة منهم في الاستقرار بالمدينة. غير أنهما تخليا عن هذه الفكرة، لأنهم بملابسهما الشرقية المتربة، خشياً أن يظنهما الأوروبيون متشردين، وهما في الواقع من أرقى الأوروبيين وقد حصلا على عناوين هؤلاء الأوروبيين وعرفا أنهم أغنياء وكرماء. لكنهما لم يذهبا إليهم بل ذهبا إلى بيت إسماعيل صالح الذي طفح البشر على وجه حين شاهدهما للمرة الثانية وتأكدا، باستغراب نوعاً ما، أنهما كانا من أعز أصدقائه. وفي الحال أوجد لهما منزلاً ودعاهما بعدئذ إلى بيته وقدم لهما الخمرة لتسليتهما، لكنه نفسه لم يكن يشربها لأنه كان مسلماً. وحتى لا يشربان لوحدهما فقد دعا لمشاركتهما أحد الكاثوليك الهنود، الذي كان كافراً بالدين وسكيراً من الطراز الأول.

وهنا، بدأ فورسكال ونيبور يشكان في أمر هذه الحفلة، فرفضا شاكرين تناول المزيد من المشروب القوي الذي قدّم لهما. وارتفع بينهما صوت إسماعيل صالح ينصحهما في ثقة أن يحلقا لحيتيهما ويلبسا الملابس الأوروبية، وأهم كل شيء، عليهما أن لا يدعا أحداً يعرف أنهما يفهمان اللغة العربية، لأن هذا سوف يثير شكوك الأهالي. وحين عبَّرا عن رغبتهما في مواصلة السفر بعدئذ إلى صنعاء، ظهرت على وجهه أمارات الدهشة والاستغراب. فلم يكن وارداً في ذهنه سفرهما وحيدين إلى هناك، حيث السكان خشنون، وغير متمدنين، وسيكون من الحكمة أن يظلا في المخاء، حيث ينعمان بحمايته لهما. وأطلعاه على الرحلات الطويلة الكثيرة التي سبق وقاما بها في (تهامة)، وكيف أن المواطنين استقبلوهم في كل مكان، استقبالاً حسناً. فاستغرب إسماعيل صالح سماعه هذا الكلام، فلم يكن يتوقع مطلقاً مثل هذا الأمر. وبالنسبة للموطنين في المخاء قال لهما في برود بأن في استطاعته الادعاء بأنه يعرفهم أحسن مما يعرفانهما هما، وأخبرهما أن هؤلاء المواطنين يشعرون بالكراهية الشديدة نحو الأوروبيين، وأن في استطاعته مساعدتهم في هذا الخصوص، لأن والده صاحب نفوذ كبير في هذه المدينة.



كان من طبيعة فورسكال ونيبور الشعور بالثقة في الآخرين، فلم يشكَّا في أقوال إسماعيل صالح، طلبا منه فيما إذا كان هو ووالده، صاحب النفوذ، سوف يرافقانهما في اليوم التالي إلى الجمرك، حيث سبق وأودع صناديق البعثة التي حملها معه من اللُّحية، فوافق على طلبهما. وانتهى الحفل وغادرا المنزل في صحبة ذلك الهندي المرتد عن الدين، الذي بفعل السكر، أصبح ذلق اللسان إلى حد كبير، فخرجت من فمه وهو يسيرون في الطريق بعض التلميحات السيئة عن إسماعيل صالح، وعن حبه المغرض للأجانب، وعن والده ذي النفوذ الواسع، مما جعل فورسكال ونيبور يسترجعان الأحداث ويقارنان بينها حتى اتضح لهما كل شيء. وحين انتهيا من الحديث مع هذا الهندي لم يعد لديهما أدنى شك في أنهما قد خدعا.

وفي اليوم التالي، في الساعة التاسعة صباحاً، وصل المخاء بقية أعضاء البعثة، ومعهم الأمتعة، واتجهوا جميعاً مباشرة إلى الجمرك حيث كان حاكم المدينة موجوداً، ولم يكن هناك أي أثر لإسماعيل صالح أو لوالده صاحب النفوذ. والتفت فورسكال إلى الحاكم وطلب منه أولاً تخليص الأشياء التي وصلت براً من بيت الفقيه، والتي كانت تضم السرر وأدوات المطبخ. ذلك لأن فورن هافن كان في حاجة للراحة السريعة بعد عناء السفر طول الليل. لكن، رفض موظفو الجمارك طلبه، وطلبوا الكشف أولاً على الصناديق التي وصلت بحراً من اللُّحية، والتي كان في أحدها مجموعة من القوارير الصغيرة المليئة بالسمك التي كان قد جمعها فورسكال من البحر الأحمر. وتوسل إليهم فورسكال أن تسلم هذه القوارير دون أن تفتح، لأنها مليئة بمادة الكحول المركز، وإذا أُخرج السمك من داخلها فإن رائحة كريهة من الأسماك سوف تفوح منها.

ولم يصغ أحد من موظفي الجمرك إلى توسلاته، وقاموا بفتح القوارير، وأخرجوا منها الأسماك، ورجّوا الكحول ليروا إذا كان فيه أي شيء مخفي. وانتهى بهم الأمر إلى أن صبُّوا السائل على الأرض، وكانت النتيجة أن عج بناء الجمرك كله برائحة الكحول الكريهة والسمك المتعفن.



كتب نيبور في هذا الخصوص ما يلي:

«يستطيع المرء أن يتصور بسهولة رد الفعل الذي أحدثه هذا بين العرب الذين تحرِّم عليهم ديانتهم شرب جميع أصناف المشروبات الكحولية. وكم شعرنا بالإهانة أمام الحاكم وهو يرى الجمرك وقد تسببت أمتعتنا في تلويثه».

وبالطبع لم تؤد رائحة السمك المتعفن إلى تحسن حالة فون هافن الصحية. ومرة ثانية، طالبوا بفحص سررهم أولاً وتسليمها إليهم، لكن صمم موظفو الجمرك على فتح الصناديق القادمة من اللحية أولاً، وفي هذه المرة أتوا على الحيوانات الهلامية، التي حين فتحت صعدت منها أيضاً روائح نتنة، لأن تعبئتها تمت قبل أن تجف، فأثار هذا عندئذ تذمراً غاضباً بين المشاهدين من الناس، واشتاط موظفو الجمرك غضباً وأفرغوا على الأرض جميع تلك الحيوانات الهلامية، وفتشوا كل أجزائها بواسطة رأس عتلة. وهي الهلاميات التي عبأها فورسكال بعناية فائقة وجهد كبير، وحين شاهدها مبعثرة على الأرض متلفة، صرخ بأعلى صوته، لكن دون جدوى، لقد كان جواب العرب بأن من يجمع مثل هذه الأشياء لا يمكن أن يكون متمتعاً بكل قواه العقلية، وقالوا أن فورسكال قد أتى بهذه الأشياء ليجعل من حاكم المدينة وموظفيه أضحوكة. وعمَّ النقاش بين المتفرجين، وكان للبعض منهم رأي مغاير، فقد اعتقدوا أن هذه الأشياء التي جمعها الأوروبيون، هي في الواقع أشياء ثمينة جداً، ولكن السحر الأوروبي قد أعمى أبصارهم عن رؤية حقيقتها. أما الحاكم فقد كان يبدو أنه رجل من نوع لطيف، ولم يكن حتى الآن قد علّق أهمية كبرى لما كان يقال. لكن بعد أن أخرجت بعض القوارير الطويلة التي وضع فورسكال فيها مجموعة من الثعابين الصغيرة في الكحول، انقطع نقاش الناس في ذهول وساد الصمت المطبق. وبعد لحظات قطع ذلك الصمت المطبق أحد الموظفين، فقد وجد التفسير لما شاهده، فأخبر الجميع أن من الواضح لديه أن الأوروبيين قد

وصلوا إلى اليمن بقصد تسميم المسلمين بسم الثعابين، وهذا هو السبب الذي جعل أحدهم يدَّعى بأنه طبيب حتى تكون لديه الفرصة المثلى لتنفيذ هذه الخطة الشريرة. وحين سمع الحاكم أن حياة رعاياه أصبحت في خطر نفد كل صبره وأعلن في غضب، مقسماً بالله، أن لا يسمح لهؤلاء الأوروبيين بالبقاء ليلة أخرى في المدينة. وبعدها ساد الضجيج الشديد بين المتفرجين، وألقى بالأوروبيين خارج الجمرك وأقفل الباب وراءهم دون أن يسمح لهم بأخذ حتى أكثر الأشياء حاجة بالنسبة لهم، كأدوات المطبخ والسرر.

في هذه اللحظة وصل خادمهم برجرن في هلع، وأخبرهم أن العرب قد اقتحموا المنزل الذي أوجده لهم إسماعيل صالح، وأُلقيت من نوافذه إلى الخارج حقائبهم التي بها الكتب والمعدَّات التي جاؤوا بها من مدينة بيت الفقيه، وأن البيت قد أقفل.

أسرع في الحال فورسكال وكرامر للعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولم يكلفهما اكتشاف من كان وراء هذه الأعمال إلا لحظات، لقد علما أن إسماعيل صالح هو الرأس المدبر لكل هذه الأعمال.

اندفع فورسكال إلى داخل المنزل في غضب بالغ، ولكن دون جدوى. فلم يعرف أحد مكان وجود ذلك الشاب اللطيف المخادع، وكأن الأرض قد ابتلعته. وتجمع الأوروبيون وجابوا أنحاء المدينة يفتشون عن منزل آخر، وأسفر تفتيشهم عن خيبة أمل وقوبلوا في كل مكان ذهبوا إليه مقابلة سيئة، لأن كل المدينة قد سمعت بما حدث في الجمرك فلم يسمح أحد بتأجيرهم منزله خوفاً أن يسمم. وقضوا النهار كله يبحثون من بيت لآخر والملاريا تنخر في جسمي فون هافن ونيبور، وصراخ التهديد يتعالى من الناس في الشوارع، والصبيان المشاغبون يتبعونهم أينما ذهبوا. حتى جاء المساء وهم على هذا الحال حين التقوا بأحد القضاة الذي أبدى استعداده أن يجد لهم مسكناً على كفالته وحث أحد المواطنين على تأجيرهم منزله. ووجد هذا المواطن الفرصة سانحة فطلب الإيجار مضاعفاً، واشترط أن يدفعوا له أجرة أربعة أشهر مقدماً.

طلب هذا وأخذ ينظر شزراً إلى نيبور الذي كان يضع المال المطلوب على الطاولة أمامه. وأثناء هذا وصلت أنباء الكارثة التي نزلت بهم، إلى علم التجار الإنجليز القادمين من بومباي، فأرسلوا إلى أعضاء البعثة رسالة يدعونهم فيها لتناول العشاء معهم. ووجد نيبور أخيراً بصيصاً من الأمل، كتب في هذا يقول:

«كانت هذه الدعوة أكثر مدعاة لسرورنا من أي شيء آخر. لم نتمتع خلالها فقط بوجبة فخمة مع هؤلاء الإنجليز، لم نتناول مثلها منذ غادرنا القاهرة، لكننا أيضاً وجدنا فيهم أصدقاء مخلصين وصادقين» وجاء اليوم التالي وكان لا يزال الحصول على أمتعتهم من الجمرك غير ممكن. وفي هذا الوقت ظهر إسماعيل صالح على المسرح من جديد وكشف عن أوراقه وأخبرهم أن السبيل الوحيد لمصالحة الحاكم هو أن تقدم له هدية لا تقل عن خمسين دوكات، أي ما يقرب من ٢٠٠ جرام من الفضة. وبما أن الحاكم لا يقابل المسيحيين، فإن إسماعيل صالح سيتكرم بتقديم هذا المبلغ من المال بنفسه. في هذا الموقف لم يكن في قدرتهم عمل أي شيء غير الموافقة الظاهرة على ما قاله هذا العربي، واستطاعوا أن يتخلصوا من وجوده بأن أخبروه أنهم يريدون تقديم الهدية إلى الحاكم بأنفسهم. وتأكدوا بأن الأمر كله في النهاية سوف يحمل بالمال. ولكن لم تتصوروا لحظة واحدة بأن عليهم أن يفكروا في مبلغ ضخم مثل ذلك المبلغ. وحين فشلوا مرة أخرى في اليوم التالي في استرجاع أدواتهم من الجمرك قرروا أن يمثل نيبور أمام الحاكم في قصره، ويحاول جهده أن يجعل الحاكم يقبل منه خمسين دوكات. وسار نيبور يجر نفسه ناحية القصر بصعوبة، والحزن يجثم على قلبه. وحين وصل بوابة القصر علم أن الحاكم قد أطلق عليه الرصاص في قدمه قضاءً وقدراً، فتنفس الصعداء ووجد العذر الذي يجنبهم الإسراف في مصروفات البعثة وبعثرة أموالها. كتب في مذكرته : «رجعت في الحال إلى المنزل على أمل أن الحاكم سيسمح الآن لطبيب البعثة بزيارته، وعندئذ نستطيع أن نوفر على أنفسنا مشقة تقديم الهدية».



لكن تفاؤل نيبور لم يكن له أساس صحيح. لقد اقترح بالفعل على الحاكم أن يستعين بطبيب البعثة، لكن اقتراحه لم يقبل بسبب خوف الحاكم من أن ينتقم منه الأوروبيون عن طريق العلاج المسموم. وفي السابع والعشرين من نيسان (إبريل) حصلوا على إذن في الحصول على أسرتهم من الجمرك. ووجدوا الفراش مقطعاً، عديم الفائدة. وفي الثامن والعشرين لم يحصلوا على شيء، لكنهم في اليوم التاسع والعشرين حصلوا على بعض الأدوات الفلكية البسيطة. فأصبح لا سبيل لديهم إلا تسليم تلك الهدية، حتى نيبور رأى الآن ضرورة تسليم المبلغ واعتباره، كما لو كان قد ضاع منهم، لكنه لا يستطيع أن يتحمل الرجوع مرة ثانية إلى القصر بنفسه ليرجو الحاكم قبول هذه الثروة. فاضطر فورسكال أن يقوم بهذه المهمة. وكانت القضية بالنسبة لهذا الانعزالي فورسكال، كما هي العادة، وكما هو دائماً، والقضية بالنسبة إليه قضية مبدأ، وقد عرف بالتجربة كيف يمكن أن تستخدم هذه الميزة في إسكات الآخرين. وكان، وهو يسلم في ضجر هذا المبلغ الضخم وكأنه يقوم ببعض الإجراءات الرسمية المملة التي لا بد منها. وقبل الحاكم الهدية في شيء من الارتباك، وتمتم ببعض الكلمات معتذراً على أمل أن يفصح فورسكال عن شكواه واحتجاجه. لكن فورسكال لم يساعده ولم يقل شيئاً واكتفى بالنظر إليه في استغراب غير المبالي. وأصبح هذا العربي بعدئذ في غاية من اللطف فسأل عن أحوال البعثة وعبر عن دهشته لأنهم لم يزوروه قبل ذلك. وكان فورسكال يعبر عن نفسه وكان يغير الموضوع، ويضع بعض الأسئلة السريعة المحددة. وبالرغم من أن هذا العربي لم يكن فوق مستوى تقبل الرشاوى فإن فورسكال لم يجد أي سبب لماذا يحتاج حديثهما للإطراء المتبادل. وتأكد للحاكم أن هذه المقابلة كانت بين رجلين مختلفين التكوين تماماً، وأخذ شعوره بالكرامة يقل، وبالتدريج جعل يشعر بأنه يفضل التنازل عن الهدية الموضوعة أمامه على الطاولة. لكن فورسكال أسرع في

النهوض وغادر المكان، وأصبحت لديه الآن الإجابة على ما كان يدور في رأسه من أسئلة. فقد عرف من الحاكم كل شيء يريد معرفته. بعد هذا تبدلت الأمور في المخاء، ففي صباح اليوم التالي تسلمت البعثة خروفين وكيس من الأرز هدية من الحاكم وتسلموا صناديقهم من الجمرك دون أن تفتح. وكان على الدكتور كرامر الإشراف على قدم الحاكم الجريحة. وبينما ظل جميع أعضاء البعثة الآخرين هادئين وقليلي الحركة كان فورسكال مشغولاً ونشيطاً أكثر من أي وقت مضى في حياته. كان يظهر عليه عدم التأثر بالحرارة الشديدة التي لا تطاق، وكان في حركة دائمة من الصباح حتى المساء: يدبر أمور البعثة، ويفاوض، ويوقع الاتفاقيات. وفي أقل من أسبوعين أصبح سيد الموقف كله، ومع هذا فكان يجد الوقت للقيام بمزاولة أعماله الاعتيادية، فقد وجدنا أن مذكرته في هذه الفترة مليئة بقوائم وحدات قياس الطول والوزن وصك النقود. كما درس تجارة المدينة في الذهب والعاج مع بلاد الحبشة وأبدى ملاحظاته على أسعار المر العلاجي واللبان والدرر، واكتشف أن العرب كانوا ولوعين بشراء الحديد والصلب ومواسير البنادق التي كانوا يفضلونها غير مستديرة، ولكن سميكة ومخمسة الزوايا والأضلاع.

وكان في هذا الوقت يقوم بأعمال جميع زملائه الخمسة. وخلال هذه الأيام العصيبة ساءت الأمور بالنسبة لنيبور وفون هافن، فلم يستطع نيبور أن يتذكر أياماً سيئة مرت عليه من قبل مثل هذه الأيام. وفي الثامن عشر من أيار (مايو) كتب رسالة بالفرنسية إلى برنستورف اضطر لأول مرة أن يرجو الوزير الدنماركي أن يعذره لعدم قدرته القيام بالرسم وإرسال التقارير وذلك بسبب مرضه. ونجده الآن يسمي القشعريرة دزنتاريا. أما بالنسبة لفون هافن فالأمر مختلف، فلم يكتب أي رسالة من المخاء. وفي مناسبات كثيرة في السابق كان يكتب ويعتذر بالمرض والعجز عن إهماله لواجباته، لكنه الآن حين لم تعد الحمى مجرَّد حجة بل أصبحت بلوى كبيرة، وحين وقف وجهاً لوجه أمام المصير المخيف، لم يلجأ للكتابة بل تقبل القضاء والقدر في وجوم.

كانت آخر رسالة يكتبها في حياته، هي تلك التي كتبها من اللُّحية، والتي أنهاها بالإفصاح عن أمله في أن يكون في استطاعته البقاء لمدة سنتين في اليمن السعيدة. وكان له ما تمناه وأكثر، فقد ظل فيها أكثر من سنتين، وهو حتى هذه اللحظة لا يزال يرقد فيها.

وقد وصف كارستن نيبور أيام فون هافن الأخيرة بقوله:

«سبق وأثارت حالة فون هافن بعض الاهتمام في بيت الفقيه، لكنها الآن تسير من سيء إلى أسوأ بين يوم وآخر. وكان يشعر بتحسن عند الماء، خاصة حين يكون قد أمضى بعض الوقت راكباً في الهواء البارد، لكنه واجه في النهار الحرارة الشديدة غير المتحملة. وفي مساء الثاني والعشرين من أيار (مايو) نام على سطح المنزل تحت السماء المكشوفة، وشعر براحة كبيرة في الهواء البارد. وفي مساء اليوم التالي كانت الريح شديدة جداً لدرجة أنه لم يجسر على البقاء في الهواء الطلق، لأنه لم يكن قد اعتاد أن ينام مغطى الوجه كما يفعل العرب. وفي المساء الرابع والعشرين غامر ونام على السطح. وفي الصباح – ربما لإصابته ببرد شديد – اشتد عليه المرض مما اضطر أن يقوم اثنان من الخدم بحمله إلى سريره في الأسفل. وأثناء النهار ازداد ضعفاً على ضعف. وفي الثامنة بدا وكأن نبضه قد توقف تقريباً، لكن حين كشفنا على أحد عروقه تبين لنا أن به بقايا حياة، وبعد ساعة من ذلك كتب وصيته. وحتى هذا الوقت لم نكن قد فقدنا الأمل نهائياً من رؤيته وقد استرجع صحته من جديد. وحين كانت الساعة الثامنة مساءً تقريباً، بدأ يهذي عن كل شيء، تارة بالعربية وأخرى بالفرنسية، وأحياناً بالإيطالية والألمانية والدنماركية. وهو على هذا الحال ذهب في نوم عميق أو بالأحرى في إغماء. ومات في حوالي العاشرة مساءً».

لم يكن من عادة أهل اليمن وضع الموتى في تابوت. ويخبرنا نيبور كيف أن البعثة حصلت على نجار ليقوم بعمل صندوق (لجسد صديقنا).. هكذا ذكر نيبور. وأرسل

إليهم التجار الإنكليز ستة بحارة كاثوليك من الهند، قاموا، في وقت متأخر من بعد ظهر السادس والعشرين من أيار (مايو)، بحمل الرجل الميت إلى قبره بالمقبرة الأوروبية البعيدة قليلاً عن المدينة. ورافق النعش الإنكليز الثلاثة وفورسكال وبورنفانيد وكرامر ونيبور المريض. وجرت مراسيم الدفن وفقاً للعادات المسيحية. وقد أضاف كارستن نيبور إلى مذكراته بعض كلمات التأبين، وكما كان القصد من المذكرات النشر فقد عبَّر عن نفسه بدبلوماسية بالغة، قال: «لقد وهب السيد فون هافن نفسه لدراسة الأدب الشرقي، وبموته خسر العلم أحد أعضاء البعثة الدنماركية الذي كنا نتوقع منه حقاً، عند عودتنا، أكثر الدراسات أهمية في حقل العلوم الشرقية».

وبعد مرور سنين عديدة على وفاة فون هافن كان نيبور أكثر وضوحاً وصراحة، حين تحدث إلى ابنه بقوله:

«كان فون هافن غير ضليع في علوم اللغات، وعدا ذلك فقد اختار عملاً لم يكن أحد منا أقل منه كفاءة في هذا العمل. وكان همه الوحيد خلال الرحلة الرجوع إلى الوطن وكان موضوع الحديث المفضل لديه، هو الحديث عن المستقبل المريح الذي صنعه لنفسه. ولم يجد ما يثيره في البحوث والاكتشافات، ما يعوضه عن المتاعب الكثيرة،

خريطة (المخاء) رسمها نيبور . ويشير الرقم ٧ الى موقع القبر الذي دفن فيه فون هافن

وحالة الحرمان التي واجهناها في الرحلة. ولم يحس أحد منا باليأس والعجز إلى الحد الذي أحسَّ به هو. وكانت أعظم مباهج الحياة لديه أن يرى أمامه سفرة عامرة بالمأكولات الشهية والخمرة الجيدة. وفي اليمن حيث وجدت البعثة فقط طعاماً بسيطاً جداً، وماء رديئاً، تحولت خيبة الأمل لديه إلى يأس. وكان في هذا اليأس، غالباً تسلية لزملائه، وفيه أحياناً إغضاباً لهم.

كان بطبيعته كسولاً، وفي طقس هذه المنطقة الحارة وجد الحجة المناسبة لأن لا يقوم بأي عمل. وأكثر من هذا، فقد كان متعجرفاً جداً ومغروراً في تصرفاته ويعتبر نفسه أبرز أعضاء البعثة وأكثرهم أهمية، كما كان يعتبر نفسه قائد البعثة، ويؤذيه لدرجة كبيرة أن الشؤون المالية لم توكل إليه. ولم يعثر بعد موته في مذكراته على أي شيء له أبسط الأهمية[1]».

إن فشل فون هافن حقيقة ثابتة، تماماً كحقيقة عدم كفاءة الدكتور كرامر. وهما الدنمركيان الوحيدان في البعثة اللذان أعطيا صورة سيئة عنها. وكانت هذه الصورة دون شك، السبب الرئيسي في عدم كتابة أي شيء عنهما في الدنمارك. لكنا مع هذا نستطيع أن نشعر بوجود بعض الظروف المخففة بالنسبة لإهمال فون هافن، وهي ظروف لم يبرزها أحد من قبل حتى فون هافن نفسه.

أول هذه الأسباب المخففة، هي أنه كان يقف وحيداً كعالِم وكرجل، فهو الوحيد بين أعضاء البعثة المختص في الشؤون الاجتماعية الإنسانية، بينما مجال الآخرين العلوم الطبيعية. لقد أسهم هذا التناقض في الاختصاص، في النزاع بينه وبينهم، أكثر ما أسهمت حقيقة كونه دانماركياً وفورسكال سويدي. فهما لم يكونا يتكلمان نفس اللغة في مواجهة الحياة، ولهذا معنى كبير في المدى الطويل.

---

(١) أقر هذا الحكم القاسي على فون هافن، في وقت لاحق من قبل مؤرخي سيرة فورسكال: كارل كرستيسن، وهنري ستشوك، الوحيدين اللذين اهتما في الماضي بموضوع البعثة الدنماركية.



وثاني هذه الأسباب المخففة، أن خط سير البعثة وجميع تدابيرها العملية قد صممت في الأساس مناسبة لرغبة الأغلبية المستمدة رغباتها من العلوم الطبيعية. فكان في استطاعة فورسكال ونيبور القيام بأبحاثهما في كل مكان، أما فون هافن، عالِم اللغات، فكان عمله مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمكتبات، ولم توجد أي مكتبة في جدة أو اللحية، أو بيت الفقيه. وإذا استثنينا دير القديسة كاترين. فإن المكتبات لم توجد إلا في عواصم البلدان. وحين أصيب فون هافن بمرض الملاريا لم تكن البعثة قد مكثت إلا في عاصمتين اثنين فقط، هما القاهرة والقسطنطينية، وفي كلا المدينتين اشترى مخطوطات ذات قيمة. وفي استطاعتنا أن نذكر أن أكثر الأشياء أهمية، له علاقة بالنتائج المتواضعة التي حققها، هو أنه حين وصلت البعثة إلى صنعاء، عاصمة اليمن السعيدة، وثالث عاصمة في رحلتهم الطويلة، كان فون هافن يرقد في مثواه الأخير. ومن الواضح، لكنه لم يذكر من قبل، أنه بينما كان مفروضاً عليه العيش لفترات طويلة في فراغ إجباري، كان مضطراً أن يتحمل مرأى فورسكال ونيبور غارقين في البحوث والدراسات، كل في مجال عمله.

لقد قاسى في الحقيقة من كسل يكاد يكون مزمناً، وفي الحقيقة أيضاً أن هذا الكسل المنحوس قد قوي وكبر نتيجة ظروف خارجية لم يستطع تغييرها، وقد حاول عدة مرات التغلب على هذه الظروف الخارجية، غير الكبرياء والغرور قد تسببا في تعقيد النتائج. وكانت النتيجة الوحيدة لكل محاولاته هي أن العلاقات بينه وبين الآخرين أصبحت ميؤوساً منها منذ البداية، وما عدا لحظات اليأس تلك التي مرَّت به، فليس من المحتمل أن يكون له خطة جادة فيما يتعلق بالزرنيخ، ومن قراءة رسائله ومذكراته يستطيع المرء أن يكتشف في كاتبها رجلاً ضعيفاً وصغيراً، لكن غير قاتل، فشراؤه للزرنيخ يمكن أن ينظر إليه كمظهر من مظاهر الفزع، أو كوسيلة أخيرة في متناول رجل ضعيف في سبيل المحافظة على نفسه، أو يمكن أن ينظر إليه كحركة تحدٍ من شخص أصبح في الحضيض.

لقد استطاع فورسكال أن يكون عديم الرحمة، فلو أن فون هافن قصد بجد تنفيذ ما ادَّعاه فورسكال ونيبور في رسائلهما إلى فون جاهلر، فإن في وصولهم أحياء إلى اليمن السعيدة معجزة كبرى. لقد أكدا هما أنفسهما، أن فرصاً كثيرة سنحت، كان يمكن لأي مجرم حقيقي اغتنامها في مثل ظروفهم الغريبة، فلم يكن لدى فون هافن الجرأة على قتل أي شخص، وقد مضى بعض الوقت قبل أن يتأكد فورسكال ونيبور من هذا، لكن حتى لو عرفا من البداية، فلم يكن يغير هذا من الأمر شيئاً، وحين اكتشفا أن فون هافن اشترى الزرنيخ وجدا الحجة لاتخاذ قرار غير ناضج، في محاولة منهم للتخلص من الرجل الذي كان صعب المراس في علاقته معهم. ويبدو أن هذا كان هو الغرض من وراء إرسال الرسالتين الملحتين اللتين أرسلاهما إلى برنستورف وفون جاهلر.

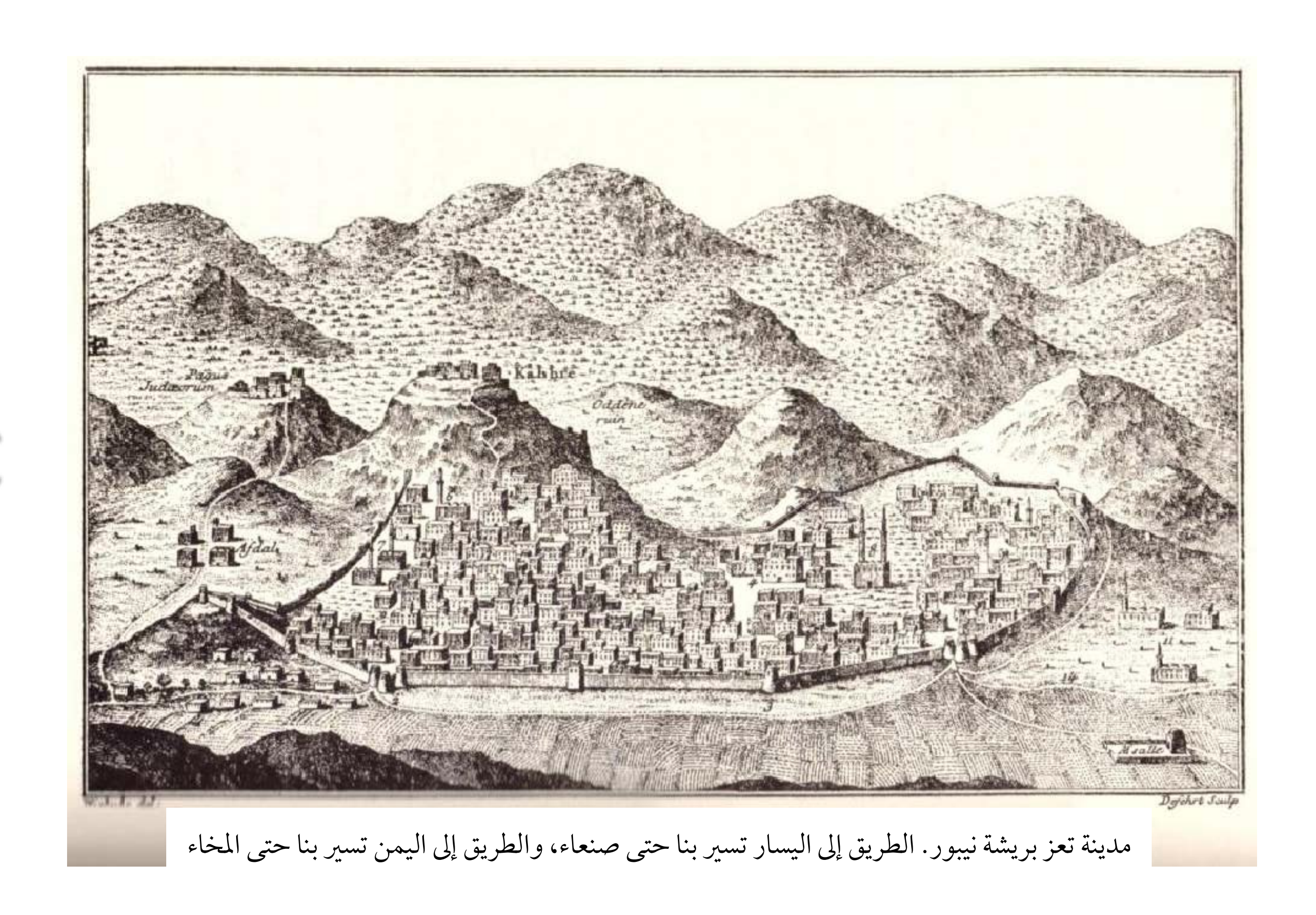
إن الصدام الذي قُلل من أهميته في القسطنطينية وفي كوبنهاجن إلى درجة النشوية، لم يكن بالأمر التافه، لكنه لم يكن دراما من جانب واحد كما أحب فورسكال ونيبور تصويره. وحين اكتشف نيبور هذا انسحب من اللعبة وعرض استعداده لمرافقة فون هافن إلى جبل المكاتب. ولكن المعركة كانت عندئذ قد انتهت.

وفي السويس واجهوا فون هافن دون شفقة بمواقع الضعف في شخصيته، واضطر للاعتراف كلمة كلمة بمخاوفه الخاصة.

وخلال الأشهر الأخيرة كان يبدو على فورسكال أحياناً أنه مشفق عليه، لكن عمق حقده الحقيقي، يمكن أن نحكم عليه من رسالة وجد الوقت الكافي لكتابتها، رغم مشاغله ونشاطاته الكثيرة في المخاء. ولا نقصد هنا الرسالة المختصرة التي بعث بها إلى برنستورف عن موت فون هافن، ولكنا نقصد رسالة أخرى بعث بها إلى البروفسور لينوس، تبين منها الاحتقار الذي كان لا يزال فورسكال يكنه للرجل الذي يرقد الآن تحت الرمال بستة أقدام، في المقبرة الأوروبية خارج مدينة المخاء. كتب فورسكال يقول:

«إن أحد أعضاء المجموعة، البروفسور فون هافن، مات هنا في الخامس والعشرين من شهر آذار (مايو)، وبوفاته أصبحت البعثة في وضع أسهل بكثير بالنسبة لبقية أعضائها. لقد كان صعب المزاج».

كان فورسكال هذه المرة، وللمرة الأولى في حياته على خطأ، فلم تصبح أمور البعثة أكثر سهولة، بعد وفاة فون هافن كما زعم، فبعد شهر فقط من هذه الوفاة حلَّت المصائب بالبعثة وتوفي فورسكال نفسه.



مدينة تعز بريشة نيبور. الطريق إلى اليسار تسير بنا حتى صنعاء، والطريق إلى اليمن تسير بنا حتى المخاء



الفصل الثاني

في تعز.. مع الحاكم الجشع

قرار خطير – مغادرة البعثة في اتجاه العاصمة صنعاء – حاكم تعز والبعثة – جاسوس حاكم المخاء – دراسات عن تعز – الحاكم يحارب القبائل الثائرة – الحاكم يطلب الرشوة.

غادر الأعضاء الخمسة الباقون القبر الحديث الدفن، والموجود خارج المدينة وهم يحسون بالمرارة في نفوسهم بسبب إنذار الموت المفاجئ، أكثر من إحساسهم بمرارة الأسى والشعور الوجداني نحو المتوفى. لقد أحسوا جميعهم أن الموقف كان من المحتمل أن يتدهور ويصبح لا يطاق. فقد توفي فون هافن بعد وقت قصير من مواجهتهم لتلك الأيام العصيبة بالمخاء، ولم ينقذهم إلا الرجال الإنكليز وتصرف فورسكال الحازم. لقد كان نيبور مجرَّد ظلّ لذاته السابقة، وقد ترك في نفسه مصير فون هافن تأثيراً عميقاً أكثر من غيره. لقد أحس أنه يعاني نفس المرض، وأن من حسن حظه أنه لم يكن الشخص الذي انتهوا تواً من دفنه. وعدا فورسكال الذي لا يكل ولا يتعب كان الآخرون غير صالحين لشيء، فقد أنهكتهم بالمخاء الحرارة والرطوبة وأسف جميعهم بمرارة لأنهم لم يتجهوا نحو التلال بدلاً من البقاء في تهامة، ومع ذلك كانت مناطق التلال هذه غير مشجعة على ارتيادها. وقد قيل لهم في المخاء بأن الإمام بصنعاء مخيف وكئيب، ومع هذا فقد كان لديهم سبب بسيط لأن يشعروا بالاطمئنان في المخاء، ما دامت مراكب الإنكليز الحربية راسية في عرض البحر. ولكن ما العمل حين تغادر هذه المراكب في النصف الأول من شهر آب (أغسطس) إلى الهند؟

إن البقاء فيه خطورة كما أن الإمام بصنعاء خطير أيضاً! والموقف مليء بكل الاحتمالات والحيرة، ولهذا لم يكن من المدهش أن ترتفع بعض الأصوات لتدافع عن الفكرة التي تطالب بالتنازل عن إكمال الاكتشافات في اليمن السعيدة. غير أن هذا لم يكن رأي جميع أفرد البعثة وفي هذه المرة كان لا بد أن يسبق النقاش الوصول إلى قرار في هذا الخصوص.



ذكر نيبور وجهتي النظر الرئيسيتين:

«فريق منا أراد أن نغادر إلى الهند مع الرجال الإنكليز في منتصف شهر آب (أغسطس)، وبعدئذ نركب الباخرة إلى لندن. والفريق الآخر أراد السفر إلى صنعاء والبقاء سنة إضافية في اليمن». ولم يقل لنا من كان رأيه السفر إلى صنعاء، ومن كان رأيه السفر إلى الهند. وفي سياق كلام آخر ذكر بأن كرامر وبورنفانيد كانا حريصين على رؤية مقام الإمام بصنعاء. وهذا لا يجب أن يؤخذ بالضرورة كدليل على أن فورسكال ونيبور كانا إلى جانب الرأي القائل بالكف عن مواصلة رحلتهم في اليمن. فلا يعقل أن يكون هذا محتملاً. ومع هذا فأهمية هذا الموضوع ثانوية، والشيء الرئيسي في الأمر هو أن النقاش انتهى إلى تسوية بينهم. فقد قرروا السفر إلى الهند على المراكب الإنكليزية، ولكن ما دام أمامهم من الوقت شهر قبل أن تبحر هذه السفن، فبإمكانهم القيام برحلة سريعة إلى صنعاء والعودة إلى (المخاء) للرحيل عليها. ومعنى هذا القرار أن كل فريق أراد أن ينفذ جانباً من رغباته، وهم لهذا يتحملون جميعاً المسؤولية متساوية تجاه النتائج الخطيرة التي حدثت بعدئذ.

كان يمكن أن يكونوا في أمان لو رحلوا إلى صنعاء مباشرة من بيت الفقيه، أما الآن فالأمر مختلف. فحين قرروا في النهاية التحرك إلى المناطق الجبلية الباردة، كان الإنهاك قد أخذ منهم مأخذاً كبيراً، بعد بقائهم في مدينة المخاء، غير الصحية، أكثر من شهر. وحتى لو ساروا بسرعة فليس باستطاعتهم تعويض ما أضاعوه من وقت، فقد كانت الملاريا في صحبتهم. وأكثر من ذلك، فحاكم المخاء قد لا يسمح لهم بالرحيل، فقدمه لا زالت تثير له المتاعب، وهو بدون الدكتور كرامر لا يستطيع أن يعمل شيئاً، وقد أطلعه فورسكال على أنهم قد فقدوا أحد رفاقهم، وأن آخراً في حالة صحية سيئة، ولهذا فعليهم الرحيل على وجه السرعة إلى طقس أكثر برودة. لكن حجته هذه لم يكن لها أي أثر على الحاكم الذي



ادعى أنه لا يستطيع السماح لهم بالسفر قبل تسلمه الإذن بذلك من الإمام بصنعاء. وبما أنهم كانوا مضطرين أن يسافروا على وجه السرعة حتى يعودوا إلى المخاء قبل إبحار البواخر الإنكليزية، فقد اقترح عليهم فورسكال السفر في الحال إلى مدينة تعز، والانتظار هناك لإذن الإمام. ورفض الحاكم التعاون معهم على هذا الأساس، مفضلاً قبول اقتراح كرامر في أن يظل في المخاء لمعالجته، بينما يرحل الآخرون. وحلت هذه المشكلة نتيجة حادث لم يكن على بال أحد. فقد وصل المدينة طبيب متجول، آية في المهارة، وأعلن أن باستطاعته أن يشفي الحاكم في أيام قليلة. وسمح للدكتور كرامر بالانسحاب من الاستمرار في هذه المهمة، وهو الذي كان يعتقد أن شفاء الحاكم ليس قريباً. وقد أعطاه الحاكم حماراً إكرامية، وسمح للبعثة بالرحيل وسلمهم رسالة توصية إلى زميله الحاكم بتعز، وعيَّن معهم أحد خدمه. ولم يتحمس كثيراً أعضاء البعثة لهذا التعيين فقد كان يبدو على هذا الخادم أنه مخادع ولا يُركن إليه، وساورهم الشك في أن مهمته الرئيسية قد تكون العمل جاسوساً لسيده بالمخاء، لكن الوقت لم يكن يسمح بتقديم الكثير من المراجعات. وما كان منهم إلا أن أودعوا أموالهم لدى التجار الإنكليز، وأخذوا معهم ما يكفي الإنفاق منه سنة كاملة في المناطق المرتفعة. وعند غروب الشمس في التاسع من شهر حزيران (يونيو) لعام ١٧٦٣ غادر المخاء في اتجاه مدينة صنعاء عاصمة اليمن السعيدة كل من نيبور وفورسكال ونورنفانيد وكرامر وبرجرن، وقطعوا ليلاً المراحل الأولى من سفرهم بتهامة تجنباً لحرارة الشمس بالنهار. ولأغراض رسم الخارطة اضطر نيبور أن يعيِّن اتجاه الطرق، عن طريق ملاحظاته الفلكية الليلية فقط، فكان من الصعب عليه أن يأخذ مقاسات مضبوطة عن طريق البوصلة في النهار.



وبعد رحيل دام ليلتين وصلوا قرية (Musa) بالمرتفعات، حيث كانت الطرق حجرية وغير مأمونة لدرجة أنهم لم يجرؤوا بعد ذلك على السفر ليلاً. وحتى في النهار كانت الممرات الجبلية خطرة للغاية، حين صاحب سقوط الأمطار الغزيرة عواصف شديدة، وتحولت هذه الطرق إلى أنهار مزبدة. ومن ناحية أخرى بدأت درجة الحرارة في هذه المناطق تخفيض تدريجياً، ففي الصباح كان مقاس الحرارة يشير إلى ٤٠ درجة، أي ٦٠ درجة فهرنت، وأخذت المناظر تتبدل أمام ناظرهم ووجدوا أنفسهم بين تلال خصبة ومناظر بعيدة لمدرجات خضراء مزروعة بالقمح. وعلى طول الطريق كانوا يشاهدون الفلاحين يأتون بالقطيع من الأغنام لتشرب من حفرة كبيرة مقامة لتجميع مياه الأمطار، وأصبح في استطاعتهم الآن الهروب من شمس الهجير إلى ظلال أشجار التين والتمر الهندي، وفي الليل كان في استطاعتهم النوم في تلك الخانات الكبيرة الموجودة في طريقهم، وكان لهذه الخانات حوائط عالية من كل جانب، وكان المسافرون يهرعون إليها بجمالهم، ويشترون منها خبز الذرة والقهوة والأرز والزبدة ويقضون الليل كله آمنين، لأن بابها كان يقفل كل مساء ولا يفتح إلا صباح اليوم التالي بعد أن يكون كل نزيل قد تأكد أنه لم يُفقد منه شيء، وكان وقتهم ثميناً، فكانوا يسرون بسرعة. وفي الثالث عشر من شهر حزيران (يونيو)، بعد أربعة أيام فقط من مغادرتهم مدينة المخاء، وصلوا مدينة تعز الواقعة في أكمة، والتي سبق لفورسكال ونيبور مشاهدتها من قبل في إحدى رحلاتهما الاستكشافية من بيت الفقيه، لكنهم الآن وصلوها ضيوفاً رسميين، واستقبلوا استقبالاً عاماً من قِبل حاكمها الذي ظهر عليه أنه لم يكن متوقعاً وصولهم، وقد انزعج حين رآهم، ذلك لأن الإشاعات كانت قد سبقتهم إليه بأنهم يحملون معهم صناديق مليئة بالثعابين الحية.

وقد لاحظ نيبور باستياء أن الأخبار في الجزيرة العربية تنتشر بوضوح من تلقاء نفسها، ومرة أخرى نجد أن فورسكال هو الذي قام بتطمين حاكم المدينة الخائف، وقادهم الحاكم إلى منزل سبق قبل وقت قصير، أن أرسل صاحبه إلى السجن، وأرسل إليهم، دلالة على كرم الضيافة، خروفين مع طعامها وكيسين من الطحين، وبالمقابل تقبَّل منهم هدية كانت عبارة عن لفة من الكتان الهندي، سجلها نيبور في دفتر حساباته بمبلغ أربع وعشرين سيجدالر، وكان الخادم برجرن هو الذي أخذ الهدية إلى الحاكم، وقد أوقفه البواب في مدخل بيت الحاكم وأخبره أنه لن يسمح له بالدخول إلا بعد أن يدفع له البخشيش، وتساءل برجرن على سبيل الفكاهة، فيما إذا كان من المعتاد في هذه البلاد أن يدفع الخدم البخشيش لبعضهم البعض! وأخبر البواب أنه في هذا الحال يطلب هو أيضاً منه بخشيشاً لقا تجشمه عناء المجيء ليسلم هدية من سادته الذين يقوم بخدمتهم، فضحك البواب لهذا التعليق الظريف وسمح له بالدخول، وحتى هذه اللحظة كان كل شيء في مدينة تعز يبدو على أحسن ما يرام، وكان جميع أعضاء البعثة مرتاحين في تعز، وقد رفع من معنوياتهم الطقس البارد، وكانت السماء تمطر عليهم كل يوم مطراً خفيفاً. ولاحظ نيبور في قراءاته لدرجة الحرارة، أن الحرارة هنا لم ترتفع عن أكثر درجاتها انخفاضاً في المخاء. والقلق الوحيد الذي لازمهم كان في وجود ذلك الخادم الذي أرسله معهم حاكم المخاء والذي يتدخل في شؤونهم ويتخذ القرارات على مسؤوليته، ويقحم نفسه مع المجموعة في زيارة بعض الشخصيات الهامة في المدينة، واضطر فورسكال أخيراً أن يوضح له أن وجوده في هذه المناسبات لا لزوم له، وامتعض هذا العربي لسماعه هذه الملاحظة وابتعد عنهم في أوقات الزيارات، لكنهم تأكدوا أنه لجأ في هدوء إلى وسائل أخرى للتأثير في مجريات الأمور.



في هذا الوقت شغل العمل كل اهتمامهم، فبدأ نيبور بجمع المعلومات عن تاريخ المدينة، وشكل حكومتها، وقام برسم صورة أولية للبنايات داخل أسوارها. وكان بورنفانيد مشغولاً طول اليوم برسم نباتات فورسكال، مما اضطر نيبور أن يقوم بنفسه برسم منظر للمدينة من جهة الشمال.

تقع مدينة تعز في أسفل جبل صبر، الذي يشتهر محلياً بأنه مغطى بجميع الأزهار في العالم. وغني عن القول أن نذكر أن فورسكال لم يستطع أن يتحمل سماع هذه الشهرة عن جبل يراه أمامه كل يوم دون أن يحرك السماء والأرض للوصول إليه. لكن الحاكم لم يسمح له بالذهاب إلى هناك، لأنه كان غاضباً على قبيلة أحد اللصوص في تلك المنطقة وكان في حرب معها، وكان يرى في السماح لفورسكال بالذهاب إلى هناك، إضعافاً لسلطته في المدينة، مهما كانت نتائج هذه الزيارة. فإذا قتل فورسكال هناك فسوف يدخله هذا في نزاع ومتاعب مع الإمام بسبب فقدان عالم أوروبي لحياته في المنطقة التي يحكمها. وإن عاد فورسكال سالماً فسيجد سكان المدينة في هذا ما يدعو للسخرية. إذ كيف يستطيع أحد الأجانب أن يتجول دون أن يصاب بأذى، في منطقة لا تجسر عساكر الحاكم على اقتحامها.

وبدلاً من الذهاب إلى جبل صبر، لم يكن في استطاعته إلا أن يشعر بالسعادة في أن يذهب إلى جبل يدعى سورق. واضطر أن يعود من هذا الجبل بعد ثلاثة أيام فقط بسبب أن جميع القرى كانت مهجورة لقيام أهلها بمحاربة القبيلة المعادية للحاكم، وبسبب هذا لم يجد فورسكال الطعام بعد ثلاثة أيام من البحث غير بالمجدي. وجدَّد طلبه إلى الحاكم بالسماح له في الذهاب إلى جبل صبر وكان في حالة إرهاق وألم، وبعد عدة أيام من الضغط المتواصل وافق الحاكم في الرابع والعشرين من شهر حزيران (يونيو) على ذهاب فورسكال ونيبور لزيارة هذا الجبل، الأول للقيام بجمع العينات النباتية، والثاني لنقل



النقوش والكتابات المحفورة هناك. وبما أنهما قد أضاعا أياماً من وقتهما الثمين في التداول والمراجعة فإن الرجلين في عجلة جهزا نفسيهما للرحيل في صباح اليوم التالي. وكانا معاً يحزمان أمتعتهما حين سمعا قرعاً على الباب، من قِبل الخادم الذي رافقهما من المخاء، وقد أخبرهما دون أن يبدو عليه أي اهتمام أن عليهم أن يتخلوا عن جميع خططهم. فأجاب عليه فورسكال بفظاظة، إن هذه الأمور ليست من شأنه، فابتسم الخادم ابتسامة مفتلعة، وما كان في استطاعتهم إلا العمل السريع، فقد كتب حاكم المخاء إلى حاكم تعز مصرًّاً على رجوعهم حالاً في فجر اليوم الثاني إلى مدينة المخاء. ووجدوا صباح اليوم الثاني الجمال في انتظارهم مربوطة على باب منزلهم. واعتقد فورسكال أن رسالة حاكم المخاء هذه ما هي إلا اختلاق وأخر رحيلهم بحجة عدم الانتهاء من حزم الأدوات، وأخبر الخادم أن حاكم تعز ربما كان يتوقع منهم هدية الوداع، وطلب الاستئذان له للمثول بين يدي الحاكم. وعاد الخادم بعد ساعة وأخبره أن الحاكم مريض. وصباح اليوم التالي أحضرت إلى منزلهم مرة ثانية الجمال وحمار واحد، ونصحو بلطف ولكن بحزم أن يغادروا المدينة، وفي صمت أصغى فورسكال لهذه النصيحة لحظة واحدة ثم بدأ يعمل، فأعطى أوامره أن لا تحمَّل الجمال، وأعلن بأنه سوف لا يرحل إلا بعد أن يكون قد تحدث شخصياً إلى الحاكم. وبعد ظهر ذلك اليوم وصل أحد الخدم وأخبره أن الحاكم في انتظاره، وأصبح من المؤكد لدى فورسكال ضرورة الوصول إلى تسوية بينهم وبين الحاكم. وكان لديه الرغبة في أن يتخلى عن رحلتهم إلى جبل صبر إذا ظلت البعثة في تعز حتى يصلهم سماح الإمام لهم بالذهاب إلى صنعاء. لكن لم تكن لدى الحاكم أي رغبة في المساومة، فلم يسمح للبعثة بزيارة جبل صبر ولا بالبقاء في تعز. وعليها أن تحزم في الحال أمتعتها وترحل إلى المخاء، وسوف تعطى اثني عشر ساعة للاستعداد للرحيل، وبعدها يجب أن تكون خارج المدينة.

في هذه الظروف تبددت كل آمال البعثة في الوصول إلى صنعاء، وبدؤوا من جديد في حزم أدواتهم وتحميلها على ظهور الجمال المنتظرة، وحين أصبحوا على أتم الاستعداد للرحيل وصلهم رسول يحمل رسالة تسلمها فورسكال وفتحها وقرأها في صوت عال مترجماً للآخرين محتواها. لقد كانت هذه الرسالة من حاكم المخاء وقد ذكر فيها أنه يود ببساطة يخبرهم أنه مولاه الإمام بصنعاء، قد أصدر أمره في أن يواصلوا رحلتهم إلى صنعاء دون تأخير ويحضروا معهم جميع الأشياء النادرة التي سبق وعرضوها في اللحية، كما تضمنت الرسالة رسائل توصية إلى الإمام نفسه وإلى وزيره الفقيه أحمد، وتوصية إلى حاكم تعز تطلب منه أن يساعدهم على الرحيل.

حين انتهى فورسكال من قراءة هذه الرسالة كان أول عمل يقوم به بعد ذلك هو طلبه مقابلة الحاكم، وأصبح أكثر اقتناعاً من السابق في أن رسالة حاكم المخاء الأولى كانت مزورة. وذهب إلى القصر وأوقف في مدخله وأخبره البواب أن الحديث مع الحاكم في ذلك الوقت غير ممكن لأنه قد آوى إلى فراشه مع حريمه، ولا يريد أن يزعجه أحد. واضطر فورسكال أن يسلم رسالة المخاء إلى أحد الخدم، وفي صباح اليوم التالي قرر أن يقود البعثة إلى صنعاء بموافقة أو دون موافقة حاكم تعز. ومن جديد حزموا أمتعتهم وحملوا الصناديق إلى الشارع، لكنهم الآن لم يجدوا الجمال فبعد أن صحا الحاكم من نومه منتشياً، عاد لمزاولة أعماله وأخبرهم أن جماله على استعداد لأخذهم إلى المخاء، وأن أوامره كانت في إرسالهم إلى تلك المدينة وليس إلى صنعاء.

كتب نيبور في هذا يقول:

«أما الآن، فلم نعرف إلى من نستغيث، وقد أصبحنا في موقف ضعيف أمام ذلك الرجل الذي بين يده ما يقرب من خمسماية إلى ستماية جندي والذي لا يطيع حتى الأوامر العليا للدولة».



وكان يبدو أن نيبور في البداية لم يكن يعرف ما يحدث من حوله، فكان من المؤكد أن باستطاعته أن ينهي الموقف المتأزم، بوضع يده مرة ثانية في صندوق مال البعثة، وبالفعل، استطاع على هذا الأساس أن يسوي كل شيء عن طريق الحاكم. وبالطبع لم يكن نيبور يجهل مثل هذه الأمور، لكن علينا أن نتذكر أنه ذلك الفلاح الذي لا يرغب، وهو القادم من بلاد المستنقعات الفقيرة، أن يجبر في بعثرة نقوده هنا وهناك، وقد فضل عوضاً عن ذلك اللجوء إلى الصراع المسلح. ووقف فورسكال نفس الموقف ولكن دوافعه في هذه اللحظة كانت دوافع الإحساس بالكرامة والأنفة أكثر من كونها دوافع اقتصادية. وفي الحال كان لا بد من جرح كرامة الحاكم.

ولم يكن فورسكال في حاجة لا للمال ولا للجنود، لأن الحق كان بجانبه، وكان هذا كافياً بالنسبة إليه. وفي الحال قام بنفس التكتيك الذي سبق وأنقذهم في ذلك اليوم المتأزم بالمخاءن فقام بزيارة القاضي، ممثل العدالة في المدينة، ووضع بين يديه المستندات التي تسلموها من المخاء، ولم يجد الاثنان صعوبة في الاتفاق. فلقد كان القاضي عادلاً وفي حضور فورسكال كتب رسالة إلى حاكم تعز ضمنها رأيه في أن الحاكم لا يستطيع أن يتصرف ضد أوامر الإمام بصنعاء. وبعد بضع ساعات رد الحاكم على هذه الرسالة، وأصبحت القضية برمتها قائمة على سوء تفاهم. فقد ذكر الحاكم أنه لم يقصد ولا مرة واحدة منع الأوروبيين من السفر إلى صنعاء، وكل ما أراده هو انتظارهم عدة أيام حتى يجد الوقت لكتابة رسائل التوصية الضرورية.

حتى هذه اللحظة كان على فورسكال أن يكتفي بهذا. وبعد يومين وصل رسول يحمل من الحاكم رسالة، لم تتضمن رسائل التوصية الموعودة، لكنها تضمنت أمراً بمغادرة المدينة في الحال والتوجه إلى المخاء!

عندئذ استولى على نيبور الاضطراب، وشعر الجميع بأن عليهم أن يحاولوا تهدئة غضب هذا الرجل بالمال، لكن فورسكال رفض هذا في غضب وترك البيت دون أن يأخذ ويرد كثيراً في النقاش مع زملائه، وذهب لمقابلة القاضي الذي سبق وسمع بنكوث الحاكم بوعده، والذي أطلع فورسكال على رسالة كان قد انتهى لتوه من كتابتها موجهة إلى الحاكم.



وقد حوت جملة واحدة: «لا تكن جشعاً مع هؤلاء الأجانب فهم ضيوفنا».

ورد الحاكم للمرة الثانية، وقال إن كل شيء كان قائماً على سوء تفاهم وإنه لم يرغب لحظة واحدة في منع الأوروبيين من الذهاب إلى صنعاء. وفي هذه المرة لم يعطه فورسكال الفرصة لتغيير رأيه، فأعطى أوامره في الحال أن تحزم أمتعتهم، وأشرف بنفسه على استئجار الضروري من الجمال والحمير للرحلة. وكان على البعثة أن تكون جاهزة لمغادرة تعز بعد ظهر اليوم التالي، وصرف عن خدمتهم خادم المخاء دون التفكير في النتائج، وبدلاً عنه عين خادماً أوصى القاضي بتعيينه. وقد حدث كل هذا في سرعة فائقة، وكان يبدو وكأنَّ فورسكال موجود في كل مكان في وقت واحد. وبدأت الأمور تسير حسب خطته، فوصلت بعد ظهر اليوم التالي الجمال والحمير المؤجرة، وقد حزم كل شيء، وأصبح جميع أعضاء البعثة مستعدين للرحيل، عدا القائد فورسكال، فقد انهارت قواه، وانقضت عليه الملاريا دون سابق إنذار. فبينما كانت الجمال محملة ومنتظرة بالشارع كان مضجعاً على سريره، مزرق الوجه، مجهد الجسم، يعاني من الآم وجود حصاة صفراوية بالمرارة، ويتشبث بسريره الذي يهتز تحته بسبب رعشة الحمى. ومرَّ من الوقت ساعة وهو على هذا الحال، ثم أخذت الحمى في الخمود، وأسرع إليه نيبور لمساعدته، ولم يكن في الإمكان عمل أي شيء، فكان عليهم أن يؤجلوا سفرهم. فهم لا يستطيعون السفر إلى صنعاء وهو في هذه الحالة. إن الحمى قد أفقدته النشاط والحركة، لكنها لم تستطع أن تنال من إرادته القوية، فلم يوافق على تأجيل السفر، وقد مضت ثلاثة أسابيع منذ مغادرتهم المخاء، ولم يعد أمامهم إلا شهر أو أكثر قليلاً قبل أن تبحر السفن الإنجليزية إلى الهند، ولم يقطعوا بعد إلا ربع المسافة إلى صنعاء. فإذا كانوا ينوون حقاً السفر فيجب عدم إضاعة أي وقت. كان فورسكال صلباً لا يتراجع ولم يستطع نيبور أن يثنيه عن رأيه، فخرج إلى الشارع وفي صوت منخفض طلب إلى زملائه امتطاء الجمال والحمير، وظهر فورسكال على الباب، تلاحقه أعين الآخرين، لكنه لم يرد على نظراتهم، وكان ضعيفاً لدرجة أنهم اضطروا تكليف برجرن والخادم الجديد بحمله على ظهر الحمار.





مدينة يريم بريشة نيبور، كما تشاهد من نافذة الغرفة التي مات فيها فورسكال



الفصل الثالث

وفاة فورسكال في يريم

رسالة إلى الإمام – فورسكال بين الحياة والموت – مدينة إب – المسلمون لا يحملون المسيحي – فورسكال مربوطاً على ظهر جمل – السكان يرمون الحجارة على أعضاء البعثة – وفاة فورسكال – كيف ادعى حاكم يريم أنه الوريث الشرعي لرجل مسيحي؟ من حمل جسد المتوفى إلى قبره؟ سرقة جثة فورسكال.

عند الغروب، في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو) ١٧٦٣ كانت القافلة الصغيرة على أهبة الرحيل. وكان فورسكال يحمل في أحد جيوبه الداخلية رسالة أعطاها إياه قاضي تعز، وقد ارتبط هذان الرجلان الصامتان ببعضهما البعض بطريقتهما الخاصة البسيطة، وحين رحيلهم أراد القاضي أن يقدم هذه الرسالة هدية شخصية لفورسكال، وكانت رسالة تعريف بهم إلى الإمام بصنعاء. وفورسكال، وهو يحمل هذه الرسالة في جيبه الداخلي يتجه الآن نحو حاكم أرفع مقاماً من غيره، ويحكم بلاداً عربية أكثر روعة.

وقد حوت هذه الرسالة كما حوت سابقتها إلى حاكم تعز جملة واحدة فقط: «لا تصدقوا شراً يقال لكم عن هذا الرجل». بعد هذا، جاء دور الأميال المملة، الأميال التي يحسُّ المرء أنه يقطعها لوحده، مع أنه قد يكون محاطاً بقافلة صغيرة. وكان من عمل نيبور حساب هذه الأميال، كما كان من عمله في السابق، لكنه هذه المرة كان متبرماً لأن القافلة كانت تتوقف كثيراً لدرجة أنه وجد صعوبة في حساب المسافات بدرجة صحيحة.

في الليلة الأولى لم يصلوا إلى أبعد من فندق بالقرب من بوابة مدينة تعز، وخلال الأيام التالية أخذت مراحل السفر اليومية تقصر تدريجياً. واضطروا مرة بعد مرة إلى التوقف في بعض الأكواخ الحقيرة بحثاً عن مأوى من الأمطار المنتظمة. ولهذا، أُتيحت الفرصة لفورسكال أن يأخذ قسطاً من الراحة. وبعد أربعة أيام من السفر لم يكونوا قد وصلوا إلى قرية «إب».



وفي صباح اليوم الثاني من الثامن من شهر تموز (يوليو) كان فورسكال ضعيفاً لدرجة أنه، وهو على ظهر حماره، لم يستطع مسايرة الجمال. وفي قرية (لواد Laud) اضطروا إلى التخلي عن فكرة أن تسير القافلة بأكملها، فأرسلوا قبلهم لتسبقهم في السير الجمال والجمالة، وساروا في الخلف في بطء وراء الرجل المريض. وفي وقت متأخر من الليل وصلوا قرية بارقن، وفي وهذا الوقت اشتدت آلام فورسكال من حجر المرارة، لدرجة أنه، رغم المجهود الإرادي الذي بذله، لم يستطع الاحتفاظ بنفسه جالساً على الحمار. وبينما كانوا يقطعون في اليوم العادي ٦٠ ميلاً، نجدهم الآن لم يقطعوا إلا ثلاثة أميال فقط أو ما يقرب من ذلك، حتى وصلوا قرية (المنزل) الواقعة في أسفل جبل سماره، الذي يعتبر أعلى جبل في الطريق بين المخاء وصنعاء. وفي هذه القرية كان من حسن حظهم أن وجدوا بدلاً من الكوخ، خاناً معدّاً إعداداً حسناً، كانت أرضيته من الحجر، وفيه استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم غرفة خاصة. وقرروا قضاء اليوم التالي كله، الرابع من تموز (يوليو)، في هذا المكان على أمل أن يسترجع فورسكال قواه بعض الشيء، وقد أصبح الآن لا يحتج على التأخير . وحين خرج نيبور صباح ذلك اليوم ونصب آلته الفلكية لتحديد موقع هذا المكان، هاجمته حمى مفاجئة شديدة أشار إليها في مذكراته بـ (البرد)، البرد الذي كان يهاجمه في أوقات منتظمة منذ أن كانوا في بيت الفقيه. واتفقوا على البقاء في هذا الخان حتى تتحسن إلى حد ما حالة فورسكال ونيبور. ومرة أخرى لم يعترض السويدي المنهك القوى على هذا التأخير، لكن الجَمَّالة قاوموا هذا القرار، مدعين أن من غير الممكن أن يحصلوا على طعام لأكثر من يوم في هذا المكان القاصي، لمثل هذه الكثرة من الرجال والحيوانات. وأكدوا لنيبور بأن مدينة يريم الكبيرة تقع على الجانب الآخر من جبل سماره، وأن المسافة من المنزل إلى يريم ليست أطول من المسافة بين المنزل وقرية برقن، التي غادروها في اليوم السابق، ولأنهم قد وعدو أن يحضروا بعض الرجال

ليحملوا فورسكال المريض في جبل سماره المنحدر، الذي يصعب عبوره في الغالب، فقد سمح نيبور لنفسه أن يتأثر بكلامهم وأن يحاول وصول يريم في مساء اليوم التالي. ولسوء الحظ لم يكن لديه الفرصة ليتأكد من صدق كلام العرب، دون أن تقوم البعثة نفسها بهذه التجربة المرَّة.

وفي الواقع، كانت المسافة إلى يريم خمسة أضعاف المسافة من المنزل إلى قرية بارقن.

وبعد راحة يوم كامل تحركوا من ذلك الخان المريح في الخامس من شهر تموز (يوليو) لعام ١٩٦٣، فغادر نيبور وبورنفانيد قبل طلوع الشمس حتى يغتنما هواء الصباح البارد، بينما ظل في الخلف، مع فورسكال، كرامر وبرجرن، في انتظار ما وعد به العرب لنقل الرجل المريض.

وعندما تفرق أعضاء البعثة بدأت المتاعب، وأسف نيبور وبورنفانيد على اختيارهم السفر في الصباح الباكر، فقد عانا كثيراً من البرد لأن سيرهما كان على الجانب المظل من الجبال، ولم يكونا مرتديين إلا الخفيف من الملابس، وبقية ملابسهما كانت مع أمتعتهم المحملة على الجمال في قرية المنزل. واستمرا في صعود الجبل وهما يرتعشان من البرد، وشكا نيبور في مذكراته بأن أصابته بالبرد كانت عندئذ شديدة، لدرجة أنه اضطر إلى التوقف عدة مرات والاتكاء على الحائط الصخري مستفرغاً، لأنهما كانا يجدان الماء بكميات كبيرة في كل مكان، على طول الطريق من تعز إلى قرية المنزل، فقد أقلعا عن عادة حمل الماء معهم عند رحيلهم. لكن لم يجدوا قطرة ماء واحدة، في جبل سماره، ولم يستطع نيبور أن يتمضمض خلال حالات الاستفراغ. وقطعا الممر وخرجا إلى الجانب المشمس من الجبل، حيث كانت حرارة الظهيرة تملأ كل مكان. وذكر نيبور باستغراب أنه لم يقاسي قبل ذلك، مثل ذلك العطش، وكان صادقاً في قوله، فهو الذي لا يستسلم للمبالغة مطلقاً. وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم وصلا أسفل الجبل والتقيا بفلاح في الحقول

أعطاهما جرة ماء. وبعد سفر طويل وصلا (يريم). وبالرغم من المتاعب التي عاناها نيبور، فقد كان مهتماص بالسؤال عن أسماء القرى التي قابلاها في طريقهما. وقد تضمنت خارطة اليمن التي رسمها، خمس مراكز فقط، على امتداد الطريق بين قرية المنزل فجبل سماره، حتى مدينة يريم. وحين حسب المسافة التي قطعاها تأكدت له شكوكه، لأن هذه المسافة كانت أكثر بكثير مما أفهمه العرب.

هكذا كان حال نيبور وبورنفانيد.. والآخرون كيف كان حالهم؟

أخذ نيبور يروح ويجي خارج مدينة يريم مراقباً الطريق المؤدية إلى الجبل، وقد استولى عليه القلق وهو يفكر في فورسكال المريض الذي تركاه مع كرامر وبرجرن في الخان بالمنزل. ومرت به الساعات في الطريق الخالية، وعلى امتداد البصر لم يشاهد أي قافلة، ولم يلمح القليل من السحب الترابية إلا عند الغروب، وأخيراً وبعد طول انتظار وصل الموكب الصغير المدينة. وحين توجه نيبور للقاء أصدقائه التقت عيناه بمنظر مخيف.

لقد تطورت الأمور في قرية المنزل تطوراً أدى إلى حالة من القلق واليأس، فقد انتظر فورسكال وكرامر وبرجرن كل الصباح أن يصل العرب الذين وعد الجمالون بوصولهم، للقيام بحمل فورسكال، ولكن دون جدوى، حتى جاء وقت الظهر فتبين لهم أحد شيئين، إما أن الجمالين لم يطلبوا من أحد القيام بهذه المهمة وإما أن المسلمين لا يرضون تحقير أنفسهم بحمل رجل مسيحي ولم يكن لديهم ولا لدى حيواناتهم الكثير من الطعام. وإذا كان ولا بدَّ من وصولهم إلى يريم عند غروب الشمس، فليس بوسعهم تأخير سفرهم أكثر مما تأخروا. وكانت آلام فورسكال الداخلية شديدة لدرجة أن سفره مستلقياً على الجمال لم يكن موضوع حديث. وكان الشيء الوحيد الممكن عمله هو نقل الأمتعة من ظهر أحد الجمال، وربط الرجل المريض إلى ظهر هذا الجمل وكان ذلك. وتحركت بهم القافلة خطوة خطوة تحت الأشعة المباشرة لشمس منتصف النهار، مرة يصعدون ومرة

يهبطون. يسيرون ببط محاطين بالآلام، والمناظر تنطوي أمام أبصارهم مخلفة وراءها الألم، لتأتي المناظر الجديدة ومعها المزيد من الأسى والآلام. كانوا يحسون بالألم في كل شجرة يشاهدونها وعلى وجه تلك السماء، عديمة السحب والرحمة. واجتمع في جسم فورسكال لهيبان، لهيب شمس خط الاستواء، ولهيب آلام المرض. ولم تنته هذه المأساة إلا بعد أن اختفت الشمس خلف الجبل. وحين أسرع نيبور المذعور نحوهم خارج مدينة يريم لم يستطع التعرَّف على صديقه المريض.

كان فورسكال مربوطاً إلى ظهر ذلك الجمل الضخم وكأنه كيس مملوء إلى نصفه، وقيؤه يسيل على جوانب الجمل المليئة بالأتربة، ووجهه مزرق ومرسوم عليه الألم، وقد امتنع عليه الكلام، وظلت عيناه مفتوحتين وكان لا يزال في كامل وعيه. واستمروا في سيرهم ببطء نحو الفندق بيريم، وكان من غير الممكن أن يحصلا على غرفة خاصة بهم، فاضطروا إلى البقاء في غرفة مشتركة كانت مليئة بالنزلاء حتى الباب. وفي الحال اندفع جمهور كبير من محبي الاستطلاع نحو الغرباء، يقلبون في أمتعتهم ويصرخون ويشيرون إلى أشياء غريبة في ملابسهم وأدواتهم ويسألون أسئلة مازحة، فترج الغرفة بالضحك. وهم في هذا الحال عقد نيبور العزم على أن يستأجروا بيتاً خاصاً بهم هروباً من هذه الضجة وطلباً للاطمئنان.

وبينما كان كرامر وبرونفانيد يعتنيان بفورسكال خرج نيبور المنهك يبحث عن سكنى في المدينة التي لا تفترق كثيراً في الحجم وفي قلة منازلها عن القرية، ولم يجد فيها أي منزل خال، وانتقل لوقت طويل من باب إلى باب يسأل عن سكنى، دون جدوى، حتى وافق على أن يدفع إيجار باهظاً، فاستطاع تدبير مكان، يمكن أن يكون مقراً يموت فيه فورسكال.

وفي الفندق اعترضتهم مصاعب جديدة، فلم ينجحوا في حثّ أحد من الحاضرين المسلمين على المساعدة في حمل الرجل المريض من الفندق إلى البيت. وكان الناس يحيطون

بهم في سلبية، وفي فضول وحب استطلاع. وحمل بورنفانيد وكرامر وبرجرن والمتعب نيبور، ذلك السرير السفري الذي يرقد عليه فورسكال إلى خارج الفندق، وساروا به في الشوارع، وتجمع في الحال حولهم جمهور هائج وهو يشقون طريقهم إلى المنزل الجديد بين الصراخ والضجيج. واضطر كرامر أن يدفع عدة أشخاص من العرب جانباً ليفسح الطريق إلى باب المنزل، ولعله في يأسه قد تصرف بعنف في بعض الأمور، وكانت النتيجة على أي حال، أن المتفرجين بدؤوا يرمون الحجارة على الأوروبيين. واستطاعوا في آخر لحظة إنقاذ أنفسهم بالدخول إلى البيت وإقفال الباب خلفهم وقفل النوافذ. واستمر الناس يرمون الأحجار لوقت طويل بعد دخولهم. واستطاع فورسكال أخيراً أن يرتاح مستلقياً في غرفة مظلمة، وقد وضعت بالقرب من رأسه شمعة، وأخذت الحمى والآلام تهزه هزاً.

خلال الأيام القليلة التالية حاول نيبور في مذكرته أن يقنع نفسه أن حالة فورسكال الصحية في تحسن، فالرفيق الوفي لم يجسر إلا بصعوبة أن يرى الحقيقة الواضحة، خاصة وقد كان هو نفسه مريضاً. والآن بدأ بورنفانيد وبرجرن أيضاً يشكيان من آلام البرد، ولم يكن في استطاعة أحد منهم الخروج إلى المدينة المعادية. واضطر نيبور إلى التخلي عن فكرة زيارة القادة من الناس للبحث عن المعلومات، واكتفى بأن جلس بالقرب من نافذة غرفة فورسكال ورسم المنظر أمامه. ولم يستطع القيام بمغامرة الخروج إلى السوق إلا بعد مضي عدة أيام. قال في هذا: «خرجت لأبحث عن مسلٍّ ومبدِّد لأفكاري السوداء».

وسار ساعات كثيرة في الشوارع المختلفة بين البيوت المبنية بالطين والمطلية بروث البقر. ولأنه كان وحيداً فلم يلفت نظر أحد، وكأنه أحد المواطنين العرب. وتجول هنا وهناك وبرجليه خف، يسأل عن أسعار بعض الحاجيات ويراقب الخياطين والاسكافيين والحدادين الذين يجلسون في دكاكينهم على الأرض العارية، ووقف واجماً لحظات أمام دكان أحد الحجامين الذي كان يفصد الدم لأحد زبائنه، ويقطع جلد وجه زبون آخر بسكين صدِئة، ويذرُّ قليلاً من الحلبة المطحونة على الجرح.

كان هذا اليوم هو اليوم العاشر من تموز (يوليو) لعام ١٧٦٣، وكان سواد الليل قد غطى المدينة حين رجع نيبور إلى البيت ووجد فورسكال في قبضة نوبة من نوبات الحمى. وبالرغم من أن فورسكال كان يعاني أوجاع المرض على طول الطريق من تعز، وخلال رحلتهم اليائسة في جبل سماره، فإن إرادته لم تضعف ولم تهن إلا بعد خمسة أيام من بقائهم بيريم. لقد أصبح الآن ضعيفاً كل الضعف أمام المرض، وحوالي الساعة العاشرة مساء استغرق في نوم عميق لم يستيقظ منه أبداً، وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي توفي فورسكال في مدينة يريم، باليمن السعيدة وقد بلغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً. وكان على نيبور في هذا اليوم أن يكتب تقريراً عن موته إلى السلطات اليمنية فأرسل أحد الخادمين الذين معهم، إلى حاكم المدينة وإلى قاضيها. فلم يستقبله الأول، أما الثاني فقد أشار عليه بالاتصال بأحد المواطنين، ظنه سيبيعهم قطعة صغيرة من الأرض يدفنون فيها الرجل الميت. وذهب نيبور في الحال واشترى الأرض، لكنه بعد ذلك بقليل اضطر إلى إلغاء الصفقة، لأن قطعة الأرض هذه كانت تقع قرب قناة تمد بعض المزارع بالماء، وقد هدّد أصحاب هذه المزارع بائع الأرض في أنه سيكون مسؤولاً في حالة بيعه الأرض لدفن رجل مسيحي فيها، إذا جفت مياه هذه القناة، أو تلوثت.

في هذا الوقت وصلتهم رسالة من حاكم المدينة أبدى فيها رغبته في الحديث إلى أحد أعضاء البعثة، فذهب نيبور لمقابلته، وقرر بحزم السير على نهج فورسكال، وأن لا يقوم بدفع قرش واحد. وفي المقابل أخبره الحاكم، بأنه بمقتضى قوانين البلاد، فإنه نفسه الوريث الوحيد لمن يموت في مقاطعته من البينيان أو اليهود. وكان نيبور يعرف أن فورسكال أوصى بجميع ممتلكاته إلى بورنفانيد، امتناناً من جهوده المخلصة في رسم نماذجه النباتية.

أجاب نيبور بأن المتوفى ليس يهودياً ولا من البينيان، ولكنه أوروبي، وأن حاكم المخاء، حيث فقدوا زميلاً آخر من زملائهم، لم يذكر مثل هذا الادعاء فيما يخص ثروة المتوفى. عندئذ قال ابن الحاكم في لطف بأن كلمات والده لا يجب أن تفسر حرفياً وأن كل ما قصده هو أنه توقع بعض الهدايا الهامة بمناسبة الوفاة هذه.

فأجاب عليه نيبور، بأنه كأمين صندوق البعثة لا يستطيع أن يتصرف في أي مبلغ من المال دون أن يتسلم وصلاً في مقابل ما يدفع، وهو لهذا يطلب من الحاكم أن يطلعه كتابة عن المبلغ الذي يطلبه. بعد هذا الجواب لم يطلب منه شيء، فالحاكم يعرف معرفة جيدة بأن نيبور يريد أن يحصل على إثباتات يقدمها للإمام بصنعاء، وهو يخاف كثيراً أن يصل إلى علم الإمام مثل هذه الأمور.

حين ترك نيبور الحاكم ذهب إلى المدينة ودبَّر الحصول على قطعة أرض لا تقع قرب قناة خاصة بالزراعة أو قرب حقول مزروعة. وبقيت أمامهم مشكلة أخرى. هي حاجتهم إلى ستة رجال يحملون جثة فورسكال إلى القبر. وأبدى نيبور استعداده لدفع مبلغ كبير من المال لمن يقوم بهذا العمل، وأكد أن الدفن سيكون في منتصف الليل حتى لا يلحظ أحد، لكن دون جدوى. ولم يستطع إلا في اليوم التالي أن يجر أمامه ستة عمال من الفقراء، وافقوا على حمل الجسد. وحين كان جميع سكان المدينة يغطون في النوم، وصل العمال لأخذ تابوت فورسكال. وخوفاً من اكتشاف أمرهم ساروا به خلال الأزقة في عجلة، ثم دفنوه في سرعة خاطفة في ذلك القبر الذي لم يتجاوز عمقه القليل من الأقدام. في ذلك اليوم كان نيبور في غاية الإجهاد لدرجة أنه لم يقو على الوقوف على قدميه بسبب اليوم المتعب السابق ليوم الدفن، ولم يحضر مراسم الدفن إلا بورنفانيد وكرامر.

وبعد الدفن بعدة أيام وصل إلى علمهم أن جسد فورسكال قد أخرج من قبره في الليلة التالية لدفنه، فقد اعتقد بعض العرب أن بعض الأشياء القيمة قد دفنت معه حين لاحظوا أن دفنه قد تم داخل تابوت. وقد كسر اللصوص التابوت وأزاحوا عن جسده الكفن الذي لف به. وفي يأسهم في الحصول على شيء، تركوا الجسد عار ملقى على الأرض. وأخبر الحاكم بهذا فأمر أحد اليهود بإعادة دفنه، فرفض القيام بهذا العمل دون أجر، فقال له الحاكم إن في استطاعته الاحتفاظ بالتابوت في مقابل الأجر.



الفصل الرابع

ثروة فورسكال العلمية

تحليل شخصية فورسكال – ١٢ صندوقاً من المواد العلمية أرسلت من المخاء إلى بومبي – أرسل فورسكال ما يزيد عن ٢٠٠٠ مجموعة من البذور وسبع صرر من المخطوطات ما هو المصير الذي واجهته ثروة فورسكال العلمية؟ وكيف كان مصير مذكراته؟

مثلما سجل نيبور في مذكرته بعض كلمات الوداع حين توفي فون هافن، نجده الآن يسجل فيها بعضاً منها حين توفي فورسكال. لكنه هذه المرة لم يكن في كتابته بحاجة للدبلوماسية، جاء في مذكرته ما يلي:

«لقد انتابنا جميعاً الحزن لموت فورسكال ليس فقط لأنه كان المتحدث الرسمي باسمنا وكان أحسن أعضاء المجموعة في إتقانه للغة العربية بسبب جولاته الكثيرة بغرض الدراسات النباتية، وكثرة اختلاطه بعامة الشعب، بل لأنه أيضاً وهب نفسه لتحقيق أهداف البعثة في جهد متواصل لا ينقطع، وتضحية بكل ما كان يختلج به قلبه. كان يحس في داخله كأنه لم يخلق إلا ليكون عضواً في البعثة إلى اليمن السعيدة، ونادراً ما كان يتذمر بسبب فقدان وسائل الراحة في رحلاتنا، فقد تعلم من البداية أن يعيش كما يعش سكان هذه البلاد. وبدون هذا لا يستطيع أكثر الناس علماً القيام باكتشافات كثيرة في هذه البلاد». لقد تحدث نيبور عن فورسكال الزميل، ولم يتحدث عن فورسكال العالم. وذكر أن البعثة شعرت لفقدانه بالخسارة الفادحة، فقدت فيه الرجل المخطط والمنظم الذي لم يكن يفكر في نفسه حين يدبر أمور الآخرين. وكانت كلماته هذه تخفي وراءها الخوف من المستقبل. إذ كيف سيكون في استطاعتهم الاستمرار في البعثة لوحدهم؟

لم يكن مصير البعثة من الناحية العلمية وحده هو الذي كان يتقرر في تلك الأيام بيريم، بل كان من المؤكد لدى نيبور أن مصير بقية أعضاء البعثة كأشخاص قد أصبح أيضاً غير معروف.

وذات مرة تحدث نيبور إلى ولده عن شهرة فورسكال، وأكد أساساً على إنجازاته العلمية: «كان فورسكال أغزرنا علماً، ولو رجع حياً، لكان يمكن أن يكون أكثر علماء أوروبا علماً. كان مكداً مجتهداً، وهازئاً بكل الأخطار والصعاب وشظف العيش. وكانت نقائصه هي في حبه للجدل والنقاش وعناده، وطبعه الحاد».

ومرة ثانية نجد أنفسنا في غنى عن تنميق صورة نيبور المختصرة لشخصية فورسكال، فملاحم هذه الشخصية السلبية والإيجابية واضحة كل الوضوح. لم يكن فورسكال سهلاً وكان متحفظاً في علاقاته مع الآخرين وواثقاً من نفسه. وقاده حسه المرهف للعدل والحق إلى الحكم الصارم، على أولئك الذين، مثل فون هافن، حاولوا تدبير شؤونهم بالخداع والمراوغة، بينما كان يؤثر عليه أعظم تأثير، أبسط الناس وأقلهم شأناً إذا كان رائده السعي الشريف المخلص في أعماله. وقد وضح هذا، على الأخص من الصداقة التي تمت بينه وبين بورنفانيد. وكان صعباً، ليس من السهل الاتفاق معه، نظراً لأن الحقيقة لديه لها المكانة الأولى بالنسبة لأي شيء آخر، حتى بالنسبة لأكثر الاعتبارات إنسانية. وكان عنيداً، متبرماً، متصلباً، تعوزه الكياسة، وكان يقول رأيه بصراحة أمام الذين يختلف معهم، وإذا أصروا على رأيهم سحقوا. وكان يطلب من الآخرين الشيء الكثير لأن ما يطلبه من نفسه كان كبيراً.

أما عن مستواه العلمي فإن قول نيبور بأنه كان من أعظم علماء أوروبا البارزين، فلم يختلف معه في هذا القول أي عالم معروف في عصره أو بعد ذلك.

لقد وسعت معارفه، علم اللاهوت والفلسفة وعلم اللغة والاقتصاد، وأيضاً علم الكيمياء والجيولوجيا، وعلم الحيوان والنبات، وكان له بالفعل في جميع حقول هذه المعارف اكتشافات جديدة، وقد قام بوصف النباتات والحيوانات بتحديد لم يُعرف له مثيل حتى الآن، وأثمرت جهوده التي بذلها في مجموعات شاملة جداً من العينات النباتية الهامة.

ولكن للأسف، ذهب كل شيء، وذهب هباء ذلك المزيج من نفاذ البصيرة والتصميم، ولم يبق شيء من كل شيء. خلال الرحلة كلها لم يكن لفورسكال من همّ حقيقي إلا خوفه من أن يسرق الآخرون اكتشافاته، قبل أن تهيء له الفرص إجراء أبحاث عليها. وحتى لا يشاركه شرف هذه الاكتشافات أي شخص آخر، فقد اخترع شفرة رقمية، وملأ أبحاثه بالدلالات المختصرة حسب نظام خاص. ولم تكن مخاوفه هذه دون أساس، فقد سرق الموت منه كل شيء، أما أعداؤه بكوبنهاجن فلم يحصلوا على شيء. ويبدو أنه تنبأ بهذا في تلك الرسالة التي أرسلها إلى البروفسور لينوس وكتب فيها:

«ولكن إذا لم تطل بي حياتي، فسوف أفقد ويفقد العالم معي أكثر مما في الاستطاعة قوله».

حين توفي في الثالث عشر من شهر تموز (يوليو) بمدينة يريم كانت جميع مخطوطاته ومعظم مجموعاته النباتية سليمة. وفي استطاعتنا أن نضع بعض التقديرات لما كان موجوداً منها. فخلال بقائهم بالقسطنطينية في عام ١٧٦١ كان يحتفظ بمجموعة كاملة من النباتات والحيوانات البحرية جُمعت خلال رحلتهم على ظهر السفينة (جرين لند). وقدَّم طلباً رسمياً مستعجلاً في أن ترسل الصناديق إلى كوبنهاجن في الحال، لأن الكحول الذي حفظت بداخله هذه المجموعة، سوف يتبخر في الطقس الحار. لكن السفير جاهلر لم يكن مستعجلاً، فلم ترسل إلا بعد سنتين ، وحين وصلت كوبنهاجن كان معظمها قد تلف. ومن مصر بعث فورسكال أيضاً بثلاث ربط ضخمة من النباتات وعدة صناديق

من الحيوانات المحفوظة في الكحول، وبعض المجموعات من الحشرات، وعدد من الطيور المحنَّطة، ولاقت هذه الشحنة نفس مصير سابقتها فلم تصل إلا في حالة سيئة، لأنها أثارت اهتمام بعض القراصنة في الطريق. ومن السويس أرسل صندوقاً آخراً به عينات متعلقة بالتاريخ الطبيعي، ضلَّت طريقها وفقدت.

أما من شبه الجزيرة العربية فلم يرسل شيئاً، لأن كل ما كان لديه في تلك الصناديق التي أخذها إسماعيل صالح إلى جمرك المخاء قد تحطم معظمه، كما سبق وعرفنا، وتسبب الطقس الحار في تبخر الكحول مما أدرى إلا تعفن عدة صناديق من الأسماك، مما اضطر إلى إلقائها في البحر.

ورغم كل هذه الكوارث فقد أرسل ما لا يقل عن اثني عشر صندوقاً من المخاء إلى بومباي بع وفاة فورسكال. ومن هناك شحنت إلى تاجر دنماركي في كالكتا، أرسلها بدوره إلى ترنكبار، حيث وجد أنها قد أصيبت بأضرار بالغة، فقد تسبب الماء المالح في إ تلاف الكثير من الحزم، وتكسرت بعض القناني المحتوية على العينات، وتبخر بعض الكحول وسال بعضه. فاضطر المشرون في ترنكبار أن يرموا مجموعات كبيرة منها، واحتفظوا بالباقي في صناديق جديدة قوية دفعت أثمانها الشركة الشرقية، وحملت على ظهر باخرة دنماركية مبحرة إلى الصين، ولم ترجع لمواصلة رحلتها إلى كوبنهاجن إلا بعد أن أكملت رحلتها إلى هناك.

وفي عام ١٧٦٦، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة فورسكال وصلت آخر مجموعاته إلى الدنمارك.

وكان من السهل إرسال البذور، لقد أرسل منها فورسكال كميات من القسطنطينية ومن القاهرة وجدة واللحية، منظمة بعناية في قوائم ومرقمة إلى الرقم ٣٤٧. وربما كان هذا هو الرقم الإجمالي حتى ذلك الوقت. ويجب أن يضاف إلى هذا الرقم البذور التي وجدها باليمن، وعلى هذا فلم تكن المجموعة صغيرة.

بالإضافة إلى ذلك، أرسل فورسكال، في الواقع، ستة أضعاف هذا الرقم الإجمالي، أي ما يزيد على ألفي مجموعة منفصلة من البذور، لأنه بالطبع عمل على تنفيذ خطته في إرسال البذور إلى جميع جامعات أوروبا الكثيرة الأهمية، تلك الخطة التي حلم بها خلال بقائه في مرسيليا والتي سوف تمكنه من أن يسمح للبروفسور لينوس بمشاركته نتائج أبحاثه.

من القسطنطينية ومن القاهرة وجدة واللحية أرسل فورسكل البذور إلى علماء الزراعة في كل أوروبا. فأرسل إلى البروفسور لينوس بجامعة ابسلا، وإلى البروفسور ميلر بلندن، وإلى البروفسور جسيو بباريس وإلى البروفسور بورمان بليدن وإلى البروفسور سوفاج بمونت بوليي. وكتب إلى البروفسور لينوس عن الأعتاب التي واجهها في الاحتفاظ بقوائم سليمة لستة أنواع مختلفة من البذور، قال في رسالته.

«من الواضح أن هذا يزيد من عملي. لكنه عمل من أجل العلم، ولهذا فسوف لا أبخل بنفسي».

ولأن المجموعات التي أرسلت إلى كوبنهاجن وابسلا قد وصلت في حالة جيدة فإننا نستطيع أن نفترض أن نفس الشيء قد تم بالنسبة للمجموعات التي أرسلت إلى الجامعات الكبيرة من نماذج الأعشاب المجففة المرتبة، التي أضافها فورسكال إلى الإرسالية، والتي في شكلها الأصلي يعتقد أنها حوت ألف وثلاثمائة نباتاً مختلفاً، ووصلت أيضاً هذه المجموعة إلى كوبنهاجن في حالة جيدة.

أما بالنسبة لمخطوطات فورسكال فقد حوت عند موته سبع صرر كبيرة حملت على السفينة من بومباي إلى كوبنهاجن. وتضمنت هذه المخطوطات مذكراته للرحلة ووصف تفصيلي للنباتات والحيوانات، وبحوث عن عادات (المحمديين) وعن الخطابة في اليمن، وعن الديانة القبطية، وعن مرض الجذام، وعن تاريخ اليمن القديم، وبيانات عن



الأسعار والبضائع والعملة والموازين والمقاييس في كل البلدان التي مروا بها كما بعث فورسكال من القاهرة الأطروحة التي سبق ذكرها، المتضمنة دراسة بعنوان (نباتات الإسكندرية والقاهرة) ومقالين.

وقد وصلت الأطروحة إلى كوبنهاجن. أما المقالان فقد أشار إليهما تملر أحد سكرتارية مقر المستشار الألماني بالملاحظة الآتية: لم نستلمها.

وبالرغم من الأضرار الكبيرة وبعض الخسائر في الطريق، فإن معظم مجموعات فورسكال ومخطوطاته قد نجحت في الوصول إلى الجهة المرسلة إليها. وعلى هذا وبعد أن وصلت فمن المفروض أنها أصبحت في ظل رعاية مأمونة، ومؤمنة ضد التلف، وفي انتظار خضوعها لمراجعها علمية رسمية شاملة. لكن الحقيقة المرَّة، أن التلف الذي أصابها في الطريق كان لا شيء، إذا قيس بما حدث لها في كوبنهاجن.

وعند الحديث عن العينات بعد وصولها كوبنهاجن، نجد مرة أخرى أن من المناسب البدء بالحديث عن العينات الحيوانية، التي يحتمل أنها لا تقل عن عشرة صناديق في مجموعها، والتي وصلت إلى الأماكن المرسلة إليها. هذه الصناديق تسلمها بيدر اسكانيس وهو مدير متحف التاريخ الطبيعي، وبروفسور محاضر في مدرج التاريخ الطبيعي الاقتصادي الذي بناه فردريك الخامس في شارلو تنبورج. ولقد كان اسكانيس صديقاً حميماً للبروفسور كراتزنسن، وهذان الرجلان، معاً كانا قد طلبا بإلحاح تعيين كرامر في البعثة، وكان لدى كل منهما ذكرى لم تمح عن المعركة الحامية الوطيس التي نشبت مع فورسكال نتيجة هذا التعيين. وعلى أي حال، كيف يمكن أن نفسر ذلك الإهمال الذي لحق بمجموعات فورسكال؟ هل سببه أن الهر اسكانيس كان لا يزال يشعر بامتعاض نحو السويدي الموهوب فورسكال أم أن سببه اللامبالاة السائدة في ذلك الوقت؟ أياً كان السبب، فإن الحقيقة التي لا شك فيها، هي في أنه بعد أن تولى أمر الصناديق والصرر

المحتوية على عينات الرجل الميت، تركها منصوبة غير مفتوحة، دون أن يخضعها للفحص العلمي، ودن أن يكلف نفسه مجهود تغيير الكحول لمئات من الأوعية الزجاجية. ومرَّت عدة سنوات ومجموعات فورسكال لا زالت على هذا الحال. وفي ابسلا استولى الضجر بعض الشيء على البروفسور لينوس وسأل عالِمِ الحيوان، برونخ عن العينات وما صارت إليه. وفي بداية عام ١٧٦٥ تسلَّم الرد التالي:

«حتى الآن لسنا متأكدين ما هو المصير الذي تنتظره الثروة العلمية التي جمعها فورسكال ودفع حياته ثمناً لها. فقد وصلت مجموعات إلى هنا من قبل عدة سنوات من البحر الأبيض المتوسط والمناطق المحيطة به، متضمنة القليل من مصر. لقد شاهدت هذا الحصاد الرائع الذي دلَّ على المجهود العظيم الذي بذل في جمعه، شاهدت الصناديق المملوءة بالحشرات والطيور المحنطة، والأوعية الزجاجية المليئة بالكحول والسمك وبعض الحيوانات البرمائية والقواقع. ولسوء الحظ شاهدت هذه الأشياء للحظة قصيرة لم تمكني من التدقيق في أي منها بالتفصيل. لقد سلمت إلى الهر اسكانيس ومعها بعض الأشياء الأخرى، وقد أرسلت إلى هنا من بلاد العرب ولا أدري فيما إذا كان صحيحاً أم لا بأن جزءاً كبيراً منها، وخاصة الأسماك قد أتلفته الرطوبة وتأثير الطقس. آمل أن لا يكون هذا صحيحاً».

كان برونخ مدركاً بوضوح لما كان يحدث، لكنه لم يستطع عمل شيء. أما لينوس فقد حاول بطريق غير مباشر وذلك بواسطة ميشاليس استطلاع الأمر في تحفظ من برنستورف نفسه، وعرض عليه القيام بفك شفرة فورسكال.

وكان رد برنستورف أن طلب من لينوس في أدب أن يهتم بشؤونه الخاصة جاء في رسالته:

«لا أستطيع أن أتصور أن الرجل الذي وضعت تحت رعايته هذه المجموعات سوف يتركها بوعي تلاقي أي تلف».

وتحققت مخاوف لينوس، فلم يعمل أي شيء بالنسبة للصناديق التي سبق وصولها. وحين وصلت شحنة أخرى بواسطة بومباي وكلكتا والصين، وضعت هذه أيضاً في جانب واحد، غير مفتوحة. ومرَّت سنوات قليلة أخرى. وتبخر الكحول من الأواني وتعفنت الحيوانات، وهاجمت الرطوبة السمك المجفف وتحولت الطيور المحنطة إلى مستعمرات للبراغيث والعثة. وفي عام ١٧٧٠ قدم الهر (زوجا) تقريراً ذكر فيه أنه لم يعمل شيء حتى هذا التاريخ وعندئذ تقدم سترونس بمشاريع إصلاحية وتطويرية، فطرد اسكانيس من الخدمة، وحين حلَّ محله في منصبة عام ١٧٧٢ برونخ، استطاع البدء في فتح صناديق فورسكال. في هذا الوقت كانت المجموعات قد تلفت مما اضطره إلى رمي جزء كبير منها، وما تبقى منها استخدمه بورنخ وفريسيس وأوتو، كأساس لوصف عينات جديدة، لكن بعد أن ضرت كوبنهاجن بالمدافع في عام ١٨٠٧، وضعت الصناديق مرة أخرى في المخزن، حيث ظلت ثلاثين سنة مقفلاً عليها دون أن يجري عليها أي كشف.

واليوم لا يضمّ المتحف الحيواني من محصول فورسكل الرائع، إلا مجموعة من الحشرات والأسماك والكورال[1] والمحار فقط، والأخير قد كوَّنته الطبيعة بشكل لا يكون من السهل على إهمال الإنسان إتلافه. أما بخصوص الجزء النباتي من مجموعته فقد قام بترتيب ألفين مجموعة منفصلة من البذور ثم حزمها وأرسلها في الغالب في ظروف يائسة إلى ست جامعات في مختلف مدن أوروبا. وسارت في البداية الأمور على ما يرام، فأسرع، بالطبع، لينوس في بذر بذور فورسكال في ابسلا ونجح في الحصول على ما لا يقل عن ثمانين نباتاً نامياً. كذلك في كوبنهاجن، حيث كان البروفسور أودور ذو الضمير الحي، قد بذر البذور التي لديه في حديقته النباتية الخاصة. ومجمل ما حصل عليه من الإنتاج مائتين وثلاثين نباتاً، لكن هذه البذور كانت من البذور التي أرسلت من القسطنطينية والقاهرة فقط. أما الشحنات الأخيرة، فلم تذهب إلى أودور بل إلى اسكانيس، وكان مصيرها لدى اسكانيس نفس المصير الذي لاقته العينات الحيوانية.

(١) حيوان بحري يتشكل حجر المرجان من هياكله. (المترجم)



وفي عام ١٧٧٢ حين فتح برونخ الصرر وجد البذور وقد أصبحت بالطبع عديمة الفائدة.

والبذور التي أرسلها فورسكال إلى الجامعات الأربع الأخرى في أوروبا. ماذا حدث لها؟

لقد قام كارل كرستينس باستقصاء الحقيقة في هذا الخصوص، فكانت النتيجة، أنه لم يحصل على رد، لا من ميار في لندن ولا من جسيو في باريس، ولا من بورمان في ليدن ولا من سوفاج في مونبيلييه.

وبين الأشياء التي تسلمها اسكانيس في كوبنهاجن في حالة جيدة نماذج الأعشاب المجففة المرتبة، ومجموعتها تقريباً ألف وثلاثماية نباتاً مختلفاً. وتركت هذه الأشياء تنتظر! ووصف روتبول بعض هذه النباتات. ولكن لم يبدأ بفحصها فحصاً علمياً صحيحاً (مارتن واهل) إلا بعد موت فورسكال بعشرين عاماً. وفي هذا الوقت كانت النباتات قد تلفت تلفاً نهائياً نتيجة الرطوبة والحشرات، والكثير منها كان قد اختفى. ويعتقد هورمان بأن نماذج الأعشاب المجففة تضم الآن فقط ثلث ما جمع أصلاً فورسكال.

ولم تشكل من جديد «مجموعة أعشاب فورسكال» إلا بعد مضي ١٧٠ سنة من وفاة فورسكال، وقد سميت باسم «المجموعة الفورسكالية». وأصبح لهذه المجموعة فيما بعد أهمية تاريخية كبرى، كما لازمها اعتراف مؤلم، بأنه لم يكن لها أي أهمية في البحث العلمي المعاصر، كما كان يأمل فورسكال. كان ذلك العصر مشغولاً بأشياء أخرى، وكان التراب مخيماً على الصناديق القادمة من اليمن السعيدة في تلك الغرفة المغفلة الخاصة بسقط المتاع حيث ظلت منتصبة عاماً بعد عام. يا ترى من كانت تنتظر؟ وفورسكال سوف لا يعود مطلقاً! كانت لوحدها، ولم يكن أحياناً يقطع عليها صمت وحدتها إلا صعود إنسان ما السلالم المزعجة المؤدية إلى الطابق الأعلى.

لكن، بعد ٢٠٠ سنة أتى علماء النبات وعلماء الحيوان من جميع أنحاء العالم لينحنوا فوق بقية «المحصول» تقديراً وإكباراً. أما عن مخطوطاته فلم تكن أحسن حظاً من غيرها، فهي تختلف عن مجموعات التاريخ الطبيعي، فإرسالها وحفظها أسهل من إرسال وحفظ الحيوانات والنباتات، فلا تتعفن ولا تصيبها العثة، وفي استطاعتها مقاومة الأمواج الشديدة والصدمات العنيفة، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تصمد أمام عدم المبالاة والإهمال اللذين يسببهما الإنسان، فلم تصل إلا مقالة واحدة من المقالات الطويلة الثلاث التي كتبها فورسكال في مصر، وهذه الواحدة اختفت في كوبنهاجن. أما عن أبحاثه الأخرى العديدة، أبحاثه عن مرض الجذام، وعن الديانة القبطية، وعن تاريخ اليمن القديم، فإنها، من وقت لآخر، استخدمت كمصادر لمؤلفات أخرى، ولكنها لم تنشر في كتاب مستقل.

ومذكراته الكاملة ابتداء من أول يوم في الرحلة إلى ما قبل وفاته بأقل من أسبوعين وصلت كوبنهاجن سليمة، ولكنها لم تنشر. وفي السابع والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) لعام ١٧٧٤ نشرت إحدى الصحف خبراً قصيراً مفاده أن وزير الدولة وقتئذ، الكونت فون برنستورف الأصغر قد عمل كل التدابير لطبع مذكرات رحلة المغفور له فورسكال إلى الشرق. ولقي هذا الخبر الترحيب الحار، لكن هذا الإعلان الذي طال انتظاره، لم يكن له أي مضمون حقيقي، فلم تنشر مذكرات فورسكال بل اختفت دون أن تترك أي أثر، تماماً مثل مقالاته المرسلة من مصر. وخلال القرن التاسع عشر كله، ظلت مفقودة، حتى أن العالم المثابر كارل كرستنسن فقد الأمل في الحصول عليها حين كان يضع دراسته عن فورسكال. ولم ينجح هنري شك في الحصول عليها بمكتبة جامعة كيل إلا في العشرينات الأولى للقرن التاسع عشر. وحتى عندئذ، لم يكن أحد مستعجلاً علي شيء، فلا المستر كرستنيس ولا المستر شك عاش ليرى هذه المذكرات وقد نشرت. ولم تنشر قبل

عام ١٩٥٠، أي أنها لم تنشر إلا بعد ما يقرب من ماية وتسعين سنة، منذ أن خطت يد فورسكال السطور الأولى في هذه المذكرات، ونشرت في أبسلا بعنوان: رحلة إلى العربية السعيدة. وبالطبع في الوقت الذي نشرت فيه أصبح الجزء الرئيسي من المعلومات الخاصة بالبلدان التي زاروها بعيدة عن العصر. هذا كل ما حدث بالنسبة لشحنة الصرر السبعة الكبيرة التي وصلت كوبنهاجن في حالة مقبولة. نعود إلى المخطوطات لنجد أن بعضها وصف طويل للحيوانات والنباتات باللغة اللاتينية، نشرت عام ١٧٧٥ تحت ظروف سنعود إليها في مجال آخر، ونشرت تحت العنوانين التاليين: (وصف الحيوانات) و(النباتات المصرية العربية). وفي السنة التالية نشر مؤلف آخر ضمّ ثلاث وأربعين رسماً معتنى بها لنباتات فورسكال بريشة بورنفانيد. ويتضح لنا من كل ما سبق أن الفرصة قد سنحت لأن تقدم لمعاصري فورسكال، أكثر اكتشافاته أهيمة في العلوم الطبيعية. لكن النشر للأسف أوكل إلى سويدي، غير معروف، وعديم الخبرة، فنشر مؤلفات النباتات، على الأخص، مليئاً بالأغلاط، وقد حوى ٣٧٩ صفحة، وكان دون شك أهم أنجازات فورسكال.

وقد أهمل المحرر مقارنة الوصف بالنباتات نفسها مما أدى إلى الكثير من سوء الفهم المتكرر. فالملاحظات التي قام بها فورسكال على الطبيعة والتي كان يجب اعتبارها أساساً لنظريات أبعد مدى، قد طبعت في حالتها كمادة خادم دون تدقيق وإعداد وفي فوضى لا بعدها فوضى، حتى ترتيب الكتاب أظهر اعتباراً غير ملحوظ للتسلسل المنطقي، وبهذا تحوَّلت أعظم إنجازات فورسكال إلى (لخبطة) غامضة.

وبعد ماية وخمسين عاماً، بطريقة فك الأشياء إلى قطع، ومن ثم تركيبها مع بعض كما في لبعة الـ (Jigsaw) كان كرستنسن قادراً على تكوين صورة صحيحة لما كان يفكر فيه فورسكال وهو يجمع مواده المهمة. ونتيجة لهذا تبين أن فورسكال لم يكتشف أربع

وعشرين نوعاً مختلفاً وحوالي ثلاثمائة عينة فحسب، اعترف بأنها حتى في زمن كرستنسن كانت جديدة، وبها من دقة الملاحظة ما ليس لها مثيل من قبل، ولكنه أيضاً برهن على معرفة عميقة بعلم التشكل النباتي (Morphology)[1] فكون نظريات عن التحول النباتي[2]. وفي هذه الموضوعات كان تفسيره متقدماً تقدماً هائلاً، وليس من المبالغة في شيء أن نعتبره أحد مؤسسي علم الجغرافيا النباتية، ولكن لأن مواده لم ترتب مطلقاً ترتيباً سليماً، فلم يبرز أي منها مؤثراً في العلوم المعاصرة. وأنهى كارل كرستينسن إعجابه بفورسكال بهذه الملاحظة المحزنة: «إذا أخذ المرء بوجهة النظر التي تقول بأن القيمة التاريخية للفرد وأعماله هي في مدى أهمية مشاركته في التقدم العلمي، ففي هذا الحال تكون أعمال فورسكال قليلة القيمة» لم يبق شيء، والنتيجة النهائية لهذا الجرد الشامل النهائي لمحتويات المخزون كانت لا شيء. وسبق أن رأينا أن اشتراك فون هافن في البعثة الدنماركية لم يؤد إلى خدمة العلوم. وقد انتهى العالمان المتنافسان الطموحان بان اشتركا في مصير واحد، لكن أحدهما خلال الرحلة كلها، كان كسولاً لا يفكر، تنقصه روح المبادرة، ومهتماً فقط براحته الشخصية، ولم يترك وراءه إلا مذكرة عديمة القيمة تغطي جزءاً خاصاً من الرحلة، كان هذا الجزء في حد ذاته إخفاقاً تاماً. بينما كان الآخر يعمل من الصباح حتى المساء، مهتماً بكل شيء، نشر أفكاراً، واكتشف نظريات جديدة مثيرة للإعجاب، وحل مسائل تخلب اللب، وجد فيها الآخرون بعد حلها، السهولة والوضوح، ولم يخلف وراءه فقط مذكراته، بل ترك سبع صرر من المخطوطات وعشر صناديق ضخمة من العينات، ومع هذا فهو لم يستفد منها بشيء، تماماً مثل الأول، فون هافن الذي لم يستفد بشيء. لقد كان جهدهما مختلفين، ولكن النتيجة كانت واحدة لم يستفيدا بشيء.. ولا شيء بقي! لقد ذهب كل شيء! عدا شيء واحد بقي، نبات واحد سمي باسم فورسكال، الذي وجد هذا

---

(١) علم التشكل أو المورفولوجيا، هو فرع من علم الأحياء، يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وبنيتها. (المترجم)

(٢) التحول النباتي: التغير في المظهر أو الصفة تغييراً صارخاً. (المترجم)



النبات بنفسه، لكن التسمية يعود الفضل فيها إلى لينوس، الذي كان من عادته تسمية النباتات باسم العلماء ومشجعي العلوم. وقد طمع في هذا الشرف معاصروه وحين وجد فورسكال أثناء رحلته إلى الإسكندرية، زهرة، اعتبرها جديدة، كتب إلى لينوس من القاهرة طالباً منه تسميتها باسم مكتشفها، واختبر لينوس بذور هذه الزهرة، ووجد أنها لم تكن من نوع جديد، ونتيجة لهذا لم يكن في استطاعته تنفيذ رغبة فورسكال. لكنه حين سمع بوفاة فورسكال في مدينة يريم النائية، قرر أن يسمي باسمه أحد النباتات التي نمت من البذور التي أرسلها. وكان هذا النبات على خلاف النبات السابق، جديداً حقاً، وسبق لفورسكال أن سمى هذا النبات (قائد بك)، على العلبة التي حوته وذلك باسم قرية (قائد بك) التي وجد بقربها هذا النبات.لقد سماه الآن لينوس باسم فورسكال ونسب إليه الوصف التالي: عنيد، متهور، متشبث برأيه، جلف. وحين سمع كارستن نيبور عن هذا ملأ الغيظ نفسه، وروى ابنه أن والده لم يغفر للينوس تصويره شخصية فورسكال ذلك التصوير المهين.

وحاول كرستنسن وتشك الدفاع عن لينوس في هذا الخصوص، بأن ذكرا بأن كثيراً من المصطلحات الوصفية التي أثارت غضب نيبور أعطيت أصلاً للنباتات من قبل فورسكال نفسه. ومن الصعب أن نشاركهما هذا الرأي، وكان عليهم أن يواجهوا ليس فقط احتجاج نيبور ولكن احتجاج الكثير غيره من معاصريه أمثال بيك فان ولندربرج. وكان من المعروف جيداً، أن لينوس العظيم حين يسمي نباتاً باسم أحد الأشخاص كان كثيراً ما حاول إحراز بعض التناسق أياً كان بين خصائص النبات وخصائص الرجل. وكان باستطاعته اختيار نبات آخر غير ذلك الذي وصف بمثل هذه التعابير المثيرة.



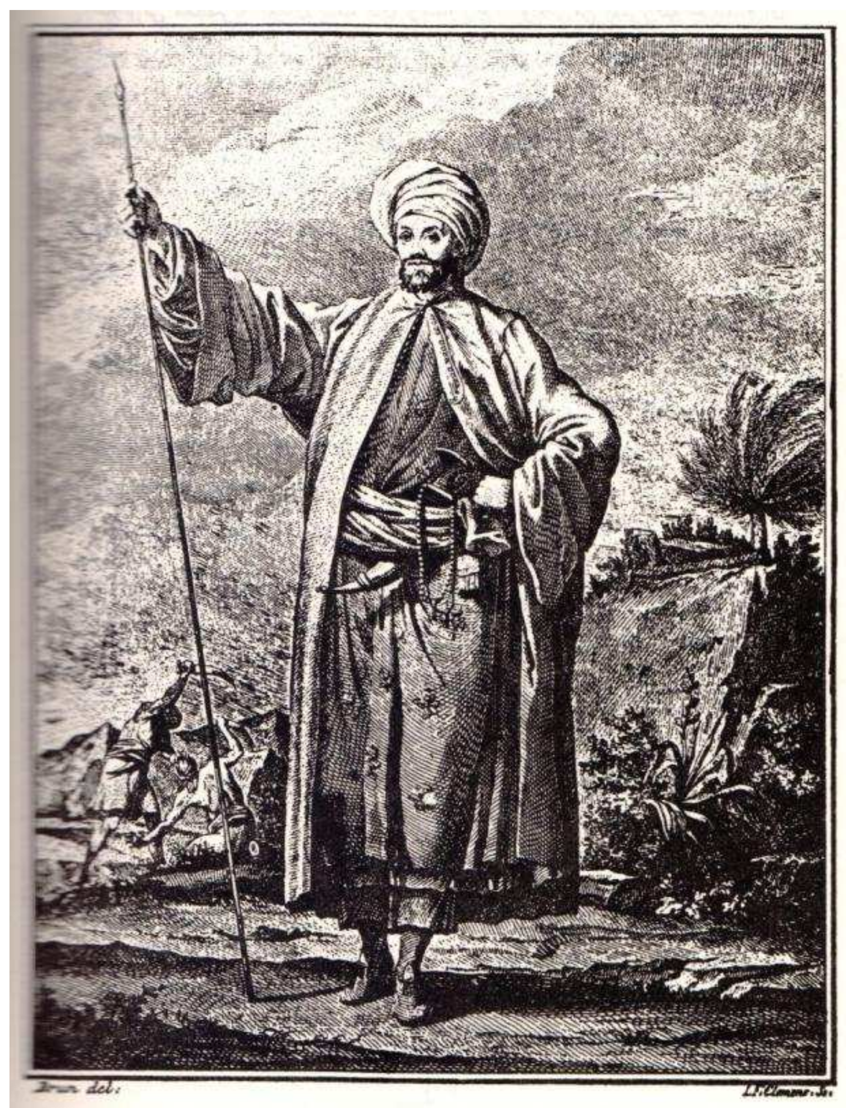
والأمر الخطير في الموضوع هو أن لينوس صور شخصية فورسكال بطريقة ملفتة للنظر لدرجة لا يمكن معها أن يعزى هذا إلى مجرد الصدفة، وهذا دوك شك هو الذي أزعج نيبور.

ولكن، بالرغم من أن اختيار لينوس لهذه التسمية كان متعمداً فإن تشخيصه لفورسكال على تلك الصورة ليس بالضرورة مهيناً كما تصور نيبور، فقد أصاب كبد الحقيقة وهو لهذا لا يستحق المحاولات الكثيرة التي تمت لتبرئته بقدر استحقاقه الاعتراف بالجميل. فهو يعرف جيداً بيتر فورسكال ويعرف أن هذا الرجل لا يكرم بالأركيديا[١] والورود، ولم تنبت زهور ناعمة على قبره خارج مدينة يريم.

فذكرى فورسكال لا يجب أن تكون الروائح اللطيفة والجمال، بل كان لا بد أن تكون ذكرى ملتهبة ومزعجة. إن الذكرى المعبرة الوحيدة لفورسكال هي (النباتة الفورسكالية)، ذكرى وخز نبتة القريص[٢].

(١) الأركيديا: نبتة من الفصيلة السحلبية. (المترجم)

(٢) القريص: نوع من الحشائش. (المترجم)



نيبور مرتدياً الثياب التي اهداه إياها إمام صنعاء



الفصل الخامس

وأخيراً.. وصلوا صنعاء

البعثة تترك أحد أفرادها يواجه مصيرة في مدينة ذمار – البعثة تعيش كأنها في حلم – هدية الإمام – كيف استقبلهم الإمام – دراسات عن صنعاء – جبروت الإمام وقسوته – من صنعاء إلى المخاء.

أخّر مرض فورسكال وموته البعثة كثيراً، في ظروف لا تسمح بضياع يوم واحد، ولم يبق حتى تغادر البواخر الإنجليزية ميناء المخاء إلا أقل من شهر، ولم يكونوا حتى الآن قد قطعوا نصف المسافة بين المخاء وصنعاء. وفي اليوم الثاني لدفن فورسكال انطلق نيبور وبورنفانيد وكرامر وبرجرن من يريم ليواصلوا رحيلهم بين الجبال، وإذا أدخلنا الظروف المحيطة بهم في اعتبارنا فإن قرارهم بمواصلة السفر يبدو قراراً بطولياً، لكن حالتهم المعنوية لم يكن يبدو عليها أي مظهر من مظاهر البطولة، وهم في بداية قطع المراحل الأخيرة التي تفصلهم عن آخر أهداف البعثة وأكثرها أهمية. لقد جعلتهم حوادث يريم في خوف على حياتهم، فإذا كان فورسكال قد مات تلك الميتة وهو أقواهم جميعاً.. فماذا كان في إمكانهم أن يتوقعوا؟ من قبل قاسى نيبور هجمات منتظمة للحمى لعدة أشهر، وفي الأسابيع القليلة الأخيرة تردّى في هذا المرض في الحال بورنفانيد وبرجرن، إذاً متى تهاجمهم الحمى جدياً؟ اليوم؟ غداً؟ خلال أسبوع؟ وما هي المتاعب التي تنتظرهم في ساعاتهم الأخيرة في هذه «العربية السعيدة» البغيضة، حيث الموت قد لا يمنحهم حتى قبراً؟

كانت الضربة قاسية، خاصة بالنسبة لكرستن نيبور، فقد فقدَ في فورسكال الرجل الذي كانت علاقته به خلال الرحلة أكثر ارتباطاً من علاقته بالآخرين، وجاء عملهما المشترك مكملاً للنقص الذي أحدثه إهمال فون هافن، وأملاً لتحقيق نتائج تستحق المهام العظيمة المنوطة بالبعثة. وأكثر من هذا، كان فورسكال رئيساً للبعثة لأكثر من سنة في كثير

من الظروف، فهو الذي كان يتفاوض مع العرب، ويضع الخطط ويعمل من أجل تحقيقها، والآن أصبح نيبور لوحده، يتحمل هذه المسؤولية الضخمة، دون مساعدة، إلا مساعدة بورنفانيد وكرامر، وكلاهما أكبر سناً منه، لكنهما ضعيفان وتنقصهما روح المبادرة وعاجزان عن التعبير عن نفسيهما باللغة العربية. لقد خيَّم الشعور بالخيبة على جو البعثة وبدا نيبور يشك في قلق فيما إذا كان أحد منهم سيعود إلى أوربا.. وزاد قلقهم أكثر وأكثر.. فإذا هلك جميع أعضاء البعثة فماذا يكون من أمر أوراقهم؟ من سوف يعتني بالصناديق المحتوية على نماذج فورسكال؟ والصرر السبعة التي بها مخططات فورسكال، ومذكراته التي بدأها منذ فترة طويلة وأصبحت أكثر من ألف صفحة، وخارطة نيبور، وجداوله الفلكية، ورسوم بورنفانيد للمناظر والمدن والملابس والنباتات والحيوانات، مَن كان يمكن أن يعتني بجميع هذه المواد ويأخذها إلى كوبنهاجن، إذا ماتوا جميعاً؟ وماذا يمكن أن يقال في أوروبا إذا اختفت عن الوجود كل البعثة وهلكت هنا بين هذه الجبال دون أن تترك أي نتائج؟ وهل يلتهم العدم معاناة ومجهودات سنين من العمل؟

كتب ابن نيبور في هذا الخصوص يقول:

«كانت هذه هي المرحلة الوحيدة في الرحلة التي تخلص فيها والدي من آلام البرد، فقد أنساه اليأس المرض، وفي الأخير وجد نفسه في حالة كسل وعدم مبالاة، وهي الحالة التي كثيراً ما تصيب الأوروبيين في البلدان الحارة حين يعانون من مرض أو قلق، ووضح في عدة مناسبات بعد يريم أن همة نيبور أصبحت مثبطة وأصبح متشائماً، وأصبحت المسافات بين أسماء الأماكن في خريطته واسعة بشكل ملحوظ، ومضى في طريقه ماراً بقريتي (Hoddafa) وظفار دون ن يزورهما أو ينقل النقوش الحميرية التي أخبر عنها والتي كانت هدفاً لبعثات عديدة في القرن التاسع عشر.



في مساء اليوم الثالث عشر من تموز (يوليو) وصلوا ذمار بعد يوم من رحيلهم من يريم، وبأسلوب مختلف عن السابق استغنى أمين صندوقهم – وهو الحريص على أموال البعثة – عن كل ما يؤمن الراحة في الفندق العام، واستأجر بدلاً عن ذلك منزلاً لشهر كامل لتقضي البعثة فيه ليلة واحدة في سلام. ولم يفدهم هذا الإجراء الاحتياطي في شيء لأنهم تعرضوا هنا أيضاً لوابل شديد من الحجارة، وأنكى من ذلك، حين لم يستطع برجرن مواصلة الرحلة بسبب مرضه الشديد تركه الآخرون يواجه مصيره ورحلوا. وقطع نيبور وكرامر وبورنفانيد المراحل الأخيرة من رحلتهم الطويلة، غير منظمين، غير متحدين، منطوين على أنفسهم وكل منهم غارق في وساوسه الخاصة، وساروا في طريقهم لا يحسون بالفضوليين من الناس يمشون بجانبهم بحجة رغبتهم في استشارة الدكتور كرامر.

وحلّ موسم الأمطار، وبعد ظهر كل يوم كانت العواصف الرعدية والأمطار الغزيرة تبلل ملابسهم وأمتعتهم، وهو منحنون على حميرهم بينما الحمى تلهب أجسادهم، وفي مساء السادس عشر من تموز (يوليو) حين وصلت الأمور إلى درجة لا يمكن أن تكون أكثر يأساً مما هي عليه، صفا الجو وأشرقت الشمس من خلال السحب، ومرّوا ببعض البيوت الفخمة المحاطة بالبساتين الواسعة، حيث الفاكهة الناضجة، من العنب والجوز والمشمش، وقطرات المطر تتساقط من الأوراق، وقد بدَت البرك التي صادفوها في طريقهم بعد المطر وكأنها تودّع في تأثر أشعة الشمس هو تغيب.

وبعد آخر منحنى في الطريق إلى صنعاء امتدَّ أمامهم منظر فسيح، توقف الرجال الثلاثة عنده وأطلوا على وادٍ به عدة منازل، وشاهدوا الدخان المتصاعد من مداخن البيوت والمختلط ببخار المطر، يغطي جوانب التلال. وكان كل شيء هادئاً لا يتحرك، وطائر الوروار يجثم على أحد الغصون، وقد مضى بعض الوقت قبل أن يستطيع المسافرون المنهكون تصديق ما تشاهده أعينهم. أجل، لم يكن ما يرونه أمام أعينهم من صنع

تصورات الحمى، إنها حقاً مدينة، فهذا شذا الأرض الطري ينقله الهواء من حولهم، وهذه فعلاً قطرات المطر المتساقطة من الأشجار، وهذا طائر الوروار الأخضر يطير مراراً ليعود إلى نفس الغصن الذي طار منه. إنهم ليسوا في حلم، فهم الآن أمام مدينة صنعاء عاصمة العربية السعيدة، التي وصلوها أخيراً بعد رحيل دام سنتين ونصف.

كان نيبور وكرامر وبورنفانيد لا يزالون يلبسون الملابس العربية، التي لبسوها منذ أن كانوا في مصر، والتي أصبحت ممزقة وقذرة، وظهروا فيها كأنهم عصابة لصوص جائعة، بوجوههم المتجعدة المرهقة من جراء المرض. وأجمع رأيهم في أنه لا يمكن الوصول إلى عاصمة اليمن في هذه الخرق البالية، فمرّوا بإحدى المقاهي القريبة لتغيير ملابسهم، وكان أجمل ما لديهم هي تلك الثياب التركية التي حصلوا عليها في القسطنطينية، وكان من الصعب على المواطنين اليمنيين الارتياح إليهم في هذه الملابس، لكنهم كانوا نظيفين وملابسهم غير ممزقة. وبعد أن اغتسلوا وشذبوا لحاهم لبسوا ملابسهم واستمروا في سيرهم، تتملكهم النشوة، نحن أسفل الجبل، وبعد ذلك بقليل وصل إليهم راكباً على حصان أحد المواطنين، استدلُّوا من مظهره أنه من الرجال المهمين، وتوقف أمامهم وقدَّم نفسه إليهم في عبارات مؤثرة. كان هذا القادم هو كاتب الفقيه أحمد وزير الدولة، وقد أخبرهم أنهم بصنعاء قد توقعوا وصولهم منذ وقت طويل، وحين شاع في المدينة أنهم قادمون طُلب منه أن يخرج لاستقبالهم، ويخبرهم أنه قد وضع تحت تصرفهم مسكناً يستطيعون البقاء فيه المدة التي يرغبونها.

ونامت البعثة تلك الليلة على سُرر نظيفة لأول مرة منذ زمن طويل، وحين جلسوا صباح اليوم التالي يشربون القهوة، وصلت إليهم هدية الإمام ترحيباً منه بمقدمهم. وكانت الهدية عبارة عن خمسة أغنام و٣ جمال محمَّلة بوقود الطبخ، ومجموعة من الشموع وأكياس من الأرزّ وجميع أنواع الخضروات، وطلب الإمام أن يعفى لعدم استطاعته



رؤيتهم لفترة يومين، لأنه كان مشغولاً جداً بدفع مصروفات جنوده. وورد في مذكرة نيبور أنه أسف لهذا التأخير فقد كانت البواخر الإنجليزية على الدوام تشغل بالهم، ولأنه لم يكن من الأدب في شيء مغادرة صنعاء دون مقابلة الإمام، فلم يكن في استطاعتهم إلا الانتظار وقضاء يومين من الفراغ، ومع هذا فقد منحهم هذا التأخير الفرصة للشفاء بعض الشيء، وسبب في ارتفاع معنوياتهم، وعلى أي حال كان لا بدّ من انتظارهم حتى يصل برجرن من ذمار.

كان يبدو بعد عناء الطريق، أن عيني الرجل السويدي الخشن برجرن غائمتان قليلاً، وقد اعترف بنفسه أن هذه الرحلة الأخيرة كانت أصعب من حرب بروسيا، ولم يكن أمامه بد من مواصلة الرحيل إلى صنعاء، وبسبب منظره، والحالة التي كان فيها كان الناس يرفضون إعطائه مكاناً يلجأ إليه، فقد كانوا خائفين أن يموت لديهم، وفي أحد الأماكن قدموا له حماراً كي يتخلصوا من وجوده.

وهنا في صنعاء استرجعت البعثة كل قواها، وفي هذه الضاحية الرائعة من المدينة كان نيبور يأكل العنب، وقد ذهبت عنه كل ذكريات الماضي المحزن، وبعدت عنه كل وساوس المستقبل. وصف نيبور أحوالهم بقوله:

«لم نعش مثل هذه الراحة منذ زمن طويل، لقد كان للبيت غرف جميلة وكان محاطاً بحديقة مليئة بجميع أنواع الفواكه التي يبدوا أنها تنبت على الطبيعة دون عناية. إنها حديقة على الطريقة العربية، بها نافورات وبرك حيث يفضّل المرء الجلوس في الظل على أن يمشي».

بعد يومين، في التاسع عشر من تموز (يوليو)، استقبلهم الإمام في مقابلة رسمية عامة، فقد وصل إليهم قبل الظهر كاتب الفقيه أحمد وأخذهم إلى القصر حيث اتخذت بعض الترتيبات المتقنة لاستقبالهم، وازدحم الميدان المشمس بالخيل والخدم والموظفين، ولم يستطع أعضاء البعثة الوصول إلى المدخل إلا بعد أن أتى مدير الاسطبلات وأفسح لهم

الطريق بهراوة ضخمة في يده. ولأن نيبور كان الوحيد بينهم المتحدث باللغة العربية فقد أصبح رئيسهم، ونورد فيما يلي وصفاً للقاء الذي تمَّ بين الشاب فلاح المستنقعات الرطبة الذي علم نفسه بنفسه وبين صاحب السمو الملكي إمام العربية السعيدة(١)، قال نيبور:

«جرت المقابلة الرسمية في قاعة مستطيلة تحت سقف له قناطر، وفي الوسط كانت نافورة تقذف ماءها في الهواء مسافة أربعة عشر قدماً، وخلف بركة النافورة ترتفع منصة، يقع خلفها منصة أخرى، بها مجلس العرش، وقد غُطيت كل الأرضية حول النافورة والمنصة المرتفعة بالسجاد العجمي، أما مجلس العرش فلم يكن إلا منصة مربعة مغطاة بالحرير، وعليها ثلاث مخدات كبيرة، أحدها خلف الإمام واثنتان على جانبيه، وكلها مغطاة بأشياء جميلة. وكان الإمام جالساً على عرشه هذا بين الوسائد وقد لفتّ ساقيه تحته على الطريقة الشرقية في الجلوس، وكان مرتدياً قميصاً أخضراً خفيفاً له أكمام طويلة فضفاضة، وعلى يمينه وعن يساره أخوته، وأمامه على المنصة المستطيلة يقف وزيره لشؤون الدولة الفقيه أحمد، وفي مكان منخفض عن المنصة المستطيلة أخذ أعضاء البعثة أماكنهم، وعلى امتداد الجدران يقف صفان طويلان من الزعماء العرب، وأخذونا مباشرة إلى الأمام لتقبيل يده اليمنى، باطنها وظاهرها، وتقبيل ثوبه أيضاً المتدلي على ركبتيه، وتقبيل ظاهر اليد والثوب أمر عادي حين يقابل المرء أمراء العرب، لكن تقديم باطن اليد للأجنبي لتقبيلها لدليل على تكريم كبير غير عادي.

وكان يسود القاعة صمت عميق، لكن في اللحظة التي كان يلمس فيها أحدنا يد الإمام كان يعلو هتاف المنادي ببعض كلمات يبدو أنها تعني: «الله يحفظ الإمام» ويردّد بعده جميع الحضور هذه الكلمات بأعلى أصواتهم وبكل قواهم. لا أستطيع أن أنكر أني كنت منزعجاً بعض الشيء بسبب ذلك الصراخ المروّع، خاصة، في اللحظة التي لمست فيها يد الإمام، ذلك لأني كنت أول من تقدم منهم، وكنت عندئذ مركّزاً تفكيري فقط في كيف أعبّر عن تقديري وتحياتي في لغة عربية ممتازة، كما كنت مأخوذاً بروعة المشهد، الذي

(١) هو الإمام المهدي عباس بن الحسين بن القاسم المولود عام ١٧٤٨م والمتوفى عام ١٧٧٥م. (المترجم)

لم أشاهد له مثيلاً من قبل بالجزيرة العربية، وعلى أي حال، لقد استعدت في سرعة هدووئي، وحين أخذ الناس يهتفون مرة أخرى، حين لمس رفاقي يد الإمام شعرت أن ما يحدث في حفل الاستقبال هذا، يشبه نوعاً ما الهتاف ثلاثاً في بلادنا.

واجه نيبور بعض الصعوبات في فهم اللغة الدارجة في صنعاء، وخلال الحديث مع الإمام اضطر للاستعانة بمترجم، ولأنه فضّل أن لا يدخل في تفصيلات أهداف ودوافع رحلتهم، فقد أوضح للإمام بأنهم من الدنمارك وأنهم قد سافروا عبر البحر الأحمر، لأنه أقصر طريق إلى المستعمرة الدنماركية، ترنكبار، وفي طريقهم أحبوا القيام بزيارة بلاد اليمن الواسعة المشهورة بثراها وجمالها. ولم يذكر نيبور أنهم اضطروا إلى أن يدفعوا مقابل هذه المتعة حياة اثنين من رفاقهم، ولا أن بقاءهم في المخاء قد كلفهم خمسين دوكات فينيسية، ولا أن الأهالي في يريم وذمار قد استقبلوهم بالحجارة. كل ما ذكر أنه لا يستطيع كتمان إعجابه بحالة الأمن أثناء رحلتهم، وكرم الضيافة التي قابلوها في كل مكان نزلوا فيه، وفي الأخير أشار لزملائه للبدء في عرض ما لديهم من أشياء عجيبة، فعرضوا المنظار والتلسكوب، وشاهد الإمام الناس تمشي على رؤوسها، والجمل يتحول إلى حيوان ضخم غريب، وعرض نيبور مقياس الحرارة والبوصلات وبعض رسوم بورنفانيد، وبعض الرسوم المنحوتة والخرائط والرسوم البيانية. وفي الختام قدم للإمام وللفقيه أحمد، بعض الهدايا من الساعات وبعض أدوات فورسكال، تسلمها في لطف لا حد له. وحين عاد أعضاء البعثة إلى منازلهم تسلم كل منهم كيساً هدية يحتوي على ٩٩ (Komassi) أو ما يعادل ٣ ريجسدالر بعملة صغيرة. واستغرب أمين صندوق البعثة من هذه الهدية الغريبة ذكر يقول:

«كان يبدو غريباً أن يبعث لنا الإمام فلوساً مقتصرة على العملة المعدنية الصغيرة، ولكن لأن كل شيء في الأسواق لا بدّ من شرائه نقداً، فمن المحتمل أن يكون هذا نتيجة تفكير خاص لدى العرب حين أرادوا أن يوفروا علينا مشقة صرف الفئات الكبيرة من العملة».

بعد هذه المقابلة أذن لهم أن يتجولوا بحرّية في العاصمة، وبدأ نيبور في الحال في إعداد خريطة أولية للمدينة، وشاع أمر وصولهم منذ مدة طويلة بين السكان، وتدخل الفضوليون من جمهور المتفرجين في عمل نيبور، حتى أنه اضطر إلى التخلي عن أخذ مقاسات للزوايا بواسطة البوصلة والآلة الفلكية، وبدلاً عن ذلك، عاد إلى أسلوبه القديم منذ أن كان في مصر، في حساب المسافات في الشوارع بالخُطى، متظاهراً بعدم المبالاة، وحين انتهى من رسم خريطته حاول أن يكون لديه صورة عن التجار في المدينة، وهو العمل الذي اعتاد القيام به مع فورسكال، فزار السوق الكبير، ووصف أزقته المتخصصة في بيع الوقود والفحم والحديد والعنب والذرة، والزبدة والملح والخبر، الذي تقتصر التجارة فيه على النساء، كما هو غالباً في كل مكان في جزيرة العرب، كما يوجد سوق خاص لإبدال الملابس القديمة بأخرى جديدة، ويوجد فيه أكشاك للبضائع التركية والهندية والإيرانية. ويوجد بالمدينة أعشاب وعلاجات وفواكه مجففة وطازجة كالكمثرى والمشمش والخوخ والتين، وتوجد شوارع خاصة للأعمال المهنية المختلفة، للحدادين وللإسكافيين وصانعي السروج، والخياطين، وصانعي القبعات والبنائين والصاغة ومجلدي الكتب والكتبة، وفي كل مكان توجد الخضروات الطازجة بكميات كثيرة، واستطاع نيبور أن يحصي أكثر من عشرين نوعاً من العنب.

لقد تجاوزت عاصمة اليمن السعيدة كل توقعاتهم، فصنعاء كانت حقاً جنة الله على الأرض، وأكثر من ذلك، فقد استقبلهم جميع الزعماء بودّ زائد، ولم يحاول أحد سلبهم أموالهم ولم يلق أحد بالحجارة على نوافذهم، والإمام نفسه قد وضع تحت تصرفهم مسكناً عاشوا فيه أحسن عيشة في رحلتهم كلها، وهو الآن يدعوهم للبقاء في المدينة سنة كاملة ضيوفاً لديه.

كانت صنعاء هي الهدف الأساسي من رحلتهم، وسبق لهم أن قضوا سنة كاملة في القاهرة، وليس هناك ما يمنع قبولهم في امتنان هذه الدعوة الكريمة، وحين تنتهي السنة تكون البواخر الإنكيزية قد عادت مرة أخرى إلى المخاء وعلى استعداد أن تأخذ معها أعضاء البعثة إلى الهند، ومن هناك يرحلون إلى الدنمارك عن طريق ترنكبار.



وللبقاء بصنعاء سنة كاملة فوائد كثيرة بيّنة، فسوف يتجنبون الإسراع في العودة المحفوفة بالمخاطر ويستبدلونها بالاستمتاع بالبقاء سنة مطمئنة هانئة في صنعاء، حيث يستعيدون قواهم ويواصلون أبحاثهم في ظل أحسن الظروف، دون أن يكلفهم هذا أي شيء. ورغم كل هذه المميزات رفض نيبور الدعوة دون أن يتردد لحظة واحدة، وقد شعر هو نفسه أن هذا الرفض في حاجة إلى تفسير، فأورد في مذكرته ما لا يقلّ عن خمسة أسباب بنى عليها قراره في العودة السريعة، أولها وفاة الاستاذين فون هافن وفورسكال، وليس أحد غيرهما بقادر على القيام بعمل الدراسات اللازمة عن لغة البلاد وتاريخها الطبيعي، وثاني هذه الأسباب أن نيبور قد عمل ما فيه الكفاية لإعداد خريطة كاملة لليمن، وثالثها أنه كان قد سمع قصصاً عديدة لأناس وقعوا ضحية جبروت الإمام وقسوته، ورابع هذه الأسباب أنهم قد تعرضوا في السابق لصعوبات كبيرة مع حاكم المخاء وتعز ولا يريدون تعريض أنفسهم لتجارب أخرى مماثلة، وخامس هذه الأسباب أنهم خافوا تأثير الطقس الرديء على صحتهم.

في الحقيقة لم يكن لدى نيبور إلا سبب واحد للرفض وخروجهم من صنعاء في سرعة، وقد ذكر هذا السبب بطريق غير مباشر، لقد كانوا خائفين، لقد شاهدوا بعيونهم فون هافن وبيتر فورسكال يموتان فجأة بطريقة واحدة، دون أن يكون من السهل عليهم تعليل السبب، ودون أن يستطيع الدكتور كرامر عمل أي شيء. لقد أدركوا جيداً أنهم يحملون نفس المرض في دمهم، وخافوا أن يقاسوا نفس المصير، وليس هذا فقط، فلو مات جميعهم في صنعاء، فإن أوراق البعثة والعينات التي جمعتها قد لا تتوفر لها الفرصة للوصول إلى كوبنهاجن، وتصبح مهمتهم كلها دون جدوى ويصبح البقاء عندئذ مغامرة كبرى.

في هذا الوقت كان نيبور لا يزال في حالة صحية سيئة، وبورنفانيد الكادح لم يضع قلمه على الورق لعدة أسابيع، وبرجرن كان مريضاً بالحمى، وبعد وصولهم إلى صنعاء، بدأ كرامر يشكوا أيضاً ذلك البرد العجيب.

كانت هذه هي الأسباب الحقيقة لقرار نيبور المتطرف، وحتى ذلك الحين كان في رجوعهم السريع إلى المخاء الفرصة الوحيدة لإنقاذ إنجازات جهود دامت أكثر من سنتين. لقد طلبهم الموت على انفراد واحداً بعد الآخر وهمس في آذانهم نفس الشيء، فإذا أرادوا الهروب منه فعليهم الهروب من العربية السعيدة.

كان على البواخر الإنجليزية أن ترفع المرساة أثناء النصف الأول من شهر آب (أغسطس)، وكما نعرف كانت مقابلة الإمام لهم في التاسع عشر من شهر تموز (يوليو)، ولهذا لم يبقَ أمامهم إلا أربعة عشر يوماً. وأسرع ما تبين لهم أن خطة نيبور الأصلية لمغادرة صنعاء في العشرين من تموز (يوليو) كانت متفائلة، فقد جدَّت بعض التأخيرات التي لم تكن في الحسبان، فكان لا بدّ من إعداد مقابلة مرتبة لتوديع الإمام يُكرر فيها ما كان في حفل الاستقبال، ولكن هذه المرة لم يكن الأمر مجرد توزيع الهدايا في شكل نقود من فئات العملات الصغيرة، فقد مُنح نيبور هدية، بوصفه رئيساً للبعثة، ثوب من النوع الذي لا يلبسه إلا النبلاء من العرب، كما قُدِّم للبعثة، حسب أوامر الإمام، الجمال التي سيكونون في حاجة لها، وختم الإمام كرمه عليهم بأن قدّم لهم هدية من المال تبلغ مائتين سُبيسي دالر، وكان نيبور متردداً بعض الشيء، إذ كيف يكون لائقاً أن يقبل هذا المبلغ الكبير، غير أن تفكيره في المبلغ الذي أخذه منهم حاكم المخاء دفعه إلى قبول الهدية. أما عن الأمور الأخرى فلم يكن استقبال الإمام الأخير لهم يعني شيئاً كبيراً بالنسبة له، فقد هاجمته الحمى في وسط الحفل الرائع وأثناء تقديم الهدايا الثمينة. تروي لنا مذكرته أن الحاضرين وهم أكثر العباد تأدباً، اضطروا أن يطلبوا إذن الإمام له بالخروج إلى الخارج لقضاء بعض

الوقت والجلوس في الظل. بعد هذا برزت أمامهم صعوبات جديدة، في هذه المرة كان مبعثها الجمال التي وُضعت تحت تصرفهم، ذلك أن مجموعة من الوسطاء، رأوا في هذا فرصتهم للحصول على بعض المال، وضاعت عدة أيام في محاولات لإزالة بعض سوء التفاهم وإيقاف الأوغاد عند حدهم. ولم تستعد القافلة الصغيرة للرحيل إلا في السادس والعشرين من تموز (يوليو)، ومرة أخرى كان على البعثة مواجهة اتخاذ قرار صعب، فقد كان على نيبور أن يختار أحد طريقين، إما العودة بواسطة الطريق التي أتوا منها، وهي طريق رئيسية تصل بهم إلى المخاء عن طريق تعز، أو أن يسلكوا طريقاً آخر أقل ارتياداً، خلال الجبال الخطرة الغير مسكونة تقريباً، عن طريق مفحق و(سامفور Samfur) إلى بيت الفقيه. واختار نيبور الطريق الأخيرة، وهي أطول بكثير من الأولى، ويمكن القول أنها ليست مريحة كالأولى، لكنه فضَّل البحث عن أسباب الراحة في الأكواخ عن أن يقابل متاعب أكثر من الحكام في يريم وتعز. في الواقع، كان على استعداد أن يسلك أي طريق مهما كان ملتوياً، حتى يتجنب رؤية تلك المناطق مرة أخرى، وأكثر من هذا فسوف يكون طريقهم خلال الجبال ذا فائدة عظيمة لعمل الخارطة التي يرسمها لليمن، من أجل تكوين خط مراجعة مباشرة من صنعاء إلى بيت الفقيه. وبدأ السباق بين المتسابقين الأربعة للوصول إلى المخاء في الوقت المحدد، تلازمهم الحمى، فوق أقسى الطرق التي مرّوا عليها في اليمن. وفي خطى متثاقلة شقوا طريقهم في جهد، مارّين بمفحق، ثم هطلت عليهم الأمطار بغزارة، فمرت الجمال بجهد بالغ عبر بحر من الطين والأحجار المتساقطة. وفي الثلاثين من شهر تموز (يوليو) وصلوا تقريباً قرية (هاليزي Halesi) وعندئذ توقفت جمال مقدمة القافلة، وأصبح من المستحيل الاستمرار في السير، فالمطر قد قطع مسيلاً منحدراً لعدة ياردات في الطريق الضيق التي تمتد على طول المنحدر الصخري، ورأوا أنه لا يمكن عمل شيء، وأن عليهم العودة من حيث أتوا، فليس أمامهم طريق أخرى

توصلهم إلى بيت الفقيه، وكان معنى هذا بقاؤهم سنة أخرى في اليمن. كل هذا دفع إلى إصدار نيبور أوامر إلى العرب المرافقين لهم بأن يجمعوا الأحجار من جوانب الجبال ويملأوا بها تلك الحفرة، لتستطيع الجمال العبور، لكن لم يكن لنيبور أسلوب الآمر، فقد هزّ العرب أكتافهم ورفضوا إطاعة الأمر، بحجة أن هذا العمل يستغرق يومين كاملين على الأقل، فاستعان نيبور بكرامر وبورنفانيد وبرجرن، وقاموا بالعمل لوحدهم، ومضى بقية ذلك اليوم والرجال المرضى الأربعة يحملون الأحجار ويلقونها في ذلك المسيل بينما يتفرج عليهم العرب، الذي حين تأكدوا أن الأوروبيين سينجحون في دفن الحفرة تقدموا الواحد بعد الآخر للمساعدة في الدفن، وحين قرب المساء استطاعت الجمال أن تمر ووصلوا سامفور بعد غروب الشمس، حيث بلغ بهم الإنهاك والفوضى الحد الذي جعل نيبور يفقد بوصلته. وهطلت الأمطار بغزارة مرة ثانية صباح اليوم التالي، وواصلوا رحيلهم في الفجر، وأثناء النهار كان عليهم أن يقطعوا نهر سهام لا أقل من اثني عشر مرة، وفي كل مرة كانوا يحتاجون إلى وقت أطول ليجرّوا الجمال عبر النهر، وحين أتى المساء لم يكونوا قد وصلوا إلى أبعد من قرية (Hadsjir) ولم يأبهوا للبلل، فقد كانت ثيابهم مبللة من قبل، واليوم التالي كان هو أول آب (أغسطس)، وحتى هذا التاريخ لم يكونوا قد قطعوا ثلث الطريق إلى المخاء، وقرروا أن يزيدوا ساعات سفرهم، فألغوا ساعات الراحة وضاعفوا سيرهم اليومي، ووصلوا بيت الفقيه نفس تلك الليلة. وألقت بهم هذه المرحلة الأخيرة إلى الصحراء وحرارتها، حيث أثقلت كواهلهم وكواهل جمالهم بأثقال إضافية.

ووافق نيبور على أن يقضوا يوماً كاملاً في بيت الفقيه للراحة، على شرط أن يبدأوا الرحيل عند غروب الشمس، ويسافروا أثناء الليل البارد، والآن ها هو نيبور يسير على أرض ألفها من قبل، وفي استطاعته زيادة سرعتهم أكثر فأكثر. وفي صباح اليوم التالي وصلوا مدينة زبيد حيث قدَّم لهم الحاكم المؤن والجمال النشيطة، وواصلوا السير في المساء



التالي نحو (Sjerdje)، فوصلوها في منتصف الليل تقريباً، بسرعة لم تكن بالحسبان، غير أنه بعد ساعة من الراحة في إحدى مقاهي الأكواخ أعطى نيبور الأوامر للرحيل، وما أن طلعت الشمس حتى كانوا قد وصلوا قرية مسجد (Musjid) الواقعة على الشاطئ. وبينما كانت الشمس تغرق في البحر الأحمر الذي بدا أكثر احمراراً من أي وقت مضى، إذا بهم مرة ثانية على ظهور حميرهم، وبعد اثني عشر ساعة كان نيبور قادراً على أن يدوّن آخر جزء في مذكراته، كتب يقول:

«في الساعة التاسعة صباحاً، في الخامس من آب (أغسطس) دخلنا مدينة المخاء مرة أخرى في غاية من الانهاك».

ولكن نيبور وكرامر وبورنفانيد وبرجرن لم يصلوا بعد إلى الهدف، وبالقليل المتبقي من قوَّتهم ساروا نحو الميناء، حيث لم يستغرق الأمر إلا لحظة ليروا ما حدث: لقد أبحرت السفن الإنكليزية.



الفصل السادس

العربية السعيدة.. لماذا؟

السرعة اليائسة – هل فاتهم اللحاق بالسفن الإنجليزية؟ – هل كانت اليابسة تصل بين إفريقيا وشبه الجزيرة العربية؟ – وفاة فنان البعة وخادمها – اليمن السعيدة..لماذا؟

من أجل أن نكوِّن صورة صحيحة عن السرعة اليائسة التي ساروا عليها من صنعاء إلى المخاء، لا يعوزنا إلا مقارنة عدد أيام الذهاب، بعدد أيام العودة المستمدة من التواريخ المذكورة في مذكرة كارستن نيبور. لقد غادرت البعثة المخاء في التاسع من شهر حزيران (يونيو) ووصلت صنعاء في السابع عشر من شهر تموز (يوليو)، أي أن الرحلة استغرقت ثمانية وثلاثين يوماً، متضمنة الأيام التي قضوها في تعز ويريم، أي قضوا ستة عشر يوماً من السفر الحقيقي، وغادروا صنعاء في السادس والعشرين من تموز (يوليو) ووصلوا المخاء في الخامس من شهر آب (أغسطس)، ولأنهم وصلوا في الصباح الباكر فإن الحساب الحقيقي يعتبر إلى الرابع من آب (أغسطس)، أي أن رحلة العودة من صنعاء استغرقت تسعة أيام، بينما استغرق ذهابهم إليها ستة عشر يوماً، وهذا بالرغم من أن طريق العودة كانت أطول، وواجهوا فيها أمطاراً غزيرة وحمّى شديدة، ولأن الجمال تسير دائماً بنفس السرعة، فهذا معناه في الواقع، أنهم في العودة كانوا يسيرون كل يوم ضعف الوقت الذي ساروا عند ذهابهم إلى صنعاء، فكان الاجهاد الذي أصابهم صعباً إلى حد غير إنساني، وكان لا بد أن يدفعوا الثمن. والسبب الرئيسي لتعبهم هو التغيير المفاجئ في الطقس، فمن هواء صنعاء الجبلي الرقيق، إلى حرارة المخاء الاستوائية الرطبة. وبعد ثلاثة أيام فقط من وصولهم المخاء، اضطر نيبور للجوء إلى الفراش، فاقد الوعي بسبب الإجهاد والحمى المرتفعة، وبعد ذلك بيومين جاء دور بورنفانيد، وبعد ذلك بيوم جاء دور كرامر وبرجرن، وعاني الجميع المرض بنفس الطريقة. وما أن مرَّ ثلاثة أشهر تقريباً على وفاة فون هافن، حتى كانت البقية الباقية من أعضاء البعثة ملقاة في نفس البيت الذي مات فيه فون هفن تعاني نفس المرض.

واليوم السعيد الوحيد في تلك الأيام البائسة هو اليوم الثاني لوصولهم المخاء حين اكتشف نيبور، أن أحد التجار الإنكليز واسمه سكوت كان لا يزال في المدينة، وقد بذل هذا الإنكليزي الكثير للعناية بالرجال المرضى، فأحضر لهم جميع أنواع المرطبات الأوروبية، التي في مثل تلك الظروف – حيث لا توجد إلا الأطعمة العربية – كانت أفضل لهم حتى من أفضل الأدوية. والأهم في الموضوع أنه طمأنهم وأخبرهم أن ثلاث فقط من البواخر قد أبحرت إلى الهند، ولأن بعض العرب تأخروا في دفع ما عليهم من ثمن البضاعة، فإن الباخرة الرابعة لم تبحر بعد، وقد أرسلت إلى جدة محملة بالقهوة، وأنه في انتظار رجوعها إلى المخاء في الأسبوع الأخير من شهر آب (أغسطس).

كانت حسابات الرجل الإنكليزي صحيحة، ففي العشرين من آب (أغسطس) كانت السفينة مرة أخرى راسية في ميناء المخاء، وأثناء ذلك ساءت شؤون البعثة أكثر من ذي قبل، فحين غادروا اليمن السعيدة في الواحد والعشرين من آب (أغسطس) ١٧٦٣، كان كارستن نيبور هو الوحيد الذي كان في استطاعته الوقوف، أما كرامر وبورنفانيد وبرجرن فقد حُملوا إلى ظهر الباخرة، وكانت بعض الدفعات لا تزال لدى التجار العرب، ولهذا لم تبحر الباخرة قبل الثالث والعشرين من آب (أغسطس)، ولم يكن على ظهرها بضائع، لان الهند لم تكن ولوعة بحبوب البن. في واقع الأمر كانت حمولتها تتألف فقط من المدفوعات التي دفعها التجار في مقابل البضائع التي وصلت المخاء، أي ما قرب من ٢٥٠,٠٠٠ سبيسدالر نقداً، وبالنسبة لهذا المبلغ من المال، كانت بقية حملة السفينة غير ذات أهمية كبيرة، فهي عبارة عن دزينة من الصناديق المليئة بالحيوانات الهلامية والسمك المجفف وسبع صرَر من المخطوطات، وحقيبة بها نباتات مضغوطة، ولم تبحر سفينة جون مارتن ذات الشراعين عبر المحيط الهندي من أجل هذه الأشياء البسيطة. وبسبب ذلك النسيم الخفيف الآتي من الشمال، مضى عليهم يومان قبل أن يصلوا إلى المضائق بين أفريقيا

وشبه الجزيرة العربية. وأنعش هواء البحر نيبور، فبدأ من جديد يقوم ببعض المقاسات، فحدَّد خط العرض لرأس سانت انتوني، وعن طريق سبرالأعماق المنتظم تمكن من أن يجيب بالسلب على تساؤل البروفسور ميشاليس عن المدى الذي يمكن أن نصل إليه في تصوُّرنا، بأن اليابسة كانت فيما مضى تصل بين أفريقيا وشبه الجزيرة العربية في هذه النقطة.

وفي السادس والعشرين من آب (أغسطس) اشتدّ هبوب الريح، وفي الحال اختفت حولهم الشواطئ الإفريقية والعربية، وأصبح الآن كرامر يشاهد على سطح الباخرة، أما بورنفانيد وبرجرن فيبدو أن الأمور لم تسر سيراً حسناً بما فيه الكفاية بالنسبة لهما، كتب كارستن نيبور في هذا الخصوص يقول:

«لقد بدا أن حالة الهر كرامر تحسنت منذ اللحظة التي جاء فيها إلى الباخرة، غير أن مرض الهر بورنفانيد، أخذ يتزايد يوماً عن يوم، على أنه ما جاء مساء السابع والعشرين من آب (أغسطس) حتى بلغ به الضعف درجة لا يستطيع معها الإجابة على أسئلتي، ومن تلك اللحظة ذهب في ما يشبه النوم العميق، حتى أني وجدت أن من غير الممكن إيقاظه حين كنت أريد إعطائه القليل من مشروب منعش، أو القليل من الدواء، ومات في هذا اليوم في التاسع والعشرين من آب (أغسطس) في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر ذلك اليوم.

وأجد أني لست مضطراً أن أقول شيئاً في مدح هذا الفنان، فتلك المناظر العديدة للمدن، ورسوم الملابس والرسوم الكثيرة لعينات التاريخ الطبيعي التي رسمها لفورسكال تكفيه فخراً وتشهد على مهارته وكده وعلى الجهود الكثيرة التي بذلها في سبيل عمله، وقد أحزنني أنه لم يكن محظوظاً ليعود إلى الدنمارك ويقوم هناك بحفر رسومه على النحاس، ذلك لأنه كان نحاتاً أكثر من أي شيء آخر.

كذلك خادمنا برجرن حُمل أيضاً إلى ظهر الباخرة مريضاً جداً، وسبق له أن كان في خدمة كولونيل سويدي في سلاح الفرسان في الحرب ضد بروسيا وكان في خدمتنا منذ أن كنا في كوبنهاجن، كان قوي الجسم والصحة، وفي البداية لم يكن الصعوبات الناجمة عن الرحلة إلى اليمن السعيدة ذات أهمية خاصة في اعتباره، ورغم هذا فلم يستطع الصمود بما فيه الكفاية أمامها، وتوفي في اليوم التالي لوفاة السيد بورنفانيد في الثلاثين من آب (أغسطس) وقُذف بكلا الجسدين في البحر».

بعد أسبوع فقط من مغادرتهم العربية السعيدة انخفض عدد أعضاء البعثة إلى رجلين اثنين. وإذا عدنا إلى كوبنهاجن نجدهم هناك لا يعرفون بالطبع أي شيء عن الأحداث التي أدَّت إلى إغراق هاتين الجنازتين في المياه المشمسة الساطعة للمحيط الهندي، واستمر برنستورف شهر بعد شهر في تحرير الرسائل والتعليمات إلى الرجال الذين مضى على موتهم زمن طويل، فقد مرَّت سنة قبل أن تصله هذه الأخبار المؤلمة.

وفي يوم الأربعاء أول آب (أغسطس) لعام ١٧٦٤ ظهرت ثلاث أخبار تحت عنوان بارز: «أخبار متنوعة»، في إحدى الصحف الدنماركية. كان أول هذه الأخبار وآخرها قصيرين، وكان مضمون الخبر الأول، أن صاحب الجلالة قد ترك المدينة مرة ثانية إلى برجتفد، وتضمن الخبر الأخير جملة واحدة: «هرب رجل من المدينة بسبب الديون»، وبين هذين الحدثين الداخليين القصيرين نُشر الموضوع الإخباري التالي الأكثر تفصيلاً:

«من سوء طالع محبي العلوم والأبحاث القيمة، أن يعرفوا بأن البعثة التي أرسلها إلى العربية السعيدة، صاحب الجلالة بعناية فائقة وتكاليف باهظة، وأعدّها وجهزها بطريقة تدعو للإعجاب، المستشار ميشاليس الشهير، بعد أن تجولت في أنحاء العربية السعيدة لثمانية أشهر واكتشفت كل مكان، باذلة أقصى ما يمكن من الجهود، وجمعت كل الأشياء الرائعة، قاست – بإرادة الله – مصيراً مؤلماً، فقد وقع أفرادها الوحد تلو الآخر فريسة

الأمراض، التي كان بعضها خطيراً، وأخيراً اختطف الموت ثلاثة منهم، هم: البروفسور فون هافن في ٢٥ أيار (مايو) والبروفسور فورسكال في ١١ تموز (يوليو) العام الماضي، كما اختطف الموت أيضاً الفنان بورنفانيد، وبعده مات الخادم السويدي المرافق لهم، وظل اثنان على قيد الحياة. ولم يكن أمام الملازم المهندس نيبور والدكتور كرامر من أجل إنقاذ حياتهما إلا مغادرة البلاد دون تأخير في ٢٣ من آب (أغسطس) السنة الماضية، من (المخاء) إلى بومباي) في الهند الشرقية».

حين نُشر هذا الخبر كانت القصة غير كاملة، ففي أثناء ذلك كانت قد حدثت وفاة أخرى لعضو آخر من أعضاء البعثة. لقد نُفذت الرحلة حسب الخطة الموضوعة لها ولم تذهب كل تضحياتها سدى، لكن سؤالاً واحداً ظل دون جواب، ذلك هو السؤال الذي وضعه فورسكال في أول يوم للرحلة، حين سأل نفسه في مذكرته: «لماذا كان ولا بد من أن تدعى هذه البلاد بالعربية السعيدة؟».

ليس من سبب يدعونا لاستغراب هذا الاسم، فقد سمِّيت بهذا الاسم لأنها كانت البلد الغني الوحيد على الأرض، وتشهد بهذا جميع رسائلهم ومذكراتهم وقد أعلن فون هافن أنه سيمكث فيها عامين، ثم مات بعد ثلاثة أشهر، وفورسكال قال عنها أنها بشَّرته بأعظم الاكتشافات العلمية المثيرة للإعجاب، وبعد ثلاثة أشهر سيق إلى حتفه بمدينة يريم، وبعد ستة أشهر فقط من وصولهم إلى اللُّحية تأكد لنيبور في صنعاء، أن إصرار من تبقى منهم على قيد الحياة، على البقاء باليمن السعيدة معناه الموت. ومع كل هذا فإن الإجابة على السؤال كانت قريبة المنال، ولو أن فون هافن حاول بذل الجهود ومواجهة الصعاب لكان في إمكانه أن يجد الجواب، ليس لأنه كان ولوعاً بالشعر، ولكن لأنه كان عالم لغات.



إن الغموض في سبب التسمية قائم على سوء الفهم. إن تسمية البلاد بـ «العربية السعيدة» كانت غلطة في الترجمة. إن الكلمة الصغيرة «يمن» هي الاسم الآخر لهذه البلاد، في عصرنا هذا. وهذا الاسم الآخر هو المتسبب الحقيقي، ففي اللغة العربية، عنت كلمة «يمن» في الأصل: اليد اليمنى. ولكن حين يريد العرب تحديد زوايا الأرض الأربع فقد واجهوا دائماً الشرق، مثلنا تماماً حين نجد في أوروبا أن من الطبيعي أن يواجهنا الشمال، ونتيجة لذلك فإن كلمة: يمن، التي كانت تعني أصلاً «يمين» أصبحت تعني أيضاً «جنوب». ومن المعروف أن العرب ينظرون إلى الجانب الأيمن على أنه مركز أعلى من الجانب الأيسر، حتى أن الأخير يقال عنه اليوم، أنه قذر، وينظر إليه نظرة واطية، بينما كلمة «يمين» أو «يمن» أصبحت تعني محظوظ، أو مفيد، فأصبحت (العربية اليمن Arabia Yemen) تدعى في اللغة اللاتينية، مع تحريف في الترجمة (Arabia Felix) أي العربية السعيدة، كذلك في اللغة اليونانية (Eudaimon Arabia)، وفي الأفرنسية (I'Arabie Heureuse)، وفي الألمانية (Das Gluckliche Arabien)، وفي الحقيقة، هذه الكلمات تعني: جنوب الجزيرة العربية.

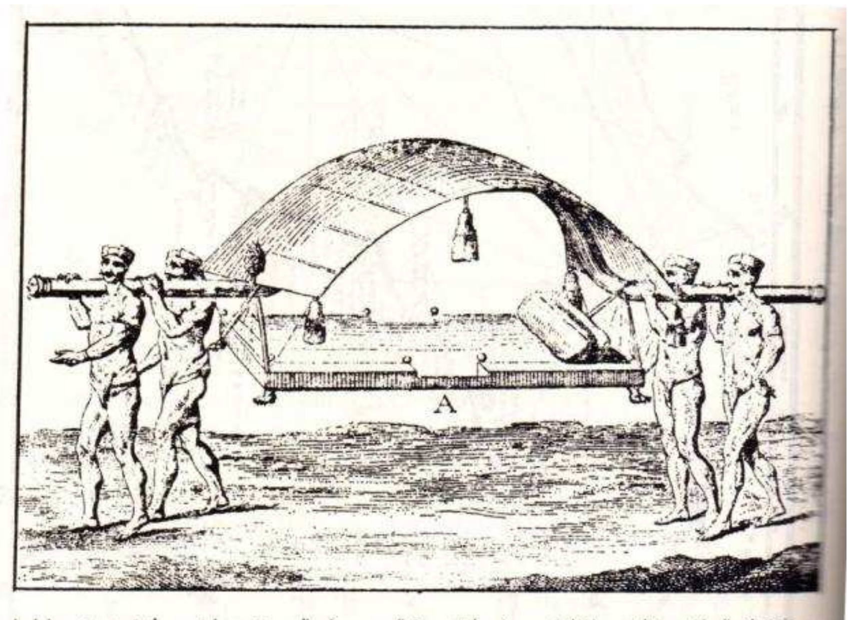
لم يكن كرستن نيبور يعرف هذا، ولكنه لم يستخدم أبداً مرة ثانية التعبير الوصفي: العربية السعيدة، بل كان يدعو هذه البلاد اليمن. فبعد تجاربه لا يمكن أبداً أن تكون هذه البلاد في نظره أرض السعادة على هذه الأرض، لكنه لم يكتب شيئاً عن هذا في مذكراته بل كتب: «أرجو أن لا تثبط تجربتنا المؤلمة الملكيات في أوروبا عن مساندة رحلات مماثلة في المستقبل، وأن لا تكون سبباً في تقاعس العلماء عن القيام بمثل هذه الرحلات. لو أننا فقط احترسنا أكثر من أمراض البرد، ولو أننا أيضاً منذ البداية حاولنا أن نعيش متلائمين أكثر مع العادات الشرقية، ولو أن أعضاء البعثة كان لديهم شفقة أكبر بعض الشيء لبعضهم البعض، ولم يملأوا الرحلة بالمنازعات وتثبيط الهمم، لكان من المحتمل أننا جميعاً عدنا إلى أوروبا بسعادة».

حين استخدم نيبور كلمة: بسعادة، كان لها وقع مختلف، فلم يكن يؤمن بالجمل كما لم يكن يؤمن باليمن السعيدة.

أما بالنسبة لفورسكال وفون هافن، فلا شك أنهما آمنا باليمن السعيدة حتى لو لم تكن البلاد التي كانا يتصوراها، فقد كانت تعني بالنسبة لفورسكال فرصة لتحقيق انتصارات علمية جديدة، وشهرة وتكريم، وتأمين معاش طول الحياة من ملك الدنمارك، وبالنسبة لفون هافن كانت تعني: المال.. مبلغ كبير من المال. وبين هذين الرجلين وقف ابن فلاح الأراضي المنخفضة، وقف نيبور الذي لم يكن لا بروفسوراً ولا دكتوراً، كما لم يرغب أن يكون رئيساً للعبثة.. فقد كان لا شيء، لكن حين خرجت من اليمن السعيدة البقايا الحزينة للبعثة، كان هو الرجل الوحيد الذي لايزال واقفاً على قدميه.



القسم السابع



...وفاة فنان البعثة بورنفانيد ، اخذ نيبور على عاتقه مهمة الرسم ، هذه الصورة رسمها نيبور لمحفة هندية وحامليها



خريطة نيبور للخليج الفارسي «الصحيح العربي. (المترجم)»



الفصل الأول

عودة كارستن نيبور ووفاة كرامر في الهند

الصيف في المحيط الهندي – الوصول إلى بومباي – وفاة كرامر – الإنكليز في بومباي – نيبور يجد نفسه وحيداً – هل زار نيبور الصين؟ – نيبور يقع فريسة علة إنكليزية – الهندوس في رأي نيبور – الموتى للنسور.

في المحيط الهندي يدوم الصيف طول العام، ومن وقت لآخر، تهبط الأمطار الاستوائية، عمودياً، فجأة وبعنف، على البحر المؤدي للخمول، وهذا يعطي الانطباع أن مشيئة الله ، أو شيئاً ما غيرها، قد خلقت تلك الفكرة المجنونة، القائلة بغسل المحيط، الغسل الذي يندر أن يدوم أكثر من ساعات قليلة، بعده تختفي السحُب، وتعود السماء إلى لونها الأزرق التركي الثابت.

ويُرى قطيع من السمك الطائر، في حجم سمك الرنكة[1] تقريباً، يتلألأ على طول جوانب السفينة، كأنه حفنة من العملات المعدنية رُميت في البحر.

وتدوم الشمس اثني عشر ساعة يعقبها الليل اثني عشر ساعة، وفي كل يوم، وفي وقت محدد من كل مساء، يغرق النهار في بركة من الدماء في مؤخرة الباخرة، والشفق هناك لا وجود له، ففي لحظات سريعة يخيم السواد الحال، ولم يرسل القمر مرة واحدة أشعته في رحلة عبر المحيط لأنه في السمت، وعلى المرء أن يقف ورأسه إلى الخلف كي يرى ذلك الوجه الثمل المغرور، في شكله الكامل معلقاً هناك في الأعالي، بينما نجما الشعرى اليمانية والجوزاء يدوران حوله في وقار. ومن جديد يعود الصيف في اليوم التالي، وتحت أقدام البحارة العارية، تحترق الألواح الخشبية لسطح السفينة، ويدمع من حافاتها القار، وتمنح الريح الموسمية المنظر الرتيب بعض التغيير، مع أنها تهبّ على وتيرة واحدة، فهي

(١) سمك من نوع السردين. (المترجم)



تهبّ من الجنوب الغربي لفترة نصف عام، وتهبّ من الشمال الشرقي طوال النصف الثاني من العام، وتهبّ وحيدة ذهاباً وإياباً بين آسيا وإفريقيا، بينما كل شيء هادئ. وبالرغم من أن الصيف طوال السنة في المحيط الهندي، فإن الرياح الموسمية تمرّ فوقه، دون ملاحظة، فهي دائماً متحركة، والسعادة حيث لا توجد.

وحين رفع الكابتن جون مارتن المرساة، مغادرين المخاء في شهر آب (أغسطس)، لم يكن قد انتهى بعد الفصل الذي تهب فيه الرياح الموسمية الآتية من الجنوب الغربي، وساعده في الإبحار شرقاً إلى الهند نسيم خفيف، اعتمد عليه يهب في مؤخرة عرض السفينة الأعظم، ولم يكن قد تبقى من قوة الرياح الموسمية في هذه المنطقة إلا القليل، فقد وصل معظمها، منذ زمن طويل إلى قارة آسيا حيث بدأت تتوق للعودة. وتوقّف الكابتن في رحلته مرات عديدة ولم يصل (بومباي) إلا بعد ثلاثة أسابيع، في الحادي عشر من شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٧٦٣، ومعه ٢٥٠,٠٠٠ سبيسيدالر، واثني عشر صندوقاً من مخلفات البعثة، ورجلين بائسين إلى درجة مميتة، يدعى أحدهما كارستن نيبور، ويدعى الثاني كارل كرستيان كرامر.

ومع الإنكليز في (بومباي) وجد الرجلان المريضان نفسيهما يعيشان في ظل ظروف معيشية منتظمة، استطاعت الحروب الاستعمارية مع فرنسا، التي انتهت منذ عهد قريب، أن تصدرها أبعد زوايا العالم، تماماً كما صدرت، ضمن ما صدرته، لعبة الهوست[1] والويسكي. واستطاع نيبور وكرامر مرة أخرى أن يلبسا الملابس الأوروبية، لأول مرة منذ أن كانا في القسطنطينية، وقد أُعطيا منزلاً مريحاً، واعتنى بصحتهما طبيب إنكليزي قدير، ودبَّر نيبور الاتصال بتاجر أوروبي في كلكتا، وأرسل صناديق فورسكال القيِّمة عن طريق هذه المدينة إلى ترنكبار، واستطاع بهذه الطريقة حلّ المشكلة المزعجة.

(١) ضرب من لعب ورق الشدة. (المترجم)

كان الطقس في (بومباي) منعشاً وبارداً، بالمقارنة إلى الحرارة الفظيعة في المخاء. وعلى مياهها كانت ترسو عدة سفن ضخمة على استعداد لحملهم إلى لندن، حين تعود الرياح الموسمية، وبدا لهما أن كل شيء يسير على ما يرام، لكن الأمور لم تكن تسير وفق خطة موضوعة، فقد وصلهم العون متأخراً جداً، قرب نهاية عام ١٧٦٣. وحين كانت الرياح الموسمية لا زالت تهب نحو إفريقيا، كان كرامر في حالة من التعاسة لا يمكن معها التفكير في الرحيل. ومات كرامر، آخر رفيق لنيبور في مطلع السنة الجديدة في العاشر من شباط (فبراير) سنة ١٧٦٤.

وليس لدينا أية تفاصيل عن موته، كل ما كتبه نيبور في مذكرته أن كرامر اضطر، في ذلك اليوم، لمغادرة (هذه الدنيا الفانية)، ولم يضف في هذه المناسبة أية كلمة ذكرى، كما فعل حين توفي الآخرون، ولا يعزى هذا بالضرورة إلى أي تردد، لأنه – ببساطة – لا يوجد ما يقال عن المتوفى.

نحن نعرف أن العلاقات بين الرجلين لم تكن، في نهاية الأمر، منسجمة كثيراً، وقد ذكر نيبور في رسالة له إلى فون جاهلر كيف أن كرامر كان يصرّ على أن يخاطبه نيبور بالسيد الدكتور، وكيف أنهما قررا، مرة، أن يعود كل منهما إلى الوطن منفرداً.

وعلي أي حال لأهمية هذه التفصيلات حدود في الحكم على كرامر، فهي لا تدلّ أكثر من أن الموقف كان متوتراً، بعد أن أبحرت سفينة بعد أخرى إلى لندن، دون أن يكون في استطاعتهما الرحيل، وكان موقفهما مثيراً للأعصاب إلى درجة كبيرة، ولا بد أن نيبور كان يعيش أقل أيامه ارتياحاً، وقد كشف لنا جلمة أخرى في رسالته إلى فون جاهلر الأمر أكثر فأكثر، ذكر نيبور:

«ليس ضاراً في شيء أن تطلبوا رؤية مذكرات السيد الدكتور، فمن الجائز أنه قد اكتشف شيئاً مهماً».



هذه الملاحظة البريئة في ظاهرها قد شوَّهها التهكم، لأن نيبور كان يعرف جيداً أن كرامر لم يخلف وراءه كلمة واحدة، فطوال الرحلة كلها من كوبنهاجن إلى بومباي، لم يكتب ذلك الشخص الغامض، لا رسالة واحدة، ولا ملاحظة واحدة، ولا توجد كلمة واحدة بخط كرامر في كل كوم الوثائق الموجودة في إرشيف الدولة الخاص بالرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، ولولا أننا وجدنا أمضاءه في بعض الرسائل التي أرسلها الآخرون، لخالجنا الشك في وجوده بالبعثة، ورسالته الوحيدة إلى الأجيال اللاحقة ما هي إلا القليل من كلمات النصح في العناية بطائر الكنار. هذه الحقيقة في حد ذاتها ملفتة للنظر، وأكثر الأمور دلالة يمكن أن نقوله عن هذا الدنماركي الصامت، الذي مات ببومباي في الثانية والثلاثين من عمره، هو أنه لا شيء يمكن أن يقال عنه، فهو إما أن يكون نصيراً لمبدأ: العيش فن، وإما أن يكون مجنوناً.

ولم يبقَ على قيد الحياة من الرجال الستة الذين غادروا كوبنهاجن قبل أربع سنوات إلا كارستن نيبور جاء في مذكراته:

«لم يبقَ من أعضاء بعثتنا، القوية برجالها، إلا أنا، وحين أفكر في رحلة العودة المفروضة عن طريق مدينة البصرة، وعبر تركيا، أتوقع، على الأقل، مواجهة صعوبات كثيرة مثل تلك التي قاسينا خلال رحلتنا من مصر إلى بومباي، ولهذا فأملي ضعيف في أن أرى أوروبا مرة أخرى، وعلى أي حال ليكن ما يكون. ومحاولتي لاستعادة صحتي، أهم من كل شيء، فلو مت فإن وصول أوراقي يوماً ما إلى أوروبا مشكوك فيه».

وهذا معناه أن نيبور، عوضاً عن أن يغامر بحياته بالسفر على اليابسة، فضل أن يحاول تحسين صحته ليستطع تنفيذ الخطة الأولى في السفر بحراً إلى لندن، وعلي أي حال، حين مات كرامر، استبعدت هذه الفكرة مؤقتاً، لأن الريح الموسمية كانت قد أكملت رحلتها إلى إفريقيا، وأصبحت تهبّ في اتجاه آسيا، فأصبح في غير الإمكان لستة أشهر أخرى السفر

إلى لندن على ظهر سفينة، ولهذ اضطر نيبور إلى البقاء في بومباي، وفي شهر آذار (مارس) شعر بتحسن في صحته، فزار الميناء الكبير سورات، حيث قام بدراسة تجارة المدينة ووصف الاحتفالات العظيمة بمواكب الفيلة والمحفات في الشوارع وعاد بعد هذه الزيارة إلى بومباي، ومرة أخرى غير خططه وقرر الذهاب إلى الصين وحجز مكاناً على إحدى السفن، لكن الحمى هاجمته بشدة، فأبحرت السفينة إلى الصين دون أن يكون عليها، واستطاع هذه المرة أيضاً أن يصد الهجوم لكنه قرر أن يغير أسلوب حياته تغييراً كاملاً فلم يتناول من الطعام لمدة ستة أشهر إلا الأرز والماء وقليل من الفواكه وحاول بحزم ونظام أن يتخذ لنفسه بعض العادات الحسنة، وهذا، على أي حال، لا يعني أنه تباطأ في عمله على أي وجه كان.

وفي الأشهر التالية، وضع دراسته عن بومبي، فوصف الموقع الجغرافي للمدينة، وتاريخها، ونظام حكمها، وطقسها، وديانتها، ونظام الطوئف الاجتماعية لدى الهندوس، ودرس حروف الهجاء الهندية، ونظام التقويم الهندي، وقام برحلتين إلى جزء (الفيل)، حيث كتب وصفاً تفصيلياً عن المعابد، وأضاف إلى هذا الوصف ثمان صور منقولة، لأنه اضطر في غياب بورنفانيد أن ينسخ بنفسه النقوش والأعمدة.

وقد أجب على الأخص بالهندوس الذي كان أسلوبهم الاقتصادي في المعيشة، غير الفضولي، يقترب من أسلوب الحياة المثالية لديه، وأنهى وصفه للهندوس بهذا التفكير المبتدع:

«نحن نميل في تفكيرنا إلى تسميتهم بالوثنيين الهمج، وهذا يدل على أن آرائنا عنهم ليست نبيلة، ولكن، من واتته الفرصة لمعرفتهم معرفة حقة سيجدهم رقيقين، وأمناء، ومجدّين. ولعلهم الشعب الوحيد بين الشعوب جمعاء، الذي أفراده أقل تسبباً في الإضرار ببعضهم البعض».



وفي بومبي، تعرف، أولاً، على الطبقة العالية المحترمة من البارسيين (Barsees)[١]، وهم ما تبقى من السكان الإيرانيين الذين رفضوا الخضوع للإسلام وواصلوا ممارسة المعتقدات الزرادشتية، فطُردوا من البلاد، حين تغلب العرب على أسرة الـ(Sassanid) في عام ٦٥٢ ميلادية.

ووصف لنا نيبور عاداتهم الغريبة في دفن موتاهم، فذكر أنهم يضعونهم في قلاع مرتفعة لتلتهمهم النسور، ويمكن مشاهدة هذه العادة حتى يومنا هذا في المدن الإيرانية المنعزلة، وبالقرب من بومبي توجد إحدى هذه القلاع، وجدها نيبور مقفلة حين ذهب إلى هناك لمشاهدة الأمور عن كثب، وقد كتب ملاحظته التفسيرية التالية:

«توفت فتاة شابة جميلة فجأة ودفنت هناك، ويقال أن حبيبها قام بزيارة أخيرة لها بالمقبرة».

غرق نيبور في عمله، حتى وفاه خريف ١٧٦٤، وشعر أن صحته بدأت تتحسن، وبالإضافة إلى عمله الروتيني في جمع المعلومات، وجد أيضاً الوقت والصحة ليعلِّم نفسه اللغة الإنكليزية، وقد تأثر بحكم الإنكليز لمدينة بومبي، وهو، شخصياً، مدين بحياته لكرم ضيافتهم، وكل هذا سبب له الإصابة بالمرض المسمى: الهوس الإنكليزي (Anglomania)[٢] الذي لازمه دائماً بشكل مخيف. وبتحسن صحته أخذت رغبته في السفر تتزايد، وتخلى أخيراً عن خطته السابقة في السفر إلى الوطن مباشرة عن طريق لندن، وأراد تنفيذ الخطة الأصلية التي جاءت في توجيهات برنستورف، في السفر براً.

وقرر أن يرسل على السفينة المتجهة إلى لندن مخطوطات فون هافن وفورسكال ورسوم بورنفانيد والجزء الأعظم من مذكراته الخاصة، حتى لا تضيع جهود البعثة، إذا

---

(١) البارسي، هو الزرادشتي المنحدر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومبي وغيرها. (المترجم)

(٢) الهوس الإنكليزي: التعلق المفرط بالمؤسسات والعادات الإنكليزية واحترامها، أو محاكاتها. (المترجم)



مات أو سرق في طريق العودة، وأطلع فون جاهلر على خطته حتى يكون في استطاعة السفير تدبير بعض المال، يكون في انتظاره إذا وصل البصرة، واشترى في الأخير عبداً أسوداً في السادسة عشر من عمره، ليحل محل برجرن ويساعده أثناء مرضه، تحدث عنه نيبور بقوله:

«وُلد هذا الغلام من أبوين أفريقيين معتنقين للكاثوليكية وسمحت له أن يدرس الديانة المسيحية على يد قسيس كاثوليكي، فقد قصدت، أول الأمر، أن أصحبه معي إلى الصين، ثم إلى الوطن.. الدنمارك، ولكني حين قررت أخيراً الذهاب عن طريق البصرة، قررت بدلاً عن ذلك، أن أهبه حريته ببومبي، خوفاً من أن يأخذه المسلمون مني، فلم يكن من المعتاد بتركيا أن يكون للأوروبيين عبيد، ويمكن أن يقال أني أردت أن آخذ معي إلى أوروبا ولداً لأبوين مسلمين لأجعل منه مسيحي».

وبدلاً عن هذا الغلام استخدم نيبور خادماً دنماركياً، أتى من ترنكبار، لم يذكر اسمه، وأبحرا معاً على ظهر سفينة إنكليزية حربية، تملكها شركة الهند الشرقية، متجهة إلى الغرب، نحو ميناء مسقط في الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وكان ذلك في الثامن من شهر كانون الأول (ديسمبر) لعام ١٧٦٤، حين بدأ نيبور رحلته الطويلة التي ستوصله إلى الوطن، إذا سارت الأمور سيراً حسناً.



آثار برسيبوليس.. (رسم نيبور)

Tab. XXIV.

A B C D E F G

نسخ من كتابات نقلها نيبور في برسيبوليس .. في اسفل هذه النسخ اكمل (راسمس راسك) الحروف الهجائية المسمارية

الفصل الثاني
من مسقط إلى فارس

على البعثة أن تجيب على ١٠٠ سؤال – مسقط – البحرين – بوشاير وشيراز.. وعاصمة فارس – المبيت في العراء – النساء والتدفئة – حاكم يقطع الرؤوس – الإسكندر يحرق القصر الملكي – نيبور يفقد بصره – اكتشاف أسرار الكتابة المسمارية ورسم ما لا يقل عن ٣٩ لوحة.

في الوقت الذي كانت فيه البعثة الدنماريكة تُنظِّم، كان على البروفسور ميشاليس بكونتجن أن يعدّ قائمة بالأسئلة العلمية التي يجب على أعضاء البعثة محاولة الإجابة عليها أثناء رحلتهم، لكن البعثة غادرت الدنمارك قبل أن تكتمل هذه الأسئلة، فأرسلت أسئلة غير مرتبة إلى فورسكال ونيبور عن طريق الرسائل، واستمر ميشاليس في إنجاز القائمة بشكل كامل، وحين انتهى، حوت هذه القائمة ١٠٠ سؤال، ملأت ستماية صفحة مكتوبة باليد بخط جميل، وأرسل هذا العمل الضخم إلى أعضاء البعثة، لكنه لم يصل إلا إلى نيبور ببومبي.

وقد اهتمت الأسئلة بكل موضوع يمكن تصوُّره، حتى أنها طلبت إحصاء الكلمات العربية التي تعني: فار، ووجد نيبور ضمنها طلباً، لاكتشاف مدى ضعف إضاءة النجوم في الشرق عن النجوم في البلدان الإسكندنافية، وقد بدأ دراسته لهذا الموضوع أثناء سفره من بومبي إلى مسقط.

وكان ينصب آلته الفلكية على ظهر السفينة، حين يكون الطقس هادئاً، وبقياس ارتفاع العديد من النجوم برهن على أن هذه النجوم لا تلمع أقل من تلك، في البلاد الإسكندنافية، والأحرى، العكس. وكان يرتاح، خلال النهار تحت الظل في مقدمة سطح السفينة، مصغياً إلى هسهسة الماء الرتيبة على مقدمة السفينة، ومراقباً الحشود الكبيرة من سمك الدُلفين، وهي تمرح وتلعب في المقدمة.



وليلة عيد الميلاد كانوا يقتربون من شاطئ مسقط، ودخلوا الميناء في الثالث من شهر كانون الثاني (يناير) لعام ١٧٦٥ حين رست السفينة بهم على طول الخط الذي رست فيه سفينة عربية محملة حتى السياج بالبلح، ومدارة جزئياً من قبل المرتزقة الفرنسيين سابقاً، من بقايا الجيوش الاستعمارية المهزومة المشتتة، الذين لاقوا المصير الفظيع، باضطرارهم العمل مع المسلمين. ومن مسقط، استمرت السفينة الحربية الإنجليزية في سيرها شمالاً في الخليج الفارسي دون أن يكون عليها نيبور، فقد ظل بمسقط، لأنه علم أن باخرة إنجليزية أخرى ستصل إلى هناك قريباً من بومبي، ووصلت هذه الباخرة بعد أسبوعين، بعد انتهى من جمع المعلومات التي احتاجها لإكمال تقريره وخريطته. ولأنه كان لا يزال يشعر بضعف في صحته، يمنعه من القيام برحلات إلى داخل البلاد، ولأنه كان أيضاً لا يتوقع وصول بواخر أخرى في القريب العاجل، فقد غادر مسقط في الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) على ظهر السفينة الإنجليزية الجديدة التي أبحرت في طريقها نحو (بوشاير) في إيران، وأصبح نيبور الآن، بعد الطقس الصيفي الهادئ في المحيط الهندي، يواجه في الخليج الفارسي الطقس السريع التقلب، جاء في مذكرته:

«لم أشاهد مطلقاً قبل هذا، تغيّر الرياح بكثرة وبسرعة كما شاهدت في هذه الرحلة، فتكون هادئة للحظة واحدة، ثم تصبح عاصفة شديدة في اللحظة التالية، وتغيّر اتجاهها في الغالب إلى اتجاه معاكس لاتجاهها السابق».

وأدخل نيبور في مذكرته الوصف التالي لجزر البحرين و(Failaka):

«يقال أن جزيرة البحرين كانت في العصور القديمة مكتظة بالسكان، لدرجة أن في استطاعتنا أن نحصي فيها آثار ٣٦٥ مدينة وقرية، أما الآن، فلا يوجد بها إلا مدينة واحدة، بها قليل من القلاع، وحوالي خمسين قرية، أغلبها في حالة بائسة، هُجرت تدريجياً خلال الحروب الكثيرة التي شنها الأجانب على الجزيرة بغرض احتلالها، وعلى أي حال، لا تزال

الجزيرة مشهورة باستخراج اللؤلؤ، وسكان البحرين جميعهم (Shittes) ولغتهم العربية، وقد أكد لي أناس عديدون أن على مسافة قليلة من الشاطئ، وعلى عمق قامتين[1]، يوجد نبع لمياه صافية، وأن الصيادين، في الغالب يأخذون من هذا النبع ماء الشرب، بالقفز إلى قعر البحر وملء القرب. وإلى الشمال توجد عدة جزر صغيرة غير آهلة وتوجد على بُعد ليس بكثير عن مدينة الكويت جزيرة الـ(Feludsje)، وأغلب سكانها أتوا من البحرين، وفي معيشتهم يعتمدون، في الغالب، على صيد اللؤلؤ».

وعبّر نيبور في مذكرته عن أسفه لأن صحته لم تسمح له بالقيام بعمل دراسات على الطبيعة في هذه المناطق، كما عبّر عن أمله بقوله:

«في استطاعتي أن أدع هذا لمن يأتي بعدي». وقد تحقق ذلك.

وبوصفه لهذه المجموعة من الجزر انتهت المرحلة الأولى من رحلته عبر الخليج.

وفي مساء اليوم الرابع من شهر شباط (فبراير) لعام ١٧٦٥، وصل نيبور إلى بوشاير، ميناء شيراز، وعلم أن قافلة بغال ستُعدّ لتأخذ طريقها عبر التلال الكلسية إلى شيراز، ومن هناك لا تستغرق الرحلة إلا يومين اثنين إلى آثار بيرسيبوليس (Persepolis) الشهيرة، فقرر أن يغتنم الفرصة ويرحل مع هذه القافلة، وقبل الرحيل فصل عن خدمته الخادم الدنماركي، لأنه كان غير مرض وسوف لا يقوى على تحمل أعباء العمل الشاق الذي كان ينتظرهم، وبدلاً عنه استخدم خادماً مسلماً من بوشاير.

كانت المجموعة الصغيرة التي غادرت الميناء إلى الداخل، رثّة الملابس، وباستطاعتنا القول على سبيل الحصر أن هذه القافلة تألفت من تجار صغار ولاجئين أرمن، كانوا يبحثون عن ملجأ من الحرب الأهلية، ولم يكن في هذه القافلة، على امتدادها، إلا جمل واحد، وأغلبها من الحمير والبغال، وكان نيبور هو الوحيد الراكب على حصان، وحتى يتلاءم مع الآخرين تظاهر بأنه إنكليزي.

---

(١) القامة، مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام. (المترجم)



ومنذ أن كان في بومباي، استمر في لبس الملابس الأوروبية، لكنه كان غير مرتاح لها، فالسروال الضيق كان يضايقه حين الركوب، والملابس الفاخرة غير المألوفة كانت تلفت الأنظار، وكان الناس يناقشون أي حركة منه مهما كانت عادية.

وبعد رحيل دام يومين وصلت القافلة بمنظرها المتنافر، إلى الجبال، حيث كانت الطرقات أكثر سوءاً من تلك التي قاسى منها نيبور باليمن، وفي بعض الممرات بين الصخور، كانوا يضطرون إلى إنزال حمولة الحمير، حتى يكون في مقدورها المرور، وكثيراً ما شاهدوا في طريقهم هياكل لحمير هلكت بسبب ما لاقته من عذاب.

وقد لاقى أحد حميرهم هذا المصير القاسي، ولاحظ نيبور كيف أن صاحب هذا الحمار سلخ جلده في الحال، قام ببيعه إلى رفاقه الذين صنعوا منه على الفور في نفس المكان أحذية لهم، مكّنتهم من الإسراع في السير، وأصبح الطقس في أعلى الجبال أكثر برودة، وبات المطر يسقط كل يوم، وكان نيبور لسوء حظه قد ترك خيمته في بوشاير حتى لا يظهر بمظهر الغني، لأن جميع المسافرين من الفقراء، وكانوا ينامون مساء في العراء مبللة ثيابهم من الأمطار، متوقعين أن ينزل فوقهم المطر أثناء الليل أيضاً.

بعد ثمانية أيام من المبيت في العراء، استأجر نيبور بيتاً وأصح في استطاعته المبيت في جو مأمون وغير مبلل، وقد دعا بعض الأرمن لمشاركته الراحة في هذا المنزل، ثم جاء بعض النساء والأطفال فسمح لهم بالجلوس في الداخل بالقرب من الباب، وغاب عن المنزل بعض اللحظات، وحين عاد وجد أن الرجال قد تبادلوا أماكنهم بالقرب من النار مع النساء، اللاتي تجمعن حولها، وشعر أن من غير اللائق أن يأخذ مكانه بينهن، كما أن طرده لهن سيكون محرجاً، فلم يجد أمامه من سبيل إلا إشعال النار في ركن آخر من أركان الغرفة، لكن الدخان تكاثر إلى درجة غير محتملة، وكل ما استطاع بعدئذ عمله، هو البقاء خارج المنزل ينتظر في صبر بينما تتدفأ النسوة ويجففن ثيابهن بناره.

وبعد أن غادرن المنزل هبَّت عاصفة مخيفة، حملت معها الثلوج والبرد والمطر، ولم يكن للنوافذ زجاج، فتسرب الماء من جوانب السقف، فكان نيبور طوال الليل يجر فراشه من مكان إلى آخر، دون أن يكون في استطاعته أن يجد مكاناً لم يصله البلل، وفجأة سمع انهيار مخيف غطى كلية على صوت العاصفة في الخارج، لقد كان المنزل الذي استأجره يقع على منحدر شاهق بالطابق الثاني، وكان حصان نيبور هو الذي أحدث ذلك الانهيار المخيف، فقد سقط من خلال ألواح الأرضية إلى الطابق الأرضي، حيث كان صاحب المنزل ينام ناعماً بالدفء.

وبعد سفر دام ثمانية عشرة يوماً، سرعة أبطأ ثلاث مرات من السرعة التي سارت عليها البعثة في اليمن، وصلت القافلة مدينة شيراز الأسطورية في الرابع من شهر مارس، واستقبل حاكم المدينة نيبور بحفاوة بالغة وأخبره أنه سيقطع رأس كل من يزعجه، وشكى مرة إلى الحاكم جزاراً باعه لحماً فاسداً، فكان عقابه عاجلاً بأن أوقف في السوق لمدة يوم كامل وأذنيه مثبتتين إلى خازوق.

إن نيبور لم يكن أول أوروبي يكتشف القصر الملكي في بير سيبوليس، الذي أحرقه وهدمه الإسكندر بعد انتصاره على الفرس، فقدسبقه إليه الدكتور الألماني (إنجلبرت كامبفر) والمكتشف الإيطالي (بياترو دلافال) والمؤرخ الفرنسي (جان كارن)، ولكن، بالمقارنة، نجد أن دراساتهم بالنسبة إلى دراسات نيبور، لا تعتبر إلا مذكرات موجزة متقطعة، لقد أرونا طرقاً أخرى إلى الآثار، لكن دراساتهم لم يكن لها أي أثر كبير على الاكتشافات اللاحقة في هذا المكان الذي سوف نرى في الحال أنه هو المفتاح الفعلي لتاريخ الفرس، وإلى العلم بتاريخ ولغة الأشوريين في العصر الحاضر، المفتاح الذي كان القدر قد هيأ لنيبور اكتشافه. ومنذ محاولة الإسكندر طمس وإبادة عظمة هذا المكان، كان نيبور أول شخص حاول إعادة بناء هذه العظمة، لقد كانت هذه الآثار، بالنسبة لكارستن نيبور



أعظم تجربة في جوهرة الرحلة. إنه الآن يقترب من المكان نفسه المليء بالمفاجآت ولم تغمض عيناه، في الليلة السابقة لآخر يوم في الرحلة، وعند شروق الشمس وضع السرج على ظهر حماره وسار يقطع الأميال القليلة الأخيرة التي تفصله عن بير سيبوليس.

كان وحيداً مع خادم ومرشد فقط، وكان يقودهما بنفسه عبر المناطق الصخرية المنحدرة وعبر الحقول الخصبة غير المزروعة، وبين الأشجار التي يبدو على مظهرها الحزن والأسف، بسبب الحروب القبلية التي خرَّبت كل هذه المناطق، وأتلفت أجهزة الري التي كانت في السابق تجلب الروي إلى جذور هذه الأشجار.

وحين وصلوا توقف نيبور، فشاهد آثار بيرسيبوليس، وكأنها تتقدم إليه على باطل كف الجبل، ولم يرَ أي أثر لأي إنسان بين آثار قصور ملوك الفرس، وكانت الشمس، وهي في المغيب، تلقي شعاعاً وردياً على الأعمدة الرفيعة التي لا حصر لها، فتجعلها كأنها مازالت ملتهبة بنار الإسكندر.

وحين هبط الظلام، قام نيبور بأول جولة له بين الآثار، فتغلب عليه الحماس، وأخذ في الحال يمعن النظر في الأعمدة وقواعدها وتيجانها، والنقوش البارزة التي لا تزال في حالة جيدة تقريباً، والجدران المغطاة بعلامات كأنها آثار طائر (زقار الرمل) على الشواطئ الرملية، وأصبح لدى نيبور عملاً يكفي لأسابيع كثيرة، ولم يرجع إلى حماره، الذي كان مربوطاً بالقرب من أحد مداخل قصر ملك الفرس، إلا بعد أن هبط الظلام ولم يعد في استطاعته أن يرى شيئاً.

وركب حماره ومشى بالقرب منه خادمه ومرشده حتى وصلوا قرية (مردست)، التي تقع على بُعد ساعة من جنوب الآثار، حيث وجد غرفة في منزل صغير ينزل فيه عادة المسافرون، ولم يكن للسرير أغطية، لكن هذا لم يكن بالأمر المهم، فقد نام تلك الليلة دون



حركة، كأنه جذع شجرة. وعاش نيبور في هذه الغرفة حوالي الشهر، ينهض من نومه عند الشروق، فيضع السرج على حماره وينطلق في اتجاه الآثار حيث يعمل من الثامنة صباحاً حتى الخامسة مساء حين يبدأ الضوء في الخفوت. فمسح المنطقة، ونسخ النقوش البارزة، وقام بدراسات للعديد من الأمور التفصيلية.

وفي سماء فارس الداكنة كانت قمم المرتفعات من حولهم مغطاة بالثلج الساطع، وكان نيبور يجد قاعات القصر الرخامية مغطاة بالمياه المتجمدة التي تذوب ببطء حين ترتفع الشمس في السماء. وقد نشأت بينه وبين الفلاحين في هذه المنطقة علاقات ممتازة، وحين كانوا يستعدون للاحتفال بعيد النيروز، أعطاهم التاريخ الصحيح للاعتدال الربيعي[1]، التاريخ الذي سبق بيومين اثنين اليوم المحدد للعيد حسب العرف لديهم، وقد احتفلوا بالعيد في اليوم الذي حدَّده لهم، اعتماداً منهم على معلومات رجل غريب عنهم.

في بيرسيبوليس التقى نيبور من جديد بالفتيات الشابات اللائي كن يظهرن بين وقت وآخر خلال رحلتهم الطويلة، كما كن في رفقته يذهبن غير مرئيات أنَّى ذهب، ولا يظهرن عليه إلا في المناسبات. هذه المرة كن مجموعة من الفلاحات الشابات، شاهدهن نيبور يأتين نحوه، بعضهن على الحمير، والبعض الآخر على الأقدام، ولم يعرف نيبور فيما إذا كان قصدهن التجوال قليلاً بين الآثار، أو كن يقصدن مشاهدة ذلك الأجنبي العجيب، الذي سمعن أنه كاتب بارع. وكان في استطاعتهن، التأكد من هذه الإشاعة، بعد أن شاهدن الأوراق مبعثرة حوله فوق كتل المرمر، لقد أتين يطلبن من نيبور كتابة بعض النصوص على قطع صغيرة من الورق، يستخدمنها أحجبة لحمايتهن ضد الأمراض والعقم. وتملكه السرور في أن يقدم لهن هذه الخدمة، فترك عمله جانباً، وجلس على

(١) يوجد في اعالم اعتدالان: الربيعي والخريفي، ويعتدل الليل والنهار مرتين في العام، في حوالي ٢١ آذار (مارس) و٢٣ أيلول (سبتمر). (المترجم)

الأرض يكتب بريشته بعض النصوص العربية، وفي استطاعتنا أن نتصوَّر ذلك المنظر اللطيف.. نيبور منحنياً فوق عمله والنساء من حوله، تراقب كل حركة من حركات الريشة بيد، قال نيبور:

«بين هؤلاء القوم المتواضعين، عشت كل لحظة في أمان كما لو كنت في قريتي الأوروبية».

في هذه الفترة كتب نيبور رسالة إلى جاهلر، يطلب فيها مدَّه بالمال، ليواصل رحلته، وذكر في رسالته أنه على استعداد لتنفيذ رغبة صاحب الجلالة، إذا أمره بالذهاب إلى تدمر وبعلبك وإلى جميع الأراضي المقدسة حتى إلى مصر العليا، وإذا لم يكن هناك ارتياح للرحلة الأولى إلى جبل المكاتب، فإن على استعداد للسير وفقاً لتعليمات الملك.

كان كالعادة نهماً في إشباع رغبته في المغامرات، وقد بذل الكثير من الجهود إلى درجة لا تحتمل، وفي هذه المرة، نراه منهك القوى وهو ينقل الكتابات المسمارية التي كانت توجد في أماكن عالية، وكان لا يستطيع رؤيتها إلا حين تسطع الشمس عليها من كل الجوانب، وفي ذلك الوقت، لم يكن للنظارات الشمسية وجود، فكانت الإشعاعات المنعكسة من الرخام تؤذي عينيه. وفي صباح أحد الأيام حين استيقظ من نومه، وجد أنه لم يعد يبصر وبقي في سريره طوال اليوم يعاني العمى الثلجي، توفي خادمه بسبب الطقس غير المحتمل، ولم يخصص نيبور إلا بعض السطور لهذا الحادث، لأنه كان قد اعتاد على رؤية الموت يلتهم الناس من حوله. وأجبره موت خادمه على إعادة النظر في موقفه، فلولا هذا الموت لاستمر فترة أطول بين الآثار، وقد قاسى كثيراً، وصحته أصبحت ضعيفة لا تسمح له بالمزيد من المغامرات، فعاد في السابع من نيسان (إبريل) إلى شيراز، لكنه لم يترك وراءه في برسيبوليس الكثير من العمل غير المنتهي، فخلال الأربعة والعشرين يوماً التي قضاها بين الآثار، كتب تقريراً كاملاً في ثلاثة وأربعين صفحة ووصف لنا فيه موقع

الأبنية وأوجز النظريات عن أغراضها المتعددة ووصف التماثيل والنقوش، وحاول تفسير الأشياء التي تمثلها، وإضافة إلى ذلك فقد رسم ما لا يقل عن تسع وثلاثين لوحة: خرائط للمباني، ومناظر، ورسوم للنقوش والتماثيل، ورسوم لجوانب الأعمدة وقواعدها وتيجانها، وأهم عمل قام به نيبور هو نقله للكتابات المسمارية التي بفضلها لا تزال البعثة الدنماركية تحوز أهمية مستمرة حتى يومنا هذا. وكان قادراً على تكوين حروف أبجدية مسمارية من اثنين وأربعين حرفاً مختلفاً، وكان لدراسته في هذا الشأن أهمية كبرى في مساعدة العلماء من بعده في حل أسرار الكتابة المسمارية.



الفصل الثالث

إلى بغداد

قصيدة لعمر الخيام – دراسات عن البصرة وبغداد – اختفاء نيبور – الوصول إلى الموصل – أهان نفسه بالسفر مع اليهود – حفلة العشاء والأذرع العارية.

اتسع وقت نيبور في شيراز حتى تمَّ شفاؤه من كل أتعابه، وبسبب عدم الاستقرار في البلاد، كانت القوافل تسير إلى بوشاير في أوقات غير منتظمة، وكان أمامه أكثر من شهر ليشفى من التهاب العين الذي سببه له عمله في بيرسيبوليس، ومن أجل القيام ببعض الأبحاث والدراسات في شيراز، كان لا يستطيع الخروج من البيت إلا عند غروب الشمس، بسبب أوجاع عينه، وقد قام بدراسة جبال شيراز المزروعة بالعنب ومائها الوردي وحدائقها الظليلة. وأتى الربيع وفي مثل هذه المناظر جلس ذات مرة رجل كان هو أيضاً كنيبور عالِم فلك ورياضيات لكنه كان، علاوة على ذلك شاعراً، كتب عن الخمر والليلة المظلمة فقال:

يا للأسف!..

كن لا بدّ أن ينتهي الربيع

وتذبل الورود

وصفحات الشعر المعطرة

كان لا بدّ لها أن تُطوى

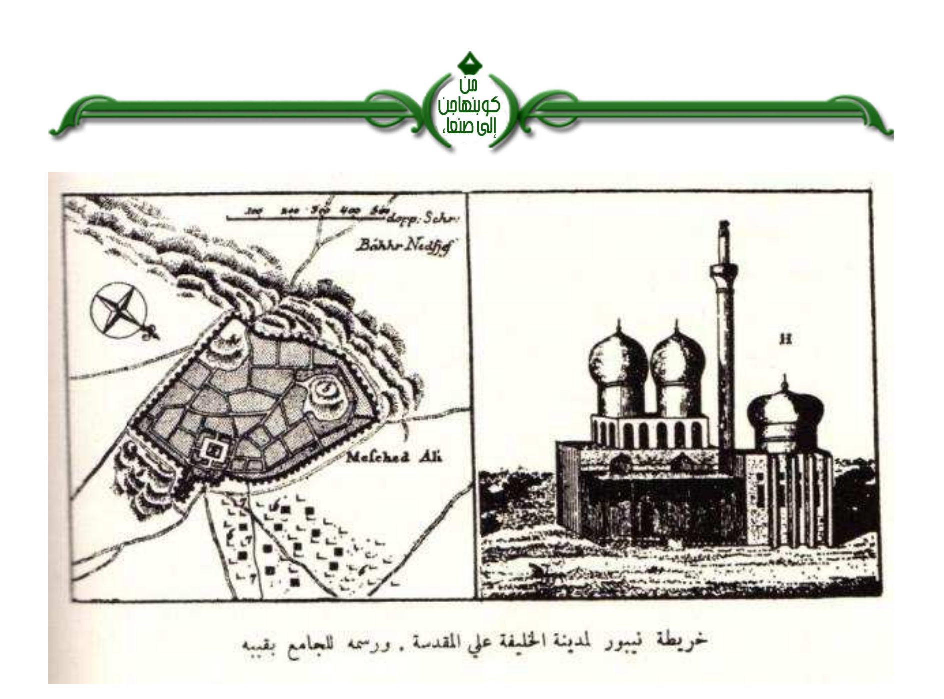
والبلبل الذي كان يغني على الغصون

متى.. وإلى أين يطير ثانية؟..



لم يكن نيبور من المحبين للشعر ولم يأتِ على ذكر عمر الخيام فقد كان مشغولاً بأشياء أخرى، وغادر شيراز غلى بوشاير، ومن بوشاير ركب سفينة ألمانية إلى جزيرة (Kharg)، حيث كان يأمل أن يلحق بإحدى السفن الإنكليزية المتجهة إلى البصرة، لكنه وصل الجزيرة، وقد أبحرت السفينة الإنكليزية قبل ساعة من وصوله واضطر إلى البقاء شهرين في هذه الجزيرة في أشد أوقات الصيف حرارة، وأخيراً في ٣١ تموز (يوليو) استطاع الإبحار على سفينة صغيرة إلى البصرة، وصلت بعد يومين إلى بداية نهر الفرات، حيث بدأت سيرها اللطيف المترف في النهر، بين أشجار البلح الكثيفة، وحاول نيبور كما فعل في مصر معرفة اسم كل قرية مرّوا بها ، وقد حوت خارطته وحدها ما يقل عن اثنين وتسعين قرية في الخليج الفارسي[١] حتى البصرة، وكتب أسماء هذه القرى بالعربية والإفرنجية وكانت البصرة أوسخ مدينة رآها في الشرق، فكان طقسها رطباً لا يحتمل وبالوعاتها تطفح بما فيها في الشوارع، وكانت العربات لا تنقل الرجال الذين سقطوا إلى الأرض صرعى بسبب ضربة الشمس، إلا بعد أن تصبح رائحتهم نتنة لا تطاق، وكانت ملايين الذئاب تُصفِّر وتحوم حول كل هذه الأشياء وتسقط بعدئذ على عيون الناس وشفاههم. بالطبع، لم يكن نيبور في رحلة سياحية، فقد كان العمل في انتظاره دائماً، وفي كل مكان، فكتب تاريخ المدينة الحديث وعمل خارطة معتنى بها للشوارع، وأحصى ما لا يقل عن ثلاث وسبعين منطقة مختلفة، وأعطى أسماءها كتابة بالعربية والإفرنجية. وبعد أن انتهى من هذا ركَّز همه على تجارة المدينة، فأورد خمس وعشرين صنفاً من البلح بأسمائها، ودرس الملاحة في نهر الفرات وكتب عن قلعة المدينة، وما كان في استطاعته إنجاز هذا العمل في يومين أو ثلاثة، فقد أمضى نيبور ما يقرب من أربعة أشهر في هذه المدينة المشؤومة.

(١) الخليج العربي.(المترجم)



خريطة نيبور لمدينة الخليفة علي المقدسة . ورسمه للجامع بقببه

أرقى وأرفع من الشعوب الأخرى. وأصبح برنستورف، خلال هذه الفترة مقتنعاً أن نيبور قد لاقى نفس المصير الذي لاقاه رفاقه، وأسدل على البعثة ستار كثيف من الغموض المحير، لقد اختفى نيبور لكن، بفضل مذكراته أصبح من السهل علينا تتبع رحلته السرية يوماً بعد يوم.

كان نيبور يهدف إلى مواصلة السفر من البصرة إلى حلب في سوريا، وأفضل طريق مستقيمة إلى هناك كانت عبر الصحراء، لكن بسبب عصابات اللصوص المترددة على هذه المناطق، استبدل، مضطراً، هذه الطريق بالسفر عن طريق بغداد. وفي مساء التاسع من شهر كانون الثاني (يناير) وصل بغداد، ووصف لنا البيوت التي ليس لها نوافذ، والأماكن الضيقة التي تجعلها حرارة الشمس كالأفران. وبعد هذا الوصف بدأ مزاولة عمله كالمعتاد، فدرس تاريخ المدينة الحديث، المتضمن قائمة بآخر ثمانية وأربعين باشا، مع تاريخ حكم كل منهم، وخارجة للشوارع والقلاع.



وبعد مرور شهر على عمله هذا، شعر مرة أخرى بأن الموت يقترب منه كثيراً، فقد نُهبت القافلة التي غادرت بغداد إلى دمشق، وكان على وشك السفر معها، ولهذا فقد عدل عن السفر مباشرة إلى دمشق وواصل رحلته إلى الشمال على طول دجلة، وفضَّل هذه الطريق لأنها أكثر أماناً وتمر بعدة مدن كبيرة بدلاً من القرى القليلة في الصحراء بين بغداد ودمشق.

وفي الثامن عشر من آذار (مارس) لعام ١٧٦٦، وصلت القافلة الموصل، ولأول مرة منذ مغادرته البصرة زار نيبور بعض الأوروبيين، لكن الزيارة كانت غير مرضية لدرجة أنه لم يرغب في زيارتهم مرة أخرى. كان قد تقرّب من بعض المبشرين الأوروبيين، وحين أخبرهم بأنه دنماركي وبروتستانتي، وحين علموا أنه قد أهان نفسه بالسفر مع قافلة جميعها من اليهود، أصرّوا على قولهم بأنه وثني، وأغلقوا الباب بشدة في وجهه.

لم يستغرق عمله في الموصل أكثر من ثلاثة أسابيع، وحين وصل إلى علمه أن قافلة كبيرة تُعدّ للرحيل إلى حلب بسوريا عن طريق ماردين (Mrdin)، قرّر مرافقتها رغم أنها ستسير به فقط عبر الصحراء وليس عبر الجبال التي هي أكثر جمالاً، وقام بحصر أدواته في قائمة، تماماً كما فعل، ذات مرة، حين سافر مع القافلة الضخمة من القاهرة. ولم تتغير أدواته كثيراً خلال أربع سنوات من السفر، فمرة أخرى نجده يحمل شنطته الجلدية (القرعة) وبها أدوات الطبخ، من صحون وآنية للماء نحاسية، وصندوقه الخشبي المغطى بالجلد والمليء بالتوابل، وفانوسه السحري، وجلد الثور الذي يستخدمه مرة ككيس وأخرى كمائدة، واعتاد أن يحمل معه القليل من شراب البراندي في قربة من جلد الماعز، وكان يخلطه مع ماء الشرب الذي شك في نظافته، ولم يكن لهذا المزيج طعم مقبول، لكنه مفيد للصحة كما قيل له. والمؤن التي كان يحملها معه لم تتغير كثيراً منذ أن كان في مصر، وهي الأرز والمشمش، وحبوب البن، واللحم المجفف في الشمس، والزبدة السائلة التي

سبّبت لفون هافن، ذات مرة، ألماً شديداً، والطحين ليخبز منه طعاماً طازجاً. وقبل مغادرته المدن الكبيرة، كان دائماً يحاول أن يحصل على مؤونة من خثارة اللبن، وعند الحاجة يقوم بهزّها في شنطة من الجلد، ليصنع الجبنة التي يحتاجها، وكان ينام كما ينام العرب بكامل ملابسهم، وعلّق على هذه بقوله:

«هذا لا يعني أن العرب أقل نظافة من الأوروبيين، فهم يغسلون أنفسهم غالباً أكثر من الأوروبيين».

ويدير شئون القافلة أعظم رجال الأعمال أهمية، ويسمى الواحد منهم: (باشا القافلة)، وهم يقومون بإدارة جميع شؤون القافلة، ويحلون جميع مشاكلها، ويدفعون الضرائب عنها، وبدونهم تسيطر الفوضى على كل شؤون القافلة.

في الطريق، دعا أحد الحكام المحليين بعض الرجال البارزين في القافلة إلى حفلة عشاء، وكان نيبور في عداد المدعوين، وما أن شاهد الحضور الصحون الكثيرة، حتى أخذوا بسرعة خاطفة، يرفعون أكمام قمصانهم الواسعة، حتى أكتافهم، وما أن تمّ وضع جميع الصحون على الأرض، حتى اندفعت الأذرع العارية نحو أكوام الأرز، لتأخذ منه الكمية التي تستطيع إمساكها، وبعجلة كانوا يلحسون السمن السائل من بين أصابعهم حتى أكواعهم.

ووصل نيبور حلب في السادس من شهر حزيران (يونيو) ١٧٦٦، حيث التقى، لأول مرة منذ كان بالبصرة، بأوروبين ودودين، وهنا اختفى عبد الله من القصة، فقد أنهى نيبور تنكره الذي دام ستة أشهر، وكان كما لو كان قد عاد من زيارة للدار الآخرة.

وفي كل مكان ذهب إليه كان يرى الماضي في الحاضر.. في كل شيء في الناس، في المناظر، في الآثار، وفي المتاحف، وسمع في كل مكان عن الكنوز المدفونة والثروات المطمورة.

مدينة القدس كما ترى من جبل الزيتون (رسمها نيبور)



الفصل الرابع

حلب تكرِّم نيبور

الاستقبال العظيم في حلب – زيارة يافا والقدس وبيت لحم وعكا وصيدا ودمشق وطرابلس واللاذقية – مغادرة حلب – الوصول إلى القسطنطينية – الطاعون – نوم ممتع داخل جدار – بوخارست ثم وارسو – الملك البولندي يستقبل نيبور.

الآن، تغيَّر كل شيء، التنكُّر لم يعد له مكان، وسنين الوحدة مضت دون رجعة، وبعد وصول نيبور إلى حلب توجَّه إلى القنصل العام الألماني الذي كان قد أرسل إليه في البصرة رسالة يدعوه فيها النزول ضيفاً بمنزله، وقد استقبله في القنصلية استقبالاً حاراً، وكان اختفاؤه موضوع الحديث دائماً في الأوساط الأوروبية بالشرق الأدنى، كما وكان ظهوره المفاجئ في السادس من حزيران (يونيو)، حدثاً مثيراً، وناقش الناس في حفلات الاستقبال الضخمة التي أقاموها على شرفه، المصير المؤلم الذي عانى منه رفاقه، أما نيبور الذي ظنوه هو أيضاً قد لاقى نفس المصير فقد نجح في القيام برحلة طويلة لوحده، وأصبح بطل الساعة بعد أربع وعشرين ساعة من وصوله حلب، وأخذ الناس يتنافسون في دعوته، فأكسبه السيل الكبير من هذه الدعوات مركزاً مرموقاً ووجد نفسه محاطاً، دائماً، بجمع من الأصدقاء، أنسوه كل المحن التي تعرض لها.

وقد أشارت المراسلات التي وجدها بحلب، من كوبنهاجن أن ملك الدنمارك قرر إعفائه من القيام بالرحلة مرة أخرى إلى جبل المكاتب، ولا يعتبر ذهابه إلى فلسطين ومصر العليا ضرورياً، وبدلاً عن ذلك أبدى الملك رغبته في رجوعه عن طريق قبرص، حتى يقوم بتدقيق ودراسة النقوش التي قيل أن الرجل الإنجليزي بوكوك (Pocock) سبق واكتشفها بالجزيرة واعتُبرت أنها فينيسية.



وورط هذا الطلب نيبور، مرة أخرى في سباق مرهق مع الزمن، ولأنه كان يرغب كثيراً في السفر مع القافلة الكبيرة التي ستغادر حلب إلى القسطنطينية قبل حلول الشتاء القاسي في جبال الأناضول، فقد قرر السفر في الحال إلى هذه الجزيرة. وفي عام ١٧٦٦ كانت هذه الجزيرة في حالة حرب أهلية دامية، لكن نيبور لم يلغ زيارته لهذا السبب وسافر إلى الإسكندرونة ومن هناك ركب سفينة أفرنسية أنزلته في لرنكا (Laranca) بالجزيرة، حيث بدأ في نسخ بعض الكتابات التي أخبر أنها ليست فينيسية، بل أرمنية أكثر حداثة.

لم يستطع نيبور تحمل فكرة أن تذهب جولته هذه سدى، وكان في استطاعته أن يعمل دراسته عن العلاقات المتوترة بين اليونانيين والأتراك في الجزيرة، لكن هذا بدا غير كاف، فقد أراد أن تكون استفادته من الرحلة أكبر، فقرّر الذهاب إلى فلسطين وركب سفينة أفرنسية، رستّ بميناء يافا في الثلاثين من تموز (يوليو)، وخلال يومين دخل مدينة القدس، حيث مكث مع بعض الرهبان الفرنسيسكان. وخلال الأيام التالية، رسم منظراً للمدينة كما شاهده من جبل الزيتون ورتب رحلة إلى بيت لحم ثم عاد إلى يافا بصحبة ستة من الرهبان الفرنسيسكان، وفي اليوم التالي لوصوله وجد مكاناً في مركب صغير خاص بالإبحار على الشواطئ سار به نحو الشمال إلى عكا، ولم يكتف نيبور بهذا، وأراد زيارة دمشق، وفي السادس عشر واصل نيبور سفره مع مركب صغير آخر، إلى صيدا (Sidon) ومن هناك سافر إلى دمشق، وفي العاصمة السورية، أنجز خارطة للمدينة وحدّد موقعها، وفي السابع والعشرين عاد إلى صيدا حيث وجد مركباً، أبحر فيه إلى اللاذقية عن طريق طرابلس ووصل اللاذقية في التاسع والعشرين عند المغيب تقريباً.

ومن هناك سافر إلى حلب، حيث تأكدت له مخاوفه، فقد غادرت القافلة قبل ثمانية أيام إلى القسطنطينية، وأصبح نيبور أمام حلين، أحلاهما مرّ: فهو إما أن يسافر مع القافلة الشتوية أو مع عربة البريد، والأمر الأخير كان أكثر راحة، لكنه لا يقدم إلا فرصاً قليلة

للقيام بالملاحظات الجغرافية، وفضل لهذا السفر مع القافلة مع أن هذا معناه السفر عبر جبال الأناضول خلال أسوأ فترات فصل الشتاء. وأمضى فترة الانتظار بين الطبقات الاجتماعية العليا في حلب وقام بعمل نسخة صحيحة لخريطته وأكمل ما كان ينقص مذكرته من أحداث.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) كانت القافلة متأهبة للرحيل وفي العشرين منه ١٧٦٦ غادرت حلب لتقطع آسيا الصغرى إلى القسطنطينية، وكان البرد شديداً والثلوج كثيرة فكانت القافلة تتقدم ببطء ووصلت كونيا (Konin) في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر)، ولم يكونوا قد قطعوا إلا نصف الطريق، وقد أصبح جميع المسافرين مرهقين جداً، لدرجة أنهم اضطروا للبقاء أسبوعين للراحة في هذه المدينة، ولم تستأنف الرحلة إلا عشية عيد الميلاد لعام ١٧٦٦، وكان دوي العواصف الثلجية في كل مكان وكانت الجمال من وقت لآخر تنزلق على الطرقات المغطاة بالثلوج، وأصبح نيبور مجهداً لدرجة أنه اضطر إلى الانفصال عن القافلة والتوقف في فندق (Brusa).

كان هذا عام ١٧٦٧، وقد انقضى عامان على نقل نيبور للكتابات المسمارية في بيرسيبوليس، وأتى شهر رمضان من جديد، وكان سكان المدينة لا يتناولون طعامهم إلا في الليل مثل كل المسلمين، وأثناء النهار كانت الشوارع مهجورة مما ساعد نيبور على أخذ المقاسات التي يريدها دون إزعاج، ولم يشعر في نفسه بالقوّة الكافية إلا بعد شهر من بقائه في هذه المدينة، فسافر إلى ميناء مودينيا (Mudinia)، حيث ركب سفينة يونانية صغيرة إلى مدينة القسطنطينية ووصلها في السادس عشر من شباط (فبراير).

وكان ممثل صاحب الجلالة ملك الدنمارك، صديقنا القديم فون جاهلر غائباً، حين وصل الرجل الوحيد على قيد الحياة من مجموع أعضاء البعثة الستة، الذين سوّى خلافاتهم قبل ستة أعوام من اليوم. ولم يستقبل نيبور، هنا، مثل ذلك الاستقبال العظيم

الذي استُقبل به في حلب، وفي هذا الوقت كان مرض الدزنتاريا قد أضعفه إلى درجة لم يعد معها قادراً على القيام بأي عمل، ومكث بتركيا أربعة أشهر لاستعادة صحته، كما كان في حاجة للوقت للقيام بالدراسات اللازمة لقوانين البلاد وأنظمتها الإدارية والعسكرية والتجارية. وبالرغم من أن تركيا في ذلك الوقت كانت آخذة في الضعف، إلا أن حدودها كانت لا تزال تمتد إلى أوروبا، ودراسة نيبور الشاملة لهذه البلاد لا بد أنها أخذت في اعتبارها هذا المركز.

في عصرنا هذا، يُنظر إلى هذه الدراسات على أنها مواد معروفة غير جذابة وغير ممتعة، لكنها كانت في ذلك الوقت ذات أهمية كبرى، لأن تركيا كانت تشكل تهديداً كاملاً لبقية أوروبا، وكانت غير معروفة بما فيه الكفاية. وفي بداية الصيف انتهى نيبور نهائياً من عمله، وأصبح في قدرته أن يفكر جدياً في الرجوع إلى وطنه، وكان من المحتمل أن يسلك أحد طرق أربع، إما الإبحار إلى مرسيليا أو جنوة، أو ركوب عربة البريد عن طريق البندقية، أو عن طريق بلغراد وفيينا، أو السفر أيضاً براً عن طريق بوخارست ووارسو. وكانت الوسيلة الأولى بطيئة جداً، والسفر عن طريق البندقية أو فيينا فيه مخاطرة لأن المسافرين من الشرق القادمين إلى البلدان المسيحية كان عليهم أن يقضوا أربعين يوماً في (الكارنتينه)، والطريق الأخير كان أكثرها خطورة بسبب رداءة الطرق، لكنه كان أسرعها جميعاً لأن البولنديين نادراً ما يتمسكون بأنظمة الكارنتينه، كما أن هذا الطريق يمرُّ في مناطق غير معروفة، نسبياً، ولهذا، رفض نيبور السفر بواسطة الطريق المريحة والمأمونة، طريق مرسيليا والبندقية وفيينا، واختار السفر عبر أوروبا الشرقية.

وفي الثامن من حزيران (يونيو) ١٧٦٧ غادر عاصمة تركيا في المرحلة الطويلة والأخيرة، مع قافلة وجهتها مدينة (أدريا نوبل Adrianople)[١]، بالقرب من الحدود الحالية البلغارية، وحين مرّت القافلة عبر بوابات العاصمة شاهد على كل جانب من الطريق رجلاً من قطّاع الطرق مسمَّراً إلى عمود.

(١) مدينة تركية في أوروبا. (المترجم)

وبعد أربعة أيام وصلوا أدريا نوبل حيث لا توجد قوافل كثيرة تسافر إلى الشمال، وكان من المستحيل أن يسافر نيبور وحيداً، لأن العصابات في أوروبا، لم تكتفِ بسرقة الضحية كما يفعل اللصوص في الصحراء العربية، بل كانت، طلباً للأمان تطلق النار على المسافرين من ورائهم.

وواصل نيبور سفره صحبة أحد الموظفين الأتراك، الذي كان يرافقه حرس خاص مؤلف من ستين جندياً مسلحاً تسليحاً جيداً، واجتازوا نهر الدانوب بعد أسبوع من سفرهم، ولم يصلوا بوخارست إلا في الثامن والعشرين من حزيران (يونيو).

وكانت هذه المدينة هي أول مدينة أوروبية حقيقية يراها نيبور في رحلة العودة إلى الوطن، وقد أدهشته فيها جميع الانطباعات العادية، التي تفاجئ العائد إلى وطنه من بلاد الشرق، كأجراس الكنائس عند المغيب، والنساء غير المحجبات، ومركبات وعربات حقيقية.. ألم تكن هذه هي أوروبا؟ لكن رحلة نيبور كانت لا تزال تشبه العودة من طروادة، فقد كان عليه أن يرى أشياء أخرى غير أجراس الكنائس، والمركبات، والنساء الجميلات، لقد كان عليه أن يرى أيضاً، الطاعون، ويرى الناس وهي تسقط صرعى في الشوارع، وصراخ سائقي العربات المرتفع ينذر بالهول، والعربات تسير ملأى بالضحايا الميتة بسبب هذا المرض الخبيث. وقرر نيبور مواصلة السفر، دون اعتبار عدم وجود مرافقين، وفي إحدى القرى نام في غرفة واحدة مع فلاح وزوجته وابنته، فما أن أطفأ الفلاح النور حتى زحفوا ومعهم نيبور إلى أماكن نومهم الموجودة في فجوات في الجدران، فالعلاقات هنا غير معقدة بين الرجل والمرأة.. أليست هذه أوروبا؟

وفي الطريق حُجز في الكرنتينة لمدة ثلاثة أيام لأنه قدم من بوخارست، وحين لحق برفاقه الذين سبقوه في السفر بسبب تأخره في الحجز الصحي، وجد أن ثلاثتهم قد قتلهم قطاع الطرق من اللصوص، وشكر الله على تأخره. وكان عليه أن يسافر وحيداً، وقد هاجمته الحمى من جديد، فكان يضطر بين الفينة والأخرى إلى النزول عن حصانه طلباً للراحة.

ووصل وارسو، واستقبله هناك الملك البولندي (ستانسلوس بونياتوسكي)، وكان هذا الملك عالِماً وأديباً كبيراً، جمع معلومات عن البعثة من المحادثات، وواصل فيما بعد عمله هذا عن طريق الرسائل المتبادلة لعدة سنوات.

ثم واصل نيبور سفره وقطع الحدود الألمانية إلى برسيلو، وبين هذه المدينة وكوبنهاجن كانت توجد خرائط شاملة لهذه المناطق مما جعل نيبور يوقف تسجيلاته ويختتم مذكراته العظيمة التي غطت رحلة استغرقت سبع سنوات تقريباً، كتب خلالها بعناية فائقة عن كل ميل، واستغرق وصفه أكثر من ١٥٠٠ صفحة كبيرة مطبوعة، وواصل رحيله حتى وصل هانوفر، حيث سمع أن عمه قد توفي في غيابه وكان هو وريثه الوحيد، وفي مساء العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٦٧ وصل كرستن نيبور إلى كوبنهاجن.



الفصل الخامس

كوبنهاجن الجاحدة

العودة إلى الوطن – الملك العاشق يكرم نيبور – ظهور أول مؤلف لنيبور – وفاة وزير الخارجية – زواج نيبور – خمسة مؤلفات في عشر سنوات.

يحمل غالبية البشر صورة دائمةً لأماكن طفولتهم تقوى على مرّ الأيام أكثر فأكثر بينما تخبو كل ما عداها من صور وانطباعات، لقد عاد نيبور إلى أماكن طفولته، فهذه هي الأمواج ترسل ضوءها المتلألئ على الشاطئ الأبيض، وهذا هو العشب ساكناً في أيام الصيف الحارة، قد يرحل المرء إلى أطراف الدنيا للبحث عن مثل هذا الأشياء لكن لا يمكن أن يجد ما يشبهها في أي شاطئ آخر في الدنيا، والذين يرحلون إلى أقصى الأرض، لا بدّ لهم يوماً ما أن يتذكروا في شوق، الأرض التي غفلوا عنها، ولا بد أن يحلموا أن تكون نهاية حياتهم في الأرض التي شبُّوا عليها، فالحنين إلى الوطن يجعل جميع الرجال عند الشيخوخة يثرثرون عن العودة إليه. هكذا كان نيبور في السنوات الأخيرة من حياته، فقد وجّه حصانه مرات كثيرة نحو مسقط رأسه. وواجه صعوبات كثيرة في البقاء بكوبنهاجن، كما واجه فيها خيبة أمل مريرة، فلو أنه كان يتوقع ما يشبه ذلك الاستقبال العظيم في حلب فإنه لا بد قد تحرر من هذا الوهم فور وصوله كوبنهاجن، فالجريدة التي سبق ونشرت مقالاً مسهباً عن رحلة البعثة، أعلنت عن وصوله في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) بالخبر القصير التالي:

«في الثامن عشر عاد الملازم نيبور من رحلته في الخارج، وبعد ثلاثة أيام خلت أعمدة الواصلين من أي ذكر للرحلة الغامضة».

ولم تشر هذه الجريدة، مطلقاً، إلى مَن يكون نيبور هذا، فقد استُنفد اهتمام المدينة في أشياء أخرى، ودون شك، لقد استقبل نيبور استقبالاً ودياً من قِبل برنستورف، لكن حين

خبأ السرور الخاطف للقاء الأول، تبين أن صاحب المعالي كان مهتماً بأشياء أخرى أكثر أهمية، لقد تغيَّر كل شيء أثناء غيابه، فالملك توفي في كانون الثاني (يناير) ١٧٦٦ حين كان في بغداد وخلفه على العرش (كرستيان) في السابعة عشر من عمره، وانغمس هذا الملك الصغير في شهوات الشباب، وارتاد مع عشيقته كل مواخير وحانات المدينة، وكان الناس يشاهدون العشيقة في أوقات الانبساط وهي تساعد صاحب الجلالة العاشق في رمي الأثاث من نوافذ القصر! وكان الملك ينفجر ضاحكاً في تصنُّع وبصورة مسيئة في كل مرة يصرف فيها من الخدمة إحدى الشخصيات الكبيرة. هكذا فعل حين طرد مولتك، أما برنستورف فقد استمر طويلاً في عمله، لكنه لم يتعلق بالأوهام والصور الخادعة، فقد رأى الكثير في حياته الطويلة، وكان يعرف أن أبرع الخيّالين قد يواجه كارثة مع حصان شرس.

ولم يثر وصول نيبور أي اهتمام، وكأنه قد وصل من رحلة قصيرة في الدنمارك، وكأن الدنماركيين قد وجدوا أن وصوله لم يكن مناسباً، وبالطبع، كان لا بد من عمل شيء ما، فبدأ الرجال المهمون في الدولة ينفضون الغبار عن قائمة الرتب، فوجدوا أن نيبور مهندس برتبة ملازم، فاقترح أحدهم أن يرقى إلى رتبة (كابتن)، وهي الرتبة التي كان في إمكان نيبور أن يحرزها دون أن يتحرك من معقم باب منزله، لكن الضباط لا يمكن أن يرقّوا إلا درجة واحدة، عدا ترقيات زمن الحرب.

بعد هذه الترقية كان عليهم أن يقدموا الرجل إلى البلاد الملكي، وهذا عمل روتيني كبير، كلف نيبور أن يقضي يوماً كاملاً مع الملك والبروفسور كراتزستن، والشاعر العظيم (Klopstock) وخلال ذلك اللقاء، جاءت لحظة مناسبة من الصمت دعت الملك والبروفسور والشاعر العظيم أن يشيروا إلى الرحلة بأنها لا بدّ كانت ممتعة لدرجة لا تصدق! وتناولوا وجبة طعام مختصرة ثم انتهت الحفلة.

ترك نيبور هذه الأمور تمرّ بسلام، فلديه أعمل أكثر أهمية، وكان أول عمل يقوم به بعد وصوله هو تنظيم حسابات البعثة، ووجد أن الرحلة كلها كلفت الدولة، على وجه التقريب خمسين ألف جنيه استرليني من العملة في الوقت الحاضر. فهل كان هذا المبلغ كثيراً جداً في سبيل العلم والثقافة؟ وهل كان نيبور مسرفاً كأمين للصندوق؟ لقد كلف الدولة تمثال الفنان سالي للملك فردريك الخامس، راكباً على متن جواده، في ميدان املنبرج، ما يقرب من ستة أضعاف ما كلفتها الرحلة كلها، وكانت مصروفات البلاط الملكي في السنة في ذلك الوقت أكثر من ثلاثين ضعف تكاليف الرحلة، كما كان ضمن هذا المبلغ ما يقارب ٢١,٠٠٠ ريجسدالر أمنها برنستورف لنيبور كي يستطيع البدء بنشاط في كتابة الصياغة النهائية لكل المعلومات التي جمعها في رحلته. وكان نيبور متردّداً في كيفية صياغة هذه المعلومات، فقد كانت لغته الأصلية هي لغة المنخفضات الألمانية، ولم يتعلم مطلقاً خلال دراسته القصيرة الكتابة الألمانية الصحيحة، فكتب كتابة الأول في أسلوب علمي جاف، دون زخرفة البتة، واستمر هذا الأسلوب دون تغيير في كتبه اللاحقة. لقد تجنّب التعبير السلس وأتت كتاباته رصينة وواضحة وعلى وتيرة واحدة، ومملة نوعاً ما، بمفرداتها المحدودة، لكنها كانت على أي حال مؤثرة، ليس من الناحية الأدبية ولكن بسبب موضوعها الإنساني، وفي عام ١٧٧٢ ظهر أول أعمال نيبور، عن شبه الجزيرة العربية، مهدي إلى ملك الدنمارك ومتضمناً ٤٣٢ صفحة كبيرة، وجاء فيه بعد المقدمة التي تضمنت الإجابات على أسئلة البروفسور ميشالس، وصف عام للبلاد، ثم حديث عن الطقس والمميزات الوطنية والديانة والنظام القضائي والعلاقات بين الجنسين، وكرم الضيافة، وعادات الطعام، وظروف السكن، والملابس، ونظام تعدّد الزوجات، واللغة وآدابها وأبجديتها، وعلم قياس الوقت، والفلك، والنباتات، والزراعة، وعلوم الطب، وتبع هذا فصول عن المناطق المتعددة كاليمن، وحضرموت، وعُمان، والمشيخات على امتداد الخليج الفارسي، وهجرا (Hajra)، ونجد، والحجاز، وصحراء سيناء.



ودائماً كان يجد نيبور بين يديه اكتشافات جديدة، لكن، لم يحالفه الحظ من البداية، فقد استُقبل الكتاب دون اكتراث، وعالج الموضوعات بتخصص لم يثير الاهتمام، ووجدت إحدى الصحف الألمانية بين صفحاتها متسعاً لنقده نقداً مشيناً، استطاع نيبور دحضه تفصيلاً.

وعلى أمل أن يثير الكتاب اهتماماً أكبر قرر أن يترجمه على نفقته الخاصة إلى اللغة الفرنسية، لكن هذا المشروع سار دون أمل في طريق خاطئ، فقد كانت معلوماته في اللغة الفرنسية بسيطة لم تمكنه في أن تكون لديه كفاءة المترجم، وكانت النتيجة أنه حصل على عمل غير متقن، اضطر إلى التخلص منه بعد نشره بقليل، وفقد بهذا كل شيء، وأخطر من هذا كله أن الأمور خلال هذه الفترة، سارت كما توقّع لها برنستورف، فالحصان الهائج انتزع العنان بقوة من يدي سائق العربة، فأصحبت البلاد تسير بتوجيه أعمى من قِبَل دكتور متجول معتصب من ألتونا (Altona)[1] يدعى (جوهان فردريك ستيرونسي)، وفقد نيبور سنده الوحيد برنستورف، فقد صُرف من وظيفته بعد خدمة عشرين عاماً، في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) ١٧٧٠ مع تعليمات بمغادرته البلاد. وتأكد للوزير في الحال بأنه لا يمكن عمل شيء ضد الماسكين بزمام الأمور. وكان نيبور أحد الأشخاص القلائل الذين رافقوا الوزير المعزول إلى خارج البلاد، وفي شباط (فبراير) ١٧٧٢ توفي برنستورف في هامبورج، مكسور الخاطر حزيناً، دون أن يرى كتاب نيبور، الذي يُعتبر النتيجة الأولى الملموسة للمجهودات العظيمة للبعثة الدنماركية، البعثة التي كانت إلى حد كبير ثمرة من ثمرات مجهوداته.

(١) مدينة ألمانية قديمة، وجزء من هامبورج منذ ١٩٣٧م. كانت هذه المدينة دنماركية في عام ١٦٤٠، ونمت إلى درجة أنها أصبحت تنافس هامبورج. (المترجم، عن دائرة المعارف الفرنسية لاروس).



ولأول مرة، خلَّف نيبور وراءه بكوبنهاجن المخاطر والدسائس، جاء في السيرة التي كتبها عنه ولده قوله:

«في هذه الفترة كان والدي يشتاق لدرجة المعاناة للأمن الذي يعيش في ظله الشرقيون، وهو الأمن الذي أزعج الكثير من الأوروبيين الآخرين الذي عاشوا في البلدان الشرقية».

كان نيبور يشعر أن عليه التزامات حيال جميع مواد الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت في انتظاره، لكنه، بدلاً من ذلك، شرع في إعداد مذكراته عن الرحلة، وبينما كان مشغولاً بهذا العمل، اعترض حياته حادث وضع نهاية لأحلامه في القيام برحلات أخرى أبعد. كان نيبور خلال الرحلة، كما رأينا، يحاط بالفتيات الجميلات، من وقت لآخر، والآن تأتي فتاة واحدة، وهي الأخيرة، لتبرز على مسرح حياته. كان عمرها واحد وثلاثين عاماً، من كوبنهاجن، اسمها الآنسة كرستيان صوفي بلومنبرج. وكان والدها يعمل طبيباً داخلياً بشكل دائم لدى الملك، وكانت حقاً تصلح لأن تكون شريكة حياة ممتازة، وهي مثل نيبور، قد فقدت والديها في سن مبكرة، وكان يبدو أنها ضعيفة ورقيقة. وتمَّ زواجهما في عام ١٧٧٣، وفي العام التالي ظهر المجلد الأول لمذكرات نيبور، في أكثر من خمسماية صفحة، مبتدئاً من اللحظة التي ركب فيها السفينة (جرين لند) عام ١٧٦١، حتى مغادرته ميناء المخاء بعد وفاة فون هافن وفورسكال عام ١٧٦٣.

وهذا المؤلف أيضاً لم يثر إلا اهتماماً قليلاً، فقرر نيبور أن يترك مذكراته الخاصة بعض الوقت، ويوجّه همّه إلى المخطوطات التي كان لا يزال مقفلاً عليها، وكان عليه شخصياً أن يقوم بتمويل نشر أعمال فورسكالن فالدولة لن تساهم بقرش واحد، وفي هذا دليل جديد على أن كتبه السابقة استقبلت بعدم اهتمام.

وقاسى نيبور مرة أخرى من نقص معلوماته في المجالات الأدبية، فقد كانت جميع المخطوطات باللغة اللاتينية، وهو غير مؤهل في هذه اللغة، فاضطر إلى أن يسلم العمل إلى



سويدي غير مختص، ونتيجة لذلك صدر كتاب (نبات مصر وشبه الجزيرة العربية) في صورة مشوهة دفعت الخبراء إلى مهاجمة الكتاب دون رحمة. وأُثقل صدر نيبور بالهم، لكنه رغم هذا قرر نشر أعمال بورنفانيد أيضاً تحت عنوان: (Icones Rerum Naturalium).

وهذا المؤلف هو أكثر الأعمال جاذبية، بالنسبة لجميع أعمال البعثة التي ظلت حتى اليوم، وقد احتوى على ثلاث وأربعين صورة ملونة باليد، طبق الأصل لرسوم بورنفانيد، أكثرها جميل وأخّاذ. ولم يتسلم نيبور أيضاً أي مساعدة مالية من أجل نشر هذا الكتاب، وظل الكتاب في الغالب دون اكتراث، ولا بد أن نشره قد كلّف نيبور الكثير من المال، فحين كانت جميع هذه الأعمال تنشر، كانت مزرعة المستنقعات القريبة من النرويج، قد بيعت. وبعد أن عمل نيبور كل ما في وسعه لتخليد ذكرى رفاقه المتوفين، عاد إلى مذكراته الخاصة، ونشر منها مجلداً آخر في خمسماية صفحة تضمّن رحلته من بومباي إلى حلب. واضطر إلى تأجيل نشر المجلد الثالث من مذكراته لأن مدخراته كانت قد استنفدت، وهذا يدل على أنه لم يتلقَ مساعدة إلا من أجل نشر كتابه عن شبه الجزيرة العربية، وأنه نشر مذكراته وأعمال فورسكال وبرونفانيد على نفه الخاصة. وحين، أتى ربيع عام ١٧٧٨، بعد أن مضى على وصوله كوبنهاجن عشر سنوات، كان قد نشر خمسة مؤلفات ضخمة، دون أن يكون قد حصل أي تبديل في درجته بشكل أساسي، مما كانت عليه حين وصل أرض الوطن.

إنه أمر محير أن يفكر المرء في فائدة تلك الرتبة التي أعطيت له حين وصوله، فماذا يمكن أن تفيد (كابتن مهندس) عدا كتابتها ملحقة باسمه؟



الفصل السادس

باريس تكرّم نيبور

أثيرت الشكوك حول سلامة نيبور العقلية – ٣٥ سنة في وظيفة كاتب – نيبور يعود للطبيعة – وفاة زوجته – نيبور.. عجوز، أعمى، أعرج – وفاته.

كانت بلاد النرويج في ذلك الوقت في حاجة إلى مساح جغرافي يرأس مجموعة من العاملين في هذا المجال، وعُرض على نيبورن بغرض تكريمه منصب الرئيس، وكان من الواضح أن هذه المرة الأولى التي يقترح فيها أن يوكل هذا العمل، إلى شخص يحمل رتبة كابتن فقط، لكن نيبور رفض هذا العرض شاكراً، وأثار برفضه دهشة كبيرة، كما أُثيرت الشكوك حول سلامة حالته العقلية، لأن كان يقدم في الوقت نفسه طلباً للحصول على وظيفة خالية لكاتب في مجلس ملدروف في منطقة نائية، بائسة.

ولأن المتطلعين إلى وظيفة النرويج كانوا كثيرين، بينما كان الأمل ضعيفاً في ملء وظيفة كاتب في ملدروف، فقد حصل نيبور على الوظيفة الأخيرة، وانتقل إلى هناك في صيف عام ١٧٧٨ مع زوجته وأطفاله. وكانت هذه المنطقة في نهاية القرن الثامن عشر تعتبر في نهاية العالم، وفي كل المملكة لا يوجد مكان آخر، أكثر بعداً وانعزالاً منها. كانت تقع على امتداد طرق مليئة بالمستنقعات ومقفلة في الشتاء، والصقيع يغطيها، وضائعة في المستنقعات المشبعة المياه، كأنها في البحر، تلك المستنقعات التي ليس لها بداية من نهاية، وكانت أيضاً بعيدة عن الطرق العامة الرئيسية أميالاً وأميالاً.

ولم تستطع أن تجد طريقها إلى هذه الزاوية المعزولة من الأرض إلا الحروب المدمِّرة، وكان قطاع الطرق يجولون في هذه المنطقة يحرقون المزارع ويهدمون الطرق، وأثارهم كانت لا تزال حتى عام ١٧٧٨ ماثلة للعيان، المدن الصغيرة، ومظهرها البائس، والمزارع المهجورة والخراب في كل مكان، وكان يصعب على عواصف الربيع أن تجد أمامها شجرة واحدة تأخذها معها.

وأثناء أيام الصيف الطويلة، كانت طيور (الخرشنة) تُشاهد متربصة بالأسماك على خليج (هيلفولند) من الصباح حتى المساء، كما كانت تُرى طيور(التكات) بسيقانها الطويلة، والطيور آكلة لمحار، وبط العيْدرَ، تعيش وتتناسل على الكثبان، وتبحث عن طعامها تحت مجموعات طائرة من طيور (زُمج الماء) الفضية المرتفعة الأصوات.

وفي يوم من أيام صيف عام ١٧٧٨ كانت عائلة نيبور تسير عبر هذا المنظر الواسع أمامها، وأمتعتها تبدو في الأفق المنخفض كأنها كتلة ضخمة. كان نيبور مسافراً إلى مكان بعيد عن المكان الذي وُلد فيه، بثلاثين ميلاً على الأقل، وكان قد تجول في ثلاث قارات وأصبح لديه من العمر خمس وأربعون سنة، وقد بنى لنفسه بيتاً في ضواحي ملدورف جهزه بمرصد صغير وحديقة بها الكثير من أشجار الفواكه، وفي السنين الأولى كانت صحته متقلبة، فما أن زال ذلك البرد العجيب الذي أصابه في اليمن يهاجمه من وقت لآخر، ورغم أن الفترات الفاصلة بين هجمات البرد كانت طويلة فلم يكن يأمل أن يرى أشجاره التي زرعها بنفسه مثقلة بالفواكه. لقد عاش خمس وثلاثين سنة في وظيفة كاتب في مجلس ملدورف، ولم يكن هدفه من هذه الوظيفة العيش في ألمانيا، فقد كان يتحدث عن نفسه كما لو كان دنماركياً، وكان ينتقل دائماً بجواز سفر دنماركي، وكان يشعر أنه دنماركي منذ أن دخل في خدمة الملك فردريك الخامس ملك الدنمارك، ففي القرن الثامن عشر لم يكن يوجد أي تلازم بين اللغة والجنسية، كما هو الحال الآن في القرن العشرين، الذي يعتبر فيه نيبور ألمانياً لأن لغته ألمانية.

وليس صحيحاً أن خيبة الأمل هي التي دفعته إلى مغادرة كوبنهاجن، وإلا كان الأولى به قبول ذلك المنصب الكبير في النرويج.

في الحقيقة لم يكن لديه أي سبب للشعور بخيبة الأمل حين قبل تلك الوظيفة، فقد بدأت مؤلفاته تأخذ طريقها إلى عالم الشهرة، في الخارج أولاً ثم بعد ذلك في كوبنهاجن نفسها، وعُيِّن عضواً مراسلاً في الأكاديمية الأفرنسية، ودعي إلى باريس ليحوز على أعظم لقب علمي في ذلك الوقت ومع هذا، لم يغير عمله وظل في ملدورف. وبينما كانت

الجامعات في كل أنحاء أوروبا تناقش نتائج رحلتهم إلى شبه الجزيرة العربية، كان يعيش حياته الريفية الهادئة غير المتغيرة، يسير في الممرات والطرق المرتفعة عبر الأراضي السَّبِخة، ويجمع الضرائب، ويتحدث إلى الكاهن، ويستعير الكتب من الشريف، ويرسل في المناسبات، المقالات إلى المجلات الدورية التاريخية، ويراقب أبناءه ينمون، ويعلمهم الجغرافيا واللغة الإنجليزية، وكثيراً ما أطال سمرهم وأخرهم عن نومهم وهو يقص عليهم قصصه عن الجزيرة العربية وعن حياة محمد وعن الخلفاء.

وفي غرفة الرسم بمنزله كان ينتصب دائماً صندوقه الذي يحتوي على أدواته وأوراقه التي جاء بها من رحلته، وكانت عائلته تسمي هذه الصندوق بـ (تابوت العهد)[1]، وكان يتجه إليه في بعض المناسبات الخاصة، ليستعير منه بعض الأوراق والمذكرات القديمة ليقرأ منها قصة زيارته لإمام صنعاء.

وتخلى بعض الوقت عن نشر المؤلف الأخير من مذكراته كما أُجبر على التخلي عن جميع خططه، وهو الذي قاسى الكثير من الخسارة التي أصابته بسبب تلف كليشات كتبه، أثناء حريق كوبنهاجن، وكان ضمن هذه الكليشات المرتفعة الثمن، كليشات مؤلفه الثالث الذي قام بعمله معظمها كلمنص نفسه. ووجد عزاءه الوحيد في الاعتراف الذي نالته عندئذ مقاساته الجغرافية، من قِبل معظم المؤسسات العلمية البارزة، كما أخبره العالِم (De Sacy)، الذي كان يترجم كتاباً عن تاريخ الفتح التركي لليمن، أنه استطاع أن يجد في خريطته لليمن جميع الأسماء الموجودة في الكتاب. وفحص عالِم الجغرافيا الشهير (Zach) خطوط الطول والعرض التي عملها نيبور وفقاً لنظام البروفسور ماير، ووافق عليها جميعها دون استثناء، واستخدمها كأساس لمراجعة شاملة لخريطة شرق البحر الأبيض المتوسط.

---

(١) العهد: كلمة استخدمت في التوراة واللاهوت بمعنى وعد صادر طوعاً من الله للإنسان، وتعني في القانون الإنكليزي عقداً مبصوماً مختوماً بالشمع. و(العهد الجديد) هو القسم المسيحي من الكتاب المقدس، و(العهد القديم) هو القسم اليهودي منه. (المترجم)



وبينما كانت هذه الأمور تأخذ مجراها كان نيبور يقترب أكثر فأكثر من طبيعته الأولى، ففي السادسة والستين اشترى قطعة أرض سَّبِخَة، وحفر فيها الحفر لتصريف المياه وزرع الأرض التي لم تعطه الكثير من الغلة، لكنها أعطته ما هو أعظم من ذلك، أعطته الحيوية المتدفقة وأشعبت فيه، إلى الأعماق، كل أشواقه إلى الحياة التي فيها ذكريات طفولته. وكان يُرى بعد سنوات وهو يثب فوق الحفر بمساعدة عمود بيدن، مثلما كان يفعل في شبابه. لكن هذه الفترة لم تكن إلا فترة راحة قصيرة، فحتى ذلك الحين كان الموت قد صرع جميع الذين حوله، وهو الآن قد بدأ في مطاردته بجدّ، وكان عليه، منذ أن كان في برسيبوليس أن يبقي عينه دائماً في الظل حتى يتجنب الآلام الكثيرة، وفي أحد أيام الصيف قام بملاحظة الشمس، دون أن تكون على عينيه نظارته الشمسية التي نسيها في البيت، وقد سبب له هذا النسيان، الكثير من المتاعب والأوجاع، خاصة وكان من واجبه، في تلك الأيام، القيام بمسح المنطقة. ومن الآن فصاعداً أصبح مضطراً أن يكون نور مصباحه في المساء أكثر إضاءة من المساء الذي قبله، حتى يكون في استطاعته رؤية الخطوط التي رسمها على خريطته، ولم يطل الوقت به حتى أصبحت المصابيح لا تفيده في شيء مهما كان عددها، وأصبحت الخطوط تختلط أمام عينيه، بعضها ببعض، وأجبر على التوقف عن العمل في الخرائط.

في هذا الوقت، أحرز الموت النصر على آل نيبور، لقد توفت زوجته، فطقس السبخات الرطب لم يناسب كرستيان صوفي الرقيقة، وسبَّب لها داء الربو، وكانت وفاتها عام ١٧٠٧ ولها من العمر خمس وستون عاماً، وكان على أبنتها القيام بالأعباء المنزلية ومساعدة والدها بأن تقرأ له الوثائق بصوت مرتفع، وإعداد وترتيب ما يملي عليها من أفكار، وكثرت أعماله فعيَّن مساعداً له، شاباً مختصاً في الجغرافيا يدعى جلوير (Gloyer). كان هذا المساعد معجباً بأعمال نيبور، وسبق أن كتب دراسة علمية عن الهند، وهو الذي في عام ١٨٣٧، بعد سنين عديدة من وفاة نيبور، كان سعيد الحظ أن ينشر



المجلد الثالث من مذكرات نيبور، وكان التعاون مع (جلويير) يمنح نيبور الشعور بالسعادة، ولدينا صورة عن حياته في هذه الفترة كتبها ابنه، جاء فيها: «بالرغم من أن والدي قد أصبح أعمى، لبعض الوقت، فإنه كان يمسك بيد قوية على كل الخيوط الكثيرة في عمله الرسمي، وخلال حديثه مع مساعده، كانت تستيقظ في نفسه الكثير من ذكريات الشرق، وكأنه يعيشها من جديد، وكان يمنحه استماعه إلى مساعده وهو يحكي له القصص عن رحلات جديدة أعظم السرور، وفي رسائلي إليه كانت تثيره إلى الأعماق إشارتي إلى تقارير العائدين من الشرق، وكان يجيب عليَّ برسائل مطولة مليئة بالأسئلة ذات الأهمية».

و بمضي السنين، أصبح لديه ضعف في مفصل الورك، جعل وقوفه غير ثابت بعض الشيء، وسبّب سقوطه، في أحد الأيام بطريقة، أدّت إلى كسر عظمة الفخذ، فقد كان لا بدّ للموت أن يأخذ منه الكثير قبل أن ينقض عليه الانقضاض الأخير، فكان يطارده طوال حياته مختفياً في مظاهر عديدة، وقد أخذ منه كل شيء من حوله، حتى أتى على زوجته، وكان عليه أن يجعل قواه تخور أكثر فأكثر حتى يتسنى له قهره، فكانت آخر صورة لهذا الرجل العظيم الذي زار نصف العالم ورصد نجوم السماء، هي صورته وهو يجلس على كرسي تجرّه عجلات.



كتب ابنه في هذا يقول:

«كان يلذ له أن تجتمع حوله عائلته في حلقة كبيرة، وكان واسع الصدر حتى في أوقات مرضه، وهي ليست قليلة، وكان رغم الظروف المتغيرة، ودوداً ومرحاً، ومستعداً دائماً لمشاركتهم الحديث، وكان في مقدورنا، في غالب الأحيان، أن نجرّه إلى الحديث طويلاً عن رحلته إلى اليمن، التي كان يتحدث عنها دائماً بتفصيل واسع معبَّر، وفي إحدى الأمسيات تحدث كثيراً وبالتفصيل، عن برسيبوليس ووصف الجدران المتعددة والكتابات التي عليها والنقوش الفاخرة، وكان يتحدث عن كل هذه الأشياء كما لو أنه قد شاهدها قبل أيام قليلة، وما كان في استطاعتنا أن نخفي عليه دهشتنا، فأخبرنا أن كل صور الشرق تظهر بوضوح تام أمامه حين يضطجع على سريره فاقد البصر، وهو لهذا يتحدث عن أشياء يشاهدها كثيراً».

كان جميع رؤى الماضي تبرز أمامه في كل وقت وفي كل مكان، وحين كان يستلقي على سريره، وهو العجوز، الأعمى، الأعرج، كان يعبر من جديد الطريق الطويلة إلى صنعاء وإلى برسيبوليس، مع فارق بسيط، هذه المرة، أنه لم يكن يعاني أتعاب الطريق كما عانى في الماضي أثناء الرحلة.

كانت هذه آخر الرؤي، وقد تجمعت الآن جميع خطوط حياته، وتوفي في سلام دون معاناة في السادس والعشرين من نيسان (إبريل) ١٨١٥، ولديه من العمر اثنان وثمانون عاماً. كان ذلك في ملدورف، وكبقية رفاقه توفي في أرض غريبة مجهولة، وقد أنهى ولده سيرته بأن أعطى صورة مختصرة عن شخصية والده، طبيعته الريفية البسيطة غير المتكلفة، تصميمه، أسلوبه المتقشف في الحياة وانكبابه في فحص العالم من حوله، وكان التفكير التجريدي والتأملات جزءاً من تكوينه الشخصي، وكان دائماً مضطراً أن يضع كل شيء في تعابير محددة، كما كان دائماً صامتاً في حكمه على كتاب أو مقال، فكان لا بدّ أن يقول ما إذا

كانت المحتويات صحيحة أم لا، وكلما كان الأسلوب أكثر بساطة كلما أعجبه أكثر، والشعر لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إليه، عدا شعر هومر[1] في ترجمة فوس (Voss) وشعر (هرمن اند دوروتي) وبعض الأغاني البسيطة، كما كان مولعاً بروايات (فلدنج) و(سمولت).

أما الآخرون فلم يقرأ لهم، وكان شغوفاً بالفن المعماري، ولم يكن مهتماً بفن النحت، وأحب الموسيقى، وعاش يراقب ويفسر الأشياء من حوله، وكثيراً ما أخرج آلته الفلكية من الصندوق، وخرج متجولاً أحياناً لعدة أيام، وقد أكدت هذه الحقيقة الجداول الفلكية التي خلفها بعده للدورف والمناطق التي حولها. وحين كان مرة في زيارة صديق بإحدى المدن، التي لم يكن يعرفها، استيقظ عند الفجر وتجوَّل ثلاث ساعات في شوارعها، استطاع بعدها، أن يصف كل بيت بدقة لدرجة أن مضيفيه استطاعوا إخباره عن مالك كل بيت، بمجرد سماعهم الوصف.

لقد بدَّدت هذه الرحلات الملل الذي أحسَّ به أثناء عمله في وظيفة كاتب بملدورف، وأعادت إليه السعادة التي كانت تمنحه إياها الحرية في الصحراء، كما أعادت إليه ذكريات نزهاته بتهامة. وحين كان يمعن النظر في هذه الأراضي السبخة، كانت عيناه تلتقي بالأفق الممتد دون انقطاع، ذلك الأفق الذي كان يذكِّره بأفق الصحراء الحقيقي في البلدان الأجنبية، فوجد المرتفعات والمنخفضات في معظم الأماكن على سطح الأرض، يجعل من غير الممكن لأغراض عملية وعلمية، رؤية الأفق الحقيقي الذي يشاهد في البحر وفي الصحراء، وفي مناطق السبخة المسطحة بالدنمارك، حيث يحاط المرء بهذا الخط الواضح البعيد عند ملتقى السماء بالأرض، في دائرة ضخمة من الصمت مركزها دائماً حيث يكون الإنسان، مهما كان بعيداً أو سائراً في أي اتجاه، وهي الدائرة التي كوَّنت الأساس في مقاسات نيبور.

(١) شاعر ملاحم، يوناني، لا يعرف شيئاً عن حياته. تتنافس سبع مدن على إعطائه الحياة قال هيرودوت أنه عاش ٨٥٠ قبل الميلاد، ولا شيء يناقض هذا. ويعتبر مؤلف الألياذه والأودسا، الملحمتين اللتين يصل مجموع شعرها ٢٧,٨٠٠ بيتاً من الشعر. (المترجم: عن دائرة المعارف الأفرنسية لاروس).



وقد حوَت هذه الدائرة أيضاً جميع مفاهيمه الأساسية في الحياة والضوء والمادة والنجوم والأرض واعتقاده الراسخ في كل شيء. إنها دائرة الرؤية التي لم يكن يرغب نيبور أن يرى أبعد منها، وحين تخطاها ساءت أموره، لكن حين ظلَّ ضمن حدودها امتدت حوله قبة السماء تحميه من كل شر كما لو كان داخل دائرة الخلود الشبيه بالخاتم السحري. لقد وجدها حين كان صغيراً يسوق الأبقار، ووجدها ثانية في الصحراء.. وفي شيخوخته امتدت من حوله، وحين كان مضطجعاً على سريره أعمى.. أعرج.. لم تكن الدنيا مظلمة من حوله.. فقد كان يرى النجوم تسطع الواحدة تلو الأخرى فوق نفس الدائرة العظيمة.

من هذه الأرض التي توفي فيها، بدأ نيبور رحلته إلى العربية السعيدة، ولعله وجد فيها أخيراً: العربية السعيدة.

فهرس

الصفحة

الإهداء ٤

مقدمة الطبعة الثانية .... أ

مقدمة الطبعة الأولى ١١

القسم الأول ٢١

الفصل الأول: رغم هذه الأيام العصيبة ٢٣

الفصل الثاني: اختفاء فون هافن ٣٣

الفصل الثالث: بيتر فورسكال والنضال في سبيل حرية الفكر ٣٨

الفصل الرابع: كارستن نيبور ٤٦

الفصل الخامس: اختيار رسام وطبيب للبعثة ثم بداية الدراما ٥٢

الفصل السادس: فون هافن يعمل على تغيير خط سير البعثة ٦١

الفصل السابع: الدنمارك في حالة حرب وفوضى ٦٨

القسم الثاني ٧٧

الفصل الأول: العاصفة ٧٨

الفصل الثاني: وصول البعثة إلى مرسيليا ٨٤

الفصل الثالث: الحديث عن باريس ثم الوصول إلى مالطة وازمير ٩٠

الفصل الرابع: في القسطنطينية ٩٩

الفصل الخامس: فتيات وسم وجزيرة رودس ١٠٥

القسم الثالث ١١٣

الفصل الأول: عام في مصر ١١٥

الفصل الثاني: فون هافن يناقش آراء فولتير ١٢٣

الفصل الثالث: فورسكال بين الصحراء والإسكندرية ١٢٧

الفصل الرابع: نيبور يحاول حلَّ لغز الكتابة المصرية القديمة ١٣٢

الفصل الخامس: فون هافن يراوغ ١٤٠

الفصل السادس: خيبة أمل ١٤٨

الفصل السابع: موسيقى حزينة وفتيات راقصات ١٥٦



الصفحة

القسم الرابع ١٦١
الفصل الأول: مع القافلة.. من القاهرة إلى السويس ١٦٣
الفصل الثاني: إنهيار فون هافن ١٦٨
الفصل الثالث: الانتظار ١٧٣
الفصل الرابع: لا أخبار من جبل سيناء ١٧٧
القسم الخامس ١٨٩
الفصل الأول: الربيع في تهامة ١٩٠
الفصل الثاني: من جده إلى اللحية ١٩٧
الفصل الثالث: اليمنيون ضيوف القدر ٢٠٥
الفصل الرابع: في بيت الفقيه ٢١٩
الفصل الخامس: جنة أم مملكة أموات ٢٢٦
القسم السادس ٢٣٣
الفصل الأول: موت فون هافن في المخاء ٢٣٥
الفصل الثاني: في تعز.. مع الحاكم الجشع ٢٥٣
الفصل الثالث: وفاة فورسكال في يريم ٢٦٤
الفصل الرابع: ثروة فورسكال العلمية ٢٧٢
الفصل الخامس: وأخيراً.. وصلوا صنعاء ٢٨٧
الفصل السادس: العربية السعيدة.. لماذا؟ ٣٠٠
القسم السابع ٣٠٧
الفصل الأول: عودة كارستن نيبور ووفاة كرامر في الهند ٣١٠
الفصل الثاني: من مسقط إلى فارس ٣١٩
الفصل الثالث: إلى بغداد ٣٢٨
الفصل الرابع: حلب تكرِّم نيبور ٣٣٤
الفصل الخامس: كوبنهاجن الجاحدة ٣٤٠
الفصل السادس: باريس تكرّم نيبور ٣٤٦
الفهرس: ٣٥٤



فهرس الخرائط والرسوم

صفحة

خريطة خط سير البعثة ....
منظر للسفينة «جرين لند» في مرسيليا ....
رسم لآخر صفحة من رسالة فورسكال من جزيرة رودس ....
مقاطع رسم بياني لآلة الري المصرية المساة الساقية ....
رسوم لأعطية رأس مصرية ....
قائمة العلاجات التي بها المادة السامة ....
رسوم لقياس ارتفاع الأهرامات ....
صورة لفارس عربي من مصر ....
رسوم لآلات موسيقية شرقية ....
صور للراقصات المصريات ....
بائعة الخبز (بريشة بونفانيد) ....
دير القديسة كاترين (بريشة نيبور) ....
كتابات هيروغلوفية ....
منظر لمدينة السويس ومنظر للطور ....
صورة لصياد في جدة ....
رسم ميناء جدة ....
خريطة لميناء اللحية ....
صورة لفتاة يمنية من منطقة زراعة البن ....
رسم ميناء اللحية وبيت الفقيه ....
خريطة اليمن (رسم نيبور) ....
خريطة المخاء ....
منظر لمدينة تعز ....
منظر لمدينة يريم ....
صورة لنيبور مرتدياً الملابس اليمنية ....
رسم محفة هندية ....
خريطة للخليج العربي ....
آثار برسيبوليس ....
الحروف الهجائية المسارية ....
منظر لمدينة القدس ....

هذا الكتاب

« من كوبنهاجن الى صنعاء » قصة اول بعثة علمية جدية بعثتها اوروبا الى بلاد اليمن . وهي في الواقع اول واهم بعثة ترسلها دولة الى هذه البلاد . لقد أراد فردريك الخامس ملك الدنمارك ان يفخر على كل اوروبا بتحقيق انتصارات علمية كبيرة ، فأختار بلاد اليمن ، دون غيرها ، لتذهب اليها هذه البعثة ، لما كان لهذه البلاد من سمعة حضارية واسعة ، جعلت العالم كله يتطلع اليها كمجال مهم للقيام بدراسات علمية ، لها شأنها الحضاري بالنسبة للعالم اجمع . ونحن نقرأ هذا الكتاب القيم ، سنعيش مع اعضاء هذه البعثة ، العلماء الخمسة ، اروع صور الكفاح والمثابرة .. وهم يجمعون الالاف من العينات النباتية والبذور والمخطوطات ، ويكتشفون شجرة البلسم الاصلية في اليمن ، واسرار الكتابة المسمارية ويرسمون اروع الرسوم الفنية . سنعيش معهم سبع سنوات وهم يقومون بأعظم الدراسات عن المدن التي زاروها .. عن اللحية وبيت الفقيه وصنعاء وتعز ويريم والمخاء والقاهرة وجدة وبومبي ومسقط وبرسيبوليس وبغداد وحلب وصيدا وقبرص والقدس والقسطنطينية وغيرها ، حتى اختطفهم الموت الواحد تلو الاخر ، عدا العلامة نيبور الذي عاد لوحده الى اوروبا حاملا معه الثروة العلمية الكبيرة التي جمعتها البعثة .

انه كتاب قيم جدير بالمطالعة ..



- كان طالبا في جامعة كوبنهاجن ، الف حتى الان ستة كتب .
- عمل مراسلا بالافرنسية لجريدة دنماركية ، وبعدئذ اصبح ناقدا ادبيا .
- سافر عبر الصحراء وعاش في اسبانيا وايطاليا وزار الخليج العربي وسافر الى النوبة مع بعثة اسكندنافية تابعة لمنظمة اليونسكو .
- نشر كتابه هذا في الدنمارك عام ١٩٦٢ وترجم الى الانجليزية عام ١٩٦٤ بعنوان « العربية السعيدة » .

المترجم :

- درس اللغة والاداب الافرنسي بباريس وحاز على بكاريوس العلوم الادارية من جامعة القاهرة .
- عمل في الحركة الوطنية اليمنية منذ عام ١٩٥٣ تحت قيادة الزعيم الوطني الكبير الشهيد محمد محمود الزبيري
- بعد الثورة عين مديراً عاماالوزارة الخارجية اليمنية، ثم مستشارا بالسفارة ببيروت ثم عضوا في اللجنة الاقتصادية العليا ، وحين أتت حكومة مؤتمر خمر الوطني برئاسة الاستاذ أحمد محمد نعمان عين أمينا عاما لمجلس الوزراء واجه بعدئذ ، بعض ما واجه اعضاء هذه الحكومة من متاعب .